الدوحة

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

www.dohamagazine.qa

عدد خاص 166-167 - أغسطس - سبتمبر 2021

2021 الدوحة
عاصمة الثقافة الإسلامية
Doha Capital of Islamic Culture

إدغار موران

مئة سنة

عدد خاص

كيف واكبت «الدوحة» جائحة القرن

الدوحة AL-DOHA MAGAZINE 167-166

السنة 14 - العددان 166 - 167 - ذو الحجة 1442 - محرم 1443 - أغسطس - سبتمبر 2021

Year 14 - No. 166 - 167 - Dhul-Hijjah 1442 - Muharram 1443 - August - September 2021

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة

MINISTRY OF CULTURE AND SPORTS
STATE OF QATAR

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية



PDF download

www.dohamagazine.qa

محطة تاريخيّة في مسيرة الإصلاح والحداثة

تبلورت هويّة قطر عبر الزمان، وتظهر في أبهى صورها في تضامن المُجتمع وتماسكه، وفي قيمهِ الأخلاقيّة السمحة، وحبّهِ لوطنه. وعلى هذا الأساس المتين قام نظام راسخ ومتجذِّر في بنية المُجتمع، يستمدُّ قوته من تقاليد راسخة من الحكم العادل والرشيد المُرتبط بالشعب بالمُبايعة وعلاقات الولاء والثِّقة المُتبادلة والتواصل المُباشر بينه وبين المُجتمع.

واستكمالاً لمسيرة الإصلاح والحداثة في دولة قطر، رسمت القيادة الرشيدة في عام 2008 خريطة طريق للمُستقبل تحت عنوان «رؤية قطر الوطنيّة 2030»، لتكون إطاراً عاماً لتطوير استراتيجيّات تشمل الإنسان والمُجتمع والاقتصاد والسياسة والهويّة الثقافيّة، وترمي إلى تحويل قطر بحلول عام 2030 إلى دولةٍ متقدِّمة قادرة على تحقيق التنمية المُستدَامة، وتأمين استمرار العيش الكريم لشعبها. وفي هذا الصدد تلخِّص القيادة الرشيدة للبلاد أهداف التنمية، بما في ذلك رؤية قطر 2030، في ثلاث كلمات: بناء الوطن والمُواطن. وهي الأهداف التي تسعى السياسة التشريعيّة إلى تحقيقها وفق المبادئ الدستوريّة المُتمثِّلة في: المُضي في إقامة دولةِ القانون والمُؤسَّسات وتطويرها، وتنظيم سلطات الدولة الثلاث.

ضمن هذه المسيرة الإصلاحيّة تأتي انتخابات مجلس الشورى، كخطوةٍ تاريخيّة هي الأولى من نوعها، فبعد تأسيسه سنة 1972، بمُوجب النظام الأساسيّ المُؤقَّت المُعدَّل في 19 أبريل/نيسان 1972م لتنظيم هياكل ومؤسَّسات الدولة الحديثة، ومن بينها مجلس الشورى، يأتي إعلان حضرة صاحب السمو الشيخ تميم بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى في نوفمبر/تشرين الثاني 2020، عن إجراء انتخابات مجلس الشورى للمرّة الأولى في أكتوبر/تشرين الأول من السنة الجارية، لوضع لبنة مهمَّة وتاريخيّة في تعزيز تقاليد الشورى القطريّة وتطوير عملية التشريع بمُشاركة أوسع من المُواطنين بموجب الدستور الدائم للبلاد، الذي حدَّد اختصاصات وصلاحيات مجلس الشورى المُنتخب، في تولّي سلطة التشريع، وإقرار المُوازنة العامة للدولة، وممارسة الرقابة على السلطة التنفيذيّة، واقتراح القوانين، وإبداء الرغبات للحكومة في المسائل العامة، وصلاحية استجواب ومساءلة الوزراء لاستيضاح الأمور الداخلة في اختصاصاتهم.

حدثٌ سياسيٌّ هام إذاً، وخطوة متميِّزة على مستوى المنطقة الخليجيّة، هذا ما ينطوي عليه الترقُّب والاهتمام الشعبيّ الواسع الذي يسبق العرس الديموقراطيّ المُرتقَب في قطر مطلع أكتوبر المُقبل، حيث سيختار الشعب 35 عضواً لتمثيله في أول مجلس شورى منتخب. وبذلك تكون دولة قطر قد عزَّزت نموذجها السياسيّ بركيزةٍ أساسيّة من ركائز المُشاركة في صُنع القرار في إطار المُشاركة الشعبيّة الواعية والمسؤولة عن اختياراتها وممارسة صلاحياتها وأدوارها المنوطة بها، في أفق ترسيخ هذه الآلية الديموقراطيّة التي يختار عبرها الشعب نواباً عنه ليتكلَّموا باسمه ويدافعوا عن مصالحه وتطلّعاته.

بدونِ شكّ إنّ ترسيخ هذه الآلية، من شأنه الدفع قدماً بمسيرة الإصلاح والحداثة التي خطَّتها قطر وجعلت منها دولة مؤسَّسات حريصة على اعتماد حكم القانون ومبادئ الحكم الرشيد ومكافحة الفساد وحماية حقوق الإنسان والحرّيّات الأساسيّة وتمكين المرأة من المُشاركة في الحياة العامة على قَدم المُساواة مع الرجل.

وإذا كان المُواطن القطريّ هو محور التنمية البشريّة، المُتكاملة والمُتوازنة، باعتبارها السبيل إلى إقامة الدولة الحديثة التي تستجيب لمُتطلَّبات العصر دون التخلّي عن الانتماء العربيّ الأصيل والعقيدة الإسلاميّة السمحاء، مع ضرورة أن يواكب ارتفاع مستوى معيشة المُواطن تطوُّر قيميّ وثقافيّ، فإنه بقدر الحاجة لبرامج انتخابية تصبُّ في تحقيق تلك المساعي في الاقتصاد والصحة والتعليم والإسكان وغيرها من المجالات المُرتبطة، بقدر الحاجة المُستمرة إلى الاهتمام بالثقافة وإعطائها حيزاً في البرامج الانتخابية كباقي المجالات، وهنا يأتي دور المُثقَّف وأهمّيته في خوض غمار هذه التجربة الانتخابية لكي يتمكَّن من وضع تجربته على المحك واختبار أفكاره وتصوُّراته في الأمور الثقافيّة، ولعَلّ الميدان الانتخابي هو ذلك الفضاء الذي تتكافأ فيه الفرص في تنزيل الأفكار على أرض الواقع وتفعيلها بما يخدم الصالح العام.

رئيس التحرير

الدوحة

ثقافية شهرية

العددان
166
167

السنة الرابعة عشرة - العددان مئة وستة وستون - ومئة وسبعة وستون
ذو الحجة 1442 - محرم 1443 - أغسطس - سبتمبر 2021

تصدر عن:
إدارة الإصدارات والترجمة
وزارة الثقافة والرياضة
الدوحة - قطر

صدر العدد الأول في نوفمبر 1969، وفي يناير 1976 أخذت توجهها العربي واستمرت في الصدور حتي يناير عام 1986 لتستأنف الصدور مجدداً في نوفمبر 2007.

رئيس التحرير
خالد العودة الفضلي

التحرير
محسن العتيقي

التنفيذ والإخراج
أحمد غزالة
هند البنسعيد
فلوه الهاجري

جميع المشاركات ترسل باسم رئيس التحرير عبر البريد الالكتروني للمجلة أو على قرص مدمج في حدود 1000 كلمة على العنوان الآتي:
ص.ب.: 22404 - الدوحة - قطر

البريد الإلكتروني:
editor-mag@mcs.gov.qa

تليفون : 44022295 (974+)
فاكس : 44022690 (974+)

المواد المنشورة في المجلة تُعبِّر عن آراء كتّابها ولا تُعبِّر بالضرورة عن رأي الوزارة أو المجلة. ولا تلتزم المجلة بردّ أصول ما لا تنشره.

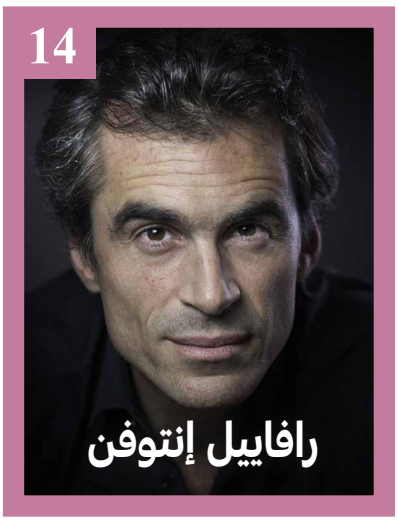
الموقع الإلكتروني
www.dohamagazine.qa

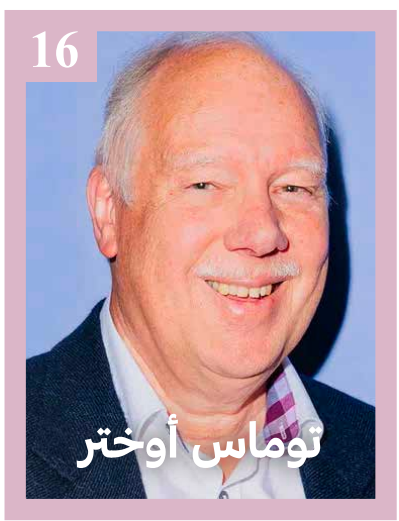
مواقع التواصل
aldoha_magazine
aldohamagazineofficial
dohamagazineofficial

الغلاف:









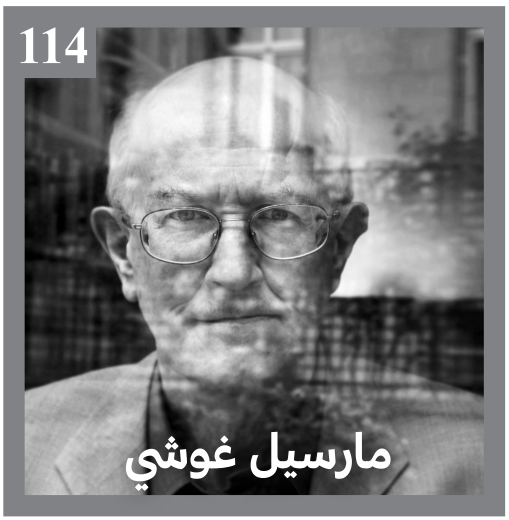



63
إدغار موران

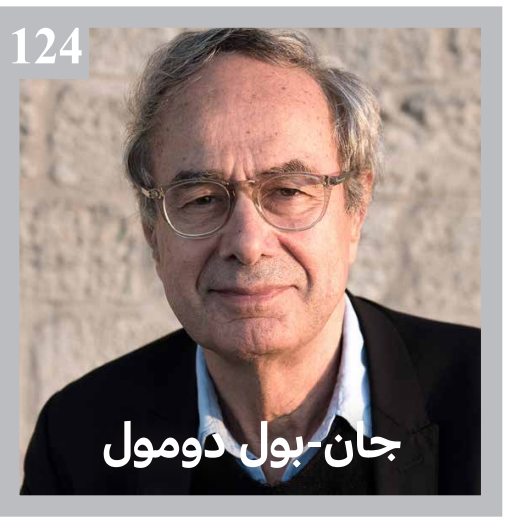

45
بول أريي


40
يوخن موريش


116
أديلا كورتينا


114
مارسيل غوشي


112
أندريه كومت سبوفيل


124
جان-بول دومول


122
باتريك بوشرون


120
نيل فرغيسون


139
هانز يورجن فيرث


133
أوليفييه كلاين


127
نعوم تشومسكي

جون إبيتسون وداريل بريكر:

الأرض ستفرغ قريباً من سكّانها!

يرى كلٌّ من «جون إبيتسون» و«داريل بريكر»، في مقالتهما المُثيرة للاهتمام، بأن انخفاض معدَّل الولادات وانخفاض الديموغرافيا العالميّة سيشكلان معاً الظاهرة الأبرز في القرن الحادي والعشرين.
لن يكون الرهانُ الحاسم في العقود المُقبلة مرتبطاً بالاكتظاظ السكّاني، بل على العكس بتراجع كبير في ساكنة المعمورة، حيث يوضّح الباحثان الكنديان «جون إبيتسون» و«داريل بريكر» في مقالتهما الآسرة «الكوكب الفارغ»[1] بأن معدَّل المواليد أصبح بالفعل يعرف انحداراً سريعاً في جميع القارات تقريباً، وستكون لذلك نتائج راديكاليّة جيوسياسيّة واقتصاديّة وأخرى متعلّقة بحركة المهاجرين. ومنذ صدور كتابهما هذا في عام 2020، ما فتئت المعطيات الجديدة تؤكّد هذه الأطروحة التي تقلب جميع أفكارنا المسبقة رأساً على عقب.. الحوار:

منذ ظهور «نظرية مالثوس»، أصبحنا جميعاً نخشى الاكتظاظ السكّاني، ولكن أطروحة كتابكما تقول بعكس ذلك، أي أن الحدث الأهم في القرن الحادي والعشرين سيكون هو التراجع الحتميّ للديموغرافيا العالميّة...

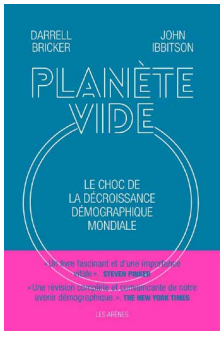
- داريل بريكر: وفقاً لتوقُّعات الأمم المُتحدة، ينتظر أن يبلغ عدد السكّان ذروته في نهاية القرن الحادي والعشرين بنحو 11 مليار نسمة. ولكن هذا النموذج لا يبدو واقعياً. وبدلاً من ذلك، من المُتوقَّع أن يبلغ عدد السكّان ذروته عند 8 إلى 9 ملايير نسمة بحلول منتصف القرن، قبل أن يشهد انخفاضاً كبيراً بعد ذلك. ولا أحد يعرف إلى أي مدى سيذهب هذا الانخفاض. بكلّ بساطة لأننا نحن البشر قد اخترنا أن لا ننجب قدر ما كان ينجبه أسلافنا من الأطفال. وثمَّة عنصرٌ رئيسيٌّ آخر هو أن حجم سكّان العَالَم ليس وحده الذي سيخضع لتغيُّرات جذريّة، بل أيضاً بنيته، وبالتالي فإننا سوف نواجه الشيخوخة السريعة. كما أن رحيل جيل طفرة الإنجاب، أي الذين وُلِدوا قبل منتصف الستينيات، سيكون بمثابة انقراض جماعي. (يضحك). ولذلك لن نشهد انخفاضاً تدريجياً، بل هبوطاً حادّاً. نحن حقّاً بحاجة إلى إعادة النظر في مستقبلنا، لأن تصوُّراتنا الحالية خاطئة تماماً.

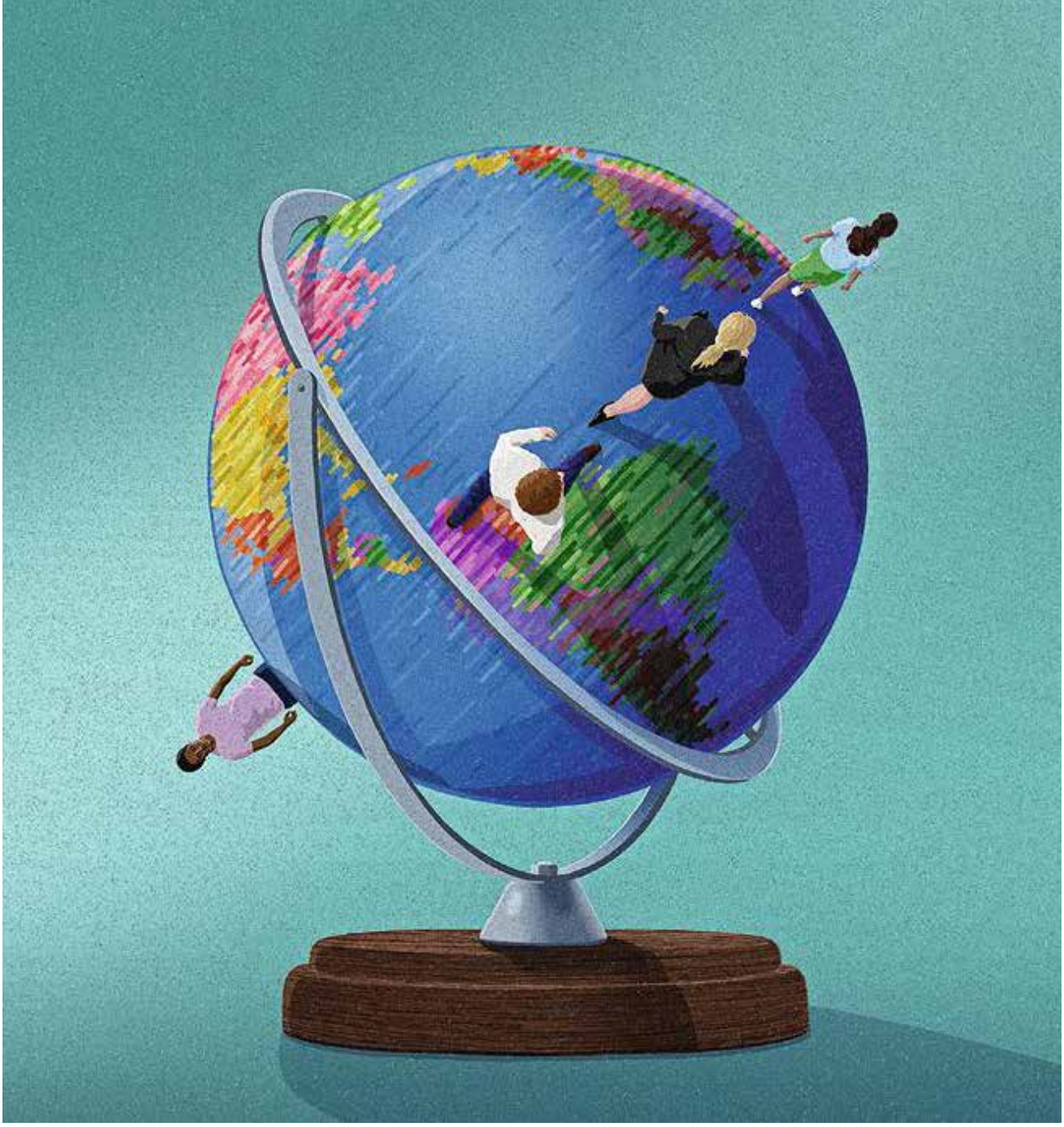
أكّدت دراسة نُشِرت العام الماضي في مجلّة «لانسيت» أنه يمكن الوصول إلى ذروة السكّان انطلاقاً من عام 2064.. هل سيعزِّز «كوفيد- 19» هذا التوجُّه؟

- داريل بريكر: أصبحت فكرة الكوكب الذي سيفرغ من سكّانه تفرض نفسها أكثر وأكثر. وحتى الأمم المُتحدة قامت بمُراجعة توقُّعاتها في عام 2019، حيث توقَّعت انخفاضاً سكّانياً مقارنةً بالأرقام التي سبق وأعلنت عنها يصل إلى 300 مليون نسمة بحلول نهاية القرن. أمّا بالنسبة لـ«كوفيد»، فقد أظهرت الإحصائيات في الصين والمملكة المُتحدة وفرنسا انخفاضاً كبيراً في عدد الولادات خلال الجَائِحة. وفي الولايات المُتحدة، قدَّرت مؤسَّسة «بروكينغز إنستيتيوشن» أن هناك (300.000) طفل لم يولدوا بسبب «كوفيد- 19». وبعد الجَائِحة شاهدنا ارتفاعاً طفيفاً في معدَّل الولادات، إنما من المُرجَّح جدّاً أن يكون «كوفيد» قد كشف فقط عن اتجاه دائم، وهو انخفاض معدَّلات الخصوبة. ويجب أن ندرك بأن استمرار عدد سكّان العَالَم في النمو اليوم لا يرجع السبب فيه للزيادة في عدد الولادات، بل لأن البشر أصبحوا يعيشون لمدة أطول من ذي قبل.

ما هي برأيك الأسباب الرئيسيّة لهذا الانخفاض الكبير في معدَّلات الخصوبة في جميع أنحاء العَالَم؟

- جون إبيتسون: الجواب بسيط؛ إنه التمدين. ففي عام 1950، كان 30 في المئة فقط من سكّان العَالَم يسكنون بالمدن. أمّا في 2007، ولأول مرّة في التاريخ، تجاوز عدد سكّان المدن عدد سكّان





المناطق الريفيّة. وبحلول عام 2050، من المُتوقَّع أن يعيش ثلثا ساكنة العَالَم في المناطق الحضريّة. والحال أن الأطفال في الريف يمثِّلون رصيداً اقتصاديّاً وسواعد للعمل في الحقول. ولكن عند الانتقال إلى المدينة فهم يتحوَّلون إلى عبءٍ مالي. وعلاوة على ذلك، وربّما الأهم من ذلك، فإنّ التمدين يعزِّز فرص تعلُّم النساء من خلال النظام المدرسي، والإنترنت، والمكتبات، ووسائل الإعلام، وأيضاً وجود نساء أخريات. وبمجرَّد أن تحصلن على الحرّيّة، ترغبن في التحكم بحياتهن وبأجسادهن كذلك، ممّا يعني إنجاب عددٍ أقلّ من الأطفال.

سمحت الصين مؤخَّراً للأزواج بأن ينجبوا ثلاثة أطفال في محاولة منها لوقف انخفاض الولادات.. هل سيكون لهذا الإجراء أيُّ أثر؟

- داريل بريكر: السماح للناس بأن ينجبوا أطفالاً هم لا يرغبون أصلاً في إنجابهم لن يغيِّر كثيراً من الوضع. (يضحك). قد يكون له بالمُقابل تأثيرٌ ضئيل على معدَّلات الخصوبة في المناطق الريفيّة، ولكنه لن يعكس الاتجاه. والصين مثالٌ نموذجيّ لبلد تمدَّن بسرعة. ففي عام (1960)، 16 في المئة فقط من سكّان هذا البلد كانوا يعيشون في المناطق الحضريّة. واليوم وصل هذا الرقم إلى 54 %.

يتوقَّع أن تصير الولايات المُتحدة القوة العُظمى الوحيدة التي سيزداد عدد سكّانها بحلول نهاية القرن نتيجة للهجرة.. هل يشكِّل ذلك ميزة مهمَّة؟

- جون إبيتسون: سوف تشهد الصين تراجعاً سريعاً. وإذا تأكَّد معدَّل الخصوبة البالغ (1.3) حسب إحصاء 2020، فإنّ هذا البلد قد يفقد نصف سكّانه خلال هذا القرن، من (1.4) مليار نسمة إلى 700 مليون. روسيا، التي لديها معدَّل ولادة

منخفض، وأمد حياة منخفض أيضاً، لديها اليوم فعليّاً عدد سكّان أقلّ ممّا كان عليه في نهاية الحقبة الشيوعيّة. أمّا الولايات المُتحدة فتمثّل تاريخيّاً القوة العُظمى الأكثر انفتاحاً على الهجرة. وإذا استمرَّت الأمور بالسير في هذا الاتجاه -وهو أمرٌ غير مؤكَّد في ضوء المُعارضة المُتزايدة لموضوع الهجرة من جانب بعض الأميركيّين- فإنّ عدد سكّانها يمكن أن يرتفع ببضعة ملايين من السكّان في عام 2100. وسيكون لذلك بالطبع تأثيرٌ جيوسياسيّ واضح.

في اليابان، البلد الأكثر شيخوخة في العَالَم، ينتمي مواطن واحد من أصل أربعة إلى فئة كبار السن. هل يمكن للروبوتات والذَّكاء الاصطناعيّ تعويض ما ينتج عن ذلك من انخفاض في عدد السكّان النشطين؟

- داريل بريكر: يمكنك بالتأكيد تعويض الإنتاجية بالتكنولوجيا، ولكن لن يمكنك أن تفعل شيئاً لمُواجهة انخفاض الاستهلاك. فمَنْ الذي سيشتري المُنتجات الجديدة حين ينخفض عدد سكّان اليابان، كما تقول التوقّعات، من 125 إلى 80 مليون نسمة، أو حتى إلى 60 مليون نسمة في عام 2100؟ يتوفَّر هذا البلد حقّاً على أكبر عدد من الروبوتات الخادمة في العَالَم، ولكن الآلات لا تملك أيّة قوة شرائية. ووفقاً لـ«تشارلز جونز»، الخبير الاقتصاديّ في جامعة ستانفورد، فإنّ انخفاض عدد السكّان سوف تكون له نتيجتان سلبيتان رئيسيّتان. الأولى هي أن انخفاض عدد المُستهلكين يعني انخفاضاً في النمو. وهذا أمرٌ لا مفَرّ منه. والثانية هي خطوة إلى الوراء في مجال الابتكار.

من المُتوقَّع أن ينخفض عدد سكّان المجر بأكثر من (10 %) بحلول عام 2050. ما يفسِّر اهتمام زعيمها «فيكتور أوربان» بالديموغرافيا وسياسته الهادفة إلى الرفع من عدد الولادات...

- داريل بريكر: «أوربان» لديه إرادة قويّة لِسَنّ سياسات تشجِّع على الزيادة في عدد المواليد، ولكن البيانات الواردة من بلدانٍ أخرى تبيِّن أنه يمكنك إبطاء وتيرة انخفاض الولادات، ولكنّ من الصعب عكس الاتجاه كلياً. وهذا ما يعرف باسم «فخ الخصوبة المُنخفضة»، حيث بمجرَّد ما يصبح إنجاب طفل أو طفلين هو القاعدة، فإنه يظلُّ كذلك. وبالإضافة إلى انخفاض معدَّل المواليد، تواجه المجر مشكلة أخرى وهي هجرة شبابها. هناك جالية مجرية كبيرة في جميع أنحاء أوروبا. ونتيجة لذلك، شهد سكّان هذا البلد انخفاضاً منذ الثمانينيات. وأنا لا أعتقد أن الإعانات المُشجِّعة على الإنجاب ستُحدِث فرقاً كبيراً في هذا الأمر.

لازالت منطقة إفريقيا جنوب الصحراء تمثِّل استثناء اليوم. فبلد مثل النيجر لا زال يسجِّل معدَّل خصوبة يفوق (7)...

- داريل بريكر: هذا الجزء من العَالَم لن يفلت هو الآخر من انخفاض معدَّل الولادات. السؤال الحقيقيّ الوحيد يرتبط بالسرعة التي سيحدث بها ذلك. لقد استغرق الأمر من أوروبا مئة وخمسين عاماً للوصول إلى معدَّلات الخصوبة الحالية. وبالنسبة لأميركا اللاتينيّة، استغرق الأمر خمسين عاماً. وفي إفريقيا، سيؤدّي التمدين السريع وزيادة فرص الحصول على التكنولوجيا إلى جعل هذا التحوُّل يحصل في وقتٍ أقصر. فنحن نرى، على سبيل المثال، بأن هذا المعدَّل في كينيا كان يقدر بـ(8) خلال الستينيات في حين لم يعد يتعدَّى (3) اليوم. إنها مسألة وقت فقط.

ولكن خلال هذه الفترة، ستشهد إفريقيا جنوب الصحراء طفرةً ديموغرافيّة.. هل ينبغي لنا إذن أن نتوقّع موجات هجرة أقوى من تلك التي نشهدها اليوم؟

- داريل بريكر: على عكس الاعتقاد السائد، فقد انخفضت نسبة المُهاجرين من العدد الإجماليّ لسكّان العَالَم، ويرجع ذلك جزئياً إلى زيادة الثروات. وقد انخفض عدد الأشخاص الذين يعيشون في فقرٍ مدقع من (1.8) مليار في عام 1990 إلى أقلّ من (800) مليونٍ في عام 2015. إنما على الرغم من ذلك، سيكون هناك دائماً أشخاصٌ يبحثون عن فرص أفضل في أماكن أخرى. بعض الأماكن على هذا الكوكب جذَّابة للغاية، وتجذب المُهاجرين. فإذا كنت تعيش في «لاغوس»، فإن سعيك للهجرة إلى باريس يمكن أن يكون أمراً منطقياً. ولكن إذا استمرَّت التنمية الاقتصاديّة في إفريقيا واستقرَّت الأنظمة السياسيّة فيها، فإنّ ضغط الهجرة سيكون أقلّ حدة.

في انتظار ذلك، تمثِّل الهجرة اليوم واحداً من أكثر المواضيع إثارةً للخلاف في قلب المُجتمعات الغربيّة...

- جون إبيتسون: لا يتعيَّن علينا ككنديّين أن نحدِّد ما ينبغي أن تفعله البلدان الأوروبيّة بشأن الهجرة. نحن نعلم تماماً أن هذا الموضوع يخلق توترات ثقافيّة وهويّاتيّة قويّة. إنّ بلداً مثل اليابان يفضِّل مواجهة انحدار ديموغرافيّ مؤكَّد بدلاً من تبنِّي سياسة مفتوحة في مجال الهجرة. ويبدو أنّ الكوريّين الجنوبيّين قد اعتمدوا النهج نفسه، في الوقت الذي نزل فيه معدَّل الخصوبة لديهم ولأول مرّة إلى أقلّ من (1). لذلك فالمُعادلة اليوم بسيطة جدّاً: إمّا أن نقبل الهجرة والتعدُّدية الثقافيّة، أو نستسلم للتقهقر الديموغرافيّ.

يبدو أن تراجع عدد السكّان يشكِّل خبراً ساراً للبيئة أو التعليم، وخبراً سيئاً للاقتصاد...

- داريل بريكر: فيما يخصُّ مسألة البيئة، أعتقد أننا بحاجة إلى تغيير أفكارنا بسرعة. لأنك إذا ركَّزت على الاكتظاظ السكّاني واعتقدت أن البشر يدمِّرون الكوكب، فما الذي سيحدث عندما ينخفض عدد السكّان بشكلٍ كبير في غضون بضعة عقود؟ مسألة التغيُّرات المناخيّة لا تأخذ -عادةً- في الاعتبار هذا التطوُّر الأساسيّ. ونحن لا نزال حبيسي المنطق الذي تمَّ الترويج له في نهاية الستينيات من قِبل عالِم الأحياء «بول ر. ايرليش» في كتابه الذي لاقى نجاحاً كبيراً «قنبلة السكّان»، والذي تنبَّأ فيه بموت الملايين من سكّان العَالَم جرَّاء المجاعة التي سيتسبب فيها الانفجار السكّاني...

■ **حوار: توما ماهلر** □ **ترجمة: ياسين المعيزي**

العنوان الأصلي والمصدر:

La terre va bientôt se vider de ses habitants

مجلة «L'Express» عدد 1 يوليو 2021.

Planète vide, Darrell Bricker, John Ibbitson, Ed. Les Arènes, 04 mars 2020

الكوكب الفارغ، داريل بريكر وجون إبيستون، منشورات ليزارين، 04 مارس 2020.

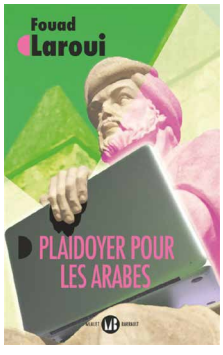
«ترافعٌ عن العرب» لفؤاد العروي:

في مواجهة المركزية الأوروبيّة

«ترافعٌ عن العرب» مؤلَّف فكري رصين يُساجل الذات والآخر، يحاور بالفكر ولغته دون أن يتخلَّى مؤلِّفه عن أسلوبه الأدبيّ الشيّق. لأجل ذلك يُعَدُّ كتاب «ترافعٌ عن العرب» مؤلَّفاً ممتازاً يصلح للقارئ العام من مختلف المستويات الفكريّة والثقافيّة. ولعلّ القارئ بالعربيّة لا يقلّ احتياجاً إلى حُجَّة هذا الكتاب ومنطقه عن القارئ بالفرنسيّة، ومن هنا يصير تعريب الكتاب غايةً مُلحّة.

ما معنى أن يتصدَّى كاتبٌ فرنكوفونيّ مغربيّ يقيم بهولندا للترافُع عن العرب اليوم في كتاب؟ ألا يُعتبر ذلك سباحةً ضد التيار في زمن المُوضةُ فيه -لدى عددٍ من الأدباء العرب المُقيمين في الغرب والذين يكتبون بلُغاته- جَلْدُ الذات وتحقيرُها ومُسايرة التيار الغربيّ الذي يخشى على مستقبل «العَالَم الحُرّ المُتحضِّر» من «الإسلام» و«الإرهاب» والفوضى غير الخلّاقة التي انتهى إليها جنوب وشرق المُتوسط معاً؟ فهل كان فؤاد العروي، صاحب جائزة الكونغور في القصّة القصيرة، يتوقَّع أن تضعه مجازفته خارج مدار الحكاية أمام سلسلة من التحدّيات؟ ربما. لكن، هل كان يتوقَّع مثلاً أن يعيش أول التحدّيات حتى قبل صدور العمل؟ فناشرُه سيُبدي تحفُّظاً صارماً على العنوان: ماذا لو حرَّرناه من كلمة «العرب»؟ على الأقلّ لكي لا يظن القارئ الفرنسيّ والفرنكوفونيّ العام أن الأمر يتعلَّق بكتاب يرمي إلى «تبرير» الإرهاب كفعل وكسياق وكبيئة حاضنة. اعتبر فؤاد العروي إصرار ناشره على حذف كلمة «العرب» من العنوان دليلاً إضافياً على مدى الحاجة إلى هذه المُرافعة، ومدى استعجال ذلك. لذا وعوض تغيير عنوان الكتاب، غيّر الناشر دون عظيم أسف.

يتوجَّه فؤاد العروي بمُرافعته إلى قارئ رهنته الثقافة الفرنسيّة السائدة والإعلام المُهيمن داخل خطاب فرنكفوني منغلق ومتمركز على الذات الأوروبيّة. لذلك جاء بسردية تعيد الاعتبار للعرب وأدوارهم الفكريّة والعلميّة والفلسفيّة في بناء التاريخ الإنسانيّ. ولكي يبني العروي سرديته البديلة، كان عليه أولاً تفكيك الخطابات التي عمدت إلى تهميش العرب والتقليل من شأنهم عن «جهل» أو عن «سوء طوية». هكذا انشغل بخطاب أحد أهم المُستشرقين الغربيّين برنارد لويس المُؤرِّخ الذي نحت مفهوم «صراع الحضارات»، ليكشف لنا العروي في تحليله أن الكثير ممّا يحيل عليه هذا المفهوم ليس في الأصل سوى «صدام جهالات». هذا دون الحديث عن التدليس الذي يحمله خطاب لويس. وفي هذا الإطار يتوقَّف فؤاد العروي مثلاً عند سؤال لويس الشهير: «ماهي أسباب البغض الإسلاميّ؟ وما مبررات هذا العداء العربيّ للغرب؟» السؤال مشروع لولا أن لويس يفاجئنا بجواب طريف. أول هذه الأسباب ألمانيا، وبالضبط «عصابة» ريلكه وهايدغر وإرنست جنغر الذين اعتبروا أميركا حضارةً لا ثقافةَ لها. ثمَّ الماركسيّة في صيغتها السوفياتيّة، وأخيراً الأيديولوجيا العالمثالثية. يلاحظ العروي أن «لويس» يستكثر على العرب والمُسلمين أن يكون غضبهم صادراً عنهم. فدائماً هناك آخرون يفكّرون من أجلهم ويلهمونهم أفكارهم وتمثّلاتهم، بل ومشاعر غضبهم أيضاً. لكن، هل قرأ العرب «هايدغر» و«ريلكه» حقّاً؟ يتساءل العروي بسخرية. لا أحد يصدِّق أنّ هذه



العُصبة الألمانيّة قد قُرئت بين ظهرانينا بالكثافة والعمق اللازمين ليتحقّق لها كلّ هذا التأثير على الوجدان العربيّ بالشكل الذي ورّطنا في معاداة جماعية للغرب.
إن في الأمر تدليساً لا يخطئه المنطق السليم. فـ«برنارد لويس» يتحدّث عن «ريلكه» و«هايدغر» والماركسية السوفياتيّة في شقلبات فكريّة المُراد منها طمس الأسباب الحقيقية لهذا العداء، وهي سياسيّة على الأرجح: تبدأ مع اتفاقية سايكس بيكو السرّية التي مزّقت جزءاً مهمّاً من الخارطة العربيّة سنة 1916، وعد بلفور المشؤوم سنة 1917، وهلم شرّاً. هكذا يفضح فؤاد العروي كيف يستخدم هذا الخطاب المُلفَّق الفكر ليحتال به على السياسة، ثمَّ يحتال بالسياسة على الفكر في خلط غريب للأوراق بما يجعل الضحية تظهر بمظهر الباغي المُتحامل على العالَم المُتحضِّر من غير وجه حقّ.
أيضاً ترصَّد العروي في كتابه العديد من الأخطاء المعرفيّة والمُغالطات المنطقيّة في خطاب «برنارد لويس» وتلامذته. ولعَلّ «غوغنهايم» الذي خصّص له فصلاً بعنوان «قضية غوغنهايم» أطرف هؤلاء.
يدعونا فؤاد العروي إلى فتح كتاب «سيلفان غوغنهايم» «أرسطو في جبل سان ميشيل: الجذور اليونانيّة لأوروبّا المسيحيّة» الصّادر بباريس سنة 2008 عن دار (سوي)، حيث يؤكّد «غوغنهايم» على أنّ «الغيريّة التّصادميّة بين المسيحيّين والمُسلمين هي ما يشكّل هويتَيْ كلتا الحضارتين». وبه «فالغربُ المسيحيّ لا يدين للشرق الإسلاميّ بشيء». فالعَالَم الإسلاميّ ليس عقلانياً وهو فقير إلى التفكير العلميّ، لذلك ظلّ الإسلام واللّغة العربيّة معاً -وهنا يستعيد أطروحة قديمة لـ«إرنست رينان»- عاجزين عجزاً بنيويّاً عن هضم التراث اليونانيّ.
بدأ فؤاد العروي بالتوقّف عند أخطاء «غونغنهايم» في قضايا تفصيليّة، منها مثلاً خلطُه بين التفسير وعلم الكلام، قبل أن يتحوَّل إلى الترافع عن الدور المحوري الذي لعبه الفلاسفة والمُفكّرون المُسلمون في نقل الثقافة اليونانيّة إلى الغرب الأوروبيّ. هكذا تحدَّث العروي عن فعالية الترجمة متوقّفاً بشكلٍ خاص عند مجهود حنين بن إسحاق، مترجم «جالينوس» و«أبقراط» و«أرسطو» من اليونانيّة ومسؤول «بيت الحكمة» و«ديوان الترجمة» في عهد المأمون. قبل أن يسلّط الضوء على تقليد أساسيّ يكاد يكون جنساً أدبيّاً فكريّاً خاصّاً بالمُسلمين وهو تقليد «الشكوك». هكذا وضع الرازي مقالة «الشكوك على جالينوس»، وألّف ابن الهيثم «الشكوك على بطليموس». ولقد أبان علماء الإسلام في «شكوكهم» على أنهم نقّاد مُراجعون مصحّحون لهم إضافاتهم القيمة، لا مجرَّد مترجمين أو شُرّاحاً، بل إن عدداً من كتابات ابن رشد وابن سينا كانت في الواقع «شكوكاً» على أرسطو نفسه. ويكفي الإلماح هنا إلى كتاب ابن سينا الشهير «الإشارات والتنبيهات».
يشتبك فؤاد العروي في مرافعته مع عدد من كتابات وأفكار ومقولات ابن سينا وابن طفيل وابن رشد وغيرهم من علماء الإسلام قبل أن ينتقل من تفاعلهم النقدي وتطويرهم للتراث اليونانيّ، إلى ما يمكن اعتباره إضافات ملهمة لهم من المُؤسف أنَّ تاريخ الفكر الغربيّ تغاضى عنها. هكذا مثلاً كشف عن فضل ابن رشد وابن طفيل على «سبينوزا»، حيث أدرج العروي عدداً من مقولات الفيلسوف الهولنديّ التي بدت وكأنها استعادة حرفية لبعض مقولات الفيلسوفين العربيّين.



كان بالإمكان اعتبار الأمر مجرّد توارد خواطر لولا أنّ رواية «حي بن يقظان» كانت قد تُرجمت إلى الهولنديّة زمن «سبينوزا» من طرف «جوهانيس بوومِيستر»، الذي كان صديقاً للفيلسوف الهولنديّ ومقرَّباً منه. قصّة «حي بن يقظان» بالذات سيعود فؤاد العروي لفتحها في فصلٍ آخر لطرح السؤال بخصوص مدى استفادة «دانييل ديفو» منها في تأليف «روبينسون كروزو» سنة 1719، خصوصاً وأن للقصتين معاً نفسَ الفكرة، نفس الحبكة، ونفس القماشة السردية تقريباً.
تخلص قصّة «حي بن يقظان» إلى أن المعرفة المنقولة (النقل) ليست ضروريّة للإنسان إذا سلك سبيل المُلاحظة والتجربة والتأمُّل والتفكير، وكان قادراً على إعمال (العقل). فقد يصل المرءُ إلى الحقيقة، حتى الدينيّة، عن طريق العقل وحده. ذاك أن «الحق لا يُضادُّ الحق» بتعبير ابن رشد في «فصل المقال». لهذا حينما غادر حي بن يقظان جزيرته والتقى بالناس اكتشف أنّ تجربته وتأمُّلاته قادته إلى ذات الخلاصات التي يريدون تعليمه إياها حول الله والعالم والنفس والجسد. فهل كتب «ديفو» قصته دون أن يطّلع على «حي بن يقظان»؟ لا يملك العروي جواباً، لكنه يقدِّم أكثر من دليل على الترجمات التي تعرَّضت لها هذه الرواية (من أهمّها الترجمة اللاتينيّة التي أعدَّها «إدوارد بوكوك» سنة 1671)، وعلى اهتمام عدد من المُفكّرين الغربيّين بها وتأثيرها الأكيد على فكرهم.
ابن خلدون بدوره كان حاضراً في أكثر من فصل، حيث يخلص العروي إلى أن منهج ابن خلدون في دراسته للمُجتمع والتاريخ يقترب كثيراً من روح العلوم الاجتماعيّة كما تبلورت في أوروبا انطلاقاً من القرن التاسع عشر، كما أن تحليل العروي لبعض مقولات صاحب «المقدمة» حول

«الـرزق» و«العمـل» و«المكاسـب» تجعـل هـذا الأخيـر يظهـر بمظهـر مُلهـم حقيقـي لعلـم الاقتصـاد الكلاسـيكيّ. وتواصلـت مرافعـات العـروي فـي الكتـاب دفاعـاً عـن سـبقٍ علمـيّ لا غبـار عليـه لعلمـاء عـرب فـي مجالات مختلفـة: ابن النّفيس مكتشـف الـدورة الدمويّـة الصغـرى، ابـن زهـر الطبيـب الجـرّاح الـذي كان أول مَـنْ اسـتعمل التخدير في الجراحة، عالِـم الرياضيات غياث الديـن الكاشـي مبتكـر الكسـور العُشـرية، ثابـت بـن قـرة أول مـن بـادر إلـى «تصحيـح مسـائل الجبـر بالبراهيـن الهندسـية»، جابـر بـن حيـان واضـع الأسـس العلميّـة للكيميـاء الحديثـة، ابـن الهيثـم عالِـم البصريـات الـذي أثبـت أن الضـوء يأتـي إلـى الأجسـام مـن العيـن وليـس العكـس وكان صاحـب نظريّـة حول انعـكاس الضـوء علـى المرايـا الكرويّـة، وبـه يكـون هو مَـنْ وضع الأسـس الأولـى لاختـراع الكاميـرا.

صحيـح أن كتـاب «ترافـعٌ عـن العـرب» الصـادر فـي مايو/أيـار 2021 عـن دار (ميالي-بـاروِ) بباريـس هـو كتـاب يحـاور الغـرب ويجادلـه، لكنـه نافـع جـدّاً للقـارئ العربيّ، حتـى أن ترجمته إلى لغـة الضـاد تـكاد تصيـر مطلباً اسـتعجاليّاً. فمنطـق تأليـف هـذا العمـل وكـذا الرؤيـة الفكريّة لصاحبه نحتاجهما معاً في العَالَم العربـيّ لتأميـن حـوارٍ جـدّي ونـدّي مـع الغـرب. ففـؤاد العـروي لـم يَـرُد علـى المركزيّـة الأوروبيّـة بالانغـلاق، ولا علـى الخطـاب الشـوفينيّ العنصـريّ بشـوفينيّة معكوسـة. علـى العكـس، كان الرجـل حريصاً علـى بنـاء حجـاج يقـوم علـى تفكيـك الخطابـات وتقديـم معطيات معرفية دون التورُّط في الأيديولوجيا. ومعلوم أن «أيديولوجيـا العروبـة والإسـلام» التـي تنطلـق منهـا العديـد مـن الكتابـات العربيّـة فـي هـذا المجـال تجعلهـا عاجـزةً عـن التقـدُّم نحـو بلـورة خطـاب متماسـك يحـرج الغـرب. لهـذا مثلاً، أصـرَّ العـروي علـى تحديـد الإسـلام فـي مقدِّمـة كتابـه باعتبـاره حضـارةً، ومعلـوم أن الحضـارة الإسـلاميّة اغتنـت فـي تاريخهـا الذهبـيّ بعطـاءات علمـاء وأدبـاء مـن شـعوبٍ مختلفـة: فُـرس وأفغـان وأتـراك وأكـراد وهنـود وأمازيـغ، ومـن مختلـف الديانات كذلـك. كمـا تعمَّـد العـروي منـذ البدايـة أن يتجـاوز المسـألة العرقيّـة فـي تحديـده للعـرب والعروبـة بالتركيـز علـى عنصـر اللّغـة. العروبـة بالنسـبة لـه تتحقّـق اليـوم فـي اللّغـة العربيّـة وعبرهـا. وطبعـاً نحـن نتملَّـك العَالَـم، والعلـم أيضـاً، مـن خلال اللّغـة. لذلـك يطـرح العـروي العديـد مـن الأسـئلة حـول واقـع اللّغـة العربيّـة وتدريسـها. فيلاحـظ مثـلاً أن لغتنـا تعانـي قصوراً علـى مسـتويات عدّة من بينهمـا التسـميات والمُصطلحات. وهنا يتوقّـف عنـد أسـماء النباتـات مثـلاً. فحينمـا قـرَّر «كارل فـون لينـي» فـي القـرن السـابع عشـر إنجـاز أول موسـوعة للكائنـات الحيّـة فـي عالَمـيْ النبـات والحيـوان كان العـرب فـي سـباتٍ حضـاري حينهـا، لـذا لـم يتـم اعتمـاد أيٍّ مـن مراجعهـم فـي تصنيـف «لينـي». وهكـذا وجـدت التسـميات العلميّـة القديمـة التـي اقترحهـا علمـاء المُسـلمين نفسـها خـارج هـذا التصنيـف. والنتيجـة هـي أننـا اليـوم عاجـزون عـن محـاورة الغـرب فـي هـذا المجـال، بـل غيـر قادريـن حتـى علـى إطـلاق تسـميات دقيقـة موحَّـدة علـى النباتـات فـي العَالَـم العربـيّ، بـل وحتّـى داخـل البلـد الواحـد. فكيـف سـتتملَّك عالَمـاً لسـت قـادراً حتـى علـى تسـميته بشـكلٍ دقيـق موحَّـد؟ لكـن هـل يمكننـا التسـمية اليـوم بالاعتمـاد علـى لغتنـا وحدهـا، أم أنَّ التسـمية لـم تعـد ممكنـة خـارج فعاليـة الترجمـة؟.. قبـل أربعين سـنة، نبَّه «جـاك بيرك» إلـى أن لغتنـا العربيّـة فـي حاجـة إلـى ترجمـة 42 ألـف كلمـة فـي مجـال الطـب وحـده. فمـا بالـك الآن؟ ثـمَّ مـاذا عـن باقـي المعـارف والعلـوم؟

يؤكِّـد العـروي أن حاجتنـا إلـى مضاعفـة الجهـود فـي مجـال الترجمـة العلميّـة صـارت مُلحّـة جـدّاً لكـي تصيـر لغتنـا علميّـة مثلمـا حصـل فـي العصـر العباسـيّ حيـن تحوَّلت «لغة الشـعر» و«لغـة القـرآن» إلـى لغـة علميّـة بفضـل مجهـودات مترجمـي «بيـت الحكمـة». ويـرى أن تأهيـل لغتنـا للانخـراط السـلس فـي هـذا المشـروع الترجمـي الكبيـر يسـتدعي إدخـال إصلاحـات اسـتعجالية علـى مسـتوى نحوها وصرفهـا وتركيبهـا، وأيضـاً علـى المُسـتوى المُورفولوجـي. كمـا يدعو إلى الانفتـاح على العاميات العربيّـة لتغنـي العربيّـة بهـا وتجـدِّد نفسـها عبـر هـذه الـدّوارج كمـا يجـدر بلغـة حيّـة. هكذا سـتقترب مـن الناس أكثـر. فالعرب لا يقرؤون، حسـب العروي، لأنهم يحسـون اللّغة التي سيقرؤون بهـا بعيـدةً عنهـم وعـن حياتهـم. لكـن كلّمـا أحسـوا اللّغـة قريبةً منهـم سيأنسـون لهـا أكثـر، وبالتالـي سـيجدون المُتعـة فـي القـراءة بهـا. لذا يجب الاشـتغال على اللّغـة لتجديدها وتقريبها مـن عامـة الشـعب ومن لغة العامـة. هذا النقاش الجـدّي، برأي العـروي، يجـب ألّا يُتـرك للسياسـيين وحدهـم يسـتخدمونه فـي سـجالاتهم الحزبيـة والسياسـوية. إنّهـا قضيـة العلمـاء والأدباء ورجـال الفكـر والفلسـفة. وفـي هـذا الإطـار يذكِّـر العـروي بـأن المسـألة اللُّغويّـة كانـت في صلـب التحـوُّلات العلميّـة والفكريّة والأدبيّـة التـي عرفها الغرب. فـ«سـبينوزا» كان منهمـكاً تماماً في دراسـة النحـو العبـريّ فـي أفـق تطويـر العبريّـة، نـزع القداسـة عنهـا وتحويلهـا إلى لغة طبيعيّة علمانيّـة. «غاليلي» كان حريصاً على أن يُدوِّن أبحاثه، ليس باللاتينيّة، وإنما باللهجة التوسـكانية التـي سـتصير الإيطاليّـة فيمـا بعـد. وهـي اللهجـة نفسـها التـي كتـب بهـا «دانتـي» عملـه الأدبـيّ الخـارق «الكوميديـا الإلهيـة». وأخيـراً يسـوق العروي مثـال «ديكارت» الذي أعلن عن مشـروعه الفلسـفيّ أول مـرّة فـي نصّـه الشـهير «مقـال عـن المنهـج» سـنة 1936، وجـاء المقـال بالفرنسـيّة وليـس باللاتينيّـة لغـة العلـم والتيولوجيـا فـي ذلـك الزمـن.

قـد يختلـف القـارئ مـع عـدد مـن خلاصـات فـؤاد العـروي واسـتنتاجاته فـي هـذا الكتاب، لكنه لا يملـك إلّا أن يحترم جدّيته فـي طـرح قضايـاه وبنـاء حجاجـه. حجـاجٌ لـم يكـن ثقيلاً جافّـاً، ذاك أن فـؤاد العـروي عـرف كيـف يضيـف إليـه بهـارات المُجادلة والمُناكفـة بمقدارٍ جعله سـائغاً ممتعاً يمـارس تأثيراً جميلاً على القـارئ. كمـا أن روح الكاتب السـاخرة وبراعته فـي المُراوحة بين سـرد القصـص والوقائـع الشـخصيّة الطريفـة والحجـاج العلمي الرزيـن أكسـب الكتـاب نكهـةً خاصّـة. إنـه مؤلَّـف فكـريّ رصيـن يُسـاجل الـذات والآخـر، يحـاور بالفكـر ولغتـه دون أن يتخلّـى مؤلِّفـه عـن أسـلوبه الأدبيّ الشـيّق. لأجل ذلك يُعَـدُّ كتاب «ترافعٌ عـن العـرب» مؤلَّفـاً ممتـازاً يصلـح للقـارئ العـام مـن مختلـف المُسـتويات الفكريّـة والثقافيّـة. ولعَـلّ القـارئ بالعربيّـة لا يقـلُّ احتياجـاً إلـى حُجَّـة هـذا الكتـاب ومنطقه عن القارئ بالفرنسـيّة، ومـن هنـا يصيـر تعريـب الكتـاب غايـةً مُلحّـة. ■ **ياسين عدنان**

المصدر:

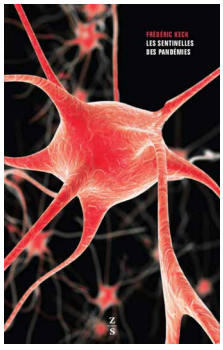
Plaidoyer pour les Arabes, Fouad Laroui, Mialet-Barrault Editions, mai 2021

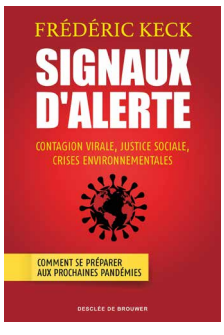
فريديريك كيك:

فكِّر مثل الفيروس

كان «فريديريك كيك Frédéric Keck» يتعقَّب، لأكثر من عقدٍ من الزَّمن، صيَّادي الفيروسات ويُلاحظ، من خلال ممارساتهم، العلاقات الأصليَّة التي تتشكَّل بين البشرِ وغير البشر. وألقت جائِحة (كوفيد - 19) من جديد الضَّوء على أهمّية أبحاثه.

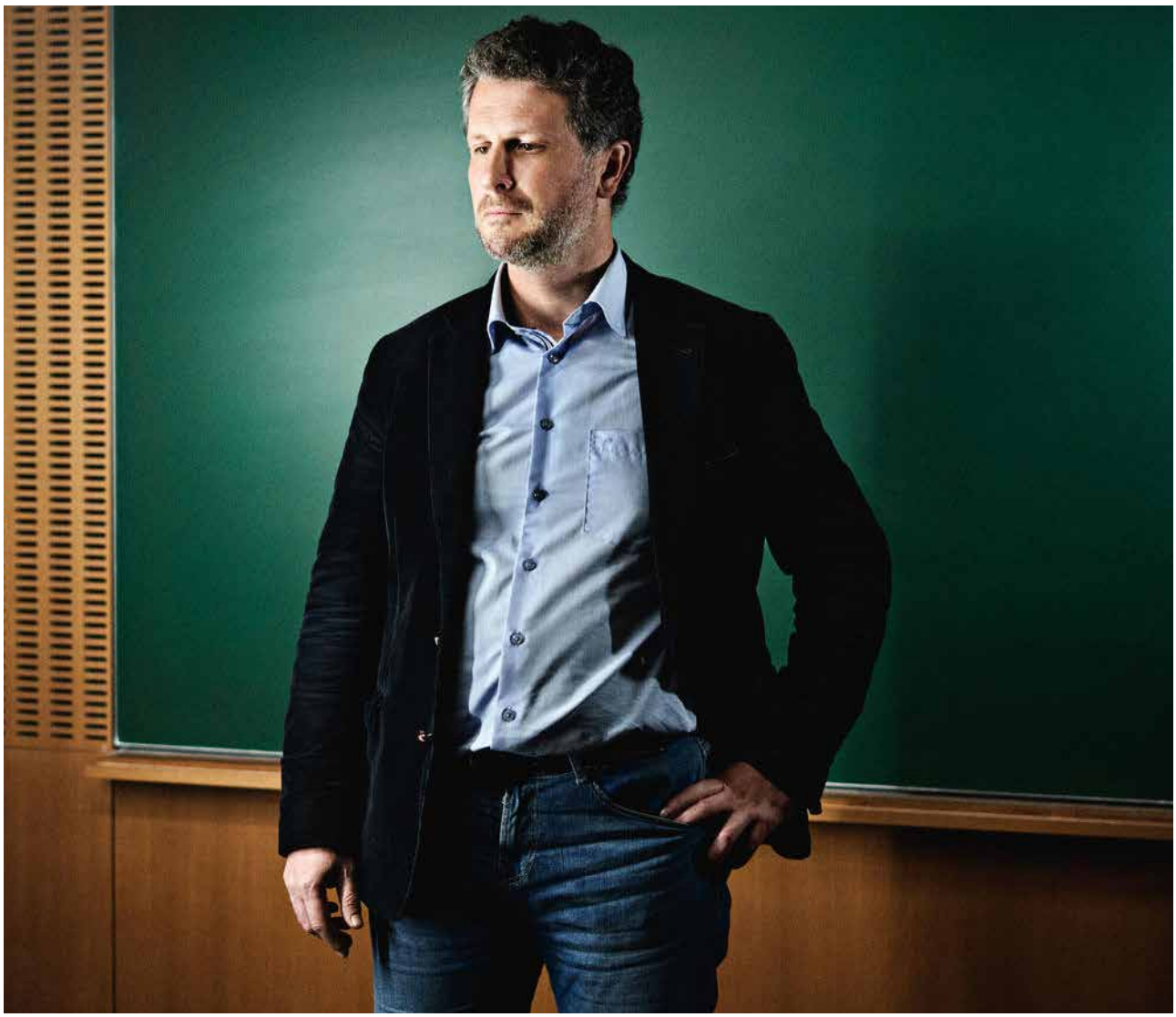
هو طالب سابق بالمدرسة العليا، ومُبرَّز في الفلسفة، وحائز على الميداليَّة البرونزيَّة من المركز الوطنيّ للبحث العلميّ CNRS، ومدير أبحاث في مختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة (CNRS/ كوليج دوفرانس Collège de France/ EHESS مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعيَّة) ... مسار فريديريك كيك يبعث على الإعجاب! لكن الرَّجل، الذي يتمتَّع بقدرٍ كبير من الودِّ، سيستقبلنا بكلِّ بساطة حول فنجان قهوة في منزله، على حافة غابة Fontaine bleu، فمنذ بداية وباء (كوفيد - 19) كان على اتصال مستمر مع وسائل الإعلام. ورغم ذلك، فهو لا يفقد سعادته في مناقشة أبحاثه السَّابقة والحاليَّة والمُستقبليَّة. ويروي أنَّه بدأ بأعمال ترتبط بتاريخ الأنثروبولوجيا الفرنسيَّة في علاقاتها بالفلسفة («ليفي بروهل Lévy-Bruhl»، و«دوركايم Durkheim»، و«بيرجسون Bergçon»، و«ليفي شتراوس Lévi-Strauss»). وبعد ذلك، وبسرعة، وبعد انضمامه إلى المركز الوطنيّ للبحث العلميّ CNRS في عام 2005، شرع في إجراء دراسات استقصائيَّة إثنوغرافيَّة في آسيا عن الأزمات الصحيَّة المُتَّصلة بالأمراض الحيوانيَّة. وهنا طوَّر مفهوم «الحارس»/ Sentinelle لوصف الحيوانات التي تُبلِّغ عن خطر العدوى الذي يُهدِّد الحياة. «إنَّ المغزى من الانتقال من الفلسفة إلى الأنثروبولوجيا، كما يُقرّ ببساطة، هو أنَّنا نجد مفاهيم في المُمارسات التي نلاحظها!». وعمله ذو أهميَّة بالنسبة للفلسفة. وسيراً على نهج عالِم الأنثروبولوجيا «فيليب ديسكولا Philippe Descola»، يُعتَبر «ف.كيك» جزءاً من جيل جديد من الأنثروبولوجيّة الفرنسيَّة التي تسعى جاهدةً إلى التفكير في مجتمعات «تتجاوز الطبيعة والثقافة». لقد قاده اهتمامه بالعلاقة بين البشر والفيروسات، بواسطة الحيوانات، إلى سرد قصَّة عالميَّة للإنسانيَّة انطلاقاً من حدودها مع الأنواع الأخرى. وهذا هو عنوان العمل الجماعي الذي نُشِر في شهر مارس/آذار الماضي: «الخفافيش. في الحدود بين الأنواع/ .Les chauve-souris. Aux frontières entre les espèces. إنَّه برنامج عمل واسع النطاق.





كيف كان ردّ فعلك عندما أصبح موضوع دراستك، الوباء، حالةً عالميَّةً «آخِذَة في الظهور»؟

- لعِدّة سنوات، قِيل لي:«أنتَ تعمل على الأوبئة، إنَّه أمرٌ ممتعٌ للغاية!»، فأجبتُ: «أنا لا أعمل على الأوبئة، بل على الأمراض الحيوانيَّة/ zoonoses؛ أي مجموعة من الأمراض المُعْدِيَة التي تنتقل طبيعيّاً من الحيوانات إلى البشر»، بمعنى العمل على عبُور مُسبِّبات الأمراض للحواجز التي تحُول بين الأنواع، إذْ يمكن لهذه الأمراض الحيوانيَّة أنْ تُسبِّب الأوبئة لأنَّنا لا نملك مناعةً كاملةً لمُسبِّبات الأمراض التي تنتقل من

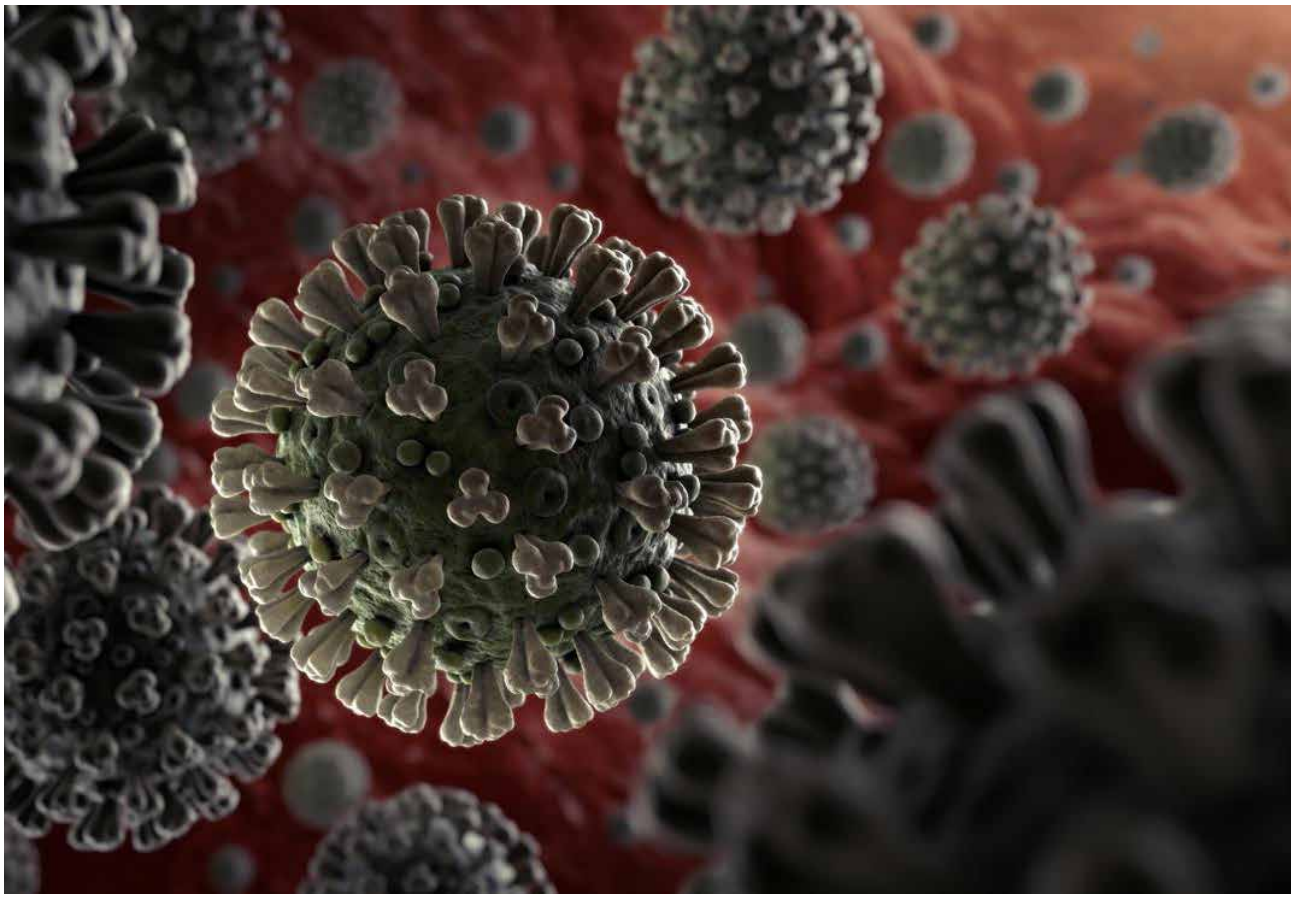


الحيوانات إلى الإنسان. لقد استفدنا من قَرْنَين من المناعة الصِّناعيَّة بفضل باستور Pasteur والصحة العموميَّة، لكن نتيجة للتَّغيُّرات في الظروف المعيشيَّة للحيوانات البريَّة والأليفة، فإنَّ الأمراض الحيوانيَّة آخِذة في الازدياد، وتؤدي إلى خطر الجَائِحة. ولطالما اعتبرت الوباء أُفقاً افتراضيّاً، وطريقةً لتعميم قضيَّة محليَّة تهمُّني. في عام (2009)، كان وباء (H1N1) أوَّل تحقُّق للسيناريو، دون حدوث اضطرابات عالميَّة كبيرة، في عالَم مُصاب بالأنفلونزا/ un monde grippé، اقترحتُ إذاً الفرضيَّة القائلة بأنَّ الوباء أسطورة، بمعنى قصّة كارثيَّة تتطلَّب الاهتمام بظروف انتقال مُسبِّبات الأمراض من الحيوانات إلى البشر. في عام 2020، أصبحت الأسطورة حقيقة، لقد حدث سيناريو الكارثة بالفعل! كنتُ مندهشاً مثل الجميع. يفاجئنا الوباء دائماً بقدرته على قلب كلّ شيء. كنتُ أعملُ منذ خمسة عشر عاماً مع علماء الفيروسات الذين أخذوا هذا السيناريو على محمل الجدّ.

هل يمكننا الاستعداد لمثل هذا «الخطر» الوبائي؟

- في هونغ كونغ Hong Kong، وتايوان Taiwan، وسنغافورة Singapour، تمكَّنتُ من ملاحظة بعض المُمارسات التي دفعتني إلى الإصرار على الاستعداد بوصفه أسلوباً استراتيجيّاً. هذا النَّوع من التَّحضير يؤدّي إلى محاكاة الأوبئة في المُستشفيات، أو قرارات الصحة العموميَّة مثل تخزين اللقاحات والأقنعة. وخلافاً للمبدأ الوقائي، فإنَّ الاستعداد لا يحسب المخاطر، ولكنَّه يتخيَّل أنَّ الكارثة موجودة بالفعل ويرسم أفقاً للعمل وفقاً لذلك. ويتصدَّى لتهديدات مثل الهجمات النَّوويَّة، أو الإرهابيَّة، أو الأمراض المُعْدية النَّاشئة، أو اضطرابات تغيُّر المناخ. فرضيَّتي هي أنَّ المبدأ الوقائي، كما تمَّ تحديده في أوروبا، يقوم على توازن دقيق بين تقييم المخاطر وإدارتها، وقدرة الخُبراء وصُنَّاع القرار.

فمن ناحيةٍ، نفتح المجال للمُناقشة بالقول إنَّ هناك خطراً جديداً ينبغي تحديده من خلال تقاسم المعارف. ومن ناحيةٍ أخرى، يتمُّ إغلاقه من خلال المُطالبة، على سبيل المثال،



بالذَّبح الجماعيّ للحيوانات المُصابَة. إنَّها مرحلة انتقاليَّة بين الوقاية، حيث تُؤكِّد الدولة سيطرتها على السّكان بواسطة سلطة الخبراء، والاستعداد، الذي يدعو إلى التَّشكيك في قُدرات الدَّولة. وبدلاً من ذلك، يستند التَّحضير إلى أساس تقاسم المعارف بدءاً من كتابة سيناريو الكارثة التي نحاول تفاديها.

في كِتاب حُرَّاس الأوبئة / Les Sentinelles des pandémies، تقترح «جينيالوجيا موازية للأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة والطّب البيطري». ماذا سنكتشف من خلال هذا التاريخ المُوازي للتَّخصُّصات؟

- لقد كتبتُ هذه الجينيالوجيا لأنَّ الطب البيطري والصحة العموميَّة يستدعيان الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة لمُحاسبة سلوك المُربِّين عندما تظهر أمراض جديدة عند الحيوانات. إنَّها فكرة فهم العقبات المعرفيَّة من أجل تحديد السلوكيّات التي يمكن تغييرها. ومنذ القرن التاسع عشر وُجِّه هذا الطَّلب إلى الأنثروبولوجيا «التَّطوُّريَّة»، لكن هذا يعطي الأولويَّة للقواعد النَّظريَّة على السلوك «البدائي» والشَّعبي. يرمي تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة إلى انتقاد الفكرة القائلة بأنَّ المُربِّين لا يعرفون كيفيَّة التعامل مع المرض. في المُمارسة العمليَّة، يبني المُربُّون معرفتهم الخاصَّة بالأمراض، لذلك يجب أن نحاول مقارنتها بالمعارف العِلميَّة. تسمح الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة ببناء مجال أوسع من الترجمة بين المعرفة العالِمَة والشَّعبيَّة من خلال الحيوانات الموجودة على الحدود بين الحيوانات الأليفة والمُفترسة. هذه هي الحيوانات التي أسمِّيها «الحُرَّاس»، والتي، في كلِّ المُجتمعات، تمكِّننا من إدراك علامات التَّحذير مسبقاً، ثمَّ تسعى الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة إلى مقارنة الكيفيَّة التي يتمُّ بها توزيع هذه العلامات المُشتركة بين البشر وغير البشر حسب المُجتمعات.

داخليّاً، وظيفتي هي تحديد الطرائق المُختلفة لإدراك إشارات التَّحذير. وخارجيّاً، أحاولُ أنْ أوضِّح أنَّ الظواهر الأنثروبولوجيَّة الرَّئيسيّة تلعب دوراً في عمليَّات عبور حواجز الأنواع. ما يهمُّني هو أن أرى كيف يؤدِّي عبور حواجز الأنواع، في بيئات مختلفة، إلى إصدار إنذار بشأن التهديدات العالميَّة اعتماداً على الظروف المحليَّة، وهذا ما أفعله مع الجمعيَّات التي تكافح العنف ضد الحيوانات، أو المُربِّين الذين يريدون منَّا أن نشرح لعامَّة النَّاس أهميَّة الأمراض الحيوانيَّة بالنسبة للأنواع في بيئتها.

كيف توصَّلتَ إلى فكرة «حارس» الأوبئة؟

- عندما كنتُ أقوم بدراسات استقصائيَّة في هونغ كونغ، بناءً على أسئلة حول إدارة الأمراض الحيوانيَّة، اكتشفتُ ممارسات الحُرَّاس هذه في المزارع، حيث يتمُّ اكتشاف الأمراض التي يمكن أن تصبح وبائيَّة أو حتى وباءً مسبقاً. فعلى سبيل المثال، يتمُّ وضعُ بعض الدَّجاج غير المُلقَّح في مكان خاص في المزرعة، ويولي المُربِّي اهتماماً خاصّاً لِفكِّ تشفير الإشارات، ثمَّ اكتشفتُ بعد ذلك أنَّ المنطقة برُمَّتها كانت

تُعَرَّفُ حينها بِوَصْفِها حَارسةً فيما يتعلَّق بالصين. وحتى في مفهوم الجهازَ المناعي، نجد «خلايا حارسة» تلتقط مُسبِّبات الأمراض لِنَقْل معلوماتها إلى بقيَّة الجهاز المَناعي. ومن هناك، قمتُ بتعميم كلّ هذه السّمات من خلال التَّأكيد أنَّ الحارس هو كائن حيٌّ ينتقل إلى الحدود، حيث يرى علامات التَّهديدات التي سوف يُبلِّغ بها بقيَّة الجماعة (كائن حي، إقليم، مجموعة، أو حتى عالَم). إنَّه مثل الجندي الذي يذهب إلى خطّ الجبهة ويبلِّغ عن إشارات العدو. يقع مصطلح الحارس عند مفترق طرق تقنيَّات المُربِّين وتهديدات الصحة العموميَّة والمخاوف العسكريَّة، وكلّها تتموضع في قلب أنظمة الأمن البيولوجيّ، لكنني سعيتُ إلى تجريد هذا المفهوم من الصّفة العسكريَّة لجعله بالأحرى أساس شكل من أشكال التضامن بين البشر وغير البشر الذين يواجهون تهديدات مشتركة.

لكن يبدو أنَّ الحارس يعيش فقط ليُبلِّغنا بالتَّهديدات التي تعرَّض لها والتي نريد حماية أنفسنا منها...

- يجبُ أن نميِّز فأر التَّجارب عن الحارس؛ ففأر التَّجارب هو جزء من بروتوكول لدينا سؤالٌ بشأنه، ونملك إجابةً مُسبقة عنه. والحارس هو جزء من مجموعة، وبالتالي يتمُّ تجنيده للمُراقبة، حيث نعلم أنَّ هناك تهديدات دون أنْ نعرف ما نوعها. الموت ليس الإشارة الوحيدة التي يرسلها. يمكننا فكّ شفرة الإشارة انطلاقاً من عيِّنات بسيطة كما نفعل في حالة الفيروس غرب النيل. وهناك أيضاً طيور الحراسة التي نراقبها لمعرفة ما إذا كانت تلتقط البكتيريا المُقاومة، كما نفعل في جزر أوسترال Australes.
لكن يظل الحارس فكرة محفوفة بالمخاطر. وهناك مجموعات بشريَّة يمكن أنْ تطلب منها أن تكون حُرَّاساً. وبوسعنا أن نتصوَّر سياسة بيولوجيَّة مُرعِبَة: مُنظَّمة استراتيجيَّة تضم مجموعات سكانيَّة مَحميَّة في المركز، وعلى الهوامش مجموعات حِراسة مُعرَّضة للخطر، والتي يتمثَّل دورها في إبلاغ المعلومات إلى المركز.

لإعطاء معنى لهذا الوباء، قام البعض من تلقاء أنفسهم بتعبئة مُخيّلَة عِقابيَّة للطبيعة أو تَخيُّل بوليسيّ عن المُؤامرة. ماذا يعني هذا لعلاقة مجتمعنا بالطبيعة؟

- في حالة القصَّة من نوع «انتقام الطبيعة»، فإنَّها تُقدَّم على أنها قُوَّة سعينا إلى تَطويعها، ولكنَّها تمرَّدتْ من خلال الطفرات العشوائيّة. إنَّها بلَا شكّ رسالة إيكولوجيَّة قويَّة، لكن عيبها هو أنَّها تقترح تفسيراً أحادي الجانب يُشير إلى «الطبيعة فقط». وفي حالة قصَّة المُؤامرة، يُقال إنَّ الوباء اخْتُرِع لتلبيَّة الصناعات الصَّيدلانيَّة، والدول البوليسيَّة، وما إلى ذَلك. قد تكون رسالة سياسيَّة، لكن هذه المرَّة لها عيبٌ هو كونها في جانب واحد من الطَّبيعة. أعتقد أنَّه يمكننا الوقوف، مع علماء البيئة، وعلماء الفيروسات، وعلماء الطيور، على العتبة الفاصلة بين البشر وغير البشر لنرى المُمارسات التي تضطلع بها. يدفعنا الخيال نحو الجنون إذا اختصرناه في مساحاتٍ شاسعة مثل الطبيعة أو الدولة! ولكن يمكنه أن يصبح شكلاً من أشكال العمل إذا تمَّ وَضعه على حدود هذه المجالات، من خلال تَصوُّرات دقيقة تعطينا معرفة أفضل به.

أهميَّة الخيال هذه، هي ما يُفسِّر كذلك اهتمامك بأعمال الفنَّانين المُختلفة في كتابك الأخير: إشارات التَّحذير/Signaux d'alerte؟

- لقد أدهشني بالفعل عمل الفنَّانين الذين يستخدمون الخيال بطريقةٍ غير استراتيجيَّة، مثل فنَّانة الشارع إنفادير Invader، التي تُنتِج صوراً فيروسيَّة، أو لينا بوي Lena Bui، التي تتخيَّل نفسها طائراً عندما ترى سكَّان قرية فِيتنامِيَّة يتلاعبون بالرِّيش. وبدلاً من تتبُّع الفيروس، فإنَّهم يُغيِّرون وجهة النَّظر من خلال جعل الفيروس رؤية إلى العالَم البشريّ. إنَّهم يلعبون بخيال انتقام الطَّبيعة، ولكن بطريقة تُخلِّف تأثيراً لا مركزيّاً من خلال تَبنِّي وجهة نظر الفيروس أو الحيوان. فمن المُغْري السَّعي إلى اعتماد منظور الفيروس، لأنه يحتوي على حمولة تخريبيَّة قويَّة من خلال طمس الحدود الفاصلة بين الأحياء وغير الأحياء. ومع ذلك فالفيروس عدوّ يسعى إلى التَّعايش معنا. أنا أحاول القيام بعمليَّة مماثلة على نحوٍ أكثر مفاهيميَّة: رؤية من منظور فيروس أو طائر أو خفَّاش. هَذا أيضاً هو نهج المُجتمعات الشَّامانِيَّة من خلال طقوسها: يجب على الصَّياد توقُّع نتيجة الصَّيد من خلال أخذ وجهة نظر الحيوان المُطَارَد، مع منع الحيوان المُصَاد من الانتقام.

هل يمكن للدولة أنْ تصبح صيَّاد فيروسات؟

- من الواضح أنَّ هذا الوباء أَخْرَج الدُّول؛ فهو يتطلَّب منها أن تُدبِّر الأمور بطريقة تستبق الأحداث، على سبيل المثال في مشكلة مخزون الأقنعة. وهذا يتعارض مع المنطق الليبيراليّ الجديد الذي يُفضِّلُ التَّداول بدلاً من التَّخزين. الدولة الحديثة مَبْنِيَّة على الوقاية، من خلال تقييم توزيع المخاطر بين السُّكان. إنَّ الحاجة إلى التَّحضير تُفسد هذا المنطق، لأنَّه من الضَّروري أنْ تكون هناك مرونة بالِغَة في التَّصدّي لطفرات الفيروسات، إذ إنَّها يمكن أنْ تنتقل إلى حيوان وتعود إلينا في شكلٍ آخر. وهذا لم يتم دَمْجُه في نهج الدول الحديثة. ولهذا السَّبب يجب أنْ تنفتح على بُعدٍ تاريخيّ أكثر رحابةً بكثير. فقد أدَّى التَّحوُّل من مجتمعات الصَّيد إلى المُجتمعات الرَّعويَّة إلى شكلٍ من أشكال إدارة مخاطر الأمراض، ولكن بما أنَّ الأمراض الجديدة تأتي من تحوُّلات عالَم الحيوان، فيجب أنْ نجد شيئاً من قوة فنّ الصيد، والقدرات المعرفيَّة، وبالتالي القدرات السياسيَّة لمُجتمعات الصيد قصد مواجهتها.
وآمُلُ أن يكون لدينا شيء نتعلَّمه من تجارب مجتمعات مثل التَّايوان وسنغافورة وهونغ كونغ، وبلا شكّ العديد من البُلدان الأخرى، وتشكِّل هذه المُجتمعات أقاليم حِراسة لأنها اضطرَّت إلى ابتكار أشكالٍ سياسيَّة لكي تتكيَّف مع التَّغيُّرات البَيْئيَّة التي كانت تمرُّ بها. تايوان، على سبيل المثال، تشكِّل نموذجاً للحَكَامَة: مجتمع مُتعدِّد الثقافات وديموقراطيّ.

■ **أجرى الحوار: ليو فابيوس □ ترجمة: أسماء كريم**

المصدر:
مجلة «Sciences Humaines» الفرنسية، عدد (336)، مايو 2021، ص: (26 - 27 - 28 - 29).

رافاييل إنتوفن:

نعيش فعلياً في «1984» كما نظر لها جورج أورويل!

في هذه المُقابلة تطرَّق الفيلسوف «رافاييل إنتوفن» لمواضيع شتَّى كالتكنولوجيّات الجديدة، وتنامي ظاهرة المطالبة بالمزيد من الشفافية حول الحياةِ الخاصة للأفراد، وتوسُّع نطاق عمليّات المُراقَبة والسيطرة، واستغلال الأخبار الكاذبة وثقافة الإلغاء، قبل أن يخلص إلى أننا بتنا نعيش في مجتمع يُعاني فيه الأفراد، بعد أن تحوَّلوا إلى مجرَّد بيانات، من خضوعهم لاستبداد خبيث يصعب اكتشافه، يستنزف حرّيّاتهم يوماً بعد يوم.
حان الوقت إذن لإعادة سكّة التاريخ إلى مسارها الصحيح...

ما هو أكبر تهديد بالنسبة لك؟ أخ أكبر أم فرقة من الإخوة الصغار؟ العين العمودية التي ينوء تحت وطأتها شعب الإيغور أم العيون الأفقيّة التي تمارس التلصص على معطياتنا في كلّ مكان من العَالَم؟

- رافاييل إنتوفن: يجب أن نتوجَّه بهذا السؤال إلى الأشخاص الذين يتظاهرون ضد «ديموقراطيّتنا الزائفة»، وفي نفس الوقت يمتدحون ديكتاتوريّات لن يقووا على العيش داخلها... فعلى الرغم من النقائص التي تعتري دولة القانون، فلا يمكن أن نقارن بين العيش فيها والعيش في إحدى الديكتاتوريّات هنا وهناك. يبقى مع ذلك أن العيش في بلدٍ ديموقراطيّ لا يحمينا من أن نكون عرضةً للعديد من الآليات الرَّقميّة والدعائيّة والإعلاميّة -انطلاقاً من التنبيهات أو الوكزات الرَّقميّة (nudges) ووصولاً إلى الخوارزميات- تشكِّل رغباتنا وتختزل سلوكياتنا في مجموعة من البيانات. الأخ الأصغر ليس أقلّ نشاطاً من أخيه الأكبر. إنّ تحويل الفضاء العام إلى قفصٍ زجاجي، وصياغة الرغبات عن طريق الذَّكاء الاصطناعيّ، والمحاكم الرَّقميّة التي لا تترك للمُتهمين حتى فرصة الدفاع عن أنفسهم كلّها أعداء للحرّيّة تعيش وتنمو وتتنفَّس محتمية بهذه الحرّيّة.
لم تعد عين الجهات الأجنبيّة وحدها ترصدنا، بل عين الهاتف الذَّكي التي يمكن أن يفتحها جارك خفية ليتلصص عليك. «النقطة الهامة، يقول ميشيل فوكو في مؤلَّفه إرادة المعرفة الصادر سنة 1976، ستكون هي أن نعرف تحت أيّة أشكال، وعبر أيّة قنوات، ومن خلال الانزلاق في أيّة خطابات، تمكَّنت السلطة من النفاذ إلى أكثر التصرُّفات دقة وفرديّة. وأيّة طرق سمحت لها بالوصول إلى أكثر أشكال الرغبة ندرةً وصعوبة في الإدراك، وكيف نفذت إلى المُتعة اليوميّة وسيطرت عليها». بيد أن أحد أكثر العوامل إثارةً للدهشة في ديستوبيا «جورج أورويل» «1984» هو أنها، وهي تعالج مسألة الاستبداد السياسيّ في الاتحاد السوفياتيّ، فإنها تصف بشكلٍ كامل أيضاً الاستبداد المُلتوي وغير المُعلن الذي نتعرَّضُ له باستمرار. دعونا نأخذ كمثال على ذلك نص الإعلان عن تطبيق جميعاً لمُكافحة كوفيد: «إذا كنتُ من المُخالطين، أعزِل نفسي فوراً وأحذِّر أقربائي...».. التوصيات لم تعد تكتب في صيغة الأمر، ولكن بضمير المُتكلِّم (كما هو الحال مع بعض الإعلانات: «مع كارفور، أنا إيجابية»، «لوريال؟ لأنني أستحقه»،إلخ). ومثل هذه الطريقة تؤدِّي إلى حرمان المُرسَل إليه من أيّة مبادرة، على عكس فعل الأمر الذي يترك للمُرسَل إليه الحرّيّة في أن يقول لا.
فالوصلاتُ الإعلانيّة التي تضع نفسها في مكاني لكي تبلغني عن طبيعة رغباتي تهاجم الرغبة في حدِّ ذاتها، كما تهاجم الديكتاتوريّات الإرادة. قوة الأخ الأكبر (مثل قوة صانعي الإعلانات) تأتي من حقيقة أنه بدلاً من إخضاع الفرد، فهو يعمل على نحت أحاسيسه وعلى إخباره بمَنْ يكون وما الذي يرغب به دون أن يكون هذا الفرد واعياً أو قادراً على الفصل بين ما يُملَى عليه وما يرغب به واقعياً. حيث يقول «أوبرايان لوينستون سميث»: (نحن لا نطمح فقط إلى الحصول على طاعة سلبية، أو حتى على أكثر أشكال الخضوع انحطاطاً. فعندما ستأتي إلينا أخيراً يجب أن يكون ذلك بملء إرادتك... نحن لا ندمِّر المارق لأنه يقاومنا... بل نغيِّر عقيدته. نأسر روحه، ونعطيها شكلاً آخر... كان الأمر لدى الحكام الشموليّين يُصاغ كالتالي: «يجب عليك»، أمّا لدينا فيُصاغ بـ«هكذا أنت»).

في وقت أصبحنا فيه ضحية لِكَمٍّ متنامٍ من الأخبار الزائفة،



هل ينبغي الحدُّ من حرّيّة التعبير باسم الحقيقة؟ هل على الدولة أن تكافح انتشار هذه الأخبار؟ أليس هناك خطرٌ من أن تتطوَّر الأمور باتجاه وزارة حقيقة أخرى، سوف تقرِّر ما هو صحيح وما هو زائف؟

- عندما تفرض الشبكات الاجتماعيّة الرقابة على رئيس دولة، فإننا نتهم شركات الجافا* بالحدِّ من حرّيّاتنا، ولكن عندما تتكفَّل الدولة بذلك، فإننا نرى في ذلك تمظهراً للديكتاتوريّة! لا بدّ من الحسم في الأمر... كان لدينا مرشح لا يعترف بخسارته، وعندما تتسبَّب دعواته إلى التمرُّد في غزو مبنى الكابيتول وتفضي إلى وفاة خمسة أشخاص، فليس من قبيل الإجهاز على الحرّيّة أن تقوم المنابر المعنية بإبعاده، وأن يتكفَّل القانون، من ناحيةٍ أخرى، بتجريده من القدرة على إلحاق المزيد من الضرر. والقيام بذلك لا يعني التشريع بشأن ما ينتمي للحقيقة وما يخالف الحقيقة. وعلاوة على ذلك، فإن ظهور دكاكين إعلاميّة الغاية من وجودها هي إنتاج أخبار زائفة يفرض علينا، من أجل وقفها عن إلحاق أضرار ملموسة بالغير، أن نتوفَّر على أدوات قانونيةٍ جديدة. لا وجود لأي استبداد في هذا الموضوع. وأخيراً، فإنّ وزارة الحقيقة في رواية «1984» ليست مسؤولة عن «الحقيقة»! ودورها ليس تزوير المعلومات طالما ليست هناك أيّة معلومات من الأصل، بل إعادة كتابة التاريخ وفقاً لاحتياجات الحاضر. مثل هذا البلد الجار لأوسيانا الذي كان حتى الأمس القريب، عدواً طبيعياً للأخ الأكبر، فتمَّ تحويله إلى حليفٍ أزليّ.

ولا يمكن العثور على معادل لوزارة الحقيقة حالياً في قانون مكافحة الأخبار المُزيَّفة، الذي تمَّ تعديله مراراً وخضع للترشيح الديموقراطيّ بوسائل شتَّى قبل إصداره. بالمُقابل، فنحن نشهد عودة قويّة لوزارة الحقيقة في القرن الحادي والعشرين في كلِّ مرّة يطمح فيها البعض إلى إعادة كتابة التاريخ وفقاً للتعريف الذي تكوَّن في القرن الحادي والعشرين للجواب عن سؤالي: ما هو الخير؟ وما هو الشر؟.. إنها وزارة الحقيقة التي تقوم بإعادة بعث الحياة في «كارمن»، لأننا «يجب ألّا نُظهر موت امرأة على خشبة المسرح» (حدث ذلك في النسخة الجديدة من مسرحية «كارمن» تحت إدارة فنّيّة للمُخرج «ليو موسكاتو»، (والتي تمَّ عرضها في عام 2018))، إنها وزارة الحقيقة التي أزالت عنوان «الزنوج العشرة الصغار» من الرواية المعروفة لـ«أجاتا كريستي»، وألغت عروض فيلم «ذهب مع الريح»، أو قامت بتغيير اسم مدرسة ثانوية...

مثل «أورويل»، أنت صاحب فكر حُرّ، بطريقتك الخاصة. هل حُجَّة الأغلبية طغيان؟

- في عصر الشبكات الاجتماعيّة، يأخذ طغيان الأغلبية شكل جحافل منظّمة تقوم بتزوير قول معيَّن وإقصاء صاحبه أو إلغائه أو استعمال أعداد كبيرة من التغريدات لكتم صوته وحرمانه من حقّه في الدفاع عن نفسه. ماذا إذن عسانا نفعل حيال هذا؟ نلتزم الصمت؟ ذلك أيسر الأمور، لكنه يترك طعماً كريهاً في الفم. من الأفضل أن نردَّ ونهاجم الوحش.

■ **حوار: سفين أورتولي □ ترجمة: سهام الوادودي**

العنوان الأصلي والمصدر

«Raphael Enthoven: «Nous vivons déjà en 1984
Philosophie Magazine, Hors série N 48 hiver printemps 2021

* الجافا: اختصار لأسماء الشركات الأربع الأكثر قوة في مجال الإنترنت: (جوجل، آبل، فيسبوك، أمازون).

«توماس أوختر»

الانقسام يُولِّد رضاً نرجسيّاً والسعادة أكثر تعقيداً من الحزن

«يركض المُؤمنون بنظريّات المُؤامَرة خلف الشعور بالأمان المُطلق، بينما تمنحهم الانقسامات حول بلوغ هذه الغاية حالةً من الرضا النرجسيّ».. هكذا يُجيب المُحلِّل النفسيّ الألمانيّ «توماس أوختر»، في إحدى حلقات برنامج «مؤازرة / Hilfe»، الذي يُجرَى بثُّه ضمن بودكاست موقع «دي تسايت»، الذي يستضيف أطباء ومحلّلين نفسيّين وروائيّين يقدِّمون يد المساعَدة للقُرَّاء من خلال الإجابة عن قائمة من الأسئلة التي باتت تفرض نفسها في ظلّ ما أفرزته الجَائِحة من اضطرابات نفسيّة وسلوكيّة بين شرائح عُمريّة مختلفة على صعيد التعلُّم أو العمل أو العلاقات الشخصيّة أو المُجتمعيّة. يقدِّم «أوختر» بعض الاجتهادات في محاولة لفهم الحقائق التي طرأت على واقعنا، وهو ما تناوله في كتابه «حزن / Trauer» الذي يتطرَّق فيه إلى كيفية فهم مشاعر الحزن وتفكيكها، درءاً للوقوع في العديد من الأمراض النفسيّة، وعلى رأسها الاكتئاب، واضطرابات السلوك وتحطُّم الثقة.

سيد «أوختر»، أجريت مؤخَّراً محادَثة ممتعة وحيويّة للغاية مع أحد الحرفيّين، ولكن في نهاية المُحادَثة، فاجأني الرجل بأنه من أصحاب نظريّات المُؤامَرة حول كورونا. في الواقع، عندما أسمع شيئاً كهذا، أُصاب بحالة من الإجهاد الشديد. لديَّ شعورٌ دائم بأن مثل هذه المُناقشات لا تستحقّ العناء على الإطلاق، لكونها لا تُجدي ولن تسفر عن شيء.. في رأيك، هل أنا مُخطئ؟

- ينبغي أولاً استيعاب دوافع هؤلاء قبل صرف النظر عن مناقشتهم. يجب على المرء أن يأخذ في الاعتبار أن مثل هذه القناعات لم تتولَّد لديهم من العدم، بل أنها تلعب دوراً ووظيفة مهمَّة لدى هؤلاء نزولاً على دوافع نفسيّة شخصيّة. من الصعب أن ننكر أن «نظريّات المُؤامَرة» أصبحت بمثابة بركة عميقة تبتلع أغلبنا، وذلك نظراً للحالة التي وضعتنا فيها أزمة كورونا.. صِرنا نَرتع في فضاءٍ هائل من عدم اليقين. الاستناد إلى فرضية أن الفيروس نشأ في أحد المُختبرات وجرى إطلاقه في وجه العَالَم من منطلق الصراع على السلطة وسباق الهيمنة، إنما تمنح البعض حالة من الأمان الشخصيّ وبلوغ طرف خيط وسط ضباب التساؤلات، حتى وإنْ كانت فرضية مقبولة بالكاد، وذلك لأنها تجعلهم يعرفون الآن ما وراء هذا «المجهول». نظريّات المُؤامَرة تمنح الأفراد هذا النوع المُضطرب من الأمان، خاصّة أولئك الذين يحتاجون إليه بشدّة، لكونهم عاجزين عن قبول الواقع.

أتعتقد أن الأمر يتعلَّق بإعادة ترتيب العَالَم؟ وإذا ما كنّا نعيش في حالة من «الفوضى الخلاقة» -إذا جاز التعبير- هل هناك فئاتٌ عُرضة للوقوع في هذه الانقسامات أكثر من غيرهم؟

- في الأغلب، تُعَدُّ سيناريوهات إعادة ترتيب العَالَم هي الأكثر حضوراً في خلفية الأحداث الراهنة. إحدى الآليات التي كثيراً ما يكون لها دورٌ مهيمن في مثل هذه الأوضاع، من منظور التحليل النفسيّ، ما نُطلق عليه مصطلح «الانقسام» أو «الضديّة»: «هناك الأقوياء والضعفاء، الخير والشر، حيث تنتعش المُتناقضات في ظلِّ الأزمات وتجد لها أتباعاً ومريدين». ومن المُتوقَّع أن العَالَم الذي صار -أكثر تعقيداً وتفسُّخاً- سيعود مرّة أخرى إلى صيغته الأكثر بساطة. المُثير للاهتمام حقّاً أن الصورة الذهنيّة الحالية عن العَالَم -التي امتلأت بمُؤامَرات الأقوياء وسط جهل الجموع بما يدور خلف الكواليس- هي بالفعل صورة رديئة للغاية من الناحية الواقعيّة. ولكن هذا، في رأيي، ينُذِر بهيكلة عالَمية وشيكة، ممّا يزيل مخاوفي بعض الشيء. أمّا عن تعاطي البعض مع ما يحدث بطريقةٍ تصادميّة، فهناك قاعدة عامة تقول إنَّ المواقف المُتطرِّفة تجبر الناس على تبنِّي مثل هذه الآليّات. فعلى سبيل المثال، عندما أخذ العَالَم في الانهيار، مثلما هو الحال في ظلّ أزمة كورونا، وعندما توالى فقدُنا للأحباء: «لم نوجِّه اللوم سوى للأطباء». هذا السلوك الهجومي يجعل الوضع الخارج عن السيطرة أكثر وضوحاً مرّةً أخرى في خلفية إدراكنا المُجَهد. ومع ذلك، يمكنني القول إنَّ الأفراد باستطاعتهم دائماً التعامُل مع العَالَم الفوضويّ بطرقٍ مختلفة وسلوكيات غير متوقَّعة.

من أين تنشأ هذه السلوكيات إذن؟ وما الذي يَبقى داخلنا بعد خفوت هذا الصخب؟

- في علم النفس التنمويّ، نتخيَّل نحن المُحلّلين النفسيّين الحالة الأوليّة التي تُشكِّل فيها الأم مع طفلها صيغة تكافلية متشعِّبة لا محدودة، حيث تتلاشى فيها الأنا والذات تماماً. لكي نصبح قادرين على تشكيل الأنا الخاصّة بنا، لابد من



تنظيم سير مثل هذه الحالة الأوليّة ومراعاة تتابعها بشكلٍ سليم، كما ينبغي أيضاً تقسيمها إلى أطوار. نفس الشيء يحدث بطريقة فطريّة مع رؤيتنا للأضداد. ففي البداية يكون هناك الخير والشر. ثمَّ بعدها لا نرى سوى الخير فقط، أو الشر فقط، أو المُتعة فقط، أو المُنغصات فقط. وتتلاشى تدريجياً الرؤية المُزدوجة للمُتناقضات لتهيمن أحادية الرؤية بدلاً من الرؤية الجمعية. عن نفسي، لا يمكنني تَحمُّل الأشياء السيئة أو الشريرة أو غير السارة. هي مُحفِّزة من تلقاء نفسها على الانقسام، كما أنها تمكث طويلاً في داخلنا ولا تغادر سريعاً على عكس السعادة أو البهجة التي تشبه ومضة يصعب إطالة أمد بقائها. هكذا يقبع الحزن في داخلنا ويتعنَّت في حزم حقائبه.. في التطوُّر النفسيّ الصّحيّ، يتبع هذا الانقسام الرأسي حول مفهومي الخير والشر، انقسام آخر أفقي يخلق ازدواجية بين كلتا الحالتين، وهي التي تفسِّر كيف نحمل داخلنا بوصلة استشعار الخير والشر.

وبعد كلّ ذلك، يُصبح العَالَم، فجأة، معقَّداً بشكلٍ رهيب...

- بالضبط. لقَّنت تجربة الوباء الجميع درساً قاسياً، وهو أن الأمور ليست بسيطة في العادة. في مسار الحياة نتعلَّم العديد من الآليّات والأساليب المُختلفة -آليّات تنظيميّة وآليّات دفاعيّة- التي تساعدنا بدورها على التعامُل مع مثل هذه الأزمات. ولكن إذا تعقَّدت الأمور فجأة بصورةٍ مربكة وضاغطة للغاية، فقد يحدث للبعض أن ينزلقوا إلى حافة الهاوية والانهيار. لقد جاء الفيروس القاتل إلى العَالَم نتاجاً لأخطاء البعض. إنَّ الانقسام والاختلاف يخلق حالة من الرضا النرجسيّ. لكن هذا يعني أيضاً أنه علينا أن نقول وداعاً لحقيقة محورية، وهي: «ليس هناك ما هو سهل؛ سواء هذا العَالَم، أو ذلك المُجتمع، أو ذاك الواقع»...

لقد تعلَّمنا من تجربة الوباء تقدير كلّ ما كان يمثِّل حقّاً مكتسباً في الماضي،.. فهل يمكننا الآن أن نقبض على السعادة الخافتة في ظلِّ النمط الحياتي الجديد وعودة المظاهر الحياتيّة السابقة، ولو بصورةٍ مؤقَّتة؟ ولكي نشعر بالسعادة، هل يجب أن نكون تعساء مسبقاً؟

- السعادة هي تجربة دقيقة للغاية، ربّما أكثر تعقيداً من الحزن، إذ يصعب التمسك بها أو الإبقاء عليها لفترةٍ طويلة نسبيّاً. يبدأ الأمر بالتفكير النظريّ فيما إذا كان «الشّخص المحظوظ» يمكنه أن يختبر سعادة دائمة ومثالية. ببساطة لن يكون الأمر طبيعيّاً، بل سيكون مملاً، وذلك وفقاً لرؤى فرويد. لحظات الذروة تنتمي، في الأصل، إلى جوهر السعادة نفسها. وهو استثناء، في رأيي. يمكنك أن ترى ذلك بوضوح شديد في الوضع الذي نعيشه حالياً. نحن جميعاً سعداء الآن بأشياء كانت تبدو في السابق طبيعيّة تماماً: العمل الجماعيّ، وحرّيّة الحركة، والحياة الثقافيّة. فقط تأمَّل معي، إذا لم يتم حجب هذه المظاهر وحرماننا منها لمدة عام ونصف العام تقريباً، لم نكن لنشعر بمثل هذه السعادة الغامرة لمجرَّد القدرة على خوض ذات التجربة مرّةً أخرى. تنشأ السعادة، في العادة، عندما يسود الشعور بالفقد، ثمَّ يتمُّ تعويضه. وهي آليّة نفسيّة أيضاً ترتبط بمفهوم الاعتياد وديناميكيّة الحجب أو المنع وما تضفيه من حالاتٍ وليدة عند إنهاء ذلك المنع.

يبدو الأمر مأساوياً. لطالما عرفنا هذه السعادة الدائمة في السابق دون أن ندركها، إلّا أنها ضاعت إلى الأبد في زمن الكورونا. ولكن يظلّ التوق إلى العودة متأصِّلاً بداخلنا لدرجة أننا لا نكفُّ عن السعي المُستمر إلى استعادتها... تُرى، أيخفف ذلك من حظوظنا السيئة في الواقع؟

- ليس لدينا أي سلطة أو تأثير على ركضنا خلف السعادة، لكن يمكننا التأثير في كيفية تعاملنا مع هذا السعي. في مجال التحليل النفسيّ، نطلق على الحاجة إلى الرغبة الدائمة في أن نكون راضين تماماً، بدون منغصات، «سلطة المُتعة». يجب علينا أن نتقبَّل احتمالات الفشل في بلوغ مثل هذه الحالة. من ناحيةٍ أخرى، إذا قبلنا كلتا الحالتين: «حاجتنا للسعادة من ناحية، وحقيقة أن الحياة تنطوي على مظاهر التعاسة من ناحيةٍ أخرى، نكون قد توصلنا إلى ما هو أهم من «سلطة المُتعة»، وهو ما نسمّيه «سلطة الواقع». بلوغ هذه المساحة مفيد جدّاً. عن نفسي، تعلَّمت من «سلطة الواقع» أن تجربة التعاسة عادةً ما تتبعها تجربة أخرى من السعادة. هذا يجعلني أتغلَّب على الأوقات الصعبة بشكلٍ أفضل، لأنني أثقُ فيما سيتبعها من حالةٍ ستبدِّدها. نتعلَّم هذا الدرس في وقتٍ مبكّر من التطوُّر الصّحيّ، فعندما يجوع الطفلُ الرضيع، يبكي بشدّة حتى يتمَّ إرضاعه. ولكن بمرور الوقت، يتعلَّم الطفل التعامل مع الجوع بشكلٍ أفضل وأفضل، فهناك يقين بأنَّ الفقدَ لا يمتلك صفةَ الديمومة.

■ **حوار: ألارد كتليتس □ ترجمة: شيرين ماهر**

المصدر:

https://www.zeit.de/zeit-magazin/2021/30/psychoanalytiker-thomas-auchter-spaltung-realitaet-komplexitaet-schutz?fbclid=IwAR2dZ3ngW_e5PfBmHPMAryrMemw91euHgeCw35VgsRLN0YgjlAl6cNSh8Gk

مرآة الرغبة

اعتاد الإنسان منذ قرون أن يصنع لنفسه مرايا كي ينظر فيها إلى نفسه وإلى العَالَم من حوله. كانت هذه المرايا ممهورة بتوقيع الاقتصاد أو السياسة أو الثقافة أو «الصحّة» كي لا نقول العلم. إلّا أنّ الأمرَ اختلف مع «الكوفيد»، أي مع «الجَائِحة» منظوراً إليها في هذا الزمن «الإعلاميّ والاتّصاليّ» بامتياز. لقد بدا الإنسان مقبلاً في هذه السنوات على «مرآة جديدة» فرضت نفسها عليه. مرآة منفلتة، مراوغة، «لا يمكن تصنيفها» كما قال جاك جوليار، لأنّها يمكن أن تُنسب إلى التصنيفات كلّها، كلّ بمقدار. فكيف ينظر الإنسان إلى نفسه في هذه المرآة المتشظّية؟ كيف ينظر إلى نفسه في «مرآة الجَائِحة»؟



آدم فتحي

في الجزءِ الأوّل من مغامرات «هاري بوتر» للكاتِبة «ج.ك.رولينغ»، يكتشف الطفلُ ابنُ الحادية عشرة مرآةً عجيبة. ينظر فيها فلا يرى وجهه، بل يرى أباه وأمّه اللذين فقدهما منذ سنوات. يأسرهُ مرأى والديه الراحلين وتفتنه المرآةُ بقدرتها العجيبة فإذا هو منذئذ عبدُ تلك اللحظات. لا يهمّه من أمر النهار إلّا انتظار الليل كي يعود متخفّياً إلى حيث أبوه وأمّه في المرآة، وتلك الكتابة الغريبة المحفورة أعلاها: «تبغرلا نم كبلق يف أم لب كهجو كيرا ال انا».

كلمات غامضة حاول «هاري بوتر» تفكيك شفرتها دون جدوى، ثمَّ اكتفى منها بتلك الأصوات الصامتة التي أصبحت أنيس لياليه الطويلة رفقة مرآته الفاتنة. وكان في وسعه أن يخسر طفولته بتلك الطريقة لولا أن حذّره مُعلّمُهُ «دمبلدور» من مغبَّة الأمر، شارحاً له سرّ تلك الكلمات، التي لا بدّ من قراءتها على طريقة المرايا، أي معكوسة، فإذا كلمة «تبغرلا» تعني «الرغبة»، وإذا العبارة كلّها تُقرَأ بدايةً من آخر حروفها، من اليسار إلى اليمين، فتقول: «أنا لا أريك وجهك، بل ما في قلبك من الرغبة».

هكذا ينتبه هاري بوتر إلى أنّ مرآة تبغرلا هي في حقيقة الأمر مرآة الرغبة: المرآة التي تعكس له ما يريده وما يرغب فيه لا ما يعيشه في الواقع. ولو أتيح للكاتبة «ج. ك. رولينغ» أن تؤلّف روايتها خلال انتشار جائِحة «الكوفيد»، لما غفلت عن التلميح إلى أنّ الإنسانيّة كلّها «تستعيد طفولتها» بمعنًى من المعاني مع هذه الجَائِحة، وأنّ هذه المرآة قد انتقلت من التعبير عن «الاقتراب ممّا نرغب فيه»، إلى «التباعُد عمّا لا نرغب فيه».

...

اعتاد الإنسان منذ قرون أن يصنع لنفسه مرايا كي ينظر فيها إلى نفسه وإلى العَالَم من حوله. كانت هذه المرايا ممهورة بتوقيع الاقتصاد أو السياسة أو الثقافة أو «الصحّة» كي لا نقول العلم. إلّا أنّ الأمر اختلف مع «الكوفيد»، أي مع «الجَائِحة» منظوراً إليها في هذا الزمن «الإعلاميّ والاتّصاليّ» بامتياز. لقد بدا الإنسان مقبلاً في هذه السنوات على «مرآة جديدة» فرضت نفسها عليه. مرآة منفلتة، مراوغة، «لا يمكن تصنيفها» كما قال «جاك جوليار»، لأنّها يمكن أن تُنسب إلى التصنيفات كلّها، كلّ بمقدار. فكيف ينظر الإنسان إلى نفسه في هذه المرآة المتشظّية؟ كيف ينظر إلى نفسه في «مرآة الجَائِحة»؟

...

كانت للمرايا معنا قصّةٌ أبعد من هذا بكثير. فلا شكّ أنّ الديناصورات والفيلة الأسطوريّة والطيور الناريّة التي ملأت الفانتازيا والخرافات كانت اكتشفت قبل الإنسان البدائيّ فداحة وجوهها معكوسة على صفحات المياه في الليالي المُقمرة وفي ضوء الصباحات. كانت تلك «مرآة الفطرة». ثمّ جاءت «مرآة الزينة» التي عرفها الفراعنة واليونان والرومان والقرطاجيّون وتفنّنوا في صنعها من الذهب والفضة والنحاس والبرونز.

إلى حين ظهور المرايا البلّوريّة، ربّما في البندقيّة قبل ستّة قرون.
دون أن ننسى «مرآة نرسيس»، تلك التي جعلته يعشق نفسه ليخسر نفسه. نرسيس الذي اعتبره ألبرتي «مخترع فنّ الرسم»، لأنّه تحوَّل إلى زهرة ما أن عانق نفسه في ماء العين. وهل الرسم غيرُ ذلك؟ هكذا يسألنا ألبرتي سنة 1435.
لكنّ مرآة مَانْ رَايْ التي عرضها تحت عنوان «أوتوبرتريه» أثبتت بعد ذلك أن للمرايا حدوداً، وأنّ نرسيس لم يرَ صورته، بل رأى صورة شخص آخر. كان مَانْ رَايْ يستعيد طفولته باستعادة وهم «مرآة الحقيقة» كما عرفناها في حكاية الثلجة البيضاء. «مرآتي، مرآتي الجميلة، قولي لي إنّي أنا الأجمل». هكذا كانت الملكة تترجّى مرآتها. ثمّ اتّضح أنّ المرآةَ تكذب حين تقلب اليمين يساراً وتضع الخطوط في إسار الضوء والمسافة. على الرغم من أنّ بيكاسو تساءل بعد ذلك إنْ لم يكن كذبها هو الصدق المطلوب!
ممّا أعاد الاعتبار إلى سخرية أفلاطون و«مرآته الحاجبة»، حين كان يطلب من محاوريه أن يمسكوا بمرآة وأن يروا فيها الشمس والأشجار والحيوانات وغيرها. هكذا استنتج أفلاطون أن الرسم والفنّ عموماً الذي يحاكي الطبيعة لا يقلُّ خطراً عن المرآة، فكلاهما يبتعد بالأرواح عن الواقع ويحجب عنها الحقيقة. لكنّ «سبينوزا» لم يطرد المرآة من مدينته الفكريّة، بل جعلها «مرآةً كاشفة» على طريقة متصوِّفتنا الكبار، منطلقاً منها لبناء نظريّة وحدة الوجود. ولعلّه كان يردّ لها الجميل، فقد كان صقل المرايا لمدّة طويلة مصدر رزقه الوحيد.
وحين حلّل فوكو لوحة فيلاسكيز، كان الإنسان الحديث يتحوَّل في الفكر الغربيّ من ابن آدم وحوّاء إلى ابن المرآة. «مرآة عمياء» لفرط ما ترى. مرآة تخفي لفرط ما تظهر. وكان في وسع بورديو أو بودريار تسميتها فيما بعد: «مرآة التلفزيون». هذا المخفيّ هو اللامفكَّر فيه الذي حاولت مدارس التفكير والتأويل والتفكيك اللحاق به عبثاً على امتداد القرن العشرين، كي تكتشف أخيراً أنّه موجود في الثقافة: المرآة الوحيدة التي لا تكذب.
...
في بداية الجَائِحة، نظر العَالَمُ إلى ما يحدث «في الصين» نظرتَهُ إلى «شيء غريب» يحدث «للآخر البعيد». كان المُواطن الأوروبيّ مطمئنّاً إلى «تفوُّقه»، وكان المُواطن الأميركيّ معوِّلاً على «قُوّته»، وهكذا دواليك.
اكتفتْ كلّ دولة بالفرجة على الآخرين معتقدة أنّها الأقوى، أو أنّها «محروسة» أكثر من الغير! ولعَلّ لحظة «ترامب» كانت الأوضح دلالة في هذا السياق. ثمَّ اتّضح أنّ «الهشاشة» كامنة في الجميع، وأنّها لم تقتصر على البنى التحتية المُتعلِّقة بالصحّة، بل طالت البنى العقليّة أيضاً، حيث دكّت الجَائِحة كلّ الأسوار وأطاحت بكلّ المتاريس، بدايةً من الأقنعة وصولاً إلى اللقاحات مروراً بنظريّات المُؤامرة. لقد لعبت الجَائِحة دور مرآة التباعُد، وشيئاً فشيئاً اتّضح أنّ «القناع» هو «المرآة».
...
نحتاج دائماً إلى مرآة نرى فيها حقيقة وجوهنا. لكنّها تنكسر ويطالها الصدأ أو تعروها الخدوش وتختفي ملامحنا بغياب وجهها الصقيل. لذلك أصبحت الشعوب ترى نفسها من خلال ثقافتها. وتدافع عن ثقافتها. وتبحث عن وجهها الثقافيّ.
أمّا ذاك الذي لا يحلم إلّا بتصريف فعل «هجَر» في جميع الأزمنة فهو لا يكره شيئاً مثلما يكره وجهه. الوجه الجميل في نظره هو دائماً وجه الآخر. لغة الآخر. ثقافة الآخر. فكر الآخر. فنون الآخر. طريقة قصّ شعر الآخر وهندامه وطعامه ومشيته. إنّه يكسر مراياه كلّها بما في ذلك مرآة المرايا: ثقافته الخصوصيّة. ليستورد مرآة «تبغرلا». مرآة الرغبة. المرآة التي يتوهَّم أنّه يرى فيها ما يرغب فيه وما يحلم به. لكنّه سرعان ما يسمع «لو خرجت من جلدك ما عرفتك». تلك هي العبارة التي يُصفع بها كاسرُ مرآته. في دلالة على أنّه قد يكسر مرآته فيخسر نفسه ويطيل عمر محنته، لكنّه أبداً لن يكون الآخر.
...
ذاك هو «درس الجَائِحة» الذي ينبغي على الإنسان فهمه قبل فوات الأوان. درس الإنسان الذي يعرف أنّه لن يغيّر واقعه إلّا إذا تحمَّل تبعات أحلامه.
وإذا كان من حقّه أن يطالب بمناخ من الحريّة والكرامة يتيح له أن يحبّ وجهه في مرآته، فإنّ من واجبه ألّا ينتظر هديّة من أحد. عليه أن يتصالح مع ذاته وألّا يعوّل إلّا عليها. ففي غياب هذا الصلح لا تعدُّد ولا نديّة ولا تحقُّق للرغبة.
تتحوَّل الحياة كلّها إلى بئر يرى فيها الأسد وجهه منعكساً على صفحة الماء فيهجم عليه ويغرق. تلك هي مَهْلَكة المرايا إذ يرتطم بعضها ببعض فلا يبقى منها غير الهشيم. في حين تتعالى صرخة أندي وارهول في المدن الهرمة: «ماذا يتاحُ للمرآة أن ترى، لو أنّها نظرت في مرآة؟».
ثمَّ عليه أن يشاهد الفيلم مليّاً وأن يقرأ الكتاب جيّداً، كي يسمع «دمبلدور» وهو يهمس لتلميذه «هاري بوتر»:
«والآن هل فهمت درس مرآة تبغرلا يا بُنَيّ؟ إنّها تقول: لا فائدة من الإقامة في الأحلام إذا نسينا العيش في الواقع».

العُملات الرقميّة ومستقبل التعامُلات المالية

في خِضَمّ الجنون المُصاحب لارتفاع أسعار العُملات المُشفَّرة غير الخاضعة للحكومات (مثلاً وصول سعر «البتكوين» إلى ما يُقارب 64 ألف دولار)، لم تجد المصارف المركزية بدّاً من النظر في حلول تمكّنها من الإمساك بخيوطِ التحكّم في سوق العُملات هذه، الموازية لأسواق العُملات التقليديّة. فلا يبدو أن ثمّة خياراً آخر للحكومات وهذه العُملات تتوالد وتتشعَّب (أكثر من 5000 عملة مختلفة، ليس «البتكوين» إلّا أشهرها وأغلاها سعراً).

ربّما تكون محاربة التجارة الإجرامية الخفيّة وغسل الأموال التي تيسرها هذه العُملات المُشفَّرة، أو محاولات التهرُّب الضريبي، على رأس قائمة أولويات المصارف المركزية في محاولتها السيطرة على السوق المُنفلتة التي تشكّل اللامركزية قاعدتها. ثمَّ إن إعلان شركات عديدة أنها قيد قبول العُملات المُشفَّرة، مثل شركة «تسلا» للسيارات الكهربائية، وعملاق التجارة الإلكترونيّة «أمازون»، يضع المصارف المركزية أمام الأمر الواقع، وهو بمثابة إذن للعُملات المُشفَّرة بالدخول من أبواب مُشرَعة.

الفكرةُ الأساسيّة الأولى وراء العُملة المُشفَّرة وسبب اختراعها هو انتزاع التحكُّم بالعُملة من المصارف المركزية، بحيث لا يتحكَّم فيها أحد، لا أي جهة أو دولة. ربّما كان ذلك ردّ فعل وصرخة احتجاج على انهيار الأسواق المالية عام 2008. اللامركزية هي سمة العُملة المُشفَّرة والصفة الضرورية لها. وتكتسب العُملة المُشفَّرة قيمتها في سوق العرض والطلب مثل أي سلعة، كذلك اعتبرتها وكالة تجارة سلع العقود الآجلة الأميركيّة (US Commodity Futures Trading Commission-CFTC) «sion». وفي حين أن الحكومات والمصارف المركزية هي التي تقرِّر إصدار النقود والعملات الورقية والتحكُّم في السيولة، في مقابل ذلك يتمُّ التعدين (أنظر أدناه) عن عملات «بتكوين» الجديدة (بمثابة إصدار عملات مشفَّرة جديدة). والفرق أنه، مثلاً بالنسبة لعملة مشفَّرة واحدة هي «البتكوين»، ينتهي التعدين لدى وصول الرقم إلى 21 مليون عملة. ومن المُتوقَّع الوصول إلى ذلك الرقم (عام 2140) حسب التوقّعات الحالية. وعدد عملات «بتكوين» الحالية قيد التداول (عام 2021) يصل إلى ما يقارب 19 مليون عملة. ولأن سعر العملة الواحدة آلاف الدولارات، ولتيسير التجارة فيها، تمَّ تقسيم «البتكوين» إلى فئاتٍ أصغر تسمَّى كلّ واحدة «ساتوشي» (نسبة إلى مخترعها). وفي حساب اليوم فإنّ ألف (ساتوشي) تساوي ثلث دولار أميركيّ تقريباً.

عندما ظهر «البتكوين» للمرّة الأولى عام 2009 كان سعره (صفر). بعد ذلك بعام وصل سعر «البتكوين» إلى أجزاء من السنت الأميركيّ، وفي عام 2011 وصل السعر إلى دولار واحد للمرّة الأولى. وفي عام 2021 وصل سعر «البتكوين» إلى 64 ألف دولار، ممّا أوجد شريحة كبيرة من مليونيرات العُملات المُشفَّرة. وهذا الصعود الجنوني هو ما يفرض على الحكومات إلقاء نظرة فاحصة وتسنين القوانين للحفاظ على حقوق المُستثمرين على أقلّ تقدير. ومثلما أن العُملات الورقيّة قد تتلف أو تفقد، فالرقميّة قابلة للفقدان هي أيضاً عندما يتمُّ نسيان أو ضياع كلمة السر للدخول إلى البرنامج أو لدى أي أمرٍ يؤدِّي إلى تدمير البرامج على الحاسوب أو فقدان الحاسوب، إلخ. ولكن ليس على غرار فقدان كلمة السر للبرمجيات، حيث يمكن الاتِّصال بجهةٍ ما تتيح لك اختيار كلمة سر جديدة، فالعُملات المُشفَّرة بصفتها اللامركزية لا أحد هناك ليتيح لك كلمة سرٍّ جديدة. وهذا -فقدان الأفراد البيانات المُتعلّقة بالعملات المُشفَّرة- قد يظن أنها نادرة الحدوث، إنما الواقع أنها تقدَّر بنسبة كبيرة تصل إلى عشرات البلايين من الدولارات.

التنقيب (أو التعدين، كما في المناجم) عن عملات مشفَّرة هو عملية حسابية معقَّدة عن طريقها يتمُّ توليد عملات جديدة. والحواسيب المُستخدَمة في التنقيب تتطلَّب طاقة كهربائية غير عادية تمَّ تقديرها بحيث إن الطاقة المطلوبة لها فقط تتسبَّب في تلويث البيئة، وتتسبَّب في أحيانٍ كثيرة إلى سرقة خطوط الكهرباء. وتميِّز بعض العُملات المُشفَّرة نفسها بأن التعدين عنها لا يستهلك طاقة جمَّة. وفي المُتوسّط يولد خبراء الحاسوب تقريباً (144) «كتلة، block» «بتكوين» يومياً. ولأنّ كلّ كتلة تساوي (6.25) «بتكوين» فعدد «البتكوين» اليومي المُضاف يصل إلى 900 يومياً، يتمُّ مكافأة المُنقِّبين عنها بوحدات العُملة ذاتها. وعملياً، فليست الكتلة سوى ملف حاسوبي يمثِّل صفحة (كما في صفحات المُوازنات أو دفتر الحسابات). يتمُّ حفظ هذه الصفحات في قاعدة بيانات موزَّعة على حواسيب مختلفة، لا مركزية، وبالتالي لا تستطيع جهة



واحدة التحكُّم بها، ولا يمكن إبطال عملية تمَّت أو عكسها أو إلغاؤها. ولا يمكن أن تبدأ كتلة قبل اكتمال ما قبلها بتسلسل. وهذه السلسلة تسمَّى سلسلة الكتل (blockchain)، والتي تشكِّل عصب العُملات المُشفَّرة.

ردّ فعل المصارف المركزية

إزاء عالم جديد -ما بدأ كقطرة لم تعرها المصارف والحكومات بالاً- أصبح فيضاناً باتت المصارف في خشيةٍ منه أن يكتسحها. فأوجد التعاون بين المصارف المركزية وشركات الحوسبة حلولاً أصبحت تلوح في الأفق وإنْ لم تقم أي حكومة بتطبيقه إلى الآن. الصين في مقدِّمة الدول المُقبلة على التطبيق. وهذه الحلول تعرَف باسم (CBDC)، عملة المصارف المركزية الرقميّة. وبدأت الصين فعلاً باستخدام العملة الرقميّة (e-CNY) على نحوٍ تجريبي لدى محطَّات القطار. كما تجري التدابير للنظر في كيفية تكييف هذه العملة الرقميّة في الحالات المُختلفة، فيما يخصُّ زوار الصين والسواح مثلاً، وفي حالة انقطاع الإنترنت في بعض الحالات، وللتبادل الخارجي، وارتباط العملة الرقميّة بسلسلة الكتل (block-chain)، إلخ. والصين الأخرى، تايوان، هي كذلك قيد تطبيق ما أسموه العملة الحكومية: Govcoin. والهند كذلك أعلنت عن نيتها إصدار العملة الرقميّة قبل أيام، بالإضافة إلى السويد وفرنسا وجزر البهاما وتركيا، والفلبين، واليابان، وسويسرا. وهذه الدول في مختلف مراحل تطبيق العملة الرقميّة المركزية: البحث، أو التطبيق التجريبي الجزئي، أو دراسة جدوى وتقييم، إلخ.

التطبيق المقترح

عندما ابتدع «ستيف جوبز» (الآيفون) عام 2007 لم يكن يتصوَّر، كما لم يتصوَّر حينها أحد، المدى الذي سوف تصل فيها مركزية هذا الجهاز الصغير في جيوب الناس في حياتهم، بل في حياة الحكومات والدول والمُجتمعات، مثل تطبيقات الاحتراز من فيروس كورونا. ومثل ثورة الهواتف الذكيّة فإن بزوغ فجر العملات المُشفَّرة في عالمنا يشكِّل شرارة الثورة التي، كالمنجنيق، سوف يقذف بنا إلى عالم جديد لن نرى فيه العملات من أي نوع ولن نستخدم فيه البطاقات البنكية، لا العادية ولا الذكية. وباستخدام الهواتف الذكية فالفكرة كالتالي:

يتمُّ تنزيل برنامج للمحفظة الإلكترونيّة (مثلما هو موجود حالياً لـ«آپل» و«جوجل») على الهاتف الجوال وقد يبدأ التطبيق ببدء تغذية الحساب من حساب مصرفي متَّصل بالبرنامج. وهذا حاصل الآن. الإضافة الجديدة اتِّصال هذا البرنامج بالمصرف المركزي من جهة، ومن جهةٍ أخرى فالتعامُلات جميعها تكون عن طريق البرنامج على هاتفك: راتبك الشهري، فواتيرك، استلامك لمبلغٍ ما، مشترياتك الصغيرة والكبيرة، طالما أن الجهة الأخرى أيضاً تستخدم برنامجاً للمحفظة الإلكترونيّة التابعة للمصرف المركزي ذاتها.

أمّا بالنسبة لمخترع «البتكوين» فما تزال شخصيّته محاطةً بالغموض. القصّة الشائعة هي أن مخترعها هو «ساتوشي ناكاموتو»، وأنه المسؤول كذلك عن سلسلة الكتل. لكن التكهنات عمَّن يكون «ساتوشي» هذا، أو «هؤلاء» (باعتبار أنه ليس فرداً، بل فريق عمل) لم تفضِ إلى يقين. سبقت «البتكوين» محاولات عديدة في العقدين السابقين لظهوره لتحقيق عملة إلكترونيّة لم يُكتب لها النجاح. لكن نجاح «البتكوين» تخطّى كلَّ التوقّعات، وإنْ كان كثيرون مازالوا يصرّون على أن هذا النجاح والارتفاع الجنوني لسعره ما هو إلّا فقاعة. لكن الأمر الثابت، إن طالت المدة أو قصرت، هو أن العُملة الرقميّة، بشكلٍ أو بآخر، وبدخول المصارف المركزية في هذه اللعبة، هو المُستقبل العمليّ للعُملات. ■ **عبد الوهاب الأنصاري**

مصداقية الإعلام التقليدي



مرزوق بشير بن مرزوق

رغم أهمّيّة الأخبار والمعلومات التي تبثّها وسائل الإعلام التقليدية إلى الجمهور إلّا أن الأهمّ هو كيفية تناول الخبر والمعلومة فيها، لأن طريقة معالجة الأخبار والمعلومات في وسائل الإعلام، هي التي تمنح الوسيلة ومصداقيَّتها؛ بمعنى آخر: هناك خبر واحد ومعلومة واحدة، لكن هناك أكثر من أسلوب وطريقة للصياغة ولزاوية التناول ومعالجة المضمون؛ وبهذا، إن ما يصل إلى المتلقّي ليس شكل الخبر أو المعلومة كما كانت من مصدرها الأصلي، بل الخبر أو المعلومة التي تقصدها الوسيلة، وتهدف إلى إيصالها إلى المتلقّي: إنه الخبر (المعلومة) الذي انطلق من مصدره، ثَمَّ اجتاز عدداً من البّوابات التي يحرسها حرّاس البّوابات الإعلامية (The gate keeper)، حيث يعبر الخبر من خلال بوابة المحرِّر، ومدير التحرير، ورئيس التحرير، وأيضاً من بوّابة الرقيب الداخلي، والرقيب الخارجي، ولكلّ حارس أيديولوجيَّته وثقافته وموقفه الذي يعكسه على مضمون الخبر والمعلومة.

إن إحدى أهمّ وظائف وسائل الإعلام هي إعطاء المتلقّي المعلومات التي يحتاجها لكي يبني عليها توجُّهاته في قضايا السياسة العامّة، والإعلام من أهمّ مصادر تشكيل التوجُّهات للمتلقّي، ولهذا السبب تتحمَّل وسائل الإعلام هذه الأمانة ممّا يستوجب حرصها على مصداقيَّتها وموضوعيَّتها عند تناولها الأخبار والمعلومات.

ومن بين الأسباب التي تجعل المتلقّي واثقاً من الأخبار والمعلومات التي يتلقّاها، يومياً، من وسائل الإعلام هي العلامة التجارية (Logo)، وشهرتها، وموقعها بين وسائل الإعلام الأخرى، إضافةً إلى مصادرها التي تعتمد عليها في تقصِّيها للأخبار والمعلومات، فكلّما كان المصدر موثوقاً زاد ذلك من ثقة المتلقّي بتلك الوسيلة، وأخبارها، ومعلوماتها، وكلّما كانت مصادرها ضعيفة حدث عكس ذلك.

إن الموثوقية في وسائل الإعلام تعتمد على توازنها في عرض المعلومات والأخبار، وعلى موضوعيَّتها في تحرير الخبر والمعلومة؛ لذلك لا توجد علاقة أبدية ومتواصلة مع الوسيلة الإعلامية أو الاعتقاد بأن المتلقّي لا يمكن انفكاكه منها مثل (الزواج الكاثوليكي)، فإن فرصة الانفكاك بين الطرفين واردة في أيّة مرحلة، وفي أي وقت، حينما يشعر المتلقّي بأن هذه الوسيلة فقدت عدالتها وتوازنها وموضوعيَّتها ومصداقية مصادرها، وقد يكون سبب فقدان هذا الرابط بين



المتلقّي والوسيلة الإعلامية هو الخلفيّات الفكرية، والثقافية لحرّاس البوابة الإعلامية، وأصحاب القرارات في تمرير الخبر والمعلومات، أو عندما يتمّ فرض سياسات خارجية على هذه المؤسَّسات، سواء من السلطة أو حتى من مجالس إدارتها الذين يريدون حماية مصالحهم على حساب المصلحة العامّة.

إن ما حدث من انخفاض في معدَّل المشاهدة، مؤخَّراً، للقناة الإخبارية الأميركية (C.N.N)، دليل على عدم ثبات المتلقّي الدائم، وارتباطه بالوسيلة الإعلامية مهما كانت علامتها التجارية وشهرتها، فلقد ارتفعت معدَّلات المشاهدين في هذه القناة عندما كانت تصوغ أخبارها، وتقدِّم تقاريرها بطريقة غير متوازنة، بالتمام، عند تناولها أخبار «ترامب» الرئيس السابق لأميركا؛ ما جعل عدد المشاهدين الناقمين على سياسات الرئيس في ازدياد، لكنها فقدت، بعد ذلك، نسبة من مشاهديها عندما استمرَّت القناة في سياساتها السابقة نفسها رغم وصول إدارة جديدة إلى البيت الأبيض، والأمر نفسه تكرَّر مع قناة (Fox News) باصطفافها الدائم مع اليمين الأميركي، وهذه مجرَّد أمثلة عندما تفقد الوسيلة موضوعيَّتها وحياديَّتها في تناول الأخبار وصياغة تقاريرها.

وربّما من أهمّ الأسباب الحاليّة في فقدان وسائل الإعلام التقليدية انتشارها وحضورها عند المتلقّي، هو ظهور وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت منافسة لها، وعلى الرغم من عدم توفُّر دراسات عن مدى ثقة المتلقّي في مصداقية وموثوقية وسائل التواصل الاجتماعي، لكن مؤشّرات زيادة عدد المشتركين في هذه الوسائل دليل على تحوّل الجمهور إلى هذه الوسائل، فلربّما يراها أكثر مصداقيّةً من تلك التقليدية.

هناك عدد من الدراسات العلمية، والبحثية تشير إلى معدَّل فقدان الثقة والمصداقية في وسائل الإعلام التقليدية، وتتمركز هذه الدراسات، بين الأكاديميّين والنخبة الواعية، حول كيفية إدارة مؤسَّسات الإعلام التقليدي للأخبار والمعلومات، ومصادرها؛ لكي يبقى الارتباط الأقوى بينها وبين الجماهير العاطفية، والشعبوية التي ترى أن تلك الوسائل معبِّرة عن عواطفها، حتى وإن كانت الأخبار أو المعلومات غير موضوعية بالكامل.

بالإضافة إلى قطاع الأكاديميّين والنخبويّين، هناك قطاع الشباب والأجيال الصاعدة التي تشير الدراسات، أيضاً، إلى ابتعادها عن وسائل الإعلام التقليدية لصالح وسائل التواصل الاجتماعي ذات طبيعة التفاعلية وغير المقيّدة بحرّاس البوابات الإعلامية.

أخيراً، على مؤسَّسات الإعلام التقليدي أن تجري دراسات علمية محايدة للتأكُّد عن مدى مصداقيتها، ومدى ثقة المتلقّي بها، بدلاً من التمسُّك بوهم الجماهيرية والشهرة التي ربّما لم يتمّ اختبارها، بعد، علمياً، ومنهجياً في الكثير من تلك المؤسَّسات.

مختارات

من الشعر الإفريقي

تُعتبر القارّة الإفريقية السمراء، إضافةً إلى ثراء مخزونها الشفوي الضارب في القدم والراسخ على الدوام، فضاءً زاخراً بالآداب المكتوبة بلغات إفريقية، وأوروبية. ويعود ظهور هذه الآداب إلى أولى فترات الاحتكاك بين القارة الإفريقية والعالم العربي والغرب انطلاقاً من القرن السادس عشر. فقد أشار عالم اللّغة الألماني «جنهاينز جان»، في كتابه «دليل الأدب الإفريقي الجديد» (1969)، إلى دور الشّعر العربي في إثراء لغات (الهوسا - Haoussa) في غرب إفريقيا، و(السواحيلي - Swahili) شرق إفريقيا، مقابل ركود لغات (Xhosa) و(Sotho)، جنوب القارّة.

ولذلك يعتبر الشّعر، في إفريقيا، من أكثر فنون الكلام الضاربة في القدم والمتأصّلة لدى شعوبها، وينتمي هذا الجنس الأدبي، استناداً إلى طريقة نقله وشكله، إلى «الأدب الشفوي المنقول». ومن المؤكّد أنّ التكامل بين مختلف الأجناس الأدبيّة التي ميّزت الساحة الإفريقيّة على مرّ العصور، يؤكّد أنّ الشّعر يحضر في كلّ مكان: في القصص والأساطير والخرافات المتعلّقة بنشأة الكون والحكايات التّاريخيّة... وبالتأكيد، يمكن اعتبار هذه الحكايات السرديّة شعراً...، وعلى هذا، النحو يمكن تقسيم الشعر التقليدي إلى أربعة أصناف: قصائد حربيّة، تهدف إلى تمجيد خصال الإقدام والدّهاء والشجاعة، وقصائد «السِّحر»: وهي كلّ النصوص التي تستحضر، بطريقة أو بأخرى، الغيبيّات؛ تعزيمات وأناشيد وطقوس الانتساب...، وقصائد الحالة أو الواقع. وتندرج، تحت هذه التسميّة، قصائد الحياة اليوميّة في شكلها المحفوظ أو المُغنّى وفق الأحداث. في حديثه عن الشّعر الإفريقي، قال «سنغور»: «إنّه شِعْر بإيقاع الحياة اليوميّة بكلّ تفاصيلها... يتجلّى في نظرات الرجال ووقع خطى النّساء ويحضر في مناسبات الزواج، ويُنشد في المآتم. و-أخيراً- نصوص ما وراء الخطاب، حيث يمكن للشّعر أن يصبح موضوع خطاب».

(1)
أناشيد الحروب وقصائد التمجيد

أحيِّيك أيُّها المنتصر
الابتسامة في وجه العدوّ
لا توقف القتال.
التسلّي مع العدوّ
لا يضع حدّاً للحروب.

أحيِّيك أيُّها الفزع الأكبر
لأمسيّات المعركة.
شمس جاتا ترقص رقصة الجانجون
أمام الحشود المسرعة
بساحة الموند.
أحيِّيك أيُّها المنتصر
في أمسيات المعركة.

م. م ديابتي (كالا جاتا)



مديح إلى ميجيلا نكاكا

ميجيلا نكاكا،
نخلة فتية ترهق متسلّقيها،
من بلد السيّد كايمبي.
من سلالة ميليلا،
من رحم زوجة شرعيّة
لا خليلة منبوذة.
أنت الرياح الهائجة
لو تعقّبتك لضايقتك،
ولدفعتك لتسلّق شجرة.
أنت من سلالة السيّد
الحاكم
الجدير بفرو الفهد..
فرو الأسد من نصيب العبيد.
أنت شقيق كزادي
ونغوييه المقيم مع سيتونج.
أنت من سلالة ميتا الذي لا يرحل أبداً.
بل رعايا سيبولا الذين يرحلون.
أنت كانكي الذي قايض امرأة بحيوان مفترس،
لكنه لا يملك حتى هذا الأخير.
أنت من سلالة ميتيفي كايمبي
صديق سيبولا
بيدمبي نكيبا، في منازل عديدة.

مولو- بينجي (شعر التمجيد لوبا)

(2)
قصائد «السِّحر»

للانتساب، الدعاء، الحمد، السحر والمناجاة

الله يقدّر
المعافاة في صحَّتي، والتحرّر..
السعة في ملكي والتحرّر..
السعادة لأيّامي والتحرّر..
السعادة لأطفالي والتحرّر.
فلينطلق، ويتحرّر كلّ ما أحبُّه في هذا العالم
ليل الهموم ليل الأمل!
ليل الهموم ليل الأمل!
الله يقدّر.. أنا أقدّر!

النبيّ يقدّر. أنا أقدّر. أنا أتوسّل!
أنا الثور المنعزل، وحيداً في الفضاء
الذي لا تبصره عين العدو
الذي لا تدوسه قدم العدوّ،
الذي لا تطاله يد العدوّ.

إ . سو (المرأة، البقرة، الإيمان)

غيثاً، يا الله!

ربّي، أرسل لنا سحاب مطر!
يا الله!
هل رأيتم أجمل من سحاب المطر؟
يا الله!
سحاب داكن، سحاب مطر....
إلهي مولاي، جفّت حقول الذرة!
إلهي جفّت حقول الذرة!
مولاي، أرسل علينا غيثاً نافعاً!
يا الله!
تروي به حبات الكرنيب الصغيرة،
ونصنع منها المغارف!
تروي به النباتات التي
ستثمر حبّات كرنيب صغيرة،
تروي الأوراق الطويلة لسيقان الذرة
بالماء.
يا الله!
أيّتها السّرفات المجنّحة، المطر!
إيدا إيو - إيو دويو.
أيّتها السّرفات، اشربوا!
إيدا إيو - إيو دويو.
استجاب ربُّنا:
وتكلّم، عبر الرعد، إيو دويو!.

إ. محمّدو (حكايات وقصائد «فولبيه دي لا بنويه»)

نشيد الشمس

أيّتها الشمس الكاشفة،
تبدّدين ظلمة الغيوم الداكنة.
أيّتها الشمس، لك كلّ الإجلال!
إليك ملكة السماء، والمطارد الرائع.
أيّتها الشمس، لك كلّ الإجلال،
أمام سياطك المتوهجة.
وسهامك الخاطفة من جعبة شعاعك.
وفي الأعماق السحيقة المظلمة
ينسلّ الليل الوجِل مضطرباً
تحت ضربات أنوارك المتلألئة.
تمزّقين رداءه؛
رداءه الأسود المتّشحّ نوراً،
والمرصّع بنجوم برّاقة..
تمزقّين رداءه الأسود.
أيّتها الشمس الكاشفة!
بنورك الساطع،
تبدّدين ظلمة الغيوم الداكنة.
أيّتها الشمس، لك كلّ الإجلال!.

هـ. فيليه (طام - طام الحكيم،أشعار وأمثال إفريقية)

أغنيّة المنتسب

وراء مستنقعات الأحشاء العفنة، تكمن حرّيّة السافانا.
سافانا سوداء تشبهني، حريق الموت الذي يعدّ للصحوة؛
صحوة الضمير والعقل. ثم الذهب الأبيض للرمال تحت الضياء،
حيث تحترق رغباتي، في الصّدى الصافي والفضاء الحماسي.
سراب الواحة يغنّي في أذنيّ المجاملتَيْن،
ويهاجمني إغراء سحب الضباب الجافّة التي تريد إرهاق يقيني.
آه! كم هو حادّ دويّ النواقيس المتزاوجة! ما أعظم هدير طبول المنتسبين!
أتخطّى المحنة في ختاني: حرائق ميل أديراس.
ستقودني عبر الدروب المقطوعة، شمعة على طريق المعبد.
يقودني، ثانيةً، أريجها وعطر الصمغ في الحرور.

ل. س. سنغور

(3)
قصائد الحالة والواقع

(الجنائز والعرف والعمل)
قصيدة جنائزية
لنبكيَ صغيرنا الميِّت.
لماذا،
وأنت الصغير؟
ما كدت تعزّي ابنك.
وها أنت تغادر! لماذا؟
تغادرنا على عجل!
آه! الولد المسكين يرحل متأوّهاً!
الموت أعظم سكون للحياة.
آه! تغادرنا على عجل!
أيُّها الولد، ما سبب موتك؟
ينفطر قلبي المسكين،

وأنا أموت.
القدر يخطفك منا على عجل.
بنيَّ! كيف حصل أن
تركتنا والبكاء؟
ارحم والدين أوجعهما القدر.
ماذا حصل؟
ترحل في عجل
ترحل، وحيداً، إلى غابة لوامبا دوكيلي.
واحسرتاه! غادرتنا على عجل.

أغنية العمل

أيَّتها الأشعّة،
أشعّة الشمس! قيّدي الكسولة.
انظري: الرفيقات كادحات،
وهنّ فوق التلّ.
أيَّتها الأشعّة! قيّدي الكسولة.
أشعّة الشمس،
قيّدي الكسولة،
وليكن الموت مصيرها.
قيّديها، ولا ترحميها،
أيَّتها الأشعّة!.

ذ. أوبنغا (الأدب القديم لمبوشي)

أغنيّة عاطفية زنجية

لو يجعلني الجنّيّ
قمراً جميلاً
قمراً فضّيّاً ساطعاً
سأتعلَّق بخاصرة السماء
ومن القصر اللازوردي، سأتأمَّل حبيبتي.
سمراء، حبيبتي
في لون الأبنوس.
ضحكة العاج في محيّاها.
حبيبتي بعيدة عني
حبيبتي بعيدة عنّي
آه، حبيبتي الزنجية الجميلة!
(....)

جَمَعها بول أكاكبو تيبام في . ي . أ. دوغبي، (حكايات وأساطير الطوغو)

أمومة

أنا الأمّ،
أرقد بسبب الولادة.
الطفل يبكي.
تبعد الزوج عن رفيقته،
لكنك تعلم
أنه حَملٌ ليس كحَمْل سلّة الحقل.
أرقد بسبب الولادة.
الطفل يبكي.

ت. أوبنغا (الأدب القديم لمبوشي).

(4)
نصوص ما وراء الخطاب

من ينقل رسالة القيثارة؟
الصيد يرغم الخنزير على البقاء في مخبئه؛
فمن ينقل رسالة القيثارة بالطريقة التي
يُنقَل بها الإلهام؟
هل شدوتُ حتى يأتوا في طلبي؟
قائدنا، أنت نوكوسا، أحيِّيك من كلّ قلبي! نوكوسا،
إن كنت تخيط شِباكاً لتحبس كلام (رعيَّتك)،
فاجعل عيونها واسعة، واترك الصغير منها.
فالذين يتحسّرون على حال البلد الغنّي، ويشتكون القدر،
لا يمكنهم الإفلات منها.

إريك دي دمبيار (شعراء نزاكارا)

أنا كالقبة الزرقاء، أنا كفضاء

اللقاء،
أمر محيّر. ما ندركه اليوم كان موجوداً
قبل الأزل..
وما يجري اليوم لم ينقطع من قبل: إنه الإيقاع.
سلّمت نفسي للتيّار.
إنه التغيير.
بداية كلّ بداية كلام
هو طائر الكركي المطوّق.
قال طائر الكركي المطوَّق: «أنا أتكلَّم...».

قصيدة بامبارا، (طام- طام الحكيم)

□ **ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر:

Locha Mateso : Anthologie de la poésie d'Afrique Noire d'expression française

حطبٌ لا يشتعلُ في البرد

* في القميصِ المعلّقِ بالدولابِ
شخصٌ مؤجّلٌ إلى الدفءِ..
أبتسمُ له كثيراً
ولا يبتسم لي أبداً..
في هذه الليلةِ الصاخبةِ،
مدَّ يده فجأةً..
رفع قبّعة من الرفّ العلويّ
وناولني رأسي
وتلاشى.

* قلبي المهاجرُ بعيداً،
أنا حقيبة ثقيلة في يدهِ،
لا يقوى على حملها.

* الجَدُّ متدثّراً بصمتهِ
يُجمّدُ حروفه كلَّها
كي يحكي لهم عن البرد..
الأطفالُ من حوله يسألون:
«أيُّ شبح أبيض ابتلع المدفأة؟».

* اصنعي الماردَ بقبضتكِ
أيّتها اليدُ التي تدعكُ الفانوس.

* بمحاذاةِ بحرٍ ثائرٍ،
أمشي ساكناً
في ظلمة الليل
تحسدني صخرة كبيرة
تودُّ أن تتحرّكَ..
يحسدها قلبي الذي
يتمنّى أن يتفتّت.

* نعم.. تلك رجفةُ ديسمبر،
وأنا ساقايَ من حطبٍ لا يشتعلُ
أركبُ الأرجوحة في الصباح
أعلو
وأعلو
حتى أرى الكونَ أصغرَ
من قطعة ثلجٍ بصدري.
ومع اختباء الشمس،
أهبط فجأةً
كطائر اقتنصه صيّاد.

* يتأخَّرُ القطارُ أحياناً
فأمشي أنا على القضبانِ؛
لا لكي أصِلَ
لكنْ لأدهسَ كلَّ شيء.

* حذاءٌ صغيرٌ
في صندوق قمامة
لم يعد يليق بصاحبه..
صاحبه الذي كبر وحده
ونسيَ أشياءه كلَّها..
أشياءه التي لم تكبر معه
أشياءه التي لم تغادر طفولتها.
وحده الحزن قال:
«هذا الحذاء الصغير.. على مقاسي دائماً»

مع أن الحزن كبير جدّاً ؛
أكبر من صاحبِ الحذاءِ
أكبر من صندوقِ القمامةِ
أكبر من نفاياتِ هذا العالم.

* آه، لو تعلمينَ كيف نجوتِ
من أسلحتهم؟
الذي أطلقَ عليكِ رصاصةً
فوجِئَ بصدري يصدُّها عارياً،
والذي صوّب كشّافَ الإضاءةِ نحوكِ
فوجِئَ بأنني السّوادُ
الذي طَمَسَ المشهدَ كاملاً.

* من بزْكةٍ متجمِّدةٍ
طلَعَتِ السمكة نابضةً
كضحكتكِ الضالّةِ
في هذا المأتم.

* أنامُ كأنني لا أنامُ!
وكلَّما اقتربتْ نسمة.. انتبهتُ
أملاً في أن تكونَ أنتِ.

* حَجَران يصطدمان بقوّةٍ..
شرارةٌ صغيرةٌ تولَد..
شيءٌ كبيرٌ.. لا أعرفُ اسمه
يموت.

* لي في كلّ أرضٍ
قلبٌ قديمٌ.
خطواتي المتبقية دَهْسٌ
لكل ما شعرتُ به من قبل.

* بِمَنْ أَحْتَمي في هذه الليلةِ الباردةِ؟
القمرُ قريبٌ جدّاً
لكنه فريسةُ الرّحّالةِ
والشعراءِ
والمرضى النفسيّين.
المعاطفُ كثيرة جدّاً،
لكنني أخشى أن تفترسَني.
أنتِ حاضرةٌ في الدورةِ الدَّمويّةِ جدّاً،
لكنكِ أنبلُ من أنْ تُذيبي
دهوناً بيضاءَ
استقرَّتْ، بِلُطْفٍ، تحت جِلْدِي
منذ سنوات.

* لماذا أنتَ مختبئٌ تحت فكّي،
أيُّها الصيفُ العجوزُ؟
اخرجْ لكي تعضّ الأرضَ
وتطحنَ الجماجمَ لشتاءٍ جائع.

* أن تطرقَ بابَ صدرِكَ قصيدةٌ
في آخر الليلِ،
فتجدكَ مرهقاً ؛
هذا هو وَأْدُ الصباح.

■ **شريف الشافعي - مصر**

أطفالُنا الفلاسفة !

الفلسفة، بالنسبة إلى الأطفال، مسعًى تخيُّلي هائل تكتنفه قدرة غير محدودة على ملاعبة الحجج، وتدويرها، والنظر إليها من زوايا مختلفة. ويعتمدُ الأطفال، عبر هذا المسعى، على وجهة نظر (طازجة) غير مسبوقة أو غير معتمدة سابقاً، وليست ممّا يتعامل معه الآخرون على أنه بداهة عامّة، وتلك تجربة فكرية ومعرفية ثريّة سيكون من العبث خسارتها أو فقدانها لدى الأطفال. وتتعاظم أهمِّيّة هذا الأمر في منطقتنا العربية، بخاصّة ونحنُ على أعتاب ثورة فلسفية مبشّرة بإزاحة مكامن الجمود والنكوص في ثقافتنا العربية المتداولة.

يمكن لمساءلة الأطفال أن تكون الوسيلة الأولى الأكثر فاعليةً في المُمارسات الفلسفية مع الأطفال: التأمُّل في معنى التجارب والمفاهيم العادية بغية تطوير فهم للعالم والآخرين وللأطفال أنفسهم. عندما يُسألُ الأطفال عنّ الأسئلة تثير دهشتهم أكثر من سواها، فإنّ إجاباتهم الأكثر شيوعاً تنطوي على أسئلة من هذا النوع: لِمَ أنا هنا؟ من أنا؟ لِمَ توجد كراهية في العالم؟ ماالذي يحدث عندما نموت؟ كيف أعرفُ الطريقة الصحيحة في العيش؟

تمثّلُ مثل هذه الأسئلة ونظائرها ميدان عمل بحثيّ واسع للبروفسورة «جانا مور لون - Jana Mohr Lone» التي تعمل مديرة مركز «الفلسفة للأطفال»، وفي الوقت ذاته هي أستاذة مشاركة في قسم الفلسفة في جامعة واشنطن. ألَّفَت «لون» (أو ساهمت في تأليف وتحرير) الكتب التالية: - الطفل الفلسفي The Philosophical Child، 2012 - الفلسفة والتربية Philosophy and Education، 2012 - الفلسفة في التربية Philosophy in Education، 2016.

ترى البروفسورة «لون» أنّنا نحن - البالغين - برغم كوننا نعرفُ أنّ الأطفال الصغار يميلون لطرح الكثير من الأسئلة، مسكونون بقناعة مفادُها أنّ هؤلاء الأطفال ليسوا على قدر من النضج والتعقيد الفكري بالكيفية التي تؤهّلهم للتفكُّر الدقيق في موضوعات (فلسفية) معقَّدة. نحنُ نصِفُ الأطفال، في العادة، بأنّهم ذوو فضول معرفي هائل، وتحرّكهم دهشة خارقة تملأ جوانحهم؛ لكننا، مع هذا، نفترضُ أنهم لايفهمون، بطريقة حقيقية، الأبعادَ الفلسفية للأسئلة التي لاينفكّون يطرحونها.

لكننا لو فكّرنا بطريقة استرجاعية لوجدنا أنّ العديد من البالغين سيعترفون بأنّ بواكير دهشتهم الفلسفية إنما بدأت مع الطفولة. تُعدُّ الطفولة لكثيرين منّا الطورَ الحياتي الذي نُمضي معظم وقتنا فيه، متفكّرين ومندهشين، والحقُّ أنّ الولع الفلسفي، للعديد من الفلاسفة المتمرّسين في حقل فلسفي محدّد، انبثق مدفوعاً من حماسة مبكّرة للتساؤل في أثناء الطفولة. يصفُ البعضُ من هؤلاء الفلاسفة تجربة انخراطهم في صفّ فلسفي أو قراءة نصّ فلسفي، والكيفية التي أدركوا بها طبيعة الأسئلة الفلسفية المطروحة في تلك الصفوف، أو النصوص والتي هي -في عمومها- أسئلة أطالوا النظر فيها والتفكّر العميق بشأنها منذ أن كانوا أطفالاً.

تكشف النقاشات المستفيضة التي عقدتها «لون» مع الأطفال والآباء في المدارس الأميركية، على مدار سنوات عديدة، أنها لم تكن وحيدة في تفكيرها بمثل هذه الأفكار في طفولتها؛ إذ لطالما اعتاد «أرسطو» على ترديد عبارته ذائعة الشهرة: «كلّ البشر يسعون - بالطبيعة - لبلوغ فهم أفضل لكلّ شيء». يشرع الأطفال، في وقت مبكّر من حياتهم، في محاولة إضفاء معنًى للعالم، وكذلك لفهم الطريقة التي تعمل بها الأشياء، عندما يصير الأطفال قادرين على صياغة الأسئلة المناسبة فإنهم لايتردّدون في طرح الأسئلة الخاصّة بالمفاهيم التي يسمعونها، والعالم الذي يختبرونه.

يبدأ الأطفال، في حدود السنة الرابعة من أعمارهم، بطرح الأسئلة التي تبدأ بـ(لماذا؟):

- لماذا يكون البشر أشراراً لبشر سواهم؟
- لماذا ينبغي عليَّ الذهاب إلى المدرسة؟
- لماذا لاتتكلم الكلاب؟

يُبدي العديد من الأطفال، وهم في عمر المدرسة الابتدائية، نمطاً من الانفتاح المذهل للأحجيات الفلسفية في الحياة، وغالباً مايستلقون، يقظين، في أسرّتهم، ليلاً، وهم يُطيلون التفكير في أسئلة كبرى على شاكلة: لماذا يمتلك العالم الألوان التي نراها فيه؟ ماطبيعة الزمان؟ هل الأحلام حقيقية؟ لماذا نموت؟ لماذا نوجدُ، أصلاً، في العالم؟

يُبدي الأطفال نوعاً من الشغف المدهش حول كثير من جوانب العالم التي يتعامل معها معظم البالغين، وكأنها معطيات جاهزة مسَلَّم بها، والأطفال، إذ يفعلون هذا، يكشفون عن قدرة غريزية لمساءلة العناصر الأكثر أساسيّةً في الحياة والمجتمع؛ لكن برغم إدراكنا أنّ الأطفال مسكونون بالدهشة التي تدفعهم لطرح أسئلة كبرى، يجري تجاهل، المعنى الأعمق الكامن وراء تساؤلاتهم، على نحو نظامي من قِبَل البالغين. نحنُ البالغين نميلُ -عادةً- لإبداء ردّات فعل متباينة تجاه الأسئلة الكبرى للأطفال، أو تعبيراتهم التي تتضمّنُ أفكاراً فلسفية، وتتراوح ردّاتُ الفعل هذه من الإشارة الصريحة إلى مقدار لطف هؤلاء الأطفال وجاذبيّتهم (تختصرها عبارة «الأطفال هم أجمل كينونة في الحياة»)، وقد تبلغ ردّات الفعل حدّ إهمال هذه الأسئلة تحت ذريعة القول: (هم لايفهمون مايقولون). الغالب هو أنّ البالغين لايتعاملون مع تساؤلات الأطفال وأفكارهم الفلسفية بالحدّ الأدنى من الجدّيّة والمعقولية.

يقلّل البالغون، بعامّة، من القدرات المخبوءة لدى الأطفال، وإذا ماشئنا التخصيص، فإنّ البالغين يقلّلون من شأن قدرات



الأطفال الخاصّة بالتفكير (الفلسفي) العميق. واقعُ الحال هو أنّ مدركاتنا، بشأن الأطفال، محكومة إلى حَدّ كبير، بمفاهيم تطوّرية مسبّقة، وبخاصّة ذلك الاعتقاد السائد بأنّ الأطفال يتطوّرون -بيولوجيّاً ونفسيّاً- من كونهم كائنات بشرية غير قادرة على التفكير المستقلّ وإعالة نفسها إلى بالغين ذوي قدرة وتمكين بيولوجي وفكري ومالي.

يعتمدُ الأطفالُ - بالتأكيد - على البالغين لغرض النموّ والارتقاء، ويبدو الأمر معقولاً، تماماً، إذا ماافترض البالغون وجوب مسؤوليَّتهم عن إدامة حياة طيّبة للأطفال، وتطوير قدرات اتّخاذ القرار لديهم، لكن ما يؤسَفُ له أنّ حسّ المسؤولية هذا، من جانب البالغين نحو الأطفال، غالباً مايقترنُ بتقييم واطئ لقدرات الأطفال في التفكير باستقلالية.

ثمّة فرقٌ، لاينبغي أن يخفى، بين مساعدة الأطفال على التطوّر بطرق صحّيّة إلى جانب حمايتهم من القسوة والعنف والمسؤوليات غير المدرّبين عليها، من جهة، والفشل في تثمين وجهات نظرهم في الحياة، من جهة أخرى.

أن يكون الكائن البشري طفلاً لا يفترض أن يعني معاملته كمفكّر بالمقاييس العادية السائدة، لكنّ فكرة كون الأطفال قادرين على التفكير الدقيق بشأن العديد من الموضوعات المجرّدة، هي فكرة، يجد العديد من البالغين مشقّة واستعصاءً في قبولها، وبسبب هذا الأمر، تفرض فكرة تعامل الأطفال مع الفلسفة تحدّياتها الخاصّة ذات الطبيعة المتفرّدة.

الفلسفة ليست بالموضوع العادي أو المتداول على نطاق واسع، بالنسبة إلى كثير من الناس؛ فبخلاف بلدان عدّة في أوربا وأميركا اللاتينية، على سبيل المثال، تفتقد الولايات المتحدة إلى تقليد راسخ في تضمين الفلسفة في مناهج الدراسة الثانوية، والرأي السائد هناك أنّ الفلسفة مملكة حصرية للبالغين الحائزين على شهادات جامعية متقدّمة في المعرفة التخصُّصية. إنّ ما يدعو للأسف هو أنّ للفلسفة شهرةً غير محمودة، هي أنها موضوع دراسي تكتنفه مشقّات هائلة، ومقتصرٌ على فئات محدّدة من الناس؛ ولأجل هذا، صار غير متاح للكثير من البالغين،فكيف بالأطفال؟.

إنّ كثرةً من البالغين الذين لهم تجربة سابقة بالفلسفة، بأيّ شكل كان، تحصّلوا هذه التجربة وهم طلبةٌ في كلِّيّة ما، ويحصل في كثير من الأحيان أن يتساءلوا مندهشين: كيف يمكن للفلسفة أن تكون موضوعاً مناسباً للأطفال؟ دراسة الفلسفة من قِبَل طالب منخرط في مقرَّرات جامعية هي جهد ينطوي على تعلُّم الكثير بشأن صياغة الحجج الدقيقة التي صنعتها عقول فلاسفة كلاسيكيِّين ومعاصرين، فضلاً عن تطوير مهارات مهمّة مرتبطة بالمساءلة الفلسفية.

الدهشة الفلسفية جزء حيويّ من كوننا بشراً؛ إذ غالباً مانتساءل: ماالشيء الصحيح الذي يجب فعله؟ لماذا على الناس أن يموتوا؟ هل هذا الشخص صديقي، حقّاً؟ عندما نفكّرُ في مثل هذه الأسئلة فإننا نمارسُ فعلاً فلسفياً، ونتشاركُ تقليداً إنسانياً مضى عليه آلافٌ من السنوات، ومعظمُ البالغين الذين يستكشفون أسئلة فلسفية ليسوا بفلاسفة متمرّسين؛ لكنّ هذا الأمر لايعني، أبداً، إبطال كونهم مؤهّلين لخوض مساءلات فلسفية كبرى.

في مقايسة مماثلة، يمكن النظر إلى الأطفال بمثل مايفعل الكبار؛ إذ إنّ حقيقة كون الأطفال مبتدئين في حقل الفلسفة لايعني، بالضرورة، ابتعادهم عن التفكير الفلسفي والمساءلة الفلسفية الجادّة. الأطفال الصغار لايساهمون، في العادة، في استكشافات فلسفية عبر قراءة النصوص الفلسفية أو كتابة الأوراق البحثية أو الحصول على شهادات جامعية، وهم -برغم ذلك- يستطيعون أن يتشاركوا جانباً من النقاش الفلسفي، مدفوعين بحسّ الشغف والاكتشاف، فحسب. ■ **لطفية الدليمي**

«أن تعودي فلسطين»

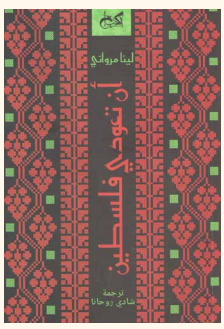
لينا مرواني تستكشف ذاتها..

«إن مصير الفلسطينين، بطريقة ما، هو أن ينتهي بهم المطاف؛ لا حيث بدأوا، بل في مكان ما غير متوقَّع، وبعيد».. عبارة «إدوارد سعيد» هذه، اختارتها الكاتبة التشيلية من أصل فلسطيني، لينا مرواني، افتتاحية لكتابها «أن تعودي فلسطين»، حيث تبدو العبارة مجسِّدة، بشكل أو بآخر، لحياة الكاتبة، وواقع ارتحال أجدادها إلى تشيلي منذ عام (1920). فالجدّ عيسى المرواني الذي رقَدَ بسلام، في مغتربه البعيد، لم يؤرِّقه حلم العودة، ولا اسمه الذي أصبح سلفادور- عيسى، بالإسبانية، رحل مورِّثاً جيناته لحفيدته التي انشغل تفكيرها بتلك الأرض البعيدة «فلسطين»، وصار حلم الزيارة يطاردها، بإلحاح، كي تمضي خلفه.

هكذا، تقع الكاتبة في شرَك تاريخ مضى، وذاكرة مليئة بالثقوب، تجعلها غير قادرة على تجاوز هويَّتها الأعمق، فالالتصاق بالأرض مثله مثل الاغتراب عنها، وَشْم أبدي لا سبيل للفكاك منه، أحدهما واقعي متحقِّق، والآخر ينغز في الذاكرة. لذا، يأتي هذا النصّ من منطقة غير مألوفة في الكتابة عن الانتماء والهويّة والحنين، ينتمي إلى حقل السيرة الذاتية، لكن يمكن اعتباره، أيضاً، نصّاً تسجيلياً لرحلة الزيارة إلى فلسطين وبلدان أخرى، منذ حلول الأسباب المحرِّضة، والإشارات القدرية الداعمة لتنفيذ هذا القرار. تقول (مرواني): «أن أعود؛ هذا هو الفعل الذي يداهم ذهني في كلّ مرّة تثب إليه إمكانيّة فلسطين.. لطالما كان كلّ ما هو فلسطيني، بالنسبة إليَّ، مجرَّد همهمة يسمع صوتها في الخلفية، قصّة نلجأ إليها لننقذ أصلنا المشترك من الاندثار... هي عودة مستعارة، أي أن أعود بدل الآخرين، بدل جدّي، بدل والدي. لكن والدي لا يريد لقدميه أن تدوسا تلك الأرض المحتلّة». وهي تختار زمن العودة بعد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر (2001)، وما تلاها من سوء فهم لشخصية العربي، والفلسطيني (تحديداً)، وربطهما بالإرهاب.

قبل سفر الكاتبة، تحضر فلسطين في النصّ، كأرض أجداد لا صورة محدَّدة لها، ونتف من ماضٍ عريق جمعتها من هنا وهناك، خيالات حكاياتٍ من الأب والعمّات، تفاصيل تجمعها عبر الإنترنت، ومراسلات مع صديق يشجّعها على القيام بالزيارة واكتشاف أرض أجدادها التي يستحقّ اكتشافها عبور نصف الكرة الأرضية للوصول إليها، لكن الأمر لن يكون بمثل هذه السهولة، حين يتعلَّق بالجذور، وبهويّة تلتبس مع اللّغة، مع ضياع العربية، وحلول الإسبانية مكانها، إنها اللّغة « الإسبانية»، لغة تشيلي، حيث الأرض التي أصبحت وطناً بديلاً.

نكتشف، في هذا الكتاب، أجزاء أخرى من التاريخ الفلسطيني غير معروفة، مثل وجود أكبر جالية للفلسطينيين في «تشيلي»، فهذا البلد اللاتيني





الصغير يضمّ أعداداً كبيرة من أهل الشام الذين ارتحلوا إليه من أيّام الحكم العثماني، حين كان (سفر برلك) يهدّد الرجال بالذهاب بلا عودة؛ لذا كانوا يفرّون نحو أراضٍ بعيدة.
كما تطرح مؤلّفة الكتاب، من خلال تدوين تفاصيل ارتحالها بين عدة بلدان، فكرة الجذور والهويّة، والسؤال الأبدي عن معنى الوطن، والانتماء، متسائلةً: ما هو الوطن، إن لم نعرف لغته وشوارعه وعادات أهله، وإن لم نكن جزءاً منه ومن وجود مشرق ومعتم، في آن واحد، لأرض محكومة بالصراع بين شعبين؟.
وإذا كانت الكاتبة تحاول العودة إلى قريتها «بيت جالا» بحثاً عمّا تبقّى من الذاكرة، فإنها تسجّل، في مقابل ذلك، سلسلة من الملاحم والخسارات، متمثّلةً في اختفاء تواريخ ومدن وأماكن وحكايات، اندثر شطر منها.
تحضر، في النصّ، تفاصيل صغيرة تُعبِّر عن الهويّة في تلقائيَّتها المفرطة، فها هي إحدى العمّات توصي الكاتبة بأن تحضر لها، من فلسطين، «اللوز الأخضر»، هذه الثمرة التي حضرت في قصيدة محمود درويش، وهو يحكي عن فلسطين البعيدة: «كزهر اللوز أو أبعد»، وتحضر، أيضاً، في ترنيمة فلسطينية شهيرة، ما يزال الشباب الفلسطيني يحفظها أباً عن جَدّ، وتقول: «والله لازرعك بالدار يا عود اللوز الأخضر، وأروي هالأرض بدمّي تَنْوِّر فيها وتكبر».
يأتي هذا النصّ ليؤكّد صور فلسطين ووجوهها، فثمّة صور لانهائية لأرض مفقودة، ومنشودة، في آن واحد بيّارات البرتقال في يافا، وشاطئ حيفا، وساحات القدس العتيقة، والأسواق، والخليل، والضفّة الغربية.. أماكن واقعية موجودة في ذاكرة مَنْ رحلوا، وأينما حلّوا في بلدان اغترابهم... لكن هذا ليس كلّ شيء، فهناك طبقات أخرى من الواقع، كثيفة، ومحتشدة، ولا يمكن تجاهلها، تطرح رؤية حقيقية، أيضاً، عن الفلسطينين في الداخل.
حكايات الواقع التي تنقلها (مرواني) تُضيء الحياة العاديّة من مسرّات وأحزان، وفيها أجزاء محفوفة بالظلم، وبالخوف، وبالالتباس. كما تحضر الهويّة واللّغة، والعلاقة بينهما، في كلّ فصل من الكتاب، إلى جانب اعتماد الكاتبة على معلومات تاريخية وجغرافية وسياسية ترد ضمن فصلَي الكتاب؛ الأوّل بـ«لوعة الأشياء»، والثاني بـ«وجوه في وجهي». وفي هذا الأخير، ضمنت الكاتبة ارتحالاتها إلى بلدان أخرى؛ ألمانيا، الولايات المتَّحدة، مصر، ودائماً في سياق سردي تبرز فيه مقاربة الكاتبة لموضوع الهويّة في بلدان المهجر، سواء بالنسبة إلى العرب الوافدين، أو إلى جنسيات أخرى.
يجد القارئ، على مدار النصّ، حضوراً لأشخاص عابرين، يشكّلون حيِّزاً مهمّاً، تُعبِّر الكاتبة، من خلالهم، عن الفكرة المراد إيصالها: العمّة مريم والعلاقة الجينية والمعنوية معها، وآلان اليهودي الأميركي الذي يعترف بأنه تبنّى الأفكار الصهيونية حتى عودته إلى «إسرائيل»، ثم تخلّى عنها بعد رؤيته ما يحدث على أرض الواقع..
«أن تعودي فلسطين»، كتاب ترجمه، عن الإسبانية الكاتب والمترجم الفلسطيني شادي روحانا.
والجدير بالذكر أن لينا مرواني هي كاتبة وباحثة تشيلية، من مواليد عام (1970)، تُدرّس الثّقافة الأميركية اللاتينية والكتابة الابداعية في جامعة نيويورك، صدر لها، من قبل، رواية «عيون مدممة»، بالإسبانية وبالإنجليزية، وهي تعيش في نيويورك، وتعمل فيها. ■ **لنا عبد الرحمن**

دون كيخوطي دي لامنتشا
أو تشظّي الحقيقة

يبدو الأفق، الذي تفتحُهُ رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» للتأويل، كما لو أنّه متاهةٌ لا حدّ لأغوارها. وهي عُموماً صفةُ ما يَبقى ويدومُ في الكتابة وبها، أي الديمومة التي تؤمِّنها الكتابةُ بما تَهَبُهُ من إمكانات للتأويل والتمديد. فأراضي هذه الرواية، المُشرَعة باستمرار على التأويلِ المديم للمعنى، لا تنتهي؛ منها، تمثيلاً، أرض الحُريّة التي انتصرَت لها هذه الرواية، وأرض الكتابة فوق الكتابة، وأرض تشظّي الحقيقة، وأرض اختراق القراءة لجدار كلّ مَنع، وأرض «الظاهر» الذي لا يَظهر إلّا ليكون غيْرَ ذاته، وأرض الخيال وهو يتصدّى لفَسادِ العَالَمِ عبْر الحُلمِ باستنبات قيَمٍ تبدو دوماً في طَور الاندحار.

■ خالد بلقاسم

تبدو شخصيّة دون كيخوطي دي لامنتشا، في عمل سرفانتس الروائيّ الموسوم باسْم هذه الشخصيّة ذاتها، كما لو أنّها خارجةٌ أصلاً من الكُتُب، ومصوغةٌ، في البَدء، بالخيال الكتابيّ المُمتدّ في الخيال القرائيّ كي تؤدّيَ، في هذا العمل الروائيّ، دوراً «واقعيّاً» ينبضُ بالحياة. إنّ لهذه الشخصيّة نسَباً مكيناً إلى خيال القراءة؛ منه تشكّلتْ، وبه نمَتْ، وإليه احتكمَ مصيرُها. لعلّ ما يوضِّحُ هذا الأمرَ هو كوْن دون كيخوطي لا يحتكمُ في أفعاله ومواقفه إلّا إلى مقروئه، ولا يرَى إلاّ بهذا المقروء، ولا يتصرَّفُ إلّا في ضَوئه. فأفعالهُ ومواقفهُ ناجمةٌ عن القراءة، بما يجعلهُ مشدوداً في الأصل، أي قبْل انطلاق حُضوره في نماء الرواية التي تسمَّت باسْمه، إلى عالم الكُتُب، حتّى لقد اعتقد القسيس بيرو بيرث والحلاق نيكولاس وابنة أخت دون كيخوطي والخادمة أنّ «جُنون» دون كيخوطي، الذي وجّهَ مُختلف مُغامراته، يعودُ أساساً إلى الكُتُب التي أفسدَت عقله. ذلك طبعاً ما سوَّغ اشتراك هؤلاء الشخوص في المحرقة التي أجهَزوا بها على كتُب الفروسيّة التي منها خرجَ دون كيخوطي. وهو أيضاً ما سوَّغ إقبارَهُم، في مشهد دالٍّ بَعد المحرقة، ما تبقّى من كتُبه بواسطة الجدار الذي بنَوهُ مكانَ باب غُرفة الكُتب لئلّا يهتديَ إليها دون كيخوطي. جدارٌ بُنيَ كي يمْنعَ التأثيرَ الذي تُحدثهُ الكُتُب ويمْنعَ خيالَ القراءة مِن أنْ يَسريَ في الرؤية إلى العَالَم.

ومع ذلك كلّه، تميَّزَت شخصيّة دون كيخوطي، القادمة من عالَم الكُتُب والمُنتسبة من زوايا عديدة إلى الخيال، بتشعُّب حيَويٍّ كبير داخل عمَل سرفانتس، ممّا وفّرَ لها ديناميّةً لافتةً و«وجوداً» يكادُ يكونُ واقعيّاً، إذ بدَت هذه الشخصيّةُ في سيرورةِ نمائها نابضةً بحياة تكادُ تُبعدُ احتمالَ كونها مُتخيّلة، كما لو أنّ كثافة الخيال الباني لها جعلَها، على نحو مُفارق، أكثرَ إقناعاً بوُجودها الفعليّ. صحيحٌ أنّ كلّ شخصيّة روائيّة ليسَت سوى كائنٍ مُتخيَّل، غير أنّ الأمرَ مُضاعَفٌ فيما يخصّ شخصيّة دون كيخوطي. فالفعلُ الذي يَصدرُ عن هذه الشخصيّة يوَجِّههُ خيالُها المَصوغُ بالقراءة. عَن فِعل القراءة وعمّا تحصّل منها، تأخذُ الوقائعُ والأحداثُ معناها في رواية سرفانتس. وبذلك، ليست شخصيّةُ دون كيخوطي مُتخيَّلة، كما هي حال كلّ شخصيّة روائيّة، وحسب، بل إنّها تحيا، فضلاً عن ذلك، بالخيال القرائيّ، وتحتكمُ إليه في كلّ ما يَصدرُ عنها بوَصفها تجسيداً لعَالَم الكُتب. رغم ذلك كلّه، احتفَظتْ هذه الشخصيّة، وهذا أمرٌ خصيبٌ إبداعيّاً في بنائها، بنبْضها الذي يبلغُ بالقارئ حدَّ تخيُّلها شخصيّةً حيّة، على نحو ما يُجسِّدهُ رُسوخُها في الذاكرة بقوّة. لعلّ هذا ما يُستفادُ من قول كونديرا إنّ دون كيخوطي يكاد «لا يُتصوَّرُ بوَصفه كائناً حيّاً. ومع ذلك، فأيّ الشخصيّات، في ذاكرتنا، أكثر حياةً منه؟». إنّ قدومَ هذه الشخصيّة من عالَم الكتُب وتشكُّلَ حِكمتِها أو جنونِها من داخل خيال القراءة أمران دالّان في رواية «النبيل الألمعيّ دون كيخوطي دي لامنتشا». بالمُمكن القرائيّ واحتمالاته وعوالمه، كانت شخصيّةُ دون كيخوطي تُبْدلُ الرؤيةَ إلى الأشياء، وتُحدِثُ قلباً في ماهيّةِ كلّ ما يُرى، ضمْن تداخُل دالٍّ بين الخياليّ والواقعيّ بلغَ حدَّ الالتباسِ الباني للغُموض بوَصفه حقيقةَ كلّ شيء. إنّه الغموضُ الذي شكّل أحدَ الرهانات الكبرى في هذه الرواية، وفي فنّ الرواية بَعدها بوَجه عامّ، حسب تصوُّر كونديرا لهذا الفنّ. ومن ثمَّ، يمكنُ الحديث، بمُوازاة مع خروج دون كيخوطي المُتكرِّر إلى العَالَم الذي كان موضوعَ تأمّل في بعض الدراسات، عن



خُروجه هو ذاته من الكتُب بَعد أن فعلَتْ فيه القراءةُ فِعْلَها السّحريّ. من مجهول الكُتب إلى مجهول العَالَم، يتحدّدُ مسارُ المُغامرة على حُدود الخطر عند دون كيخوطي، دون أن ينفصلَ مصدرُ الخروج عن الوجْهة التي قصدَها، حتى وإنْ أُريدَ بالجدار، الذي حلّ مكانَ باب غُرفة الكتُب، أنْ يفصلَ دون كيخوطي عن الرّحم التي فيها تشكّلت شخصيّته قبْل الخروج إلى العَالَم، ذلك أنّه ظلّ يحملُ عالمَ الكتُب بداخله لمُواجَهة عالَم آخَر بدا غريباً لدون كيخوطي مثلما بدا فيه هو نفسُه أيضاً غريباً. وهذا دليلٌ على قوّة القراءة في اختراق أيِّ جدار يُريدُ عزْلَها عن أرْضها، وتجفيفَ نبْعها، ومنْعَ تدفّق الماء الذي منه تأتي. يتعلّق الأمرُ، إذاً، في شخصيّة دون كيخوطي بخُروجيْن؛ خُروج من عالم الكُتُب التي ظلّ دون كيخوطي يحملُ خيالَها ويُجسّده، وخروج إلى العَالَم الذي كفّ، في رواية سرفانتس، عن أن يظلّ مُتماسكاً أو خاضعاً لحقيقة واحدة بَعد أنْ تشظّى، وبَعد أن شطّبَ غموضُهُ كلَّ وُضوح مُتوَهَّم. من هُنا الحيَويّة التي تُجسّدها طريقةُ بناء شخصيّة دون كيخوطي في عمل سرفانتس، ويُجسّدُها، من جهة أخرى، البُعدُ الفكريّ لهذه الشخصيّة في تحديد قوّة هذا العمل الروائيّ.

لقد ركّزَت بعضُ الدراسات التي تناولَت عملَ سرفانتس، في رَسْمها لقوّة هذا العمل وعُمقه ودَوره التأسيسيّ، على الإبداع الذي وَسمَ بناءَ الشخصيّة الروائيّة فيه. غير أنّ ثمَّة مَنْ استجْلى قوّةَ هذا العمل وعُمقَه من زاوية البُعد الفكريّ المُضمَر في سَيرورة هذه الشخصيّة، والساري في ثنايا الرواية، إلى حدّ أنّ مِن الكُتّاب مَنْ شدَّدَ على حيَويّةِ هذا البُعد، وعلى المعرفة التي يُنتِجُها، مِن مَوقعِ الاشتغال الروائيّ للفكر، أي مِن موقعِ فكر الرواية. ذلك، مثلاً، ما أضاءهُ كونديرا الذي يقولُ بتكثيف شديد: «إنّ مؤسِّس الأزمنة الحديثة، بالنسبة إليّ، ليس ديكارت وحسب، بل أيضاً سرفانتس». بهذا الاستنتاج المُكثّف، يُلمحُ كونديرا إلى ما أسّسهُ سرفانتس عبْر فنّ الرواية، إذ ذهبَ كونديرا، في سياق هذا الاستنتاج الذي يُوازي بين الرواية والفكر، إلى أنّ فنّ الرواية، الذي أرسَتْ أُسُسَهُ رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا»، عالجَ في القرون الأربعة التالية على ظهور هذه الرواية التأسيسيّة كلَّ الموضوعات التي حلّلها هايدغر في كتابه «الوجود والزمان». فقد أسّس سرفانتس لفنّ نهض باستكشاف الوُجود المَنسيّ، وهو الاستكشاف الذي لم يلتفت إليه، حسب كونديرا، لا هوسرل ولا هايدغر في نقدهما للأزمنة الحديثة التي كرّسَت في نظرهما نسيانَ الوجود. وبذلك، كان كونديرا يُشدّدُ على مَسلك قرائيٍّ يقومُ على الإنصات لفكر الرواية، وللمعرفة التي أنتجَتها مُنذ هذا العمل التأسيسيّ. تساءلَ كونديرا، في الفصل الذي عَنونَهُ «إرث سرفانتس المذموم» ضمن كتابه «فنّ الرواية»، قائلاً: «ما الذي تريدُ رواية سرفانتس الكبيرة قوله؟». وفي استجلائه لقضايا هذا السؤال الذي شغلَ دارسين كثر قبْله، ميّزَ، في البحوث التي أثارَت هذا الموضوع، بين جوابيْن؛ الأوّل يَرى أنّ هذه الرواية نقدٌ عقلانيّ لمثاليّة دون كيخوطي الغامضة، والثاني يَرى في الرواية تمجيداً لهذه المثاليّة ذاتها. في سياق ذلك، عدّ كونديرا التأويليْن معاً خاطئيْن، لأنّهما لا يرومان العثورَ في أساس الرواية على سُؤالٍ مفتوح، بل على حُكم أخلاقيٍّ جاهز، وهو ما يتعارضُ أصلاً مع «روح الرواية». فالتحرُّرُ من الأحكام، الذي أرستْهُ رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» رهانٌ

روائيٌّ مُرتبطٌ بفكر الرواية، وهو أيضاً رهانٌ قرائيّ يُعلِّمُ آدابَ تأويل الرواية؛ تأويلها بمنأى عن الأحكام، وبالاستناد إلى السؤال، والارتياب، ودرجة التعقيد. فرواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» من الأعمال التي تُتيحُ الإنصاتَ لفكر الرواية مِن أكثر من زاوية، أي الإنصات للفكر الذي ينمو، وهو يتقاطعُ مع انشغالات المُفكّرين، جماليّاً بالأساس؛ ينمو من داخل قوانين الفنّ الذي إليه يَنتسب.

للبُعد الفكريّ، الذي تنطوي عليه رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» تفرُّعاتٌ مُتشعِّبة بتشعُّب «المفهومات الفكريّة» التي تشتغلُ روائيّاً في هذا العمل، وبتشعُّب الأراضي الوُجوديّة التي استكشفَتْها هذه الرواية من داخل الحكي. لعلّ أوّل ملامح هذا البُعد الفكريّ هو التعقيد الذي به قدّمَتْ رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» العَالَم، وبه أرسى سرفانتس ما سمَّاه كونديرا، «روح التعقيد»، التي هي «روح الرواية» بوجه عامّ، أي تمكين الأشياء، بما فيها الأشياء التي تبدو في العادة بسيطةً، من الانطواء على غُموض شديد لا ينفكّ يُجدّدُ مجهولَهُ باستمرار، ولا يتوقّفُ عن الإفصاح عن طيّات هذا المجهول التي لا تنتهي. لا ينفصلُ هذا الملمحُ الفكريّ عن سَيرورة الغامض في رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا»، كاشفاً، عبْر «روح التعقيد» أنّ حقيقة الشيء في تشظٍّ دائم، بل إنّ اشتغال الغامض يبلغُ حدّاً يجعلُ كلّ شيء مُلتبساً بضدّه، حتى لقد تحوَّل هذا الالتباسُ ذو الملمح الضدّيّ نفسُه إلى موضوعةٍ تواترتْ في هذه الرواية، وتخلّلت الحكيَ وحوارات الشخوص. تجلّى هذا الالتباس، الذي فيه يمتزجُ الشيءُ بضدّه، بصورة لافتة في كلّ ما يَبدو ويظهر. فكثيراً ما بدا السوادُ، في هذه الرواية، بياضاً والبياضُ سواداً، والخيرُ شرّاً والشرّ خيراً، وغيرها من الالتباسات التي زعزَعَت الثنائيات، وحدّتْ من انفصال طرَفَيْها لصالح الالتباس الذي يقبلُ اجتماعَ الأضداد وتداخُلَها. لعلّ الالتباس الأكثر جلاءً في رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» هو الذي تجسَّد، في كلّ مسار هذه الرواية، عبْر التداخل القائم بين الجُنون والحكمة، وكان مُحدِّداً رئيساً في بناء شخصيّة دون كيخوطي وفي صوغ البُعد الفكريّ الذي انطوَت عليه. إنّه التداخلُ الذي لا يستقيمُ في ضوئه عدّ دون كيخوطي، حكيماً طوراً ومجنوناً طوراً آخرَ وَفق ما تبدّى من التقييمات التي رجّحَها كلُّ الشخوص الذين التقى بهم دون كيخوطي. لربّما المُرجَّح أكثر، استناداً إلى عُمق الالتباس الباني للغامض الذي سعَت الرواية إلى استنباته في كلّ شيء، هو عدّ دون كيخوطي مجنوناً حكيماً في الآن ذاته، دون أيّ فصْل بين الحكمة والجُنون، لأنّ هذا الالتباسَ القائمَ على لقاء الضدّيّ يسمحُ، بناءً على منْع الحقيقة من التماسُك والامتلاء، بالحديث عن الجُنون الحكيم، ويُتيحُ أيضاً إعادةَ النظر في مفهوم الجنون نفسه وهو ينسبُه، من موقع الغامض في العَالَم، إلى الحكمة العالية.

إنّها الحكمة المشدودة بوشائجَ عديدة إلى قوّة الأثر الذي تُحدثهُ القراءة وإلى طاقتها على الفِعل، إلى الحدّ الذي تبدو فيه هذه الطاقةُ جنوناً، لأنّ الجُنون الحكيمَ من سِمات القراءة ومُحدِّدات هُويّتها. أثمّة قارئٌ، وَفق ما يُمكنُ استنتاجُهُ من شخصيّة دون كيخوطي ومن موضوعةِ جُنون القراءة، لمْ تُخرجْهُ القراءةُ عن «صوابه» أو عن «عمائه»، ولم تجعلهُ يتحدَّثُ إلى نفسه بصَوتٍ خفيض وحتى بصَوتٍ مُرتفع قد يبلغ حدَّ الصراخ؟ أثمّة مَنْ لم تجعلْه القراءةُ يَضحكُ ويبكي، ويُلامسُ التناقض الباني لكيانه؟ أثمّة مَنْ لم تُره القراءةُ الشيءَ في غير الصورة التي تكرّس بها في العادة؟ لا حدّ إذاً لجنون القراءة، لكنّه جنونٌ حكيمٌ يُفكّكُ المعنى المُعتادَ للجنون، ويفكّكُ وَهْمَ الحقيقة الوحيدة، ويُلقي بمعنى الحقيقة في التشظّي المانع للامتلاء. إنّ هذا التفكيك أحدُ رهانات استنبات الغموض في كلّ شيء. أمّا التأويل الذي ذهب إلى أنّ عمل سرفانتس رامَ نقْد كُتُب الفروسيّة فيبدو اختزاليّاً إلى أبْعد الحدود، على نحو ما تنبّهَ إليه بعضُ الدارسين، مُعتبرين أنّ كتُب الفروسيّة لم تكُن، في هذا العمل، سوى لعبةٍ كتابيّة، لأنّ البُعد الفكريّ في عمل سرفانتس ذو تفرُّعات شديدةِ التشعُّب، وهو أوسع من استقصاءِ كلّ مَلامحه.

الملمح الثاني الذي يُمكنُ الإشارة إليه في استجلاء البُعد الفكريّ في رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» غيرُ مُنفصل عن سابقه؛ يتجلّى أساساً في حِرص الرواية على التشديد أن لا شيء يتحدّدُ بصورَته التي بها يبدو ويَظهر. كلّ ما يظهرُ هو غيرُ ذاته. وبذلك، فإنّ هذه الرواية تطرحُ بصَمتٍ سرديٍّ سؤالاً فكريّاً شديدَ التعقيد، هو «ما الظاهر؟»، وتستبعدُ، في الآن نفسه، إمكانَ الجواب عنه اعتماداً على افتراض باطنٍ ما لهذا الظاهر، إذ تُغلّبُ، وَفق الاحتمالات التي يُتيحُها التأويل، ترجيحَ أنّ كلّ ظاهر هو غيرُ حقيقته باستمرار، ولا يُحيلُ، تبعاً لذلك، على حقيقة وحيدة. «الظاهرُ»، أيُّ «ظاهر» شاهدٌ على أنّه علامةٌ على ما لا ينفكّ يتبدَّل ويتلوَّن. فرواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» تُسائلُ الظاهرَ لا لتكشفَ أنّه ينطوي على باطن قارّ، بل لتُشدِّد على أنّ كلّ ظاهر مُغايرٌ لذاته. فما يَظهرُ، في كلّ ظهور، ليس، وَفق التصوُّر الارتيابي الذي تبنيه الرواية، هو نفسهُ. إنّه مُنطوٍ على التباس لا يرتفع، وعلى غموضٍ مُتجدِّدٍ، وعلى شُسوعٍ المجهول. فتكرار تعامُل دون كيخوطي، مثلاً، مع مظاهرَ من خارج صورَتها الأولى يكشفُ، من زاوية، عن الوَهم المُوَجِّه دوماً للإدراك، ويوضّحُ، من زاوية ثانية، أنّ الشيءَ هو غيرُ ذاته، وأنّ الحقيقة في تشظٍّ دائم، وغير قابلة للالتئام في معنى وحيد مُمتلئ ومُغلق. استناداً إلى ذلك، تنتصرُ رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» للمعرفة المُنفلتة، ولِما يُسمّيه كونديرا «حكمة اللايقين»، التي هي حكمة الرواية بوَجه عامّ. تنتصرُ الرواية لهذه المعرفية وَفق مقوّمات الفنّ الذي يجعلُ منها رواية، ووَفق الوشائج المُتشابكة التي ينسجُها هذا الفنّ بطرائقه الخاصّة.

في سياق الإلماح إلى هذه الوشائج الصامتة التي تشتغلُ في رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا»، يُمكنُ الإشارة إلى ما يصِلُ موضوعة السِّحر بما يظهر من الأشياء مُنفصلاً عن نفسه. فالحُضورُ القويّ لموضوعة السِّحر في رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» ليس أمراً عرَضيّاً، إنّ له وشائجَ قويّةً بالبُدُوّ الخادع، وبظهور الشيء في غير صورَته «الأصليّة» (هل للشيء أساساً صورةٌ أصليّة؟). تنمو موضوعة السِّحر في الرواية بانسجام تامّ مع قابليّة الشيء للتلوُّن في ظهوره وبظهوره. وكثيراً ما استحضرَ دون كيخوطي السِّحرَ لتعليلِ ما لا يستقيمُ استيعابُه، أو لإقناع رفيقه سانشو بعكس ما يبدو له، أو لتسويغ تمكينِ خيالِ القراءة من أنْ يسريَ في الوقائع. إنّ بَين موضوعة السِّحر وموضوعة الجنون وموضوعة الخيال وموضوعة الظاهر المُنفصل عن نفسه وشائجَ تتشابكُ



خيوطُها على امتداد رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا»، إذ لا حدّ للوشائج في هذه الرواية، ولا حدّ للاحتمالات التي تُمكّنُ التأويلَ من تمديد هذه الوشائج والإسْهام في تعقيد تشابُكاتها.

عن السؤال الفكريّ المُتعلِّق بالظاهر، تتولَّدُ، في عمل سرفانتس، أسئلةٌ فكريّة أخرى، منها بصورة رئيسة سؤال «ما الواقع؟»، و«ما حُدود الخيال فيه؟»، و«أثمّة فاصلٌ بينهما؟». إنّ تنامي هذه الأسئلة وتداخُلها هُما أيضاً أحدُ تجليات الالتباس الذي ينتصرُ للغامض. تبدو هذه الأسئلة، التي تولِّدُها الرواية وَفق ما يَحتكمُ إليه فكرُها جماليّاً، كما لو أنّها تروم قلبَ الرؤية الاعتياديّة للأشياء، على نحو يجعلُ الواقعَ وليدَ الخيال لا العكس. فالخارقُ أو الخياليّ لا يتحدّدُ، من منظور دون كيخوطي، بحُدوث وقائعَ غريبة، بل بحُدوث وقائعَ لا تنضبطُ لمَنطق كُتُب الفروسيّة ولمَنطق مُغامرة الفرسان الجوّالة، أي لا تنضبط لخيال القراءة. فكثيراً ما كان دون كيخوطي يُبدي حيرتَهُ لرفيقه سانتشو تجاه «وقائع» مُعيَّنة، لا لشيء إلّا لأنّه لم يَسبق أنْ قرأ مثلَها في كُتُب الفروسيّة. كما لو أنّ على الوقائع أنْ تنتظمَ وَفق خيال القراءة، بما ينطوي عليه هذا الأمر من احتمال كون الواقع خيالاً محجوباً، انسجاماً مع مفهوم الظاهر الذي لا يَظهرُ إلّا لينفصلَ عن نفسه، حتّى وإنْ بدا ثابتاً في صورة واحدة. تبدو الأسئلة السابقة مُوجَّهةً بالسؤال الأكبر الذي شكّلَ مدار الرواية الصامت، أي سُؤال تشظّي الحقيقة. فعن سُؤال «الظاهر» وسؤال «الواقع» المُعقّديْن، يَنبثقُ، في كلّ فُصول رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» بقسْمَيْها، سؤالٌ فكريّ من صميم «روح التعقيد»؛ إنّه سؤال «ما الحقيقة؟» المُتشابك، في أحداث الرواية، مع الوَهم الذي يلتبسُ بموضوع هذا السؤال ويمنعُ الجواب عنه من أيِّ إقرار. فقد حرَصت رواية «دون كيخوطي دي لامنتشا» على تفكيك مفهوم الحقيقة عبْر الحكي، فكانت الحقيقة، على امتداد الرواية، تتشظّى لا بالحَكي وحسب، ولكن أيضاً بالمَرح المُستند إلى قُدرة الضحك على زعزعة انغلاق هُويّة الأشياء. يُنتجُ مَرحُ هذه الرواية الضّحكَ فيما هو يَسخرُ من الأشياء الجامدة والرؤى الثابتة، ويُمكّنُ الأشياءَ والرؤى من أنْ تُضاء بإحداث شقوق فيها. إنّه مسلكٌ تأويليٌّ آخَر من بَين المسالك اللانهائيّة التي يُتيحُها عملُ سرفانتس الكبير للقراءة والتمديد.

التحدّي الحضري..

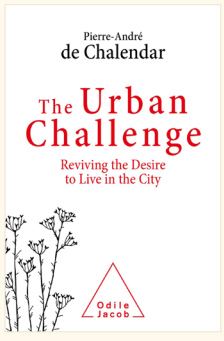
إعادة اكتشاف رغبة العيش في المدينة

المدينة التي بدت، بالأمس، جذّابة ومتطوّرة، والتي عُدَّت مكان كلّ الاحتمالات، أضحت، الآن، في خيالنا مدينة مترامية الأطراف، جائرة، ملوّثة، قذرة، بل خطيرة مع انتشار الأوبئة. فكيف السبيل، إذاً، لإحياء الرغبة في المدينة؟ وما الذي يجب تغييره حتى تصبح، مرّةً أخرى، كائناً صديقاً للناس، وللبيئة؟

شكّل هذان السؤالان محور عمل «بيير أندريه دي شالندار Pierre-André de Chalendar» في كتابه «التحدّي الحضري؛ إعادة اكتشاف رغبة العيش في المدينة»، الصادر في مايو/أيار (2021)، عن دار النشر «أوديل جاكوب - Odile Jacob». ويأتي اهتمام المؤلِّف بهذا الموضوع من موقعه بصفته رئيس مجلس الإدارة، والرئيس التنفيذي لشركة «Groupe Saint Gobain» المتخصّصة في موادّ البناء، حيث قضى فيها معظم حياته المهنية، والتي قام بتحويلها إلى شركة رائدة في تجديد المنازل الحضرية والبناء المستدام. إن هذه المجموعة تشارك، بشكل كبير، في إثارة القضايا البيئية، وحسن استخدام الطاقة في المباني، ومن هذا المنطلق يأتي اهتمام المؤلِّف بفضاء المدينة وبقضيّة المناخ لفترة طويلة، ومن أهمّ أعماله في هذا المجال: «معركتنا من أجل المناخ»، و«عالم بلا كربون».

واقتناعاً منه بالمستقبل الجديد للمدينة، يقترح «بيير أندريه دي شالندار»، في كتابه «التحدّي الحضري...»، إعادة تعريف أنموذج حضري يعزِّز الاندماج الاجتماعي، ويضع أيّ مشروع مبتكر في منطق تشاركيّ، وهو توقيع حقيقي «للمدينة المستدامة»؛ وأنموذج تلتحم فيه الطبيعة والمدينة، حيث تكون الحركة سائلة وخالية من الكربون، وتوفِّر المباني المتينة والفعَّالة الراحةَ والصحّة، مستجيبةً للتطلُّعات التي عزَّزتها الأزمة الصحيّة، للعيش بشكلٍ أفضل. وفي هذا الإطار، يقول «مايكل بلومبرغ - Michael Bloomberg» عمدة مدينة نيويورك (2002 - 2013)، ومؤسّس «مؤسَّسة بلومبرغ»: «إن المدن هي أكثر مراكزنا الثقافية والاقتصادية ديناميكيّةً، لكنها تواجه، اليوم، سلسلة من المشاكل المعقَّدة. يساعدنا التحدّي الحضري على تخيّل كيف يمكن أن تتغيَّر وتنمو، وأن تصبح هذه الأماكن أكثر خضرةً، وأكثر صحّةً، وأكثر ازدهاراً للجميع». يشير «دي شالندار» إلى أن هذه القولة تعكس نظرة ثلاثية الأبعاد؛ إنها نظرة الزعيم، والمسافر، والمسؤول السابق، رفيع المستوى: تكمن نظرة الزعيم في التفكير في إدارة الهجرة الجماعية خلال مختلف الأزمات، والرغبة في أن تكون المدن، في عالم الغد، أكثر أمناً ورخاءً. وتكمن نظرة المسافر في العديد من مدن الكوكب التي زارها على مدى (30) عاماً، حيث عايَنَ، عن قرب، مدى تراكم الأضرار البيئية، والاجتماعية، والبشرية. فيما تكمن نظرة المسؤول في تحديد الاستجابات للتحدّي الحضري، من خلال تضمين انعكاسه في نهج مستقبلي، واستراتيجي.

يثير المؤلِّف أهمّيّة تقاطع وجهات النظر الثلاث، التي تجعل عمله مثيراً للاهتمام، وعلى منوال «بلومبرغ»، وضَّح المؤلِّف، أيضاً، كيفية الاستفادة من رحلاته، ومحادثاته مع المهندسين والمخطّطين الحضريِّين، كيف، استفاد، أيضاً، من قراءاته، فيشرح لنا أن تحدِّينا الحضري الحالي هو جزء من تاريخ طويل جدّاً، منذ أوَّل مدن بلاد ما بين النهرين، حيث كان التحدِّي يكمن في المزاوجة بين الرغبة في المدينة والرغبة في الطبيعة. يشير «دي شالندار» إلى أنه، في السنوات الأخيرة، دخلت هذه القصّة صورة رمزية جديدة، قائلاً: «أعتقد، من جهتي، أن العقول تتحرَّك بسرعة. لقد جعلت أزمة «كوفيد 19» هذه القضية تُطرح، لدى العموم، بشكلٍ أوسع وصريح من خلال استحضار الصحة والبيئة



وحماية كوكب الأرض. وتمحور النقاش، مؤخَّراً، حول الكثافة الحضرية، واكتظاظ المساكن، وتقاسم المساحات، وظروف المعيشة في المدن». ففي الوقت الذي تشتدّ فيه الهجرة إلى الريف، يعيد المؤلِّف تعريف أنموذج حضريّ، لم تعد فيه المدينة معارضة للطبيعة، ويكون التنقُّل فيها سائلاً وخالياً من الكربون، داعياً، في الآن ذاته إلى نماذج مبتكرة وتشاركية تعزِّز الروابط الاجتماعية والاندماج، مؤكداً على الضرورة المُلحّة لإعادة التفكير في مستقبل المدن الكبرى، وفي أنموذج يواجه تحدّي تغيُّر المناخ.

وفي هذا الصدد، يكشف «دي شالندار» أن حوالي عِشْر مدن العالم يزيد عدد سكّانها على عشرة ملايين نسمة، وأن هذا العدد سيتضاعف أربع مرَّات، بعد عشر سنوات فقط. إذ يُتوقَّع أن يبلغ عدد سكّان دلهي (39) مليون نسمة، وطوكيو (36) مليوناً، وشنغهاي (33) مليوناً، ودكا (28) مليوناً، وبكين (24) مليوناً، وكينشاسا (22) مليوناً، وكراتشي (20) مليوناً، وبومباي (24) مليوناً، ولاغوس (20) مليوناً... إنه تحدٍّ آخر يتجلّى في الطريقة التي ستواجه بها هذه المدن العملاقة مستقبلها، على الرغم من هشاشتها. من جهة أخرى، يبيّن «دي شالندار» من خلال عدد من الإحصائيّات تمركُز الثروة في المدن، مشيراً إلى دراسة أجرتها شركة «ماكينزي - McKinsey» سنة (2018)، بيَّنت أن أكثر من 60% من الناتج المحلّي الإجمالي العالمي يتمركز في (600) مدينة كبرى، وأن هذه المدن تستهلك 78% من الطاقة، وتنتج 70% من انبعاثات غازات الاحتباس الحراري، والكثير من التلوُّث، والضوضاء المفرطة، والسكن العشوائي، والسكن الباهظ الثمن، والسكن الضيِّق للغاية، وصعوبة التنقُّل، والإجهاد، والتوتُّرات الاجتماعية، ناهيك عن العنف المتزايد... وحتى في أوروبا، فإن الأنموذج الحضري بدأ ينفد، وأصبحت المدينة أقلّ جاذبية. لقد كشفت أزمة «كوفيد 19» عن هشاشة هذا النموذج، وأثارت لدى العديد من سكّان المدن الرغبة في ارتياد مكان آخر، حيث بدأ التفكير بشكل جدي في النزوح إلى الطبيعة، والأرياف، لكن هذا لن يكونَ كافياً لوقف حركة التمدُّن هذه، كما يعتقد المؤلِّف، داعياً إلى حركة تحوّل من الداخل.

يتوقَّف المؤلِّف، كذلك، عن ظاهرة تهدّد المدن، تتمثَّل في الارتفاع الحتمي للمياه، حيث ستتأثَّر (570) مدينة بهذه الظاهرة. وبحلول سنة 2024، سينتقل (1.5) مليون مسؤول في ولاية جاكرتا إلى عاصمة جديدة في جزيرة بورنيو، حيث تغمر الأحياء القريبة من الشاطئ بالمياه بمعدل (25 cm) في السنة؛ أي أن ما يقرب من (40%) من المدينة سيكون تحت مستوى سطح البحر، بالفعل، خلال السنوات القليلة المقبلة. وبحلول سنة (2050)، ستستقبل مدن العالم أكثر من (2.5) مليار شخص إضافي، وسيتركَّز أغلبها على طول السواحل، حيث يمكن أن يجعل ارتفاعُ منسوب المياه الحياةَ أكثر صعوبةً أو -ربَّما- مستحيلة، وحتى في أكثر السيناريوهات تفاؤلاً، مع زيادة درجات الحرارة العالمية المقدرة بدرجتَيْن مئويَّتَيْن، سيصل ارتفاع المحيطات إلى (40 cm) في أفق سنة (2100).

ومن التحدِّيات الأخرى التي يطرحها «دي شالندار» مشكل التنقُّل والاكتظاظ المروري، ففي باريس، مثلاً، سيكون التنقُّل هو أكبر مصدر لانبعاث غازات الاحتباس الحراري، خصوصاً مع ارتفاع استهلاك الوقود، ومن هنا يعني الحدّ من البصمة الكربونية للمدينة يعني، جزئياً، التخلّي عن الأنموذج الحضري كما هو قائم اليوم، وهو أنموذج يتحوّل فيه التنقُّل إلى أرق مقلق؛ ما يستوجب التفكير في السبل الكفيلة لمواجهة هذه المعضلة، وقد يكون العمل عن بعد من بين الحلول التي يمكن تبنِّيها في هذا الصدد، وهي حلول استخلصناها من تجربة الأزمة الصحِّيّة العالميّة التي شهدها العالم مع بداية (2020).

يقدِّم المؤلِّف، كذلك، عدداً من الحلول والاقتراحات لتفادي الكوارث والأخطار المحدقة بمدننا، داعياً أصحاب القرار والفاعلين السياسيِّين، والاقتصاديِّين، والمؤثِّرين عبر العالم، للانخراط الفعلي لمواجهة كلّ هذه التحدّيات، وأخذ زمام المبادرة، من خلال دعوة لإعادة النظر في الأنموذج الحضري الذي يجب التفكير في تغييره، يقول: «أنا مقتنع بأن الوقت قد حان لبدء حركة واسعة لتجديد نماذجنا الحضرية. هنا، أيضاً، تفتح أسواق جديدة، خاصّة لوضع حَدّ للمصافي الحرارية. ففي أكتوبر/تشرين الأوّل (2020)، قرَّرت أوروبا مضاعفة وتيرة تجديد المباني على مدار السنوات العشر القادمة، والوصول، بحلول سنة (2030) إلى رقم (35) مليون مبنى سيتمّ تجديدها، مع توفير طاقة نظيفة للتدفئة والاستعمال اليومي.

لقد أثار الوباء الرغبة في مدينة أقرب إلى الطبيعة، مع نقل أكثر سلاسةً، ومبانٍ صديقة للبيئة. كما يؤكِّد المؤلِّف أن «تجديد الطاقة هو أجملُ مشروع في الوقت الحالي»، ويبقى الرهان الأكبر متمثِّلاً في الحدّ من الاحتباس الحراري، وفي هذا الصدد تعتبر الشركات الكبرى جزءاً من الحلّ بقدر ما هي جزء من المشكلة؛ يجب أن تكون هذه الشركات في طليعة مواجهة التحدّي الحضري، وهذه هي أهمّ أطروحة يقدّمها «بيير أندريه دي شالندر» في كتابه.

وعلى الرغم من اجتياح جائحة «كورونا» للمدن، كانت، في المقابل، مصدر إلهام، ومُسرِّع لإعادة التساؤل حول التحدّي الحضري: لقد ذهب الناس ليحصروا أنفسهم، ويحصِّنوها خارج المدن، وهذا، في حدِّ ذاته، ليس الحلّ الأمثل. إن الأمر يتطلَّب معالجة هذا الوضع، وإحياء مدن مستدامة ومرغوبة. إن طموح المؤلِّف يتمثَّل في خلق روابط جديدة بين مختلف المكوّنات الحيّة لهذا الكوكب؛ وهو أمر يستدعي مراجعة تنظيم الفضاء الحضري، وخلق توازنات جديدة بشكل ملموس، سواء على صعيد التنقّل، أو الاقتصاد، أو ترشيدِ الطاقة، أو التوزيع الديموغرافي، كما يجب أن يتكيَّف السكن مع استخدامات السكّان وتوقُّعاتهم، لا سيَّما من خلال تحسين أداء الطاقة في المباني.

إن ما يميّز هذا الكتاب هو وضوحه التامّ؛ ما سيسمح بوصوله إلى جمهور عريض، وخاصّة اللاعبين الاقتصاديِّين الذين يدركون حجم التحدّي الحضري، ويبحثون عن معايير قويّة لفهمه .

يقدّم «دي شالندر» لمحة عامّة عن واقع مدننا، ويدقّ جرس الإنذار لكلّ عشاق المدن، آملاً أن يكون التحضُّر، دائماً، مرآةً للحضارة، وأن تكون الحضارة، بدورها، متناغمة مع الإنسان، ومع مصيره. ■ **عبد الرحمان إكيدر**

يوخن هوريش..

كيف شوَّهت الرّقمنة والجَائِحة لغة الجسد!

«تناقصت قيمة الأيدي برمزيتها الديناميكيّة والحسيّة منذ مطلع القرن الحادي والعشرين في ظلّ هيمنة الآلة، لتأتي ظروف الجَائِحة كي تُفاقِم من سيناريو الإهمال الواضح لقيمة الأيدي في تفاصيل الحياة اليوميّة. كأننا نودِّع طقساً قديماً انتزع حميميّة التواصل»... هكذا يتساءل «يوخن هوريش»، المُفكِّر المُعاصر وأستاذ الدراسات الألمانيّة الحديثة وتحليل وسائل الإعلام بجامعة «مانهايم»، في كتابه الجديد «الأيدِي.. تاريخ ثقافيّ/Hände..Eine Kulturgeschichte» الصادر عن دار نشر «Hanser»، عمّا إذا كانت حياتنا لا تزال في أيدينا. يتناول الكتاب لغة الجسد من زاوية ثقافيّة، خاصّة في ظلّ ما لحق بهذه اللّغة من تصدُّعات بالتزامن مع الجَائِحة التي فرضت انحساراً قسرياً للتواصل الجسدي، حيث يرى «هوريش» أن البشرَ ماضون في طريقهم لتدشين علاقة أكثر اضطراباً مع الجسد بعد أن صارت «لغة الجسد» مجرَّد «أوقات منسيّة» في زمن الوباء.

يشرح «هوريش» التأثيرات المعرفية لهذه اللّغة شديدة الخصوصية في الموروث الثقافيّ، مع التركيز على «الأيدي» باعتبارها العضو الأكثر فاعلية وتأثيراً في هذه اللّغة الحسيّة، إذ يُعَدُّ الكتاب بمثابة دراسة خارج الصندوق حول التاريخ الثقافيّ للأيدي والذي يمتد إلى ما وراء الدراسات الأدبية إلى الاعتبارات الأنثروبولوجيّة من خلال التنقيب في كلاسيكيّات الأدب الألمانيّ، حيث يغوص الكاتِب داخل الاشتقاقات التاريخيّة للكلمات والمُصطلحات، التي يرجع أغلبها إلى الأصل اللاتينيّ لكلمة يد «manus»، والوقوف على العديد من التعابير الاصطلاحية للمُدخلات المعجمية المُبكِّرة المُتعلِّقة باستخدام هذه المُفردة ودلالتها اللّغويّة التشعبيّة.





سيد «هوريش».. هل هي مصادفة أن يكون بطل أشهر كلاسيكيّات الأدب الألمانيّ للكاتب الكبير «يوهان فولفجانج جوته» يسمَّى «فاوست» وهو ما يعني لغويّاً «قبضة اليد»؟ إلى أي مدى هذه الصلة قائمة بين الاسم ودلالته في واحدة من أهمّ كلاسيكيّات الأدب الألمانيّ والعالميّ؟ ولم اخترت لغة «جوته» تحديداً لتقوم بتشريحها في كتابك؟

- بالطبع، ليس ذلك من قبيل الصدفة. لقد كان جوته شديد الحساسية في انتقاء أسماء أبطاله، ودائماً ما كان لديه مغزى أدبي من اختيار أسماء بعينها. ربّما رأى البعض أن ذلك تفسير مبالَغ فيه من جانبي، لكنني أثق بأن «فاوست»، بطل المسرحية الأشهر في تاريخنا الأدبيّ، هو اسم وصفي دلالي من الدرجة الأولى، وليس بأي حال من الأحوال، تم انتقاؤه لأسبابٍ تاريخيّة فقط. لقد كان «فاوست» شخصيّة مثيرة للفضول ودائمة البحث عن الجوهر الحقيقيّ للحياة، ما قاده إلى استدعاءات مثيرة عبر الأحداث. كما أنه كان دائم البحث عن يد الله التي تنتشله من الغواية، وهنا يتَّضح الربط الفلسفيّ الذي صنعه «جوته» بين اسم بطله ورحلته الحياتية. فنحن لا ننتزع الأشياء سوى بقبضة تستميت في البحث عن غاياتها. لقد واجه «فاوست» السؤال الأكثر إلغازاً في الحياة: «ما الذي يربط العالَم معاً في جوهره». في هذا «الالتصاق» تكمن بالفعل استعارة يدوية. إنه يريد أن يعرف بالفعل ما الذي يملكه في يديه وما الذي ينحصر تواجده في أيدي القوى العليا فقط؟ وما اللحظة الحاسمة التي تلتقطه فيها اليد الإلهية؟ كذلك لم يقع اختياري على أعمال «جوته» كي أدلل بها على أطروحتي من فراغ.. هناك حضورٌ قوي جدّاً لاستخدام «جوته» للدوائر الدلالية التشعبيّة لكلمة «يد» في كثير من مؤلَّفاته. هذه «الفكرة المُهيمنة» في نصوصه لم يلحظها الباحثون بعد.

أنت متحمِّس للفرضية اللُّغويّة التي تقول إن كلمة «يد» حاضرة بقوة في لغتنا الألمانيّة ولغاتٍ أخرى... حيث تقول في كتابك: «تكرَّرت كلمة «يد» في كتاب «Buddenbrooks» لـ«توماس مان» فيما يقرب من 643 موضعاً في حوالي 837 صفحة».. والواقع أن هذا رقمٌ مثير للدهشة. كيف تفسِّر هيمنة هذه المُفردة أدبيّاً كـ«ظاهرة لغويّة»؟

- يبدو الأمر أشبه باللعبة، لقد كان «توماس مان» مهووساً بمفهوم «اليد» ودلالته في اللّغة.كما هو معروف، أن رواية «Buddenbrooks» تتحدَّث عن عائلة ثريّة منخرطة في مجال التجارة. إذن أنت تتداول العديد من المُفردات المُتعلِّقة بالبضائع وطرق تبادلها. فالتجارة لا تعني شيئاً سوى حركة نشطة بين اليدين. والأسئلة التي تمَّ تناولها في الرواية تدور تحديداً حول هذا: هل سيتمكن «آل بودنبروكس» من العمل يداً بيد؟ هل السيدة «توني بودنبروك» لها حظوظ مع الرجال الذين يطلبون يدها؟ وهكذا من الاستخدامات اللانهائية على المُستوى الدلالي التي ترتبط جميعها بمُفردة «اليد». ولكن، في الواقع، هذا الاستخدام اللُّغويّ المُكثف عكس حقيقة هامة للغاية في الرواية، ألا وهي أن جميع محاولات أبطال الرواية ودأبهم لانتزاع الحياة بأيديهم قد باءت بالفشل تماماً، ومن هنا يتبيَّن مدى التنوُّع في التوظيف اللُّغويّ لمُفردة واحدة ورحابة استخدامها أدبيّاً لخلق إسقاطات حياتية عديدة.

نحن نعيش زمن «التفاصيل المنسية».. يستعرض كتابك هذه الأطروحة. ففي ظلّ الوباء، أصبح من المُستحيل لمس الأشخاص غير المُقربين. لقد قلت: «إننا نعيش عصر نسيان



الأيدي». فهل تدعو في كتابك الجموع إلى إيلاء المزيد من الاهتمام بأيدينا مرّة أخرى؟

- في الواقع يدرك أي شخص ينظر إلى هذا العَالَم بعيونٍ يقظة أننا نوليٍ اهتماماً كبيراً بأجزاءٍ أخرى في جسدنا. الدماغ مثلاً هو «مقر الشخصيّة»، أو الرئتان لأنها عضو معرض للخطر بشكلٍ خاص، أو الأمعاء لأن الكثيرين يعتقدون أن سلامتهم ترتبط إلى حدٍّ كبير بها. في حين، يتمُّ إيلاء اهتمام متناقص بالأيدي وقدراتها المُتنوِّعة. دعونا نفكِّر فقط في تقليص قيمة العديد من المظاهر الثقافيّة اليدويّة، مثل المخطوطات اليدويّة أو العزف على آلة موسيقيّة أو رسم اللوحات وتصميم الملابس وتسريحات الشعر والجراحات الدقيقة وما إلى غير ذلك من مهاراتٍ حياتية حيويّة تعتمد على الأيدي بصفةٍ خاصّة. هذا مجرَّد مثال بسيط يشرح الديناميكيّة الخفية بين العقل واليد، وكأنها تقوم بدور المُترجم الفوري للعديد من العمليات المعرفيّة والإبداعيّة والتي يصعب استعاضتها ببديل له نفس الاستجابة المُدهشة.

اتفق معك تماماً.. نستخدم، على سبيل المثال، هواتفنا الذَّكية عدّة مرّات في اليوم بواسطة أيدينا. هذا المثال البسيط يعكس أيضاً الدور الهام الذي تلعبه أيدينا...

- ستندهش أكثر عندما أفكّك لك هذه الآلية من منطلقٍ لغويّ. في البداية، يبدو الأمر كما ذكرت وإننا نستخدم هواتفنا بأيدينا، لكن لو ألقينا نظرةً فاحصةً على الأمر، سنجد أننا لا نستخدم هواتفنا المحمولة بأيدينا كاملة، ولكن بأصابعنا. لذلك كان بديهياً للغاية أن نطلق على عصرنا الحالي اسم «الحقبة الرَّقميّة/ Digital Era».

وبتتبُّع الأصل اللُّغويّ لكلمة «Digit» نجدها تعود إلى كلمة لاتينيّة «Digitus» بمعنى «الإصبع». تخيَّل إننا -مع كلّ هذه التكنولوجيا الرَّقميّة- نعيش في عصر الأصابع وليس اليد الكاملة.. «ضاحكاً».

هل تعتبرها أحد أشكال الخسارة أننا نكتفي باستخدام الأصابع فحسب عندما تتيح لنا طبيعتنا البشريّة استخدام أيدينا بالكامل ولا نفعل؟ وهل هذا نتاجاً لهيمنة الرقمنة؟

- لا أريد أن يبدو الأمر بائساً تماماً، لكنني أعتقد أننا نحرم أنفسنا من جزءٍ مهمّ من تجريب عالمنا إذا كنّا نصل إليه بشكلٍ أساسي عن طريق التمرير السريع والتواصل الافتراضي. يبدو لي أن اللمس هو مركز القضايا المُعقَّدة وأداة الوصول الكبرى. هناك عبارة شهيرة لأرسطو يقول فيها: «اليد هي أداة كلّ الأدوات.. إن ما نعيشه الآن من تناقص لقيمة التلامس واكتشاف ماهية الأشياء إنما هو وليد لمفهوم «الافتراضية» الذي بدأ ينسحب على كافة تفاصيل الحياة وكأننا صرنا نكتفي باختبارها عن بُعد. لقد صار «العَالَم الافتراضي» بديلاً منافساً «للعَالَم الفعلي». الرقمنة بالفعل ليست بعيدة عمّا نتحدَّث عنه، فهي مشتقة من كلمة «أصابع» التي وثَّقت تناقص أهمِّيّة الأيدي وتراجعها، لتنحصر في عدد من النقرات السريعة بدلاً من الاستغراق في الجانب الحسي للأشياء. لم نعد نتحكم في الأشياء بأيدينا، بل بأصابعنا. وحتى هذا العصر، أصبحنا نتركه وراءنا تدريجياً. نحن نقفز الآن إلى مساحة أخرى ستلغي حتى استخدام الأصابع؛ كأن نتحكَّم في الأجهزة المُختلفة عبر بصمة الصوت أو الوجه. نقوم بتجريب القيادة عن بُعد في الطائرات والملاحة، وفتح هواتفنا ببصمة الوجه أو الصوت. هذا ما اعتبره تغييراً حاسماً

في علاقتنا المادية بالعَالَم، والتي تتحوَّل إلى علاقة لم تعد ملموسة من الأصل. نحن نطوِّر علاقة مضطربة تماماً مع كلّ ما هو جسدي وله علاقة بالجسد. وبالتالي أيضاً نمضي نحو علاقة مضطربة مع الكون. حقيقة أننا لم نعد نكتب بأيدينا، بل نكتفي بالكتابة الإلكترونيّة أو الإملاء، لها تأثيرات معرفية كبيرة، إذ يتفق علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الأحياء التطوُّرية على أن تطوُّر اليد هو الذي أدّى إلى قفزة كبيرة في تطوُّر نشاط المخ.

أتعتقد أنه يوجد وراء العديد من الاستعارات اليدوية افتراضات ميتافيزيقية؟ وهل يمكنك شرح الارتباط الوثيق بين اليد والعقل، فكيف يمكنك وصف أدائنا المعرفيّ في ضوء هذا الربط؟ وكذلك كيف تربط اللُغة بين اليد والمشاعر، فيما نسميه بـ«الأحاسيس»؟

- من منظور نقديّ أيديولوجيّ، أرى أنه من الذكاء أن تُترجَم اليد ميتافيزيقياً على أنها مثال للواقعية الصحيّة. كما أن منجزنا الفكريّ الأساسي لفهم الأشياء من حولنا قائم على اليد. لكننا كثيراً ما ننسى هذا الارتباط الوثيق. لغتنا تعيد إنتاجها بشكلٍ جيّد للغاية، عندما نتحدَّث عن «استيعاب» شيء ما، ونعني بذلك مفهوماً فكرياً أو عملية معرفية موازية. وفيما يخصُّ الجانب الحسي في اللّغة وعلاقته بالأيدي، أسوق لك مثالاً بسيطاً عندما نتأثّر بشيء ما، لابدّ أن يكون ذلك نتاجاً لاقتراب مادي مع هذا الشيء. كلّ هذه الاختلاجات يولدها نطاق اللمس، بحيث تشترك كلّ من «اليد» وفعل «اللمس» في مركزية حسية واحدة. اسمح لي أن أكون عاطفياً بعض الشيء وأقتبس شطرات من القصيدة الرائعة التي كتبها «ريلكه»، والتي تقول:

لكن كلّ ما يمسنا، أنا وأنت
يجمعنا معاً مثل القوس
يسحب الصوت من خيطين
تُرى أي آلة هذه التي توقد حماسنا؟
وأي عازف كمان ذلك الذي يسكن أيدينا؟

أفقدنا الوباء قدرتنا على المُصافحة... ما الذي خسرناه جرَّاء ذلك الفقد؟

- تزداد حياتنا ثقلاً، وتبتعد أكثر فأكثر عن دائرة الملموس والحسي، لنصبح بلغة «هايدجر» العامية: مجرَّد «كائنات». ففي نهاية المطاف يسفر هذا أيضاً عن توليد المزيد من الأخبار الزائفة وتفشّي نظريّات المُؤامرة في ضوء تفاقم مساحة الرهاب الاجتماعيّ والفجوة الحسيّة بين البشر بفعل التباعُد الجسديّ والشعوريّ، إذ يؤدّي ذلك التناقص الحاد في منحنى التواصل الجسديّ البشريّ وتغيُّر طبيعته المألوفة إلى اضطرابات نفسيّة كبيرة، ربّما لا يتمُّ تقدير خطورتها وانعكاساتها النفسيّة بدقّة، خاصّة بالنسبة للأطفال الذي يتعيَّن عليهم البقاء دون اتصال لفترة طويلة جدّاً، ممّا يُحدِث خللاً في سلوكياتهم الاجتماعيّة لاحقاً.

إذا حاولت الوصول إلى ماهية قيمة «الجمال»، فأنت تدرك، بمفهوم «جوته»، أن الشيء الوحيد الذي تمَّ إنشاؤه باليد هو فريدٌ من نوعه ولا يمكن تكراره. وذلك على النقيض من شيء يتمُّ تصنيعه بالآلات أو بصورة رقميّة، ليبقى العمل اليدوي ليس مثالياً بأي حال من الأحوال مقارنةً بنظيره الآلي، لكنه يحمل ملمحاً من روح صانعه وهو ما يكسبه تفرُّده... ففي نهاية المطاف نجد أنفسنا نتوقّف عند الفارق المُدهش الذي يخلقه العمل باليد مرّةً أخرى..

- «اليد» هي مايسترو الحياة وضابطة إيقاعها. أعرف بعض الأشخاص البارعين في العزف على الكمان أو البيانو، وقد أكَّدوا لي جميعاً أنه من غير المعقول تماماً بالنسبة لهم أن يعطي المخ الأوامر لليد عند عزف المُوسيقى، بل اليد هنا هي التي تحرِّك الدماغ وليس العكس. هنا نجد أن العزف، مثلاً، قد تجاوز كونه معادلة من التفكير الواعي، ليصبح ذلك البريق والاتقاد الذي صنعته اليد وحدها في حضور العقل. أعني الأمر بجدية شديدة: أجزاء من الدماغ مسؤولة فعلياً عن نشاط اليد، ولكن هناك جزء حر تصوغه اليد بتفرُّد شديد. العديد من الفَنَّانين، بما في ذلك الرسّامين، يقفون أمام لوحاتهم، ليصنعوا خطوطاً معيَّنة لا يصنعها غيرهم، فيما يشبه بصمة تميِّزهم عن غيرهم. وهذا بالطبع غير مخطّط له سلفاً في الدماغ البشريّ.. اليد تحرِّر نفسها بنفسها. وكلمة «تحرير» مشتقة أيضاً من كلمة «يد»: حرّيّة اليد لها قوة فائقة وغامضة. إن تحرير اليد من سيطرة الدماغ يعني أيضاً أن الفَنَّانين ليسوا دائماً الأجدر على تشريح أعمالهم وتحليلها. هم صانعوها لا بأس، لكنهم لم يفكّروا في الأمر كلّه بوعي كامل، وهو ما نسمّيه بـ«شطحات الفَنَّانين».

حدِّثنا عن الفلسفة، التي يمكن سرد قصتها أيضاً على أنها نزاع دائم مع مصداقية حواس المرء. ما هو الدور الذي تلعبه الأيدي في حب «الحكمة»؟

- إذا كنت تريد أن تبدأ بالفلسفة الغربيّة مع أفلاطون، فعليك أن تلاحظ انخفاضاً في قيمة الأيدي منذ البداية. في حالة أفلاطون التي اعتبرها حالة خاصّة، كان هذا يرجع إلى كونه ينحدر من عائلة ثريّة ولم يكن مطروحاً لرجل من شريحته الاجتماعيّة القيام بعمل يدويّ. لذلك لم تظهر هذه العلاقة بقوة في فلسفته. لقد كان يرى هؤلاء العُمَّال عبيداً لا أكثر. أمّا بالنسبة لـ«كانط»، فنجده يغفل هذه الفلسفة تقريباً، فهو صاحب نظرة تجريديّة عنيفة بعض الشيء، إذ يرى الميلاد بمثابة فعل قهري تحكمه الطبيعة، وأن الأشخاص لا يملكون حتى تفاصيل هذه الحياة في أيديهم. أمّا المُفكّرون الماديون؛ من أمثال «لودفيج فيورباخ» أو الفلاسفة الحِسيين مثل «فريدريك نيتشه» فقد خصَّصوا لهذه الفرضية صفحات قليلة جدّاً. حتى في القرن العشرين مع «تيودور دبليو أدورنو» أو «لودفيج فيتجنشتاين» لا يوجد شيء عملياً على ذلك. فهذا السحر الذي أحدِّثك عنه، له جانب مظلم أيضاً يرافقه. ولكن، يبقى الاستثناء الكبير هو «مارتن هايدجر»، الذي تفلسف يدوياً بصورة عمليّة، وهو ما اتضح جليّاً في مصطلحاته اللّغويّة السخية. شدّد أيضاً «كوندياك» على أن ما يُستشعَر بواسطة اللمس له حقيقة أعمق ممّا



يُرى أو يُسمَع «فقط». كما وصف «شليغل» الأيدي بأنها «هوائيات العقل» و«فضاءاته الحرّة»، فيما شدّد «هيردر» على أهمّيتها في اكتشاف الذات، قائلاً: من خلال لمس الأشياء الأخرى، يختبر المرءُ حدوداً ووجوداً خاصّاً به؛ فقط يتحقَّق ذلك من خلال اللمس، هكذا يدرك المرءُ نفسه».

تستشهد في كتابك أيضاً بمقطع من كتاب «جان بول سارتر»: «The Disgust»، الذي يعرب فيه عن قلقه العميق من أن يده التي أمامه على الطاولة، ربّما لا يملك سلطاناً عليها، فتبدو كأنها على قيد حياة لا يعرفها.. ماذا تقصد بهذا الاستشهاد؟

- أعتقد أننا جميعاً نعرف هذا الشعور بطريقةٍ أو بأخرى. على الأقلّ نحن جميعاً على دراية بتعابير تفسِّر ذلك مثل «انزلقت يدي». لدينا معرفة بديهية أن اليد يمكن أن تصبح مستقلّة في أفعالها، في سياقات سلبية. يتحدَّث العديد من الفَنَّانين أيضاً عن هيمنة أياديهم وأحياناً سلطويتها. يتحدَّثون عن عدم معرفة ما تفعله أيديهم بالضبط عندما يرسمون أو يعزفون. لو فكّرنا في اللحظات المُثيرة، نجد أن الأيدي تعرف من تلقاء نفسها إلى أين تريد الذهاب دون توجيه أو تحديد مسار. هناك أيضاً أدلة كثيرة في علم الأعصاب على أن أيدينا تكون أحياناً شبحية، وأحياناً تكون خصوماً ودودة لأدمغتنا. وفقاً لذلك، أردت الحديث أيضاً عن تمرُّد الجسد، لكنني في المُجمل أتحدَّث عن انسجامه، الذي يجب أن نكرس أنفسنا له أكثر، خاصةً عندما يُسمَح لنا بمُعانقة الناس مرّة أخرى وعودة اللمسات التي هجرت حياتنا.

كيف خلق الله العَالَم؟ بيده أم بالكلمات؟ هذا المنظور كيف تفلسفه في ضوء أطروحتك اللُّغويّة؟

- كلاهما. هذا هو الشيء المُدهش في سفر التكوين. من ناحية، قال الله إنه سيكون هناك نور، وكان بالفعل. لذلك فهي عملية لوغولوجيّة للخلق من خلال قوة الكلمة الخلّاقة. من ناحيةٍ أخرى، قيل لاحقاً، إن الله خلقنا من التراب والطين. وهو ما يُعظِّم «علوياً» من دور اليد. لقد صنعنا اللهُ دون الحاجة إلى شروح. هذا الفعل المزدوج موجود في جميع ديانات الوحي التوحيديّة الرئيسيّة الثلاث. الله هو أكثر من إله للكلمة يُنزل وحي الكلمات، لكنه يمد يده أيضاً إلى خلقه بطريقة خفيّة يصعب شرحها، لكنها حقيقة لا تقبل الجدل.. يد الله كائنة بين خلقه دائماً وأبداً.

■ **حوار: فينكا هوسمان □ ترجمة: شيرين ماهر**

المصدر:

https://www.zeit.de

الرابط المختصر:

https://bit.ly/3xZlkdU

بول أريي

«ولدت السياسة حول مائدة الطعام»

التغذية فعل اجتماعيّ شامل بامتياز. هذا ما يحاول «بول أريي Paul Ariès» صاحب كتاب «نحو تاريخ سياسي للتغذية»، ورئيس تحرير مجلة «Les Z'Indigné(e)s» إبرازه من خلال أبحاثه التي تجمع بين التاريخ والسوسيولوجيا وعلم السياسة، حيث يسعى إلى استكشاف ما تفصح عنه أطباقنا وأذواقنا.

ما الذي يدفعكم إلى القول بأن وجبة طعام تشكِّل فعلاً سياسيّاً بامتياز؟

- لأن المائدة والسياسة تتداخلان على الدوام. فالتغذية هي مسألة توزيع وقواعد، وهو المجال الذي يتحدَّد فيه الأصدقاء والخصوم. من المُحتمل جدّاً أن تخزين الطعام والنار التي استعملت لطبخه كانا أول المُمتلكات المُشتركة للإنسانيّة. ومن هنا يمكن التصريح بأن السياسة وُلدت من خلال التغذية. وبخصوص الرهان الكبير لعصرنا فإن الأمر لا يتعلَّق باستيطان المجال، بل بكيفية توفير الغذاء لثمانية أو اثني عشر مليار إنسان. ولهذا يجب علينا أن نتعرَّف على ما كان يعنيه فعل الأكل في الماضي.

نحن اليوم عند مفترق الطريق: على ماذا سوف نتغذّى بعد بضعة عقود؟ تبدو الزراعة الخلوية كإحدى الإمكانات المطروحة، حيث يمكننا صناعة مواد غذائية من خلال استخلاص خلايا جذرية نزرعها لنصنع غذاء حسب الرغبة. نظرياً يمكننا مثلاً من خلال 150 بقرة أن ننتج كلّ كمّية الحليب المُستهلكة اليوم في كوكبنا. هذا بالطبع إذا صدقنا الوعود التي تفصح عنها التكنولوجيات الحيويّة.

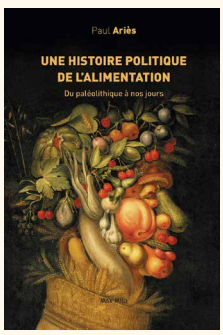
هل يمكن حمل الزراعة الخلوية على محمل الجد؟

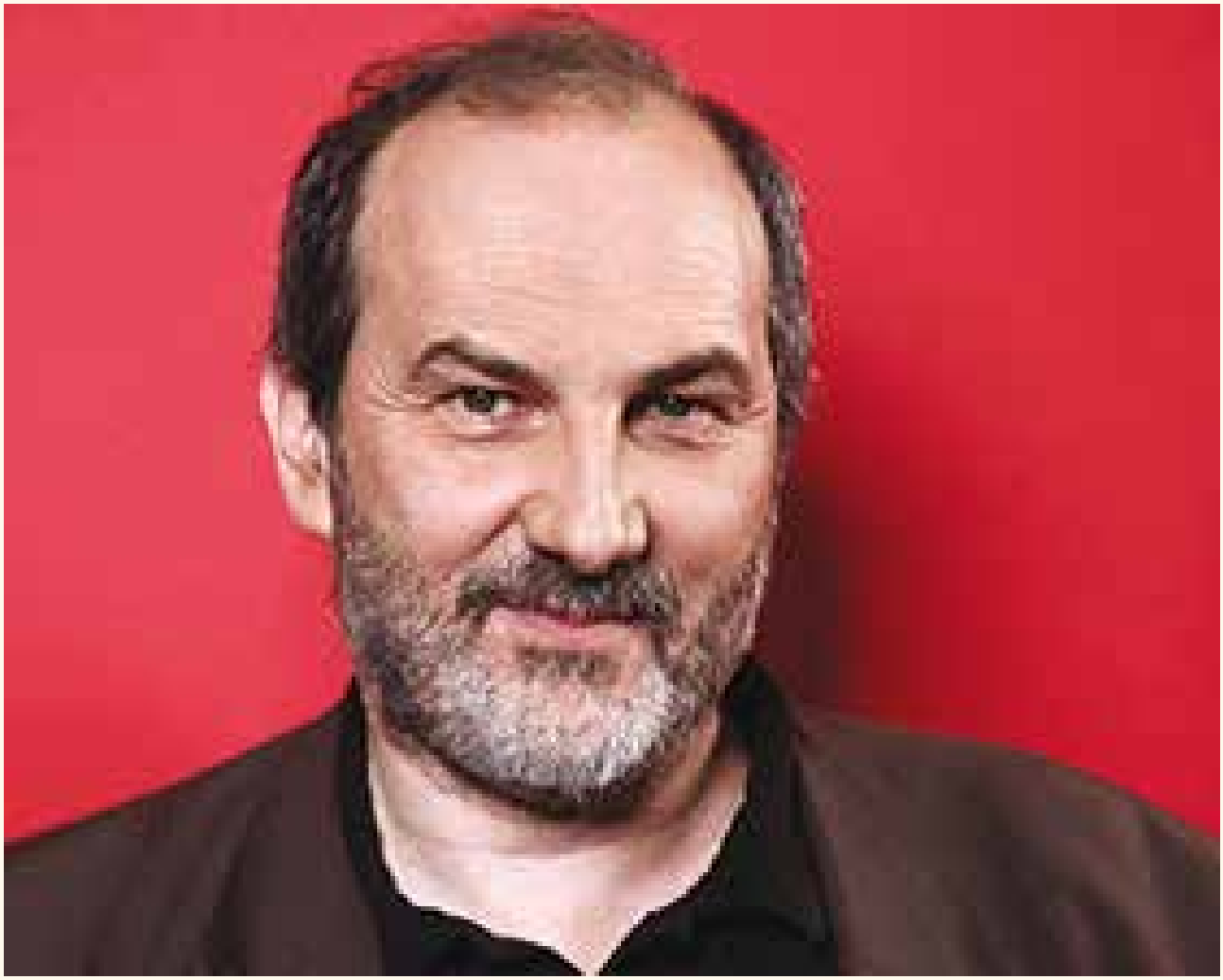
- ستحظى هذه الزراعة بمزيد من الاهتمامٍ في المُستقبل. فخلال الثورة البلشفية مثلاً كان السوفيات يحلمون بالأغذية المُصنَّعة دون أن تتوفَّر لديهم آنذاك الإمكانيات التقنية. ولربّما سنتمكّن لأوّل مرّة في التاريخ من تحقيق هذا الحلم الخرافي.

منذ عشرة آلاف سنة خلت كانت هناك قطيعتان كبيرتان في تاريخ الإنسانيّة. الأولى عندما تمكَّنت أقلّيّة محدودة للغاية من التحكُّم في المخزون الغذائيّ. هذه اللحظة هي التي عبَّرت عن الانتقال من العصر الحجريّ القديم إلى العصر الحجريّ الحديث. وخلالها تخلّت الإنسانيّة عن الصيد والالتقاط لتنتقل إلى الزراعة والتدجين. وظهرت بالتتابع المُعتقدات الدينيّة والتفاوتات الاقتصاديّة. فقد أصبح الأقوياء يحتكرون الغذاء وصار عليهم بالمُقابل تغذية الشعب. وترتَّب عن هذا نتائج عديدة. فعندما قامت الانتفاضات الأولى في مصر القديمة على سبيل المثال كان الدافع إليها هو ضمان التزوُّد بالحصص اليوميّة من الخبز والشراب، وهو لفظ يجمع في كلّ ما هو حيوي بالنسبة للناس آنذاك.

منذ متى صارت الوجبات الغذائيّة تكشف عن التفاوتات؟

-على الأَقلّ منذ ظهور مدن الدول الأولى، وهذه هي القطيعة الثانية الكبرى في تاريخ الإنسانيّة. وهو ما أسمِّيه بالانفصال الغذائيّ. لم يعد الأثرياء يرغبون في تناول الشيء نفسه الذي





يتناوله العوام، ولا تناوله بالطريقة ذاتها. وهنا سيتطوَّر الطبخ الرفيع الذكوري في مقابل الطبخ اليوميّ الأنثوي.
يمكننا أن نجسِّد هذا مع النخبة المصريّة التي تخلّت عن تناول لحم الخنزير، الذي أصبح منذئذ مخصَّصاً للفئات الاجتماعية الدنيا. فنبذ الخنزير الذي نجده في عدد من العقائد الدينيّة، كان في الأصل مؤشِّراً على التمايُز الاجتماعيّ.

هل هذا يعني أننا في اختياراتنا الغذائيّة مجرَّد ورثة للأسلاف؟

- بكلّ تأكيد، فالمائدة الفرنسيّة مثلاً تبدو لي مدينة لمائدة العصور القديمة على ثلاثة مستويات:
- فهي مدينة للمائدة المصريّة بتمثُّل المائدة كلغة. إذ إن رمزاً هيروغليفياً واحداً كان يدل على فعلي «أكل» و «تكلم». فقد ابتكر المصريون القدماء الأطعمة الرمزية الأولى، اثنان منها يسترعيان انتباهي بشكلٍ خاص: الخبز كرمز للخلود، والشراب كرمز للأنسنة.
- وهي مدينة للمائدة الإغريقيّة بتمثُّل المائدة كتقاسم. فهناك لفظ واحد في الإغريقيّة القديمة للتعبير عن فعلي «أكل» و«تقاسم». ومن هنا فإن كلمتي زميل (copain) ورفيق (compagnon) في اللّغة الفرنسيّة تحيلان على مَنْ نتقاسم معه الخبز.
- وهي مدينة للمائدة الرومانيّة ببُعد آخر: المائدة كمتعة. إذ لم تنفق أيّة حضارة على مائدتها مثل ما أنفقت الحضارة الرومانيّة، إلى حدّ إصدار تشريعات لتقنين الإنفاق المُبالغ فيه على الطعام.
إنّ هذه الأبعاد الثلاثة، أي اللُّغة والتقاسم والمُتعة، تشكِّل جزءاً من المُعادلة التي ينبغي حلّها لنسير نحو التغذية السليمة، أي القدرة على توفير الغذاء الكافي لكلّ البشر في المُستقبل.

من المعلوم جيّداً بأن وجبات الطعام تساهم بدورها في تشكيل الهويّات الوطنيّة...

- في هذا الجانب يمكننا أن نأخذ مرّة أخرى مثال فرنسا. فقبل «لويس الرابع عشر» عندما كان المرءُ يرغب في أن يأكل بشكلٍ جيّد، يتناول الطعام الإيطاليّ. وهو طعام مرتكز على الاستمتاع والوجبات الحلوة. وفي هذه المرحلة بدأ السعي إلى ابتكار مائدة فرنسيّة، لقد كان هذا قراراً سياسيّاً. ولكي نبسِّط الأمور، فهذه المائدة الوطنيّة سترتكز على المطبخ الإيطاليّ مضافاً إليه فنّ الصلصات مع اهتمام كبير بالحلويات. وصناعة الحلويات تُعَدُّ فرعاً من الهندسة، لأنها تسمح بخلق أشكال هندسيّة غاية في الدقة. ومن



هنا اعتبر رمزياً أن أكل الحلويات يُشير إلى الاعتراض على الظلامية الدينيّة.

ثمَّ جاءت الثورة الفرنسيّة التي استحوذت على خطاب عصر الأنوار. خُذ على سبيل المثال الأونسيكلوبيديا (الموسوعة) التي وضعها «ديدرو»، نجد أن المقالات المُخصَّصة للمطبخ صاغها الفارس «لويس دو جوكور». الذي كان شخصاً يعتبر بأن الأكل السليم هو الأكل الشعبي، لأنه الأكل الحقيقيّ والواقعيّ والطبيعيّ. ففرض فكرة أن الشخص ذا الذوق الرفيع، بمعنى المُواطن الصالح، يتكوَّن حول مائدة الطعام، لأن اكتساب القدرة على التمييز بين الأذواق يفضي إلى اكتساب القدرة على التمييز بين الأفكار. لذا عندما أدخلت الثورة الفرنسيّة تغييراً على المدرسة، أسندت للفرسان السود (التعبير الذي أطلقه «شار بيغي» على رجال التعليم) ثلاث مهام: تعليم الصبيان القراءة والكتابة، تعليمهم الحساب، وتعليمهم القدرة على التمييز بين الأذواق. ولا زلت أذكر جيّداً في فترة طفولتي عندما كان يطلب منّا في المدرسة، أن نميِّز بعيون مغلقة أو مغمضة، رائحة الخل عن رائحة الخردل.

ما الذي يمكننا القيام به لكي نوفِّر الغذاء الكافي لعشرة مليارات من البشر؟

-هناك تصوُّران محتملان: القفز على الجدار مع البيوتكنولوجيا الغذائيّة، أو تسريع الخطى على الجانب الآخر مع الزراعة الإيكولوجيّة. في هذا المنحى الثاني سوف تكون ضيعة المُستقبل متعدِّدة التخصُّصات، تنتج الفواكه والخضر والحبوب والقطاني، وكذلك الحليب والبيض، وأيضاً روث الحيوانات الذي يغذّي دبال التربة. إنها زراعة موجَّهة نحو تلبية الاحتياجات المحلّية دون أن تكون زراعة منكفئة ذاتياً. لأنها لا تلغي التسويق من حساباتها كلّيّاً، بل هي بكلّ بساطة زراعة تعيد الاعتبار لعمل الزراعي وللبيئة وتراعي المواسم الفلاحية ولا تستنزف الكثير من الماء. يقتضي هذا الأمر تنويع الاختيارات، وهي اختيارات سياسيّة. هل يجب أن نغذّي سكّان كوكبنا بملياري مزارع صغير، أو بخمسمئة ألف مسير ضيعة زراعيّة؟ إن إنتاج الطعام يستهلك اليوم عشرة أضعاف ما ينتجه من السعرات الحرارية/ الكالوريهات، لأننا نحتاج إلى الكثير من المحروقات لصناعة المُخصِّبات والمُبيدات الحشرية. والجميع على وعي اليوم بأن هذه المنظومة غير قابلة للاستمرار، فلن ندافع عن البيئة دون أن نعيد التنوُّع البيولوجيّ لأطباقنا.

■ **حوار: لوران تيستو** □ **ترجمة: عبد اللطيف القرشي**

المصدر:

مجلة «Sciences Humaines» العدد (338) يوليو 2021 .

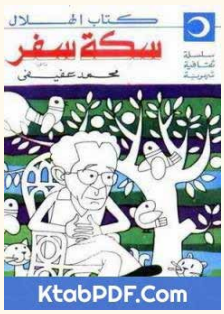
محمّد عفيفي

صاحب أوّل «عمود ساخر» في الصحافة العربيّة

يرى بعض المعلِّقين أن (عفيفي) هو الذي اخترع «التغريدات» القصيرة، قبل ظهور موقع «تويتر» بنحو نصف قرن، فقد ابتكر الرجل هذا النوع من الكتابة على غير مثال؛ ولهذا السبب، تتناسب عباراته الساخرة مع منشورات وسائل التواصل الإلكتروني في عصرنا؛ الأمر الذي جعل تراث الكاتب عرضةً للانتحال والاقتباس، دون ذكر اسم صاحبه.

لو كان نقّاد الأدب منصفين، لوضعوا الكاتب الراحل محمَّد عفيفي (1922 - 1981) في عِداد كبار كُتّاب السخرية العرب، لكن (عفيفي) لم يأخذ حقَّه من الشهرة والتقدير بين معاصريه، بل إن بعض تلامذته صاروا أكثر شهرةً منه، بينما كان مصيره «النسيان». وهو القائل عن نفسه، على كلّ حال: «أنا لست متواضعاً، فالتواضع هو شيمة الكبار فقط!».

كان (عفيفي) عضواً في شلّة «الحرافيش» الشهيرة، التي أسَّسها نجيب محفوظ، وهو صاحب أوَّل عمود ساخر في الصحافة العربية، كان يُنشر في جريدة «الأخبار»، خلال الخمسينيات من القرن الماضي، تحت عنوان «للكبار فقط»، ويعتمد على العبارات القصيرة التلغرافية، اللاذعة، التي كشف، من خلالها، عن المفارقات الاجتماعية «المسكوت عنها» في عصره، بشكل تهكُّمي، وفي حدود المسموح به من نقد علنيّ، آنذاك، بطبيعة الحال.



غير أن هذا العنوان المثير: «للكبار فقط»، لم يمنعه من تبنّي فكرة إصدار النسخة العربية من مجلّة «ميكي» الأميركية، للأطفال، التي صنعت وعي أجيال من الصغار. وقد تولّى (عفيفي) بنفسه ترجمة المجلّة بأسلوبه السلس البسيط، منذ صدورها، لأول مرّة، عام (1959)، عن مؤسَّسة «دار الهلال» بترخيص من شركة «والت ديزني»، وحتى مطلع الثمانينيات.

بدأ (عفيفي) عمله بالصحافة في مجلّة «آخر ساعة»، منتصف الأربعينيات، وكان الكاتب الصحافي محمَّد التابعي، مؤسّس المجلّة وصاحبها، يكلفه بكتابة تقارير إخبارية ميدانية عن الأحداث الجارية، ثم عمل في عدد من الصحف والمجلّات، ثم انتقل، بعد ذلك، إلى صحيفة «أخبار اليوم»، بعد ان اشترى الأخَوان؛ مصطفى وعلي أمين، المجلّةَ من التابعي.



أصدر عدداً قليلاً من الكتب، منها «للكبار فقط»، و«ابتسم من فضلك»، و«ابتسم للدنيا»، و«سكّة سفر»، و«ضحكات عابسة»، و«ضحكات صارخة». وتحوَّلت بعض قصصه ورواياته إلى أفلام سينمائية، من بينها «حكاية بنت اسمها مرمر»، و«التفاحة والجمجمة»، التي صدرت في القاهرة عام (2019)، وتُعَدّ تحفته الأدبية، بامتياز. ويقول نجيب محفوظ في مذكّراته التي سجَّلها رجاء النقاش: «لقد نهل محمَّد عفيفي من



بحر الثّقافة، بعمق وشمول، وقام في (سبيل) ذلك برحلة طويلة، بدءاً من التراث وحتى أحدث ما تموج به من تيّارات فكرية، وفنيّة، واجتماعية، ومع هذا فقد عُرف بـ «الكاتب الساخر»،لأنه منذ زمن مبكّر جدّاً، اكتشف عبثية الوجود والمجتمع، وتابعهما بعين متفتّحة في الطبيعة والعلاقات الاجتماعية والتقاليد البشرية والحياة اليومية». ويضيف محفوظ: «كانت السخرية محور حياة عفيفي، ينبض بها قلبه، ويفكّر بها عقله، وتتحرّك بها إرادته، فهي ليست بالثوب الذي يرتديه عندما يمسك القلم، وينزعه إذا خاض الحياة، ولكنها جلده ولحمه ودمه وأسلوبه عند الجدّ والهزل».

و(عفيفي)، بهذا المعنى، هو «الأب الروحي» الحقيقي لجيل كامل من الكُتّاب الجدد، ظهر في مصر خلال السنوات الأخيرة، مع تفاوت المواهب والقامات، من بلال فضل، إلى عمر طاهر، وحتى أحمد خالد توفيق. هؤلاء جميعاً، تأثّروا بـ(عفيفي)، فمنهم من تلبّس روحه، وتقمّصها، ومنهم من أجرى عمليّات «تمصير» لكتاباته الساخرة ذات الطابع الأوروبي رفيع الثّقافة، بل إن منهم مَن «اقتبس» منه...

يقول الأديب الراحل خيري شلبي، في أحد كتبه، عن (عفيفي): «كنت ترى الحرفوش في وجهه، شكله، وثيابه التي حتى وإن كانت مستوردة من بيوت الأزياء العالمية، فهي تكتسب على جسده «حرفشة» أنيقة أناقة خاصّة، في ربطة العنق، في السترة المحكمة على كتفيه، في القمصان (النصف كُم)، واقترابها من شكل الجلباب البلدي، وفي طريقة تدخينه، وفي التعامل مع الأشياء، ومع الحياة كلّها ببساطة آسرة، بساطة فيلسوف هادئ الأعصاب بارد العقل، سخن القلب، محتدم المشاعر، تتطاير من حول برجه المفارقات الفلسفية النابعة من خضمّ بحر الحياة الواقعة من حوله، يمدّ أصابعه الطويلة فيلتقط منها أشدّها لمعاناً، وأعمقها دلالةً ليسلكها في سياق فكري لمقال شهيّ، أو في حبكة درامية لقصّة أو رواية شائقة طافحة بسحر الفنّ. ورغم ذلك، إن (عفيفي) هو الكاتب الذي نسيه القوم، وغدرت به ذاكرة التقدير، كأن لم يكن»!.

لماذا لم يشتهر (عفيفي)، إذن، في حين أن بعض تلاميذه الساخرين الجدد، من قامات أقصر بكثير، طبقت شهرتهم الآفاق في أيّامنا المعاصرة، ومنهم من تُطبَع كتبه عشرات الطبعات؟ الحقيقة أن (عفيفي) كان يكتب سخرية مثقّفة، على شاكلة الكُتّاب الأوروبيّين العظام، النادرين في تاريخ الأدب الغربي، أمثال جوناثان سويفت، وبيير دانينوس، وماري ستندال؛ تلك السخرية التي يُنظر إليها باعتبارها «قفزات عقل محض»، والتي تحتاج إلى ثقافة واسعة من أجل فهمها، وليس على طريقة مارك توين الفكاهية الضحلة.

كانت مشكلة (عفيفي)، بالضبط، في حياته وفي مماته، أنه كان كاتباً لامع العقل وحادّ اللسان، ومثقّفاً أكثر من اللازم، في واقع معادٍ للثّقافة، لذلك اختار الرجل أن يعيش حياة منعزلة، وأن يقضي معظم وقته في حديقة منزله الصغيرة «تحت ظلّ تمارا»، وهو اسم أحد كتبه، واسم الشجرة التي كان يفضّل الجلوس تحتها، في الحديقة، متأمّلاً الحياة والعالم من مسافة كافية.

ويعتقد بعض الناس أن كتابات محمَّد عفيفي هي مجرَّد «نكت» قصيرة لاذعة، لكن الحقيقة أن ما كتبه الرجل، سواء في الصحف أو في الكتب، هو أعمق من ذلك بكثير، فقد اخترع تقنية الكتابة بالعبارات القصيرة الساخرة، التي تنتقد، بذكاء حادّ، ظاهرة اجتماعية ما في عصره، من ذلك قوله عن الشخص الفاسد، مثلاً: «لا يزعجني أن أرى رجلاً دَخْله أكبر من دخلي، بقدر ما يزعجني أن أرى رجلاً دَخْله أكبر من دخله!».

وكانت مشكلة (عفيفي)، في المحيط الشعبي العامّ، أنه رجل تشبّع بتراث السخرية الأوروبية الرفيعة، وكان يجنح إلى طريقة السفسطائيين القدامى، أساتذة اللعب بالمعاني والألفاظ؛ وهو ما جعل كتاباته بعيدة عن متناول عامّة القرّاء، بل لابدّ من قارئ متمرِّس لسبر أغوارها البعيدة، وفهم إحالاتها الثّقافيّة المخفيّة بين السطور.

كان الرجل، بمعنى ما، «الوجه المثقَّف» للكتابة المصرية العربية الساخرة، التي كان وجهها الآخر هو أحد تلاميذه المشاهير، الكاتب الراحل محمود السعدني، الذي كانت سخريته مزيجاً من الفكاهات الشعبية والقفشات والتلفيقات الذكية؛ لذلك حقَّق السعدني شهرةً أكبر من شهرته، في نهاية المطاف. أمّا (عفيفي)، فكان أقرب إلى «الصنايعي» الماهر، ذلك الساخر الساحر، أو إلى الفيلسوف الذي تعلَّم استقصاء مفارقات الحياة، بعقل بارّ، من داخل متاهة عزلته؛ لذلك كانت سخريته قاسية، لمّاحة، مفارقة للمألوف.

هذا غيض من فيض عن الكاتب الكبير محمَّد عفيفي، الذي عاش متعفِّفاً، ومات فقيراً، فلم يلقَ التكريم الذي يستحقُّه، ولم يعترض أحد على سرقته، حيّاً وميّتاً. ■ **طايع الديب**

البحر من ورائكم والعدو من أمامكم

سرديّة حرق السّفن

غابت «قصّة» حرق طارق بن زياد للسّفن في كُتب المُؤرِّخين الذين اهتمّوا بتاريخ فتح الأندلس، سواء من الأندلسيّين أنفسهم أم من غيرهم من المؤرِّخين، فلم يذكر المؤرِّخ الأندلسيّ أبو بكر محمّد القرطبيّ في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» شيئاً عن ذلك، ولم يتعرَّض ابن عبد الحكم المصريّ في كتابه «فتوح مصر والمغرب والأندلس» إلى تلك الواقعة الشّهيرة في أذهان الناس، وقد خلت كتابات القرنين الثالث والرابع الهجريّ من أيّة إشاراتٍ دالّة على وقوع شيءٍ من هذا القبيل أثناء عمليّة الفتح. وظلّت القصّةُ غائبةً حتّى عن كتابات ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، في حدود القرن الثامن الهجري.



د. نزار شقرون

يتشعَّب المخيال في نسج عمليّة «فتح الأندلس» حينما يقترب من اللحظةِ الفارقة التي وطئ فيها العرب والبربر الأرضَ الأندلسيّة، ولم تكن خطبة طارق بن زياد هي «البيان» الوحيد لنسج جزء من نسيج التّخييل، فقد استطاع الإخباريّون أن يؤهّلوا لهذا الحدث ما يتطلّبه من هالةٍ قبل البدء في إنجازه بعقود، ليكون «الفتح» وصيّةً «راشدة» ينبغي القيام بها وإتمامها.

لقد أغرق الإخباريّون القدامى و«الجدد» في إبراز الهدف الدينيّ من عمليّة «الفتح»، واصلين بينه وبين أيّ فتح سابقٍ عليه، ومستدلين بالحادثة التي أوردها الطبريّ في «تاريخه»، عندما توجَّه ربعي بن عامر إلى رستم قائد الفرس قائلاً: «إنّ اللّهَ ابتعثنا لنخرج مَنْ شاءَ مِنْ عبادةِ العباد إلى عبادةِ اللّه، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»، وسَرت هذه الحادثة كقاعدة واقعيّة للبُعد العقائديّ في أيّ فتح. ولكنّ هذه القاعدة العامّة أضيفَ إليها تخصيص مع كلّ فتح، وفي ذلك نوعٌ من إشباع الشّرعيّة الدينيّة التي تعتمد النصّ مثلما تعتمد على الوقائعيّ والإخباريّ، ومنه ما كانَ يُذكر منْ أقوال جرت على لسان القادة أو الخلفاء، من ذلك أنّ فتح الأندلس وردَ بحسب الإخباريّين في قول للخليفة عثمان بن عفّان: «إنَّ القسطنطينيّة إنّما تفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمَنْ يفتح القسطنطينيّة في الأجر آخر الزّمان»، وقد ذهب الاعتقاد أنّ فتح القسطنطينيّة رهينٌ بفتح الأندلس، فشاع بين المُسلمين أنّ «الأندلس» محطّة ضروريّة للانطلاق من جهةِ البحر الأسود نحو القسطنطينيّة التي حُوصِرت في زمن عثمان بن عفّان دون أن تستسلم لمُحاصريهَا.

يحتاج المخيالُ دائماً إلى ما يُغذّيه، فالوقائع الكبرى تتطلَّب هالةً وأفعالاً استثنائيّة تقوم على الإدهاش الذي يبلغ حدَّ «الأسطرة». ولاشكّ أنّ الحوادث المُهمَّة تُحاكُ حولها قصص فيها من المُبالغات ما يزيدها أهمّيّة عبر الأجيال، ولاشكّ بأنَّ كلّ المعارك العسكريّة الكبيرة في تاريخ البشريّة شهدت تأثيثاً غير يسير لقصص تفوق حقيقتها وواقع ما جرى فيها، وتلك سمةٌ غالبة في سرد المعارك.

غابت «قصّة» حرق طارق بن زياد للسّفن في كتب المُؤرِّخين الذين اهتمّوا بتاريخ فتح الأندلس، سواء من الأندلسيّين أنفسهم أم من غيرهم من المُؤرِّخين، فلم يذكر المُؤرِّخ الأندلسيّ أبو بكر محمّد القرطبيّ في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» شيئاً عن ذلك، ولم يتعرَّض ابن عبد الحكم المصريّ في كتابه «فتوح مصر والمغرب والأندلس» إلى تلك الواقعة الشّهيرة في أذهان الناس، وقد خلت كتابات القرنين الثالث والرابع الهجريّ من أيّة إشاراتٍ دالّة على وقوع شيءٍ من هذا القبيل أثناء عمليّة الفتح. وظلّت القصّةُ غائبةً حتّى عن كتابات ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، في حدود القرن الثامن الهجري.

يذكر الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافيّ «نزهة المشتاق»، «لما جاز طارق بمَنْ معه من البرابر وتحصّنوا بهذا الجبل، أحسّ في نفسه أنّ العرب لا تثق به، فأراد أن يزيح ذلك عنه فأمر بإحراق المراكب التي جاز عليها فتبرَّأ بذلك عمّا اتّهم به»، واعتبرت هذه الإشارة هي الأصل الذي نسجت عليه أغلب الكتب التاريخيّة اللاحقة، وفيها إشارةٌ إلى أنّ عمليّة الحرق «المزعومة» ما هي إلّا وسيلة لدفع العرب من الجند، وقد كانوا قِلّةً قياسًا بالبربر، إلى الإذعان إلى المصير المُشترك بينهم وبين البربر. وليست هذه الفكرة على بساطتها بهيِّنة في التكتيك الحربيّ، حيثُ

تعملُ على وحدة الجيش، وتجاوز الإثنيّة الخاصّة، ونسيان الهويّة اللّغويّة، والتاريخ الخاصّ، أمام ما يُسمَّى «المصير». قد تذهب تعريفات كثيرة للهويّة إلى إدراج عنصر «وحدة المصير» كعنصر من عناصر الهويّة الأساسيّ، وكانَ مِنَ المُمكن الاقتناع بأنّ عملية حرق السّفن تنضوي ضمن هذا الإطار، وتكشف عن وعي حربيّ متميِّز لطارق بن زياد، في تذليل صعوبة المُواجهة ودرء أيّ فتنة بين صفوف جيشه. إلّا أنّ فكرة «المصير» لم ترد لدى الإخباريّين، ولم يتم التعامل مع التنوُّع الإثني للجيش من هذه الزاوية، ذلك أنّهم غلَّبوا «وحدة العقيدة» على ذلك. ولكن هل كان بإمكان هذه الوحدة النظريّة أنْ تحول دونَ تشتُّت الجيش؟

إنّ قطع خطّ الرّجعة أمام الجيش في روايات الإخباريّين بعد القرن الثامن الهجريّ، يطرح أكثر من سؤال. هل كانَ طارق بن زياد مجبراً على حرق السّفن لو كان جيشهُ متماسكاً؟ وهل كانَ الحرقُ علامةً على أنَّ العقيدة ما تزالُ غير راسخة في كيان البربر، وبالتالي فإنها لا تُشكِّل ضمانةً كافية لخوض حربٍ باسم الدّين؟ ولماذا تكتّم الإخباريّون عن ردّ فعل الجنود وهم يشاهدونَ احتراق سفنهم، ويوقنون بأنهم أمام المُواجهة النهائيّة لمصيرهم؟ ثمَّ كيفَ يحرق طارق بن زياد سفناً ليست على ملكه؟ ألا تشكِّل واقعة حرق السّفن ما يُشبه دراما للانتحار الجماعيّ؟

يفنِّد بعض المُؤرِّخين المُعاصِرين مثل حسين مؤنس قصّة حرق السّفن، باعتبار أنّ السّفن ليست على ملك جيش المُسلمين، وهي على ملك الكونت يوليان، ولا يُعقلُ أنْ يأتي طارق بن زياد بخُلق يتعارضُ معَ قيم الوفاء للالتزامات، كما أنّ منطق الأحداث قَد يتعارضُ مع بقاء السّفن راسية على الشّاطئ، فقد ساعد يوليان طارق، بنقل جندهِ دونَ أنْ تكون هناك إشارةٌ إلى وضع السّفن على ذمّة الجيش بعد بلوغه الأندلس. ومن البديهي أنْ تعود السّفن أدراجها لأنّ طارق وجنده لم يركبوا البحر في سياق نزهة أو معركةٍ خاطفة، فقد كان العزم هو فتح بلادٍ بأسرها والاستقرارُ بها. كما أنّ الاعتماد على الخطبة لإثبات صحّة عمليّة الحرق يبدو خالياً من الوجاهة، فبالإضافة إلى تشكيكنا في الخطبة نفسها فإنّ ما وردَ فيها من قول «البحر من ورائكم والعدو من أمامكم» لا يُمكن تحميلُهُ معنى الحرق، فقد يُكون معناها حثّ الجند على عدم التراجع والارتداد، وليسَ إشارَةً دامغةً على حرقِ السّفن. وسارَ بعضِ الإخباريّين في تحميل بعض أقوال طارق (هذا إنْ قِيلت فعلاً) معنى الحرق أيضاً، فابن الكردبوس بعد أن يصف المعركة التى خاضها طارق لاحتلال هذا الجبل الذى سُمِّي باسمه، يقول في اختصار شديد: «ثمَّ رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه: قاتلوا أو موتوا»، رغم أنّ قولاً مثلَ هذا قد يصدرُ عن أيّ قائدٍ لجيشه دونَ أن يعقب عمليّة إحراقٍ للسّفن.

لذلك لا يُمكن لعاقلٍ أنْ يسلِّمَ فكره إلى كلِّ ما كتبهِ المُؤرِّخون القدامى، فالانقيادُ إلى المُبالغة والتهويل كانَ شرْطاً من شروطِ كتابتهم، ناهيكَ عن أنّنا حينما نقرأ كتاب ابن القوطيّة «في افتتاح الأندلس» يسري فينا شعورٌ بأنّ طارق بن زياد وجنده دُعاةُ توحُّش وليسوا دُعاةَ حضارة، ومثالُ ذلك ما أتى عليه في وصف دخوله إلى مدينة قرطاجنة في أوّل فتحه للأندلس «فلمّا جاوز طارق وصار بعدوة الأندلس كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة بكورة الجزيرة فأمرَ أصحابه بتقطيع مَنْ قتلوه من الأسراء، وطبخ لحومهم بالقدور وعهد بإطلاق مَنْ بقي من الأسراء، وأخبر المُنطلقون بذلك كلَّ مَنْ لقوه فملأ الله قلوبهم رعباً»، ويُخفِّفُ ابن كردبوس من حدّة هذا الصنيع فيضع لهُ مبرِّرات، ومنها لجوء طارق إلى خطَّة ترهيب الخصم لذريق حينما شعرَ بوجود عينٍ له بينَ جندهِ «فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتُطبخَ، فأخذ الناسُ القتلى، فقطعوا لحومهم وطبخوها، ولم يشكّ رسول لذريق أنّهم يأكلونها. فلمّا جنَّ الليلُ أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها، وذبح بقراً وغنماً وجعلَ لحومها في تلك القدور. وأصبح الناسُ فنُوديَ فيهم بالاجتماع إلى الطعام فأكلوا عندهُ ورسول لذريق يأكلُ معهم»، ويبيِّن هذا السّرد اتفاق بعض الإخباريّين على وقوع عمليّة «تقطيع القتلى وطبخهم» في سياق البرهنة على حيلة طارق وحنكته العسكريّة، ولاشكَّ فإنّهم أوهموا القارئَ بأنَّ مَنْ يأمر بفعل ذلك من أجل زعزعة نفوس الأعداء، لن يتردَّد في حرق السّفن من أجل تقوية صلابة نفوس جندهِ.

بحثاً عن الزمن المفقود..

بروست العَصيّ على السينما

على الرغم من ريادتها الأدبية، بصفتها واحدة من أهمّ إلهامات التأسيس لشكل الرواية الحديثة، إلّا أن «البحث عن الزمن المفقود»، عانى «مارسيل بروست» في إيجاد من يقبل بنشر ما يقارب المليون ونصف من الكلمات، بمزاجها الذاتي المنبثق كمونولوج، وامتداداتها اللامحدودة سردياً، في إسهاب واسع ترك الكثير من لجان الفحص في دور النشر مغمورين بشعور الملل، وبقيت الرواية مُتمنّعة على التكييف السينمائي، يتهيَّب تحويلها إلى فيلم، لسبب أو لآخر، مخرجون كبار مثل «لوكينو فيسكونتي»، و«جوزيف لوزي».

فرغم اقترابها من أجواء السينما، بطبيعتها السردية المازجة، بتواشج مبهر، بين فضاء الخيال وأرض الواقع، من خلال اللعب على إيقاع الزمن وتداعي الذكريات المحرِّك الأصيل لسبر كينونة الشخصية وتلمُّس مشاعرها يترافق معها تأثير عميق للفنون المختلفة في خلق الصورة الكلّيّة، كانت ضخامتها -وهي المؤلّفة من سبعة أجزاء- سبباً رئيسياً يجعل من محدودية وقت العرض السينمائي عائقاً أمام استثمارها بشكلٍ مُرضٍ، على الأقلّ إن لم يحقِّق نجاحاً كبيراً. أكثر من قرن مضى على صدورها، ومع ذلك لم تكن هناك سوى محاولات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، سعت فيها السينما لمعالجة أحد أجزائها، سنحاول استعراض أبرز ثلاثة أفلام لها الحضور النقدي، والجماهيري، وتتميَّز بنظرة صانعيها المختلفة في الرؤية والمقاربة البصرية للرواية:

«سوان» العاشق، (1984)

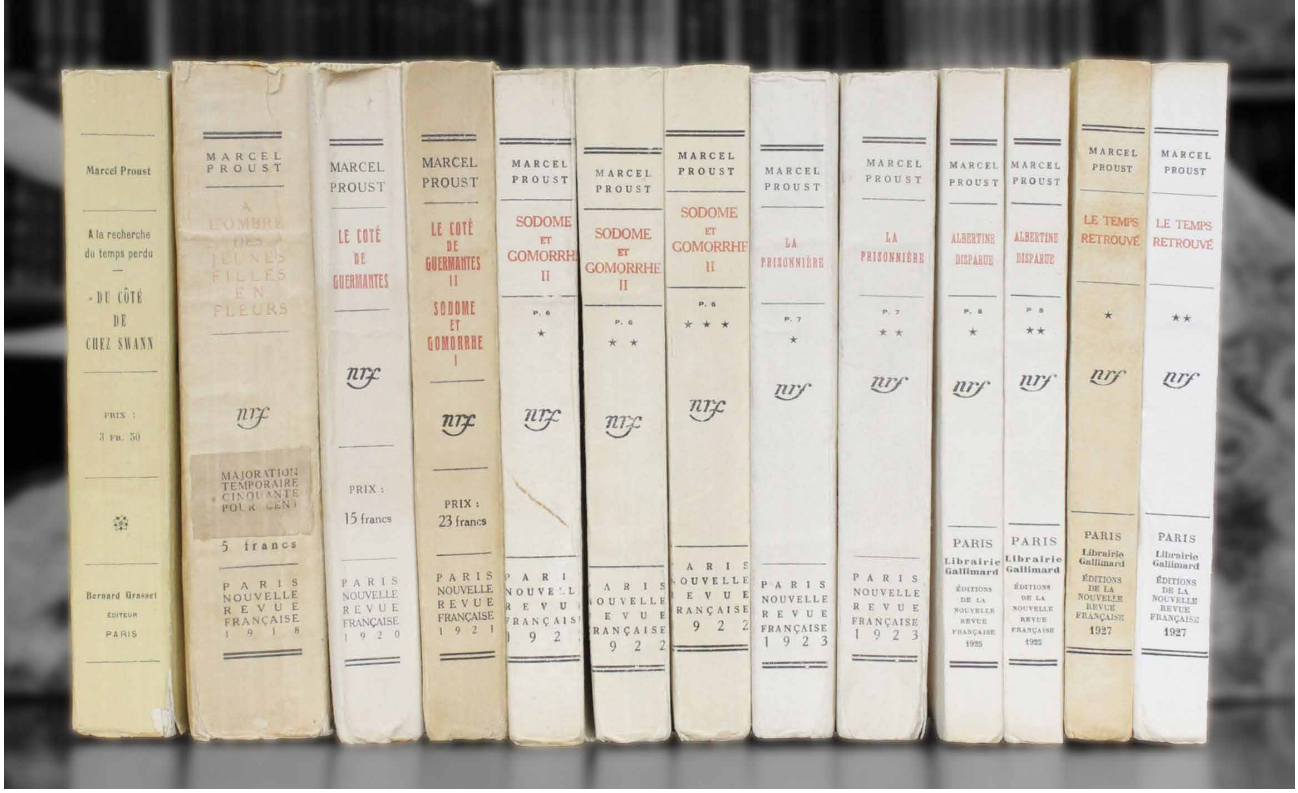
حتى في أوج عزّها لم تتجرَّأ السينما على الاقتراب من ملحمة الكاتب «مارسيل بروست»، فناهيك عن عدد كلماتها الهائل، وشخصيّاتها التي قاربت الألفَيْن، كانت الصعوبة الأكثر تحدِّياً مجاراةَ نمط التعبير والحسّ الكتابي الذي رسم به «بروست» المشاعر والوعي، وتدفُّقهما إلى عمق عاطفي بالغ الثراء، مضافاً إليهما وقع الذكريات وإيقاع الزمن الفريد. قيل عنها كثيراً أنها رواية غير قابلة للأفلمة، وليس ذلك بخطأ، فربّما هي الحقيقة عند مقارنة تأثير المنتج السينمائي، بفعل الرواية الأصلي، على المتلقّي، فالوقت فيها يبدو باهظ الثمن، لا يمكن الإمساك به إلّا بفطنة الكاتب الفرنسي. عرف المُخرج الألماني «فولكر شلوندورف» ذلك، حين شرع بالإعداد لصناعة فيلم عن جزء الرواية الأوّل، خصوصاً، وهو المعجب بها منذ أوّل مرّة قرأها في إيّام المراهقة. كان «بروست» الباب الذي دلف منه إلى ثلاثة عوالم كما يقول: «اللّغة الفرنسية، والمجتمع المتناظر، والمناطق المجهولة للحبّ والغيرة». ما دار في ذهنه من خيالات صور لـ«سوان» -بطل الحكاية- ستكون المرجع لما سيسرده علينا الفيلم. رجل يتجوّل في ثنايا ومنعطفات الأماكن، لطبقة الارستقراطيين الباريسية، في حالة هوس حبّ محموم بالبحث عن امرأة تتفلَّت منه، تدفعه رغبات متناقضة، لا تأبه هي بها إلّا بقدر مصلحتها. نقف على نبض عذابه، واحتقاره لذاته التي سقطت في بحر عاطفة مجنونة لامرأة ساقطة لم تكن سوى مرافقة للرجال من الطبقة الراقية للمجتمع الباريسي. يدرك صاحب فيلم «طبل الصفيح» قيمة ضخّ الأجواء لخلق البيئة المناسبة بتكوين ملامح الشخصيّات، فكان تصميم الإنتاج للمكان والمواقع رائعاً، فيما عملت الأزياء وتصاميمها الأنيقة على استعادة جوهر الحقبة. غير أن الأهمّ هو كيف نصوّر ما كتبه «بروست»؟ ما خلُصت إليه مجموعة كتابة السيناريو، والتي ضمّت أسماء كبيرة لها باعها، منهم: «بيتر بروك»، و«جان كلود كاريير»، و«ماري هيلين استيان»، وبالطبع «شلوندورف»، هو تكوين لطبيعة المجتمع، وشكل العلاقات الشخصية، والعاطفية، وطبائع السلوك، ونمط الوعي والثقافة. إنها نظرة تُطلّ من خلال «سوان»، على نزعات التصرّف المترف وهمسات النميمة ومؤامراتها، ونزق وسخافة الطباع التي يكوِّنها الثراء. من جانب آخر، هناك محاولة لدراسة التنامي المتفجّر لسلوك «سوان» بعد أن وقع في الحبّ. إنه، الآن، يطارد روحه التي شغفتها «أوديت» جنوناً. يتراكض وراءها



بين صالونات باريس، لعلّها ترأف بحاله.
يقدِّم «جيريمي ايرونز» و«اورنيلا موتي» اداءات جيّدة، دون أن ننسى «آلن دولون» بشخصية البارون دي شارلز، التي تمَّ استقدامها، درامياً، من أجزاء أخرى لتشكّل إضافة داعمة.
حاول صانع الفيلم الاعتماد على عين مدير التصوير السينمائي السويدي «سفين نكفيست» (قدَّم روائع رفقة «بيرغمان»، كما أنه عمل مع «تاركوفسكي»، وودي آلن، وفيليب كوفمان) الإمساك بعوالم الشخصيّات بصريّاً، ورغم العديد من المشاهد المميَّزة إلّا أن البناء الدرامي لم يساعد بسبب افتقاره إلى عمق مادّة «بروست» في التوصيف والإحساس، فظلّت المشاعر، غالباً، على السطح، بعد أن عجزت -إلى حدٍّ ما- في إدراك ماهيّة روح الشخصيّات التي تفاوتَ نضوجها الشعوري على الشاشة. كما أن ترابطها، بصفتها وحدة سردية، ظلّ مضبَّباً، فخطّ الحكاية يتوهَّج في مشاهد، ثم ما يلبث أن يخبو بمشاهد أخرى.
كان «شلوندورف» يدرك أنه ليس في صدد مجاراة رائعة «بروست»، فلجأ إلى ابتكار عالمه الخاصّ عن الزمن المفقود، وحوَّل الهارموني المُتَّسق، لكلمات الروائي، إلى موسيقى كلاسيكية صنعها المؤلِّف «هانز فيرنر هينزه» الذي قدَّم مقطوعات لموسيقى الغرفة تحاكي العاطفة المتدفِّقة لـ«سوان»، وتبدّت أحوالها، وتعكس البيئة والأجواء، أرادها الصانع السينمائي جزءاً أصيلاً من رؤيته للفيلم والصوت الرديف الذي يدعم مشاعر وهواجس «سوان» في بحثه عن الحبّ. لقد منحت الموسيقى، للأحاسيس، إيقاعها اللازم في مواضع كثيرة من الفيلم.
لم يكن فيلم «فولكر شلوندورف»، بما لديه من خبرة في تحويل الأعمال الأدبية إلى أفلام مثل «طبل الصفيح» لـ«غونتر غراس» وغيرها، قاصراً في الرؤية وفق منظور أن السينما وسيط وعالم آخر، له اشتراطاته وأساليبه في المعالجة والتناول، بيد أنه افتقد، أحياناً، إلى نكهة كلمات «مارسيل بروست» في ضخّ الحنين إلى الماضي، ولسعة الشعور المبرِّح المرافق لها بذلك الفيض التعبيري المُنسكب من لحظات صراع الذات، وتجلّي الأحاسيس بعنفوان مكتوم.

الزمن المستعاد، (1999)

رآه الكثيرون أفضل الأفلام المُقتبسة من رواية «البحث عن الزمن المفقود»، رغم إنه تعامل مع أكثر أجزائها صعوبة في التكييف، وهو الجزء السابع والأخير. ففيه الكثير من المرجعية الذاتية المشبعة بتقاطعات استرجاعيه، وصور الحياة الشخصية المغمورة بضباب الذاكرة. قرب نهاية زمنه، يبدو «بروست» أكثر التصاقاً بسيرته. تتحرَّك أحاسيس كلماته في استعراض يستعيد الوجوه وحوادثها وطبيعتها وسلوكها ومشاعرها الأقرب إلى روح «مارسيل»، بين الطفولة والصبا والشباب حتى الرجولة.
كان المُخرج التشيلي «راؤول رويز» الأقدر على التماهي مع النمط السردي لرواية الكاتب الفرنسي؛ وهو ما أعطاه حرّيّة التوظيف لبعض الأشياء من الأجزاء السابقة في سياق سرد الفيلم. فكلمات «بروست» التي تتحوَّل، بفعل قدرته الأدبية، إلى صور متوالدة تلقائياً، تكسبها الصياغة الإبداعية مقاربة حياتية للإمساك بالزمن المفقود بمنحنى عودة للماضي، أطَّرَه المُخرج «رويز» في معالجة تستلهم كثيراً من الواقعية السحرية التي ازدهرت في أميركا اللاتينية، موطنه الأصل، فتحاط الذكريات بمزيج ساحر للفنتازيا والواقع، بما يجعلها حقيقية، خصوصاً أنها تتحرّك ضمن بيئتها الطبيعية في عصرها المُستعاد. يزخرف «رويز» مشاهد فيلمه على أساس السلوك والمظاهر الاجتماعية والثقافية، والفنّيّة، والسياسية، خالقاً -بالصورة- ملامح المنحنى الزمني الذي شكّله «بروست» بالكلمات. يضخّ، في ثنايا تكوينات الصورة، روح العصر ليحفظ أبديّة الشخصيّات بزمنها، فهناك، فقط، تصبح الذكريات نضرة تضع بهجاتها اليومية وحواراتها وتصرُّفاتها في دفق الوقت. حتى كاميراه تختار حركة منحنية، جيئةً وذهاباً، بمتواليات نصف قُطرية تستدعي لخيال المشاهد أن كتابات «بروست» لم تكن خطّيّة.
لا يستقرّ المُخرج في حقائق الواقع السحرية، بل يغذّيها بسريالية ترتفع من ذوات الشخوص وتداعيات الذات للراوي. فهناك لحظات يختفي فيها كلّ ما يمسّ جدّيّة الحقيقة لصالح السخرية من الزمن وفعله على البشر كتبدّل الحال الخاطف بين الكهولة والشباب. يتلمَّس «رويز» طريقه إلى انعكاسات الوقائع على الشخصيات لتعميق الشعور بأحاسيسها. فالسرد، بالأصل، لا يقترب من بناء درامي متسلسل بقدر ما هو انتقالات أشبه بومضات لأكثر اللحظات ثباتاً في الذاكرة، تمثّل كلّ الحياة التي ترتفع بالبشر إلى الوجود الفعلي كسيرة تحفظه في سجلّ الحضارة الإنسانية، مثل تلك المنحوتات التي امتلأ بها الفيلم، ومثل كلّ المشغولات الفنّيّة المتزاحمة تؤثّث معمار المكان في الصورة السينمائية. زمن لا نعيشه في واقعنا المعاصر، لكننا نتحسَّس روحه بنمط الفعل التعبيري لذائقتَيْه؛ الاجتماعية، والفنّيّة.



رحلة «راؤول رويز» الفخمة -بصريّاً، في «الزمن المستعاد»- جريان عاطفي يستحثّ الذكريات بروح نقاء الألوان وصفائها في الانطباعية، حين تؤطّر الإحساس للحظة أبدية في زمان ومكان معيَّنَيْن، يلعب فيهما المُخرج، بمجازفة محسوبة، على شعور السأم المصاحب لقراءة الرواية، عند العديد من القرّاء، لصالح تفعيله بصرياً كترديد طقوس يسترجع كلّ الأجواء المحيطة بفعل الدخول لعالم «بروست»، دون أن ننسى أن ذلك جزء من مسار الحياة للبشر وهو ما يجعل لقيمة الاستعادة للّحظات البهيجة أو الحافلة بفعل يلتصق بالذاكرة، قيمة مضافة، وتفسيراً سينمائيّاً ذكيّاً لمعنى الرواية، وغايتها.

السجينة، (2000)

عن الجزء الخامس من رواية «مارسيل بروست» تقدِّم المُخرجة البلجيكية «شانتال أكرمان» قراءة بصرية فضفاضة لسرد الروائي الفرنسي، لا تقف عند الالتزام بالنصّ الأصلي إلّا بما ينسجم مع رؤيتها السينمائية؛ فهي تأخذ الهيكل الأساس للحدث، ورسم الشخصيات، لتصهر كلّ ذلك في مزاج بوتقة نظرتها للحياة والعالم. لا يمكن فهم الفيلم دون أن تكون على اطّلاع مُسبق بشخصية «أكرمان» الإنسانة والمُخرجة، ومزاجها العامّ وفق منظور نسوي، كانت فيه المرأة حجر الزاوية، تتشكّل عوالمها باستغراق عاطفي بطيء متراكم، يبدأ رصده البصري من تداعيات الهيمنة والروتين بانسحاب شعوري للملل، إلى غاية النقطة التي تفيض بكأس الصورة، حين يتسارع الإيقاع في الربع الأخير من الفيلم ليحقِّق عنصر الصدمة المطلوبة. خطّ السرد لديها متحرِّر من الأشكال والقوالب. لا تخضع إلّا لمعيار الذات وأحاسيسها وهواجسها. «شانتال» العاشقة لتجريب «غودار» والمتيَّمة بإثارة «هيتشكوك»، تذهب إلى حكايات «بروست» دون أن تقتفي أثره الزمني في القصّ، بل تضع شخوصها في حرّيّة (زمكانية)، لكن تفرّدها الحسّي هو بالنزعة الشعورية ذاتها.

تقوم الحكاية على رجل يستضيف في منزله فتاة يحبّها، فتأخذه أفكاره في الاستحواذ إلى نهم التلصُّص عليها. تدفعه خيالاته إلى الظنون، ساعياً، بشتّى الوسائل، لفرض وجوده العاشق بخيلاء غريب ومَرَضي. عند «بروست»، تذهب القصّة إلى قمع ذاتي واسترجاعات مضنية، تمتزج بملجأ فنّي تعبيري تختلط فيه الذائقة بالتشكيل والموسيقى ونكهة الحياة الارستقراطية، وقصّة مدينة فاتنة في زمن يضيء بالحفلات والحياة الغارقة بالتلذُّذ. مع «أكرمان»، نحن نتشارك فكرة السجن الاستحواذي الذكوري. يُفتَتح الفيلم بمداعبة بصرية لـ«فرتيغو هيتش» تنزلق، بفضول التلصُّص، إلى إثارة غموض يؤسّس للسرد التالي، ثم ينتقل الفيلم إلى نزعات الهوَس المتنامي برغبة متعاظمة تقمعها الشكوك، لتزيد من فردانية حسّ يتماوج وفق منحنيات الجسد. تلتقط، هنا، نبض سينما «هيروشي تيشيغاهارا» الطليعية في «امرأة في الكثبان ووجه آخر»، فتذوب، رويداً رويداً، بين سلطة الجسد وقانون الرغبات، يرتفع معها منحنى الفعل وانعكاسه لتطرّف مهيمن ينزع إلى تصرُّفات مأزومة بدافع عاطفة استحواذية مجنونة. البناء المشهدي هو عمود سينما «أكرمان»، بنسق تجريبي فيه تأثيرات من «غودار»، بيد أنه شخصي يعتمد أفكارها النسوية، وميولها المثلية ورؤيتها المركّبة بتراكمات نفسية تحاول كسر قضبان السجن المتحرِّك، على أكثر من اتِّجاه، بثنائيّات كلٍّ من الشخصي، والعامّ - الذكري، والأنثوي. بالمجمل ترى «شانتال» المرأة أكثر حيوية وحرّيّة في عالمها النسوي لذلك حين تضع المسافة أو الحاجز (بصرياً وسردياً) بينها وبين الرجل فإن العلاقة -بمفارقة محفّزة- تبدو أفضل معها؛ فهي تفقد ملامحها المميَّزة حين تخضع لهيمنة الرجل. تستشفّ أن الرجل يصنع خطيئته بيديه، ويبني جدران السجن لذاته حين يغالي في فرض أفكاره ومشاعره على الأنثى، وحين يفقدها يكون قد ضاع في دروب النسيان لجانب الوجود الأهمّ، وهو الاكتمال بالآخر، وفق مبدأ التساوي واحترام المشاعر. ■ **علي الياسري**

صدر في

كتاب الدوحة









































فيلم «الأب»..

فلوريان زيلر وسينما النوع

بعد أن تمَّ اقتباسه عن مسرحية حقَّقت نجاحاً باهراً في جميع أنحاء العَالَم، فرض فيلم «الأب - THE FATHER» نفسه كشهادة ميلاد بالغة الصلابة في مجال السينما.. إليكم هذا الحوار مع مخرج لم يكن أحد يتوقَّعه ولا حتى ينتظره.



«Le père (الأب)» أو «The father (الأب)»، الأول عنوان مسرحية، والثاني عنوان لفيلم: نفس المُخرج: فلوريان زيلر، نفس الحبكة: علاقة الصراع بين ثمانيني بدأ يفقد الشعور بالواقع، وابنته التي يتجاذبها من جهة الإحساس بالذنب بسبب التخلّي عن والدها المُسن ومن جهة أخرى الشعور بالارتياح لإنزاله بدار متخصِّصةً في رعاية المُسنين، نفس مبدأ الفضاء المُغلق. ومع ذلك العملان يختلفان بشكلٍ جذري. فبعد العرض الناجح للمسرحية، احتلَّ «زيلر» مكانه كعنصر أساسيّ في المشهد المسرحي بفرنسا. أمّا الفيلم فقد حوَّله على الفور إلى مخرج يستحق الإعجاب. على الأقلّ لكونه أعاد صياغة مادة المسرحية بأدوات السينما: فالمُقاربة السينمائيّة التي تبنَّاها «زيلر» حافظت على نفس القوة العاطفيّة، ولكنها تلافت استدرار شفقة المُتفرِّجين، واستخدمت الغموض الذي نجده في أفلام الجريمة وفي الأعمال الدرامية للمُخرج السويديّ «إنغمار برغمان»، ولكن من دون أن تسقط في فخ التقليد. ويندرج هذا الفيلم ضمن تقليد سينمائي -ينطلق مع الدوار الذهني كما صوَّره رومان بولانسكي في بداياته، وينتهي عند التجارب الحسيّة لـ«دارين آرونوفسكي»- مع تأكيده في الآن نفسه لحساسية ورؤية بالغة الخصوصيّة. رؤية مؤلِّف التأم فيه الحس المُرهف بعِلم الإخراج، وتعزَّزت لديه الموهبة بالمعرفة النظريّة.



لماذا اخترت مقارَبة آلزهايمر من الداخل، وذلك عن طريق رؤيته بعيون شخص أصيب بهذا المرض؟

- عادةً ما يتمُّ التطرُّق لهذا المرض في السينما عبر زاوية النظر الخارجيّة لأقارب المرضى... يمكن لذلك أن يعطينا أفلاماً قوية، تثير العواطف، ولكن في هذه الحالة، نكون دائماً على علم بمكان تواجدنا، وأيضاً بالوجهة التي نسير نحوها. لذا تجدنا نشاهد ما يجري بشكلٍ سلبي، لأننا نشاهد قصة مكتوبة مسبقاً. والحال أن هدفي كان عكس ذلك: أردت أن أترك مساحة شاغرة لا يمكن ملؤها إلّا من قِبل المُتفرِّجين. ومع ذلك، وعلى الرغم من إعجابي الشديد بأفلام دافيد لينش، فقد حاولت عدم الاقتداء به في تصوير أحلام اليقظة، والاستيهامات وأجزاء الواقع الموضوعة بعضها فوق بعض. فقد تمَّ تصميم لغز الفيلم بطريقة تتيح للمُشاهدين أنفسهم تجميع عناصره،



بحيث يتحقَّق المعنى مع اكتمال الصورة، لكنني حرصت دائماً على أن تظلَّ هناك قطعة مفقودة، بحيث تفضي عملية تشكيل المعنى هذه بشكلٍ منهجي إلى نوعٍ من الطريق المسدود. كان هدفي هو وضعَ الناس في نفسِ الحالة التي يوجد عليها مريض دماغه لا يَقوى على فهم ما يحدث بشكلٍ كامل، وأكثر من ذلك لا يستطيع القبول به، ثمَّ حملهم على الاستسلام الذي من شأنه أن يقودهم إلى القيام بقراءة أكثر عاطفية للأحداث. أردت ألّا يكون الفيلم لعبةً بسيطة للعقل، ولكن أن يفضي بالمُشاهد، ولو عبر مسارٍ سردي معقَّد، إلى مكان شديد البساطة ومهيِّج للعواطف. عندما يقول البطل بأنه يشعر وكأنه يفقد كل أوراقه، هذه الجملة في حدِّ ذاتها لا تعني شيئاً، ولكن إذا كنا قد وصلنا إلى حالة الاستسلام كما تحدَّثنا عنها، فسنفهم جيداً ما تعبِّر عنه. هذا هو المكان الذي أردت الوصول إليه من خلال هذا الفيلم.

هل كنت تطمح أيضاً إلى أخذ نصيبك من فرصة اللعب التي يتيحها الإخراج السينمائيّ أكثر من الإخراج المسرحي، لأننا في السينما يمكن أن نلعب قليلاً بالفروق بين زوايا النظر للواقع وأيضاً بالخدع السينمائيّة؟

-سأكون واضحاً. الفيلم يُشبه إلى حدٍّ ما لعبة البحث عن الكنز، مع قليل من التلاعب. تمَّ تصميم الفيلم في البداية على شكل متاهة، ولكن لم يكن يكفي أن نجعل الناس يتوهون بداخلها، لأن ذلك سهل جداً. ما أردته هو خلق شعور بفقدان الواقع. فأنا لم أكن أريد إخراج مسرحية مصوَّرة. أردت استخدام ما تقدِّمه السينما من إمكانات لجعل تجربة الاضطراب هذه أكثر إرباكاً وأكثر عمقاً. وأردت أيضاً الذهاب عكس بعض المبادئ المُتعارف عليها في تجربة اقتباس فيلم سينمائي من أصل مسرحي، حيث في كثير من الأحيان، نضيف مشاهد من الخارج لإعطاء الانطباع بأن مجال الحكاية قد اتّسع. على العكس من ذلك، أردت البقاء في هذه الشقة لاستخدام هذا الديكور واللعب بأدوات السينما. على سبيل المثال، عبر إدخال تعديلات مستمرّة في الخلفية مع إخفائها قدر الإمكان، بهدف رسم خط سردي آخر، يساهم في استمرار الحيرة، وعدم اليقين، للدرجة التي تجعل المُشاهِد يشكّ فيما يعتقد أنه رآه. عندما كتبت السيناريو، قمت فوراً برسم تصميم لهذه الشقة، التي كانت أساسيّة في هذا المشروع بقدر مسار الشخصيّة نفسها.

مفهوم الحيرة هذا يقذف على الفور بالفيلم إلى خانة فيلم الجريمة الذي تعاني فيه إحدى الشخصيّات من القلق والارتياب والوساوس، بل وحتى خانة السينما العجائبيّة. هل كانت تلك طريقة للتحرُّر من المسرحية؟ طريقة تخبر بها المُشاهِد منذ البداية بأنه لن يرى الشيء نفسه؟

- هذا صحيح جزئياً. أنا مقتنع بأن «الأب» ليس فيلماً عن مرض آلزهايمر... وفي نفس الوقت أعي بأنه كذلك على أية حال. لكنني أردته أن يكون أكثر من ذلك بكثير. فإذا جاء أحدهم وقال لي: «حسنا، هناك فيلم عن مرض آلزهايمر من بطولة أنتوني هوبكنز وهو مؤثر جداً»، ربما لن أرغب كثيراً في الذهاب لرؤيته، لأنه على الورق، سيعطيني الشعور بأنني قد رأيت مثله من قبل، وبأنه ينتمي إلى السينما القائمة على

التكرار. والحال أنني أردت لفيلم «الأب» أن يكون عكس ذلك تماماً، أن يتقدَّم للناس كفكرة معيَّنة، ومع ذلك لا يتوقَّف عن إظهار أفكار أخرى لهم. لذلك فإنّ الفيلم يُفتتَح بأجواء تنتمي إلى أفلام الجريمة السيكولوجيّة أو يستعير بعض العناصر من سينما الرعب. من ناحيةٍ أخرى، أعتقد بصدق أنه تتمُّ الاستهانة بذكاء المُشاهد. ومن هذا المُنطلق، لم أرغب في جعل الأمور سهلة جداً عليه. العمل مع أنتوني هوبكنز كان أيضاً جزءاً من هذه الاستراتيجيّة: كل ممثل معروف فهو يحمل معه رغماً عنه مجموع ما أنجزه من أعمال. وبالنسبة للجمهور، يجسِّد هوبكنز قدرة لا تُصدَّق على خلق جو من القلق والخطر والأشياء غير المُعلنة. وأنا استخدمت كل ذلك بطبيعة الحال كمؤشر زائف، بحيث لا يمكن للمُشاهِد في أي لحظة من لحظات الفيلم أن يقول: «حسناً، لقد فَهمت الموضوع».

هل تقول إنّ الفرق الملموس بين المسرحية والفيلم يكمن في أعمال المُونتاج، والذي يسمح لك بالتركيز على الاختلافات الدقيقة، ما يغذّي الحيرة التي تبحث عنها من خلال الفيلم، والتي يكاد يكون من المُستحيل ظهورها في المسرح؟

-يمكن للمرء أن يعتقد في الواقع بعد رؤيته للفيلم أنّ العديد من الأشياء، مثل سيولة السرد، لم تخرج إلى الوجود إلّا أثناء المُونتاج. ومع ذلك، فأنا أؤكّد أن المُونتاج ظلّ وفياً للسيناريو. ومع أنه شكَّل خطوةً حاسمة في إنجاز الفيلم إلّا أنني لم أعشه كإعادة كتابة لهذا الأخير. عملت مع المونتير يورغوس لامبرينوس، الذي شدّني ما أنجزه في فيلم JUSQU'À LA GARDE. واتفقنا على أننا لا نرغب باكتشاف السرد في غرفة المُونتاج، بل نرغب في نقل ما يطرحه السيناريو والديكور بشكلٍ كامل.

على سَبيل المثال، في المشهد الذي نرى فيه أنتوني هوبكنز يعثر على أكياس زرقاء في المطبخ، حيث لم يعرف من أين أتت هذه الأكياس، ولكنه قرَّر أن يخبئها في جيبه. هذا مشهد ثابت وطويل بالقدر الذي يسمح لنا بتحديد عناصره. في وقتٍ لاحقٍ، ومن خلال زاوية الرؤية ذاتها، ولكن في مطبخ مختلف تماماً، نشاهد أوليفيا كولمان تضع نفس الأكياس الزرقاء على طاولة أخرى، غير أنها تتواجد في نفس المكان الذي كانت تتواجد به الطاولة الأولى في المشهد من قبل. بالنسبة





للمُشاهِد، الأمر واضح جداً: فهو يرى أننا في اللقطة المُوالية، غير أنه يندهش من تناقض ذلك مع التسلسل الزمنيّ للقصة. المُونتاج أفادنا كثيراً في إدخال هذه الالتواءات، ولكن فقط من أجل تسخيرها لخدمة السيناريو. هذه القوة التي يتيحها تجاور الصور لا نجدها إلّا في السينما، ومن المُستحيل أن نجدها على المسرح.

يعيدنا ذلك إلى مسألة علاقتك، كمُشاهِد، بسينما النوع. ومبدأ الارتباك أو الفضاء الذهنيّ يعود بناَ إلى الأفلام الأولى لرومان بولانسكي أو دارين أرونوفسكي...

-عندما قرَّرت أن أخرج فيلماً لن يغادر هذه الشقة أبداً، لأن ذلك إكراهٌ سيغني الفيلم عوض أن يفقره، تساءلت عن الأفلام التي تمكَّنت من تناول مبدأ الفضاء المُغلق دون أن تظل حبيسة للشكل المسرحي، ومن البديهي أن فيلم روز ماري ببيبي قد فرض نفسه بقوة. لقد أدركت، حينما رأيته مرّةً أخرى، كيف أن بولانسكي جعل من الشقة شخصيّة محسوسة ونفخ فيها الحياة بشكلٍ حرفي...

كانت هناك مرحلة أخرى بين المسرحية والفيلم: فقد تمَّ اقتباسها في عمل سينمائيّ، ولكن من زاوية مختلفة جداً من خلال فيلم «فلوريد»، للمُخرج فيليب لو غاي. ما رأيك في هذه التجربة؟

- لقد انطلق من نفس المسرحية، ولكن لأسبابٍ عديدة خاصة بتصوُّر ذلك الفيلم، ابتعد عنها تدريجيّاً حتى تَحوَّل إلى قصة أخرى تماماً، قصة شخصيّة فقدت إحساسها بالواقع. لقد سلك طريقاً عكس الذي سلكته في فيلمي تماماً. «فلوريد يروي حكاية، وأنا أردت لفيلمي أن يجعل المُشاهد يعيش تجربة. ولقد كانت هناك محاولات أخرى غير فلوريد لاقتباس مسرحية «الأب»، من إنجلترا والولايات المُتحدة الأميركيّة على وجه الخصوص، ولكن حينها كنت قد بدأت أعرف بأنني أريد أن أحوّلها بنفسي إلى فيلم. وقد استغرق مني ذلك ثلاث سنوات. كان يلزمني إقناع الكثير من الناس بأنني قادر على الإخراج السينمائيّ، فلم تكن تلك أول تجربة لي في ميدان السينما فحسب، بل إنّ الفيلم كان أيضاً بلغة أخرى غير لغتي. كانت تلك كلها عقبات أمام إنجاز فيلم مستقل ناطق بالإنجليزيّة. وحتى مع ممثلين كالذين حصلنا عليهم، كان أمراً في غاية الصعوبة. أريد أن أؤكِّد أمراً لأننا ننسى في كثيرٍ من الأحيان إلى أي حدّ فرنسا بلد السينما، وإلى أي حدّ تساعد على إنتاجها. فحالما صرَّحت بأنني أنوي إخراج فيلمي باللغة الإنجليزيّة، تمَّ إقصائي من أي دعم من المركز السينمائيّ الفرنسيّ أو من القنوات الفرنسيّة. ووجدت نفسي أمام ما يسمونه بالسوق. وقوانين هذا الأخير لا تتوافق دائماً مع طبيعة السينما المُستقلّة. إنجاز هذا الفيلم ذكَّرني بأنه على الرغم من أن نظامنا مليء بالعيوب، فهو يشكِّل امتيازاً كبيراً.

■ **حوار: أليكس ماسان □ ترجمة: مونية فارس**

العنوان الأصلي والمصدر:

Florian Zeller un cinéma de genre
Cinéma Teaser, N 103 JUIN 2021

ذكريات عن توفيق الحكيم

رحلة باريس الثانية وسنوات الغليان في صالون الحكيم

كُنت في تلك السنواتِ أبقى كثيراً في مكتب الحكيم، حتى ينصرف الجميع، ويصعد إليه عادةً الرسَّام صلاح طاهر من مكتبه/ مرسمه كي يوصله في طريق عودته إلى منزله، وفي بعض الأحيان يوسف إدريس في الأيام التي لا يحضر فيها صلاح طاهر إلى مبنى الأهرام. ولأنني كُنت أسكن أيضاً على مسار رحلة صلاح طاهر في العودة إلى مسكنه في الجيزة أو بداية شارع الهرم على ما أذكر[1]، كنت أصحبهما في تلك الرحلة، وأنزل أنا بعدما ينزل توفيق الحكيم على كورنيش النيل، عند «كوبري الجامعة».



صبري حافظ

بعد أنْ تناولت علاقة توفيق الحكيم الإشكالية مع حركة الضباط التي استولت على الحكم عام 1952 وهو في أَوْجِ العطاء، ورغبته في أن يبقي بينه وبينها مسافة، برغم حرص عبدالناصر على الاقتراب منه، أحاول هنا إماطة اللثام عن فصلٍ آخر من فصولها. وأبدأ هنا بما كتبه محمد حسنين هيكل عن هذه المسألة من وجهة نظر هي أقرب ما يكون إلى وجهة نظر عبدالناصر، وهو يتناول علاقة الحكيم به كما شهدها: «توفيق الحكيم في مقابلته الأولى مع عبدالناصر عندما سلَّمه قلادة النيل، حاول عبدالناصر أن يتكلَّم معه، ولكنه كان قليل الكلام. كنّا قبل السويس، ولم تكن الأسطورة قد ترسَّخت بعد، وبالتالي فأنا أظن أن هذا اللقاء كان في أجواء مقابلة بين أديب كبير والرجل القوي على قمة الدولة. في اللقاء الثاني اختلفت الصورة، لأن اللقاء جرى بعد السويس وجوِّها الأسطوريّ، وعند سفر الحكيم مندوباً لمصر في اليونسكو، وكان توفيق الحكيم يريد هذا المنصب بشدّة، وكان يتصوَّر أن عودته إلى باريس أديباً كبيراً هذه المرّة، سوف تحدث عنده انبثاقاً متجدِّداً في الفكر، يفوق ما أحدثه لقاؤه الأول مع باريس عندما ذهب إليها طالب بعثة لدراسة الحقوق. في هذه المُقابلة لم يتكلَّم الحكيم، ولم يقل شيئاً سوى كلمة شكر على تعيينه، وتصوُّره أنه يتوقَّع كثيراً من ذهابه إلى باريس. وكان من بين ما قاله له عبد الناصر إنه سيكون متشوِّقاً لقراءة ما يكتبه. ونصحه بأن يترك الأعمال الروتينيّة لمندوب مصر في اليونسكو لأحد مساعديه، وأن ينتدب مَنْ يشاء لمكتبه من سفارة مصر في باريس، حتى يتفرَّغ هو لما يتمنَّاه من تأمُّل وتفكير وكتابة. وعندما عاد الحكيم من باريس لم يطلب مقابلة جمال عبدالناصر، مع أن عدداً من أصدقائه -ومن ضمنهم الدكتور حسين فوزي كما قال لي- نصحه بأن يدوِّن اسمه في دفتر التشريفات في الرئاسة تعبيراً عن شكره بعد عودته من مهمَّته. سألني توفيق الحكيم إنْ كان ذلك ضرورياً؛ لأنه يشعر بخجل فهو لا يعتقد أنه نجح في اليونسكو، وأن باريس لم تهمّه هذه المرّة، وأنها «صدّت نفسه»، وأن قرينته ضحكت عليه كثيراً، لأنه تصوَّر أن في استطاعته بعد الستين استعادة أجواء كان فيها تحت الثلاثين»[2].

هذا المُقتطف، ممّا قاله محمد حسنين هيكل عن تلك العودة لباريس، ينطوي على تعبيرٍ دال وهو أن باريس «صدّت نفسه»، وأنه إنْ كانَ يعترف بأنه لم ينجح في اليونسكو، فهو لم ينجح أيضاً في أن يعود لنفسه الحرّة التي



أبدعت ما أبدعت في باريس في المرّة الأولى. وعلى غير ما توهَّم هيكل فإنَّ الأمر كان من ناحية الحكيم كان محاولة للهرب من المناخ الثقيل الذي كان يشهد تخلُّق آليات الاستبداد فيه، والعصف بكثير من المُثقَّفين، علّه يسترد فيها حرّيته. وليته ذهب إليها دون أن يلتقي بعبد الناصر كي يشكره، وهو الأمر الذي ألح الكثيرون من أصدقائه وعلى رأسهم هيكل نفسه للقيام به، لأن لقاءه هذا مع عبدالناصر كشف له فيما يبدو أنه لن يستطيع الهرب ممّا أراد تجنُّبه، وأيقظ قرون الاستشعار لديه، وهي التي نغَّصت عليه إقامته في باريس. ففي هذه المرّة أحسّ أنه مُراقب، وأن عبدالناصر ينتظر منه شيئاً -وهو يقول إنه «سيكون متشوِّقاً لقراءة ما يكتبه»- لم يكن في طاقته أن يفعله.

فلم يكن غائباً عنه أن تلك السفرة التي طلبها قبل عام 1959، لم تتحقّق إلّا بعده، وبعد أكبر حملة اعتقالات للمُثقَّفين في مصر، وفي طليعتهم جُلّ مثقَّفيّ اليسار الذين كان يعرف الكثيرين منهم، وله بينهم عددٌ من الأصدقاء، كما لم يغب عنه أيضاً أن مَنْ معه من المُعاونين من مصر، قد يكونون عيوناً عليه، فلم يكن الحكيم غافلاً عن منطق الحكم الناصري في تسليط العيون على الجميع، وانتشار كتبة التقارير الذين ألمح إليهم في (بنك القلق). وهو الأمر الذي «صدّ نفسه» وليست باريس، التي تصوَّر أنه قد يهرب إليها ممّا يضيق به في مصر، حتى ولو كان سعيداً بأن أغلاله كانت من حرير كما ذكرت، لأن باريس لديها القدرة دائماً على أن «تفتح النفس» المصدودة، وتستثير أفضل ما في الإنسان من طاقاتٍ خلّاقة.

ونحن نعرف كم كانت رحلات طه حسين إلى فرنسا تثمر دائماً إنتاجاً ثرياً، وكيف كانت واحدة منها حينما التقيا معاً فيها، هو وتوفيق الحكيم، قد أثمرت هذا العمل المُشترك (القصر المسحور)، لكن ذلك كلّه كان في زمنٍ سابق على زمن الاستبداد وحكم العسكر. أمّا تفسير زوجته الذي ينقله لنا هيكل وإحالتها الأمر كلّه إلى عمر توفيق الحكيم، فهذا يفتح الباب على جرح آخر في حياة الحكيم، وهو زواجه غير المُوفَّق، والذي عانى منه طويلاً، على العكس من طه حسين الذي أنعم اللهُ عليه بزوجةٍ حَفِيّة ورائعة، وهو أمرٌ أعرفه، وأعرف شيئاً عن طريقة توفيق الحكيم المُراوغة في التعامل معه، ولكني لا أتصوَّر أن من اللائق أن أكتب عنه شيئاً هنا في هذه الذكريات عن الحكيم الكاتِب والمُبدع الكبير.

نعود إلى صالون الحكيم المفتوح في مبنى (الأهرام) الجديد، والذي كنت أتردَّد عليه بشكلٍ شبه يوميّ طوال أكثر من عامين حينما عملت في ملحق الطليعة[3]، من 1971 - 1973، وحتى غادرت مصر إلى إنجلترا في أواخر مارس/ آذار 1973 [4]، وهي الفترة التي تحوَّل فيها الصالون إلى ساحةٍ مفتوحة للنقاش والجدل في الشأن العام، وصولاً إلى كتابة بيان الأدباء الشهير في غرفته تلك، وكان اسمه في صدارة المُوقِّعين عليه، وهي أيضاً الفترة التي كتبَ فيها كُتيّبه المشهور (عودة الوعي).

كنت في تلك السنواتِ أبقى كثيراً في مكتب الحكيم، حتى ينصرف الجميع، ويصعد إليه عادةً الرسّام صلاح طاهر من مكتبه/ مرسمه كي يوصله في طريق عودته إلى منزله، وفي بعض الأحيان يوسف إدريس في الأيام التي لا يحضر فيها صلاح طاهر إلى مبنى الأهرام. ولأنني كنت أسكن أيضاً على مسار رحلة صلاح طاهر في العودة إلى مسكنه في الجيزة أو بداية شارع الهرم على ما أذكر، كنت أصحبهما في تلك الرحلة، وأنزل أنا بعدما ينزل توفيق الحكيم على كورنيش النيل، عند «كوبري الجامعة». وكان الحكيم يحرص على أن ينزل من السيارة على كورنيش النيل في جاردن سيتي، وفي مكان لا بيوت أمامه، وإنما أمام سور السفارة البريطانيّة المُطلة على هذا الجزء من كورنيش النيل. ومع أننا نعرف الآن أنه كان يسكن على بُعد أكثر من مئتي متر من المكان الذي كان يطلب إنزاله من السيارة فيه؛ إلّا أنه كان يريد أن يراه الجيران وبواب العمارة معاً، عائداً إلى بيته، ماشياً على قدميه بعصاه التقليديّة والبيريه الشهير. هذا وقد سمعت أكثر من تأويلٍ لهذا الإصرار الذي عاصرته لعامين تقريباً وبشكلٍ شبه منتظم. كان أسوأها ناجماً عن علاقته غير السعيدة، إنْ لم نقل الإشكالية مع زوجته، وهو الأمر الذي لا أريد حتى أن أذكره. أمّا تأويلي الشخصيّ لهذا فهو أنه ابن حرص الحكيم على ترويج صورة خاصّة وشخصيّة عن نفسه، لايزال يحرص فيها على أن يبدو في صورة ابن البلد الشعبيّ الذي يذهب لعمله ماشياً، كما

يذهب لمقهاه ماشياً في أيام الجمعة، وقد ذكرت أنه اختار مقهى فندق (سميراميس) القديم، الذي لا يبعد عن هذا العنوان بأكثر من خمسمئة متر.

وكان صالون الحكيم في تلك الفترة العاصفة من تاريخ مصر -وما شهدته من تغيُّرات جلبها حكم السادات بعد انتهاء عصر عبدالناصر، بما له وما عليه- يعجُّ بالجدل المفتوح حول مستقبل مصر، وقد عاد عبء التخلص من الاحتلال -الإسرائيليّ المدعوم أميركيّاً هذه المرّة وليس البريطانيّ- يقض مضاجع الجميع ويشغلهم. وكانت هذه السنوات الأولى من السبعينيات مشحونة بالكثير من الأحداث، من تخلص السادات من كلّ مناوئيه مِمّنْ كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر منه ناصرية في مراكز السلطة السياسيّة، إلى سعيه للتخلّص من أنصار فكرهم في وسائل الإعلام المُختلفة.

ولم يكن هذا كلّه -رغم إحاطته بأجواءٍ من السرية- بغائب عن الواقع الثقافيّ، ولا عن الجدل المُستمر حول ما يدور في مصر في صالون الحكيم. وقد بدأ في هذا الوقت مثقّفون يمينيّون من نوع ثروت أباظة يُكثّفون من تردُّدهم على صالون الحكيم، وقد اكتسب أباظة، خاصّةً، جرأة في طرح أفكاره اليمينيّة ما كان يحلم بالتعبير عنها قبل عامين. وأخذ الحكيم -وقد صدّق ما أشاعه السادات من إطلاق الحرّيّات، وإلغاء الرقابة- يفصح عن كثيرٍ من آرائه الناقِدة للنظام بشكلٍ أوضح، بما فيها من نقدٍ حاد لتلكؤ السادات في العمل على تحرير الأرض المُحتلة. وكانت قضية التحرير تلك، ورفض حالة اللاسِلم واللاحرب التي سادت منذ موت عبد الناصر، مجالَ جدلٍ مستمر بين مختلف التيارات الثقافيّة المصريّة والتي كانت تتجمَّع في كثيرٍ من الأحيان في غرفته تلك، كما كانت بالقطع موضوعَ الحركة الطلابية الأثير، منذ اندلاع أول مظاهرات في الجامعة بعد هزيمة 1967، وتنامي الاستقطاب بين تياراتها المُختلفة.

وما أن انتهى العام التالي لتولي السادات الحكم، وهو عام 1971 -وكان قد جعل شعاره في هذا العام، أنه عام الحسم وتحقيق الديموقراطيّة وتحرير الأرض أو تصفية آثار العدوان- دون حسم، حتى أخذت الحركة الطلابية في الغليان، وفي 13 يناير/كانون الثاني، وبمُناسبة الاحتفال بالمُولد النبويّ، خطب السادات «خطبة الضباب» المشهورة، وما أعقبها من نكاتٍ لم تنقطع[5]. وفجَّر هذا الخطاب ثورةَ الطلاب في كلّ الجامعات، وأصبح خطاب الضباب خطابَ استفزاز بدلاً من أن يكون خطابَ تبرير. فقد قال فيه إن ضباب الحرب الهنديّة - الباكستانيّة قد أعاق تنفيذ وعده بعام الحسم، لأنَّ العَالَم لم يكن فيه متسعٌ لاندلاع حربين كُبريين في آنٍ واحد. وكنت دائماً ما أتطلع إلى الوصول إلى غرفة الحكيم في تلك الفترة كي أبلغه بأحدث ما سمعت من نكات «الضباب»، وكان مولعاً بسماعها ككلّ المصريّين، أو أسمع منه خيراً من تلك التي جئت له بها. والواقع أن أحد المجالات التي لم تأخذ حقّها من الدرس والجمع والتحليل هو حقل «النكتة المصريّة»، والسياسيّة منها بشكلٍ خاص. وكانت موجة النكات المُضادة للعسكر، وانسحابهم من سيناء بعد هزيمة 1967، قد دفعت عبدالناصر إلى أن يرجو الشعب في خطابٍ علني بالكفِّ عن تلك النكات.

أمّا النكاتُ التي صاحبت السادات منذ توليه السلطة، وصولاً إلى أغنية الشيخ إمام الشهيرة «شحاتة المعسل»، فقد كانت من نوعٍ آخر. أعتقد أنه أخذ ينخر في هيبة الدولة المُرعبة التي بنتها مرحلة عبدالناصر، وجعلتها كياناً مخيفاً لا يجرؤ أحد على السخرية منه، ناهيك عن التطاول عليه، إلّا همساً ولمَنْ يثق بهم. لكن سحابة الخوف الثقيلة التي تكوَّنت في زمن عبدالناصر بدأت تتبدَّد، منذ أن كسرتها صدمة الهزيمة في عام 1967، وإنْ لم تنقشع كليةً إلّا بعد رحيله، وإعلان السادات الإجهاز على مراكز القوى والتنصُّت على الشعب، وأخذَ الكثير من الكُتَّاب يحلون ضيوفاً على المُؤتمرات الطلابية التي أخذت تتنامى في الجامعة، ويطرحون فيها آراءهم الناقِدة لما يدور بجرأةٍ غير مسبوقة. وكانت تلك أيضاً هي الفترة التي ازدهرت فيها الأغنية السياسيّة الساخرة التي تزعَّمها «الشيخ إمام عيسى»، ثمَّ «عدلي فخري»، وغيرهما.

وهي أيضاً الفترة التي بدا فيها أن مصر قد أزالت عن روحها عبء الخوف الثقيل الذي رانَ على روحها وعقلها في مرحلة عبد الناصر، واستعادت شيئاً من الحرّيّة التي عاشتها قبل استيلاء العسكر على السلطة. وحسب الدكتور أحمد عبد الله رزة تركَّزت مطالب الطلبة على ثلاث قضايا رئيسة هي: إنهاء حالة اللاسلم واللاحرب واتخاذ قرار حاسم ونهائي بالحرب، وتحرير الأراضي المصريّة المُحتلة، وقضية الديموقراطيّة والنظام السياسيّ في مصر، بما في ذلك حرّيّة الصحافة؛ وكانت ثالث القضايا هي البنية الاجتماعيّة الاقتصاديّة للبلاد، حيث نادى الطلبة بضرورة قيام ما سمّوه «اقتصاد حرب»، والإجهاز على الفساد. وكانت أكثر المطالب راديكاليّة في تلك القضية هي المُطالبة بألّا يتجاوز الحدّ الأعلى للأجور في البلاد عشرة أمثال الحدّ الأدنى، مع رفض سياسة ربط الاقتصاد المصريّ بالمصالح الإمبرياليّة عبر مناطق التجارة الحرّة، وطالبوا بالإفراج عن العُمَّال المُعتقلين وإعادة الاعتبار للجان النقابية العُمَّاليّة التي تعرَّضت للتشهير من قِبل الحكومة نتيجة إضراب العُمَّال عام 1971 [6].

الهوامش:

1 - كان مسكني في أول حيّ المنيل وبالقرب من «كوبري الجامعة»، الذي كان لابد أن يعبره في طريقه إلى الجيزة، وكنت أنزل من سيارته قبل أن يعبر الجسر مباشرةً.

2 - (محمد حسنين هيكل يتذكّر: عبدالناصر والمُثقّفون والثقافة)، ص 251 - 252.

3 - ما أن بدأ المُلحق بهيئة تحريره الكاملة لعدّة شهور، حتى أخذ المناخ الطارد وقتها، يعصف تدريجيّاً بأعضاء لجنة تحريره، فيغادرون مصر واحداً بعد الآخر. حتى لم يبقَ منهم سواي. ممّا جعلني أتردَّد على مبنى الأهرام بشكلٍ شبه يومي.

4 - جاءتني فرصة للسفر إلى إنجلترا في ذلك الوقت، وطلب مني لطفي الخولي أن أرشِّح له مَنْ يحلّ مكاني في هذا المُلحق، وفاتحت فاروق عبدالقادر في الأمر فرحَّب به، ورشّحته للطفي الخولي. واستلم فاروق العمل مني في ملحق الطليعة الأدبيّ في مارس/آذار عام 1973، وهو الشهر الذي غادرت مصر في نهايته.

5 - الواقع أن النكات الساخرة من السادات والمُستهزئة به لم تنقطع أبداً منذ تولي السادات السلطة. فلم تأخذه مصر مأخذ الجد، ولم تعترف له بأي شرعيّة حتى اندلاع حرب 6 أكتوبر، وهي الشرعيّة التي سرعان ما تبدَّدت بعد فترةٍ قصيرة. وخرجت المُظاهرات العارمة في 18 و 19 يناير/كانون الثاني عام 1977 من شواطئ المُتوسط حتى شواطئ بحيرة ناصر تنزع عنه كلّ شرعيّة. فتوجَّه فاقداً للشرعيّة إلى العدو الإسرائيليّ علّه يسبغ عليه شيئاً ممّا فقده، فضيَّع مصر معه.

6 - راجع كتاب أحمد عبد الله الشهير: Ahmed Abdalla, The Student Movement and the National Politics in Egypt: 1923-1973 (London, Saqi Books, 1985)، وخاصّة الفصل التاسع عن انتفاضة الطلاب عام 1972 - 73، ص 176 - 211.



إدغار موران

مئة سنة

إدغار موران:
مئة سنة من التوازُن بين العقلِ والشغف

أتيح لي أن أعايش «إدغار» عن قرب لمدّة أسبوعيْن خلال شهر مايو/أيار 2020، عندما استضفناه في بيتنا أثناء سفر زوجته السيدة صباح خارج فرنسا، فتعرَّفتُ على طقوس حياته اليوميّة وعلى طيبته وشغفه بالحياة. يستيقظ حوالي التاسعة صباحاً ويبدأ بشُرب عصير الليمون مع ماءٍ ساخن، ثمَّ يتناول بعض الفيتامينات ومعها كوبٌ من الشاي الأسود وبيضة مسلوقة سَلْقاً خفيفاً؛ وبعد مهلة يتناول شرائح خبز مدهونة بالزُبْدة والعسل...



محمد برادة

احتفل الفيلسوف «إدغار موران» يوم 8 يوليو/تموز 2021 بعيد ميلاده المئة، ومعه احتفل أصدقاؤه والأوساط الثقافيّة ورئاسة الجمهورية الفرنسيّة، لأن هذا العُمر المديد يحمله شخص عاش تجربة شخصيّة مُتفرِّدة، وعاصَر أحداثاً وازنة وحرص طوال رحلته على أنْ يَستقرئ ويتأمَّل ويُحلِّل ما عاشه في حياته الخاصّة بتماسٍّ وتفاعلٍ مع ما حبَلتْ به تلك المئة سنة الزاخرة بالتحوُّلات والصراعات والحروب والاكتشافات المُذهلة في العلوم والتكنولوجيا والفنون...

أنْ يعيش المَرءُ قرناً من الزمن، وأن يكون ذكيّاً، طلعة، مُحبّاً لاكتشاف أسرار الحياة، معناهُ أنه سيجد نفسه مُعاشراً للتاريخ، مُتابعاً لأسئلته وتقلُّباته، مُضطراً إلى استيعاب الصيْرورة ونسبية الأحداث والتحوُّلات، وضرورة البحث عن فلسفة ومنهج يُتيحان له السباحة في عالَم ينتقل من فترة الإيمان المُطلق بالتقدُّم وصلاحية القيم الكونية إلى مرحلة الشكّ وسيادة المصالح الذاتية، وتعاظم المطامع الليبراليّة المُتوحشة... لكنْ، قبل أن يواجه «إدغار» أسئلة القرن الذي عاصره وما يزال، كان عليه أن يتآلفَ مع وضعه العائلي الصعب، إذْ إنه فقَدَ أمه وهو في الحادية عشرة من عمره، وعلاقته بالأب ينقصها التفاهُم والتواطؤ، ومُناخ باريس في ثلاثينيات القرن الماضي يقتضي الجهد والمرونة والشجاعة لاجتياز المِحن والمآسي، خاصّة خلال احتلال ألمانيا النازية لفرنسا. وإذا كان المناخ الثقافيّ والفنّي آنذاك قد أسعفه على معرفة إيقاع العصر من خلال ازدهار السرياليّة والفكر الماركسي فإنّ الاحتلال ومحنة تصفية اليهود قاداهُ إلى الانخراط في المُقاومة، حيث التقى مثقَّفين بارزين وهو في مطلع الشباب. وكان من الطبيعي أيضاً أن ينضمَّ إلى الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ الذي كان يجسِّد بعضاً من مطامحه إلى التغيير. غير أن التكوين الجامعي لإدغار (فلسفة، علم اجتماع، علم نفس، تاريخ...) شحذ لديْه حاسّة النقد الذاتي وجعله منفتحاً في تفكيره على المناهج والمقولات الحريصة على فهْم المُجتمع والتاريخ وأسئلة الذات المُعقَّدة. وهذا ما تجلّى أولاً في انسحابه من الحزب الشيوعي عندما تبيَّن أنه ليس حزباً ثورياً إذْ كان تابعاً للاتحاد السوفياتيّ ويستعمل اللُّغة المُتخشِّبة التي تظلّ أبعد ما تكون عن النفاذ إلى صلب الواقع وعلائق الصراع الاجتماعيّ. هذا التحوُّل الفكريّ السياسيّ هو ما جعله يؤلِّف كتاباً بعنوان «نقدٌ ذاتي» (1959) شرح فيه مواقفه المُوفقة والبعيدة عن الصواب، مؤكِّداً على أن هذا المبدأ ضروري لاكتشاف «الطريق» وسط عالَم بالغ التعقيد، بل أكثر من ذلك، نشر كتاباً بعنوان «مع وضدّ ماركس» (2010). وحين بدأ «إدغار» يصوغُ تصوُّراته النظريّة عن العَالَم ومنهج تحليله، لم يبتعد عن الواقع في تجلّياته الملموسة، النابضة بالحقائق الشعوريّة

والوجوديّة؛ كما يتجلّى ذلك من إنجازه لفيلم سينمائيّ وثائقيّ مشترك مع «جانْ روش»، يحمل عنوان «وقائع صيْف»، 1961، ويدور حول سؤالٍ جوهري يُوجّه للناس في الشارع: ما هي السعادة في نظرك؟ وهذا الولع بالسينما سيجعله طوال حياته مُداوماً على مشاهَدة الأفلام ومناقشتها، لأنها نافذة تطلّ مباشرةً على الحياة في تجلّياتها المُتباينة. على هذا النحو، استطاع أن يبلور «منهجه المُركّب» للاقتراب من «الفكر المُعقّد»... ولأن كلّ شيء في الطبيعة والعلاقات البشريّة والمعارف والعلوم يتسِمُ بالتعقيد والتداخل فإنه لا يمكن أن نحلِّل أو نفهم أن العطَب لا يأتي فقط من الهشاشة البشريّة (المصائب، الموت، اللامُتوقّع)، بل أيضاً من العواقب المُحطمة الناجمة عن كلّ قوة هائلة علميّة وتقنية واقتصاديّة، تكون هي نفسها مُسخرة من لدُن شططٍ في إرادة ترمي إلى فرض العنف والاستئثار بالربْح «(جريدة لوموند، 8 يوليو، من مقال لإدغار). وهذا المنهج المُركّب هو ما سيقوده منذ عقود إلى إدراك أهمّيّة البيئة وضرورة النضال لتحقيق الشروط التي تحمي الإنسان من عواقب التلوث والكوارث والأوبئة، «لأن الإنسان هو داخل الطبيعة وليس خارجها».

إلّا أن هذا المسار العلميّ، السياسيّ، لم يكن السّنَد الوحيد لـ«مُوران» وهو يبلور منظومته الحياتية طوال قرنٍ من الزمن؛ ذلك أن الركيزة الثانية التي دعّمتْ بنيانه الشامخ، الجاذب والمُثير للإعجاب، تتمثَّلُ في شغفه العارم بالحياة وبكلّ ما يُضفي عليها تلك المُسحة التي تجعلنا نُسبِّح بالحمد، ونراهن على استدامتها غير مُبالين بالأخطار التي تترصَّدُنا من المهد إلى اللحد. أدرك فيلسوفنا، منذ نعومة أظفاره أن العقل وحده لا يكفي لحماية خطواتنا ونحن نتدحرج عبْر المسالك الوعرة بحثاً عن مَضاءاتٍ نستهدي بنُورها. لأجل ذلك، فتَحَ قلبَه على مِصْراعيْه لكي يجرِّب ويعيش في كنَفِ الحبّ ودفءِ العواطف. أحبّ أكثر من مرّة، وتزوَّج أربع مرَّات، مُتحدّياً الموتَ والمرض. ذلك أن «إدغار» يمتلك قلباً دائم الخفق، مُتجاوباً مع الجمال والعواطف التي تُغني الوجود. وهذا ما جعل مساره مفتوحاً على المُغامرة والمُبادرة ومساندة قوى الإبداع عند الشباب. ومن تجربته الحياتية الزاخرة استمدَّ ضرورة الأخذ في الاعتبار لما يُسمّيه: ما لا نتوقَّع حُدوثَه (اللامُتوقع) l'inattendu. ذلك أنه على رغم انغلاق آفاق المُستقبل وتراكُم المُعضلات الطبيعيّة والسياسيّة التي تبعث على اليأس، تظلّ هناك إمكانيات مُحتملة تنبثق من صلب الأزمة لتمْنحنا بصيصاً من الضوء نستهدي به...

لقد أتيح لي أن أعايش «إدغار» عن قرب لمدة أسبوعيْن خلال شهر مايو/أيار 2020، عندما استضفناه في بيتنا أثناء سفر زوجته السيدة صباح خارج فرنسا، فتعرَّفتُ على طقوس حياته اليوميّة وعلى طيبته وشغفه بالحياة. يستيقظ حوالي التاسعة صباحاً ويبدأ بشُرب عصير الليمون مع ماءٍ ساخن، ثمَّ يتناول بعض الفيتامينات ومعها كوبٌ من الشاي الأسود وبيضة مسلوقة سَلْقاً خفيفاً؛ وبعد مهلة يتناول شرائح خبز مدهونة بالزُبْدة والعسل. في الأثناء، نتبادل الحديث حول أنباء العَالَم وعن كورونا (19) وامتدادات الحَجْر. بعد ذلك، يبدأ وقت القراءة ليمتدّ إلى موعد الغداء. ولأنه مُتعلِّق بالمعرفة والحوار، فإنه يستغني عن القيلولة ليشارك في ندوات وحوارات عبْر الشاشة الصغيرة (الزومْ). وهو يجد في ذلك مسرّة وارتياحاً لأن الحوار المعرفيّ والاجتماعيّ يجعله حاضراً في ساحة الثقافة الواسعة التي عاش فيها خلال أيام الشباب والتدريس والنضال. اتّضح لي أن «إدغارْ» يُؤمن بأن المعرفة والثقافة والصداقة والقرْب من الناس هي كلّها عناصر ضرورية لجعْل الحياة حاضرة وملموسة في السلوك والعلائق والمواقف؛ ذلك أن الحياة كلٌّ لا يتجزأ. ومن ثَمَّ، تعدّدُ اهتماماته بكلّ ما يُضفي على العيش حياة حقيقيّة، لا «حياة غائبة». وفي هذا الإطار وجدتُه يهتم بكرة القدم فشاهدنا معاً مباراة فرنسا/كَرواتيا التي كانت ذات جودة عالية. وكانت هناك مناسبة أكَّدتْ لي إعجابه بروايات «دوستويفسكي»، عندما شاهدنا سلسلة أفلام عن حياة الكاتب الروسي التي لا تقلّ في كثافتها ومأسويتها عن رواياته. كلّ صباح، يستيقظ «إدغارْ» مُفعما بحُبّ الحياة، حريصاً على إضافة لمسةٍ مضيئة إلى مناطق الظلمة فيها؛ فهو حريص على أن تكون المعرفة والذاكرة والتجربة في حالة عِناق من أجل إعادة ابتكار الحياة يوميّاً. هو يُدرك، منذ نَشْرَ كتابه «الإنسانُ والموت»، 1951، أن حياة الفرد مؤقَّتة، لكنه يتذكَّر أن المئة سنة التي عاشها كانت مُشعّة باللحظات المُشرقات التي سطّرتْ ملاحم البطولات وثورات الشعوب المُستضعفة، وعبقريات الإبداع والفنون، وكشوفات العلم والمعرفة؛ ومن ثَمَّ ضرورة المُراهنة على حماية تلك القيم الكونيّة التي حقَّقتْ، ولو في فتراتٍ قصيرة، الصورة الأكثر اكتمالاً وصدقيةً للحياة. على هذا النحو، يتابع «إدغارْ موران» رحلته الحياتيّة، مُسلَّحاً بالمعرفة والحبّ والصداقة والرأي الشجاع. تلك الشجاعة التي قادتْهُ منذ بضع سنوات إلى محاكمة كان فيها مُتهماً، بأنه مُعادٍ للسامية، إذْ كتبَ مقالاً ينتقد فيه الاحتلال الإسرائيليّ لفلسطين ويفضح أسلوب هَدْم المنازل واعتقال الشباب... لقد كان واضحاً، وهو يصرِّح قبل أيام لجريدة «ليبراسيون» الفرنسيّة: «علينا أن نعترف بأولئك الذين لا يحظوْن بالاعتراف: المُحتَقرين، والمُهانين. ليكنْ لديْكم حسُّ الأخوة تجاهَ جميع الذين يتألّمون!».

إدغار موران:

ليس لدينا وعي تام بأننا نسير نحو الهاوية

إدغار موران، عَالِم اجتماع وفيلسوف ومدير أبحاث فخري في المركز الوطنيّ للبحث العلميّ (CNRS)، وهو كذلك مفكر إنسانيّ، وأحد أبرز منظري الفكر المعقَّد. احتفل بعيد ميلاده الـ 100 يوم 8 يوليو/تموز الماضي. في المقابلة التي أجراها مع «franceinfo»، تطرَّق إلى «دروس قرن من الحياة»، مستحضراً انضمامه إلى المقاومة وهو في الـ 20 من عمره، عام 1941. لا يخفي إدغار موران قلقه من تنامي نزعات الأنانيّة والقوميّة والانغلاق. لكنه يظلّ متفائلاً، داعياً الشباب إلى «الوقوف إلى جانب كلّ القوى الإيجابيّة ومحارَبة قوى الدمار».

إدغار موران، أنت عالِم اجتماع وفيلسوف. لكنك أيضاً مدير أبحاث فخري في (CNRS)، ومقاوم سابقاً. يمكن تقديمك بعِدّة طرق مختلفة. المُفكِّر والإنسانيّ هي المُصطلحات التي تناسبك أكثر؟

- لا أرغب في أن يتمَّ اختزالي في تعريف واحد. لذلك، إذا وضعت خمسة أو ستة، فلا بأس بذلك!

على أي حال، بلغت المئة في الثامن من يوليو/ تموز الماضي. هل احتفلت بعيد ميلادك؟ خاصّة وقد تمَّ استقبالك في الإليزيه.

- نعم. كما أقيمت بالفعل مراسم في اليونسكو. وكان هناك احتفال في دار البلدية في باريس. لقد احتفلت بميلادي مع عائلتي وأطفالي، وسيكون هناك احتفال في «أفينيون». هناك سيل من الاحتفالات إلى حدٍّ ما، لكن هذا يحدث فقط كلّ مئة عام!

مئة عام هي على أي حال فرصة للتقييم بطريقةٍ ما. هذا ما قمت به في كتابك «دروس قرن من الحياة». هل هو سيرة ذاتية، أو مقال؟

- لا، ليست سيرة ذاتية. الكتاب فيه عناصر سيرة ذاتية لتنوير القارئ، حول الدروس التي تعلَّمتها في حياتي، في مجالاتٍ مختلفة. لنفترض أنها تجربة.

تجربتك في الحياة ثريّة لكنها بدأت بشكلٍ سيئ. حاولت والدتك إجهاضك. ثمَّ وُلدت والحبل السري حول رقبتك. وعانيت من صدمة وفاة والدتك عندما كنت في العاشرة. كلّ هذه الأحداث الصادمة هل جعلتك قويّاً لتعيش طويلاً؟

- ربّما هي المُقاومة التي منحتني إياها الحياة، عندما كنت جنيناً وأرادوا إجهاضي. قد يكون الأمر كذلك بعد وفاة والدتي، كنت أعاني من مرض غريب. مرّة أخرى تعرَّضت للمرض الشديد، وقاوم جسدي. ربّما كلها لعبت دوراً. ولكن أيضاً كنت الطفل الوحيد. تعرَّضت والدتي لمرض في القلب ولم تستطع إنجاب طفلٍ آخر. لذلك كانت هناك علاقة عشق متبادَلة ومتكامِلة.
هذا الهروب من ألمي جعلني أكتشف الواقع عبر الخيال. شاهدت أفلاماً عن حرب عام 1914 التي كشفت لي عن وجه الحروب. شاهدت أفلاماً عن المُجتمع. علَّمتني الروايات والسينما أكثر حتى من المدرسة.

لقد استخدمت كلمة «مقاومة». كان عمرك 21 عاماً عندما انضممت إلى المُقاومة... هل ترى بأنها فترة صعبة، وقد عايشت الحرب العالمية الثانية؟

- هناك حالة من عدم الاستقرار ليست هي نفسها على الإطلاق. لكنني أعتقد أن الشدائد أيضاً هي التي يجب أن تحفِّزنا. كانت المُقاومة في الأساس من الشباب: تراوحت



أعمار قادتنا بين 24 و 28 سنة. كانت حركة عبَّر فيها الشباب عن تطلّعاتهم وتمرُّدهم. أعتقد أنه على الشباب التعبير عن تطلّعاتهم وثوراتهم في نفس الوقت، كما فعلنا. اليوم، الدافع مختلف. كنا ندافع عن الوطن، وحتى على نطاقٍ أوسع، كانت الإنسانيّة معرَّضة للخطر من قِبل القوى الاستبداديّة. لكن الكوكب اليوم مهدَّد. إنه ليس عالَم الحيوان والنبات فقط. نحن أنفسنا، مع التلوُّث، والزراعة الصناعيّة. لدينا ألف تهديد بالصراعات والتعصُّب والانغلاق على أنفسنا. هناك أسبابٌ وجيهة تماماً للشباب، الدفاع عن الأرض، الدفاع عن الإنسانيّة، الإنسانيّة جمعاء. هناك غريتا ثونبرج الصغيرة، وكذلك الشباب الآخرون الذين يشعرون بذلك. أعتقد أننا نحتاج دائماً إلى التعبئة من أجل شيء مشترك، من أجل مجتمع. لا يمكنك إثبات نفسك من خلال التقوقع في أنانيتك، في حياتك المهنية. يجب علينا أيضاً المُشاركة في الإنسانيّة وهذا أحد الأسباب، على ما أعتقد، الذي جعلني متأهباً حتى في عُمري هذا.

غالباً ما نقارن بين فرنسا اليوم وفرنسا في الثلاثينيات، مع ارتفاع منسوب العنف، والانغلاق على الذات. هل تجد هذا التشابه أيضاً؟

- إنه تشابه أرسمه على مستوى معيَّن. لقد كانت فترة المخاطر المُتزايدة التي عشناها تقريباً مثل السائر أثناء النوم، دون أن ندرك ذلك. لكن الخطر اليوم ليس هو نفسه على الإطلاق. في ذلك الوقت، كانت ألمانيا أسيرة هتلر ومفهوم التفوُّق الآري الذي خطّط للسيطرة على كامل أوروبا بمساحتها الحيويّة واستعباد العَالَم السلافي. كان التهديد من ألمانيا النازية هو الخطر الرئيسيّ. اليوم هناك المزيد من المخاطر. هناك الكثير. لديك خطرٌ نوويّ. لديك الخطر الاقتصاديّ، خطر السيطرة على المال في كلّ مكان. لديكم أزماتُ الديموقراطيّة، كما كانت في ذلك الوقت، والتي هي اليوم بنفس الدرجة من الخطورة. إذن، هناك سمات متشابهة، لكن هناك أيضاً سمات مختلفة جدّاً. وفوق كلّ شيء، هناك غيابٌ للوعي الواضح عندما يسير المرءُ نحو الهاوية. ما أقوله ليس قدراً محتوماً. كثيراً ما أقتبس كلمات الشاعر هولدرلين الذي يقول: «حيث يوجد الخطر يوجد أيضاً ما ينقذك». لذلك، أعتقد أن الأمل لا يزال قائماً.

كتبت في إحدى مقالاتك الصحافيّة: «يجب أن نفهم أن أي شيء يحرِّرنا تقنياً ومادياً يمكن في نفس الوقت أن يستعبدنا». أنت تتحدَّث عن الأداة الأولى التي تحوَّلت إلى سلاح على الفور. أنت تتحدَّث عن مخاطر التكنولوجيا الحديثة، وخاصّة المُراقبة بالفيديو والخوارزميّات. هل هي مخاطر فورية؟

- إنها أحد المخاطر في هذا المُجتمع، دعونا نسمها الشموليّة الجديدة، التي يمكن أن تترسَّخ. لكن يجب ألّا ننسى المُحيط الحيويّ الذي سيزيد كلّ هذا سوءاً إذا استمرّت أزمة المناخ. يجب ألّا ننسى أن التعصُّب منتشر في كلّ مكان. ما يذهلني

كثيراً هو أننا في هذه اللحظة -والوباء دليل على ذلك- جميع البشر، مجتمع المصير، نعيش جميعاً نفس الشيء من نيوزيلندا إلى الصين وأوروبا. لقد عانينا من نفس المخاطر الجسديّة والشخصيّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

كيف جرَّبت، على المُستوى الفكريّ، الحَجْرَ الصّحيّ، أو هذه الفكرة لحبس الأفراد؟ هل ترون بأن الصحّة أهمّ من الاقتصاد؟ أم بالعكس كان الحَجْرُ على حساب الحرّيّات؟

- التعقيد هو أن ترى تناقض الأشياء. هناك رغبة واضحة في فرض سياسة صحيّة، لكنها ربّما لم تكن مناسبة تماماً للوضع. الحَجْرُ كانت له نتائج مفيدة لدى البعض، وكذلك المآسي عند البعض الآخر. إنه متناقض للغاية. لكني أعتقد أن هذا الفيروس لم يتم التفكير فيه جيّداً. ما زلنا في مغامرة غير معروفة وخطيرة وأعتقد أنه يجب إعادة التفكير سياسيًا وصحّيّاً بشكلٍ جذري اليوم.

الآن وقد بلغت المئة. من الواضح، في هذا العُمر، نفكّر في النهاية. أكسل كان، الذي وافته المنية يوم الثلاثاء 6 يوليو/ تموز، كان قد أرَّخ تقريباً لنهاية حياته. هل أعددت لذلك أيضاً؟

- هناك فرقٌ كبير مع أكسل كان، الذي كان يعلم أنه مصاب بسرطان قاتل. حتى الآن، ليس لديّ أي مشكل، ولا يمكن أن يكون لدي نفس موقف أكسل كان. مازلت أتمتع، على الأقلّ من الناحية العقليّة، بقوى الحياة التي تمنحني الرغبات والمشاريع والملذّات. بالطبع، أنا أعيش بطريقةٍ أكثر تقييداً بكثير ممّا كنت عليه في الماضي. ضعف سمعي. عيني لا تقرأ الأشياء المجهرية بعد الآن. لم يعد بإمكاني الركض. لذا، أعرف أن الموت يمكن أن يأتي في أيّ وقت، وأعلم أني قد أنام ذات ليلة ولا أستيقظ، لكن هذا قدر الإنسان.

ناضل أكسل كان كثيراً من أجل أن ينهي حياته بكرامة. هل المعركة تهمّك أيضاً؟

- إنني أتفهم جيّداً هذه الحاجة إلى تجنُّب المُعاناة الأكثر رعباً للأشخاص الذين يعيشون التجربة. لكن الأطباء يواجهون تناقضاً أخلاقيّاً. من ناحيةٍ، قَسَمُ أبقراط، الذي يأمرهم بإطالة العمر قدر الإمكان، ومن ناحيةٍ أخرى، جزءٌ من الإنسانيّة يقول لهم: دعونا نوقف معاناة هذا المسكين. أنا أؤيد وجهة النظر هذه، لكنني أعلم أن هناك حالاتٍ نادرة لأشخاص في غيبوبة يئس الأطباء من علاجهم، لكنهم يستيقظون فجأة بعد بضع سنوات.

هل نحن بحاجة إلى تغيير قانون أخلاقيّات البيولوجيا؟

- يجب أن نفكّر في تناقضات أخلاقيّات علم الأحياء. نحن نرى أن علم الوراثة يسمح بالتلاعب الذي يمكن أن يكون خطيراً، وفي نفس الوقت التدخلات التي يمكن أن تكون مفيدة للغاية. يجب أن نتذكّر أننا في هذا المجال غالباً ما نتعامل مع واجباتٍ متناقضة. لذلك، قبل كلّ شيء، يجب أن نضع قانوناً وفقاً لتعقيد الأشياء، وليس بطريقة مبسّطة.
دائماً هذا التناقض و«التفكير المُعقَّد». يمكننا أن نرى ذلك أيضاً في قضية ميلا المُتعلّقة بحرّيّة التعبير هذه المرّة.

أظن أنك مع الدفاع عن حرّيّة التعبير.
- إنها ليست اتفاقية، إنها قضية دائمة يجب الدفاع عنها!

لكن إلى أي مدى؟ هل يمكن لفتاة في المدرسة الثانوية إهانة دين عبر الإنترنت؟ ورداً على ذلك هل يمكن أن يدعو الناس لقتلها؟ هل كانت هناك عدالة في الحكم على المُتحرشين بالفتاة ميلا بالسجن 4 إلى 6 أشهر؟

- أعتقد أننا هنا أيضاً نتعامل مع تناقض أخلاقيّ. أنا أؤيد حرّيّة التعبير الكاملة، لكنني بالطبع أعتقد أيضاً أنه في التاريخ الشهير للرسوم الكاريكاتوريّة، فهي ليست قذرة في نظر الجهاديّين فحسب، بل يمكن أن تسيء إلى المُسلمين الأتقياء. لذلك لا أشجّع على الرقابة، لكن من واجب الصحافيّين التحلّي بشعور التعقيد والمسؤوليّة. هذا ما يجب أخذه بعين الاعتبار. الأمر متروك للصحافيّين لمعرفة متى يتجنَّبون موضوعاً مسيئاً. على سبيل المثال، لتجنُّب أي مقارنة مع المسائل الحالية، الإسلام أو المسيحيّة. عندما يذهب البيض في أميركا إلى الغابات المُقدَّسة للهنود، وهذه الغابات بالنسبة لهم أكثر من مقدَّسة لأنها مرقد أسلافهم، أعتقد أنه يجب علينا إدانة ما هو انتهاك لمُقدَّسات الهنود. من الضروري التفكير في كلّ حالة، وليس الحصول على أفكارٍ مجرَّدة عامة.

ذكرنا أشياء كثيرة سوداويّة سواء في الحاضر أو الماضي. هل من إشارة أملٍ بمُناسبة عيد ميلادك المئة؟ هل ترى مستقبلاً مشرقاً محتملاً؟

- أولاً، أعلم أنه لا يوجد شيء غير قابل للإصلاح. لسوء الحظ، لا يمكن عكس الديموقراطيّة، لكن الديكتاتوريّة يمكن أن تكون عكس ذلك. عشنا أزمنة مظلمة مثل الاحتلال، حيث لم يكن هناك أملٌ لسنوات، حتى وصلت معجزة الدفاع عن موسكو ودخول الولايات المُتحدة للحرب. لذلك، فإنَّ ما هو غير محتمَل يحدث في التاريخ. تحدث أحداث سعيدة. أحياناً يكون لها معنى محدود فقط، لكنها تظلّ مهمَّة. خذ البابا فرانسيس، على سبيل المثال، إنه أول بابا منذ قرون يعود إلى مبادئ الإنجيل، وأصبح مدركاً للمخاطر التي تهدِّد الأرض والفقر والبؤس البشريّ. لم يكن متوقَّعاً أن يخلف هذا البابا بابا آخر كان منغلقاً جدّاً ورجعياً للغاية.
في الأساس، هناك دائماً صراع بين ما يمكن أن نسمِّيه قوى الاتحاد والتجميع والصداقة، إيروس، والقوى المُضادة للدمار والموت، ثاناتوس. إنه الصراع الأزلي منذ نشأة الكون، حيث تلتقي الذرات، وحيث تدمِّر النجومُ بعضها البعض، وتبلعها الثقوب السوداء. هناك اتحاد وموت في كلّ مكان. في الطبيعة المادية، وفي العَالَم البشريّ. أقول للناس وللشباب: اصطفوا إلى جانب قوى الخير، قوى الاتحاد والتجميع والمحبة، وناضلوا ضد كلّ قوى الدمار والكراهية والازدراء.

■ **حوار: لورين سينشال □ ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر:

https://www.francetvinfo.fr

الرابط المُختصر:

https://bit.ly/3xYcSvo

إدغار موران:

علينا أنْ نتعوَّد على العيشِ باللايقين

حتى وهو في معزله الصِّحيّ ببيته بمدينة مونبلييه، يبقى الفيلسوف إدغار موران وفيّاً لنظرته الشموليّة للمجتمع. إنّ هذه الأزمة الوبائيّة، حسب تصريحه لنا، يجب أن نتعلّم منها كيف نفهم العِلمَ بشكلٍ أفضل، وأن نعيشَ باللايقين، وأن نستعيدَ شكلاً من الأنسنة.

ألقت جائحة الفيروس التاجيّ فجأة بالعِلم في قلب المجتمع. فهل سيخرج هذا الأخير مختلفاً من هذه الأزمة؟

- ما يثيرني هو أن قسماً واسعاً من الجمهور كان يعتبر العِلم سجلاً للحقائق القطعيّة واليقينيات غير القابلة للدحض. فقد كان الجميع مطمئناً وهو يرى الرئيس (الفرنسي) وقد أحاط نفسه بمجلسٍ علمي. لكن ما الذي حصل؟ لقد انتبهنا بعد برهةٍ إلى أن هؤلاء العُلماء يدافعون عن وجهات نظر متباعِدة جدّاً، بل أحياناً متناقِضة. سواء تعلّق الأمر بالإجراءات الواجب اتخاذها، وبالعلاجات الجديدة المُحتمَلة للتعاطي مع حالة الطوارئ، ونجاعة هذا الدواء أو ذاك، والمدة الزمنيّة التي تستغرقها التجارُب العلاجيّة التي سيقع اعتمادها... كلّ هذه القضايا الخلافية تزرع الريبة في أذهان المواطنين.

هل تقصدون بأنه من المُحتمَل أن يفقد الجمهور الثقة في العِلم؟

- أبداً، إذا فهم (الجمهور) بأن العلوم تحيا وتتطوَّر بالجدل. فالنقاشات حول الكلوروكين، على سبيل المثال، سمحت لنا بالتساؤل حول الاختيار ما بين الاستعجال والاحتياط. لقد شهد الحقل العِلميّ فيما سبق خلافاتٍ حادة عند ظهور «السيدا» في الثمانينيات. والحال أن ما أوضحه لنا فلاسفة العلوم، هو أن القضايا الخلافية بالذات مسألة لا محيد عنها في البحث، وأن هذا الأخير يحتاج إلى هذه القضايا الخلافية ليتطوَّر. مع كامل الأسف، قليلون هم العلماء الذين قرأوا (أعمال) كارل بوبر، الذي برهن على أن النظريّة العلميّة لا تستحق هذه الصفة إلّا إذا كانت قابلة للدحض، وغاستون باشلار، الذي طرح قضيّة المعرفة المُركَّبة، وكذلك توماس كون، الذي بيَّن أن تاريخ العلوم عبارة عن سيرورة متقطِّعة. كثير من العلماء يجهلون عطاءات هؤلاء الإبستمولوجيين الكبار ويواصلون عملهم بمنظورٍ وثوقي.

هل ستكون الأزمة الحالية من النوع الذي يغيِّر هذه النظرة إلى العِلم؟

- ليس بوسعي التكهن بهذا الأمر، لكنني أتمنى أن تساهم (الأزمة) في إبراز أن العِلم مسألة أكثر تركيباً ممّا نودُّ اعتقاده، سواء كنا في جهة مَنْ يتصوَّرونه كسجلٍ لليقينيات، أو مَنْ لا يرون في العلماء سوى مجموعةً من الدّجالين (على غرار ديافوا روس في مسرحية المريض المتوهم لموليير) يناقضون أنفسهم بشكلٍ دائم.

إن العِلم معطى بشريّ، مثله مثل الديموقراطية يستند

يجب أن يذكّرنا هذا الفيروس بأن اللايقين يبقى العنصر الذي لا يمكن التغلُّب عليه في حالنا كبشر. كلّ التأمينات الاجتماعيّة التي يمكن أن نكتتبها، ليس بوسعها أن تضمن لنا عدم الإصابة بالمرض

إلى الجدل الفكريّ، هذا مع العلم بأن طرق التحقُّق أكثر صرامة. ولكن مع ذلك فإن النظريّات الكبرى المقبولة تنحو نحو اليقينية، ودائماً ما وجد كبار المُجدِّدين صعوبةً في الحصول على اعتراف باكتشافاتهم. إن الفترة التي نعيشها اليوم يمكن أن تكون الوقت الأنسب لتوعية المواطنين، والباحثين أنفسهم، بالحاجة إلى إدراك أن النظريّات العلميّة شأنها شأن اليقينيات الدينية، ليست مطلقة، بل قابلة للتحلل طبيعياً.

بالمقارنة بين الكارثة الصِّحيّة وحالة العزل الصِّحيّ غير المسبوقة التي نعيشها حالياً، أي الوضعيتين هي الأكثر تأثيراً؟

- لا مجال لإقامة تراتبية بين الوضعيتين ما دام أن هناك تعاقباً كرونولوجياً بينهما، يفضي إلى أزمة يمكن أن نقول إنها حضاريّة، لأنها تفرض علينا أن نغيِّر سلوكاتنا، كما أنها تغيِّر حياتنا على المستوى المحلّي، كما على المستوى الكوني. إن هذا كلّه مجموع مُركَّب. وإذا شئنا التعرُّض لها من وجهة نظر فلسفيّة، يجب أن نحاول الربط بين كلّ هذه الأزمات وأن نفكر قبل كلّ شيء في اللايقين الذي هو الخاصيّة الأساسيّة بينها.
والمُهمّ جدّاً في أزمة الفيروس التاجي، أنه ليس لدينا لحدِّ الآن أدنى يقين حتى حول أصل الفيروس، ولا حول أشكاله، ولا حول الفئات السكّانية التي يُهدِّدها، ودرجات خطورته... فنحن نجتاز مستوى عالياً من اللايقين حول كلّ تبعات الوباء في جميع المجالات، الاجتماعيّة والاقتصاديّة...

ولكن، لماذا تشكّل هذه اللايقينيات، من وجهة نظركم، الرابط بين كلّ هذه الأزمات؟

- لأنه يجب علينا أن نتعوَّد على تقبُّلها والعيش معها، علماً أن حضارتنا غرست فينا الحاجة إلى يقينيات لا تفتأ تتزايد حول المستقبل، وهي غالباً ما تكون وهمية، وأحياناً تافهة (حدث هذا) عندما وصفوا لنا بدقة ما سيقع لنا سنة 2025. يجب أن يذكِّرنا هذا الفيروس بأن اللايقين يبقى العنصر الذي لا يمكن التغلُّب عليه في حالنا كبشر. كلّ التأمينات الاجتماعيّة التي يمكن أن نكتتبها، ليس بوسعها أن تضمن لنا عدم الإصابة بالمرض أو أن نتمتع بالسعادة في بيوتنا! نحن نسعى إلى إحاطة أنفسنا بأقصى ما يمكن من اليقينيات، لكن الحياة هي إبحار في محيط من الشكوك، تتخله جزر وأرخبيلات من اليقين التي نتزوَّد منها (لمواصلة الإبحار).

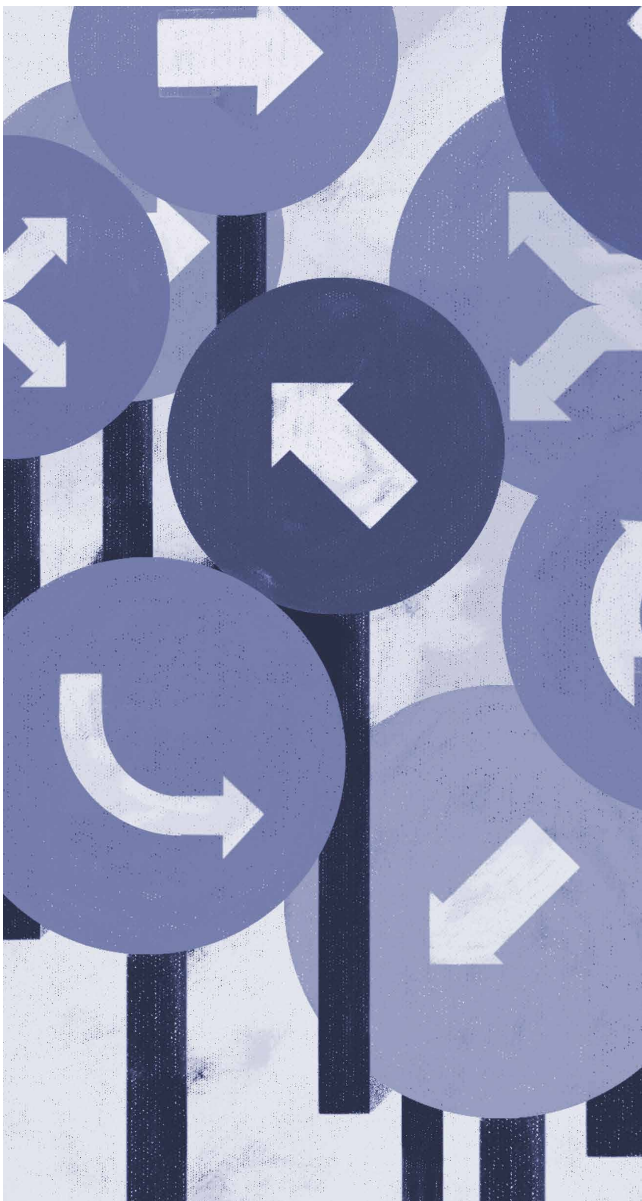
أهذه هي فلسفتكم في الحياة؟

- إنها بالأحرى حصيلة تجربتي. لقد عاينت عدداً من الأحداث غير المُتوقَّعة في حياتي- بدءاً من المقاومة السوفياتيّة سنوات الثلاثينيات إلى انهيار الاتحاد السوفياتيّ، لكي نكتفي فقط بهذين الحدثين اللذين كانا غير متوقَّعين قبل حدوثهما- إلى درجة أن هذا الأمر أصبح جزءاً من كينونتي. أنا لا أعيش في قلقٍ دائم، ولكني أتوقَّع حصول أحداث كارثيّة بدرجةٍ ما. لا أقصد أنني توقَّعت حدوث الوباء الحالي. ولكني أقصد بأنه منذ سنوات، ومع تدهور محيطنا الحيويّ، كان علينا أن نستعدَّ للكوارث. وفعلاً هذا جزء من فلسفتي «توقّع ما ليس متوقَّعاً».
وفضلاً عن هذا فإنني منشغل بمصير العالم منذ أن استوعبت- أثناء قراءتي (لأعمال) هيدغر سنة 1960 - بأننا نعيش عصراً كونياً، ثم بعد سنة 2000 عندما استوعبت أن العولمة يمكنها أن تفضي إلى مزايا بنفس قدر ما تفضي إليه من رزايا. وألاحظ أيضاً تسارعاً مفرطاً للنمو التكنو - اقتصاديّ يُحرِّكه تهافت على الربح مدعوم من قِبَل سياسة نيوليبرالية مُعَمَّمة أصبحت هدَّامة وتفضي إلى أزمات من كل الأصناف... منذ تلك اللحظة أصبحت مستعداً فكريّاً لمواجهة ما هو غير مُنتظَر، والتصدِّي للتقلُّبات.

حتى نبقى في فرنسا، كيف تُقيِّمون تدبير الوباء من طرف السُّلطات العموميّة؟

- يؤسفني أنه تمَّ إنكار بعض الاحتياجات، مثل استعمال القناع الطبيّ، فقط... للتستر على عدم توفره! كما قِيل أيضاً إن الاختبارات الطبيّة لا تفيد في شيء لإخفاء حقيقة عدم توفرها لدينا أيضاً. سيكون من الطبيعي الإقرار بأن أخطاءً قد ارتُكبت، وأننا سنقوم بتصحيحها. فالمسؤوليّة تقترن بالإقرار بالأخطاء. ومع ذلك فقد لاحظت بأنه منذ أوّل خطاب للأزمة لم يكتفِ الرئيس ماكرون بالحديث عن المقاولات، بل تحدَّث كذلك عن الأُجراء والعُمَّال. وهذا أوّل تحوُّل. ونتمنى أن يتحرَّر في نهاية الأمر من عالم المال: والأكثر من ذلك أنه أثار إمكانية تغيير

ليس بوسعنا الحديث عن صحوة التضامن الإنسانيّ أو الكونيّ، علماً أننا ككائنات بشريّة في مختلف الأقطار كنا نواجه نفس المشاكل أمام تدهور البيئة أو الاستهتار الاقتصادي. واليوم، ونحن في حالة عزلٍ صحيّ من نيجيريا إلى نيوزيلاندا، يجب أن ندرك أن مصائرنا مرتبطة





النمـوذج التنموي.

هل نسير إذن نحو تغيير اقتصاديّ؟

- إن نظامنا القائم على التنافسية والربح يفضي في الغالب إلى تأثيرات وخيمة على ظروف العمل. فالاعتماد المُكثف على العمل عن بعد الذي فرضه العزل الصِّحيّ من شأنه أن يساهم في تغيير طريقة اشتغال المقاولات التي لا زالت شديدة التراتبية، أو استبدادية. كما أن الأزمة الحالية من شأنها أن تُسرِّع العودة إلى الإنتاج المحلّي والتخلّي عن الصناعات التي تنتج مواد غير قابلة لإعادة الاستعمال. وتعيد فرص الشغل للحرفيين، وفي ذات الوقت لتجارة القرب. ففي هذه الفترة التي ضعفت فيها النقابات العُمَّاليّة، فإن هذه المبادرات الجماعيّة هي التي بمقدورها أن تضغط لتغيير ظروف العمل.

هل نحن بصدد تحوُّل سياسيّ تتغيَّر فيه العلاقات بين الفرد والجماعة؟

- لقد كانت المصلحة الفرديّة تهيمن على كلّ شيء، وها هي المُبادرات التضامنية تنهض من جديد. لننظر إلى مجال المستشفيات، لقد كان هذا القطاع في حالة من التصدُّع والاستياء العميقين، ولكنه أظهر أمام تدفُّق المرضى تضامناً منقطع النظير. وقد استوعب الناس ذلك جيّداً، حتى وهم في عزلٍ صحيّ، بالتصفيق كلّ مساء لكلّ هؤلاء الأشخاص الذين يتفانون في خدمتهم. وهذا يُعدُّ من دون أدنى شكّ لحظة تقدُّم، على الأقلّ على المستوى الوطنيّ.
لكن بكلّ أسف ليس بوسعنا الحديث عن صحوة التضامن الإنسانيّ أو الكونيّ، علماً أننا ككائنات بشريّة في مختلف الأقطار كنا نواجه نفس المشاكل أمام تدهور البيئة أو الاستهتار الاقتصادي. واليوم، ونحن في حالة عزلٍ صحيّ من نيجيريا إلى نيوزيلاندا، يجب أن ندرك أن مصائرنا مرتبطة، شِئنا ذلك أم أبيناه. وهذه هي اللحظة المناسبة لبعث الحيويّة في إنسانيتنا، فما دمنا لا ننظر إلى البشريّة كجماعة ذات مصير مشترك فلا يمكننا أن ندفع الحكومات في اتجاه منحى التجديد.

ماذا يمكن أن نستفيد منكم كفيلسوف لكي نقضي هذه الفترة الطويلة من العزل الصِّحيّ؟

- فعلاً، بالنسبة للكثيرين منّا- نحن الذين نقضي معظم الوقت خارج بيوتنا- هذا العزل الصِّحيّ المُباغت يمكن أن يشكِّل إزعاجاً لايحتمل. أعتقد أن هذه يمكن أن تكون مناسبة للتدبُّر، ولمراجعة الأمور التافهة، والتي لا فائدة منها في حياتنا. يجب أن لا يُفهَم من كلامي أن الحكمة تقتضي أن يبقى المرء حبيس غرفته طيلة حياته. أنا أقصد أن يعيد المرء التفكير في طريقة استهلاكه وفي تغذيته. لعلّها فرصة مناسبة للتخلص من كلّ هذه الثقافة الاصطناعيّة التي نعرف عيوبها، إنه الوقت الملائم للتخلص من الإدمان. وهي مناسبة سانحة لكي ندرك هذه الحقائق الإنسانيّة التي نعرفها جميعاً، والتي توارت في لا وعينا، ألا وهي الحبّ والصداقة والتلاحم والتضامن، وهي التي تمنح للحياةِ معنى.

■ **حوار: فرانسيس لوكونت** □ **ترجمة: عبداللطيف القرشي**

المصدر: صحيفة المعهد الوطني للبحث العلمي (CNRS)، تاريخ 6 أبريل 2020.

إدغار موران:
العولـمة تشابك يفتقد للتضامن

في هذا الحوار يُحلّل إدغار موران أزمة الصِّحة العالميّة الراهنة، ويشرح، كيف أن «الحجر الصِّحيّ العام يمكن أن يكون مفيداً للتخلّص من السموم العالقة بأسلوب حياتنا المُعاصِر».



ما هو الدرس الرئيسيّ الذي يجب تعلّمه في هذه المرحلة من جائحة فيروس كورونا؟

- تبيّن لنا هذه الأزمة أن العولمة مجرَّد تشابك يخلو من كلّ تضامن. لقد أنتجت حركة العولمة بالتأكيد وحدة تقنية واقتصاديّة للكوكب، لكنها لم تعزّز التفاهم بين الشعوب. منذ بداية العولمة في التسعينيات، اشتعلت الحروب وتفاقمت الأزمات المالية. المخاطر الكونية- البيئة والأسلحة النووية والاقتصاد غير المنظّم- جعلت الشعوب أمام مصير مشترك، لكن البشر لم يدركوا ذلك بعد. اليوم وضعنا الفيروس على الفور وبشكلٍ مأساويٍ أمام هذا المصير المشترك. فهل استوعبنا الدرس أخيراً؟ بسبب فقدان التضامن الدوليّ وغياب الهيئات المشتركة التي تسمح باتخاذ تدابير على نطاق الجائحة، نرى اليوم هذا الانغلاق الأناني للدول على نفسها.

تحدّث الرئيس الفرنسي ماكرون في خطابه عن خطر «الانطواء القومي»...

- لأوّل مرّة، هذا خطاب رئيس حقيقيّ. لم يكن الأمر يتعلَّق بالاقتصاد والأعمال فحسب، بل أيضاً بمصير جميع الفرنسيين، المرضى والعاملين في المستشفيات، والعُمَّال الذين أجبروا على البطالة الجزئيّة. إن تلميحه إلى ضرورة تغيير نموذج التنمية بداية لمرحلة جديدة. ومع ذلك، مقابلة الانطواء القوميّ بالانطواء الأوروبيّ ليس القرار المناسب، لأن أوروبا غير قادرة على التوحد في هذا الشأن. ما نشهده هو بداية تشكُّل تضامن دوليّ كان قد بدأه أطباء وباحثون من جميع القارات.

ما هي التغييرات التي يجب إدخالها برأيك؟

- يبيّن لنا فيروس كورونا بوضوح أن البشريّة جمعاء يجب أن تبحث عن مسار جديد يقطع مع المذهب الليبرالي الجديد من أجل مشروع سياسيّ واجتماعيّ وبيئيّ جديد. مهمّته حماية المسار الجديد وتطوير الخدمات العامّة مثل المستشفيات في أوروبا التي عانت من تخفيضات مجنونة في ميزانياتها لسنوات. سوف يصحِّح هذا المسار الجديد آثار العولمة من خلال إنشاء مناطق غير معولمة من شأنها حماية الاستقلال الذاتي الأساسيّ...

ما المقصود بـ «الحكم الذاتيّ الأساسيّ»؟

- أوّلاً، الاكتفاء الذاتي من الغذاء. في وقت الاحتلال الألماني مثلاً، كانت لدينا زراعة فرنسيّة متنوّعة جعلت من الممكن إطعام جميع السكان دون خوف من الجوع رغم الهجمات الألمانيّة. اليوم نحن بحاجة إلى إعادة التنويع. ثم نتحدَّث عن استقلالية صحيّة. اليوم، يتمُّ تصنيع الكثير من الأدوية في الهند والصين ونحن معرّضون لخطر نقص الإمدادات. يجب علينا إعادة كلّ ما هو حيويّ للأمة.

هل تؤدّي العولمة إلى تفاقم الأزمة الصِّحيّة إلى أزمةٍ عامّة؟

- نحن نعيشها بالفعل. عندما يقرِّر بوتين الحفاظ على إنتاج النفط الروسيّ، هذا يؤدّي إلى انخفاض الأسعار في المملكة العربيّة السعوديّة والولايات المتحدة، حيث من المُحتمل أن تواجه تكساس صعوبات خطيرة، وربَّما تتسبَّب في خسارة ترامب للانتخابات الرئاسيّة...
يؤثر الذعر أيضاً على المُمولين، ممّا يتسبَّب في انهيار سوق الأسهم. نحن لا نتحكّم في هذه التفاعلات المُتسلسلة. إن الأزمة التي سبّبها الفيروس قد فاقمت الأزمة العامّة للمجتمعات التي جرفتها القوى غير المحكومة بأي سلطة.

إذا قارنا الوضع الراهن «بالأنفلونزا الإسبانيّة» 1918 - 1919 التي كانت موضوعاً لأومرتا حقيقية من جانب السُّلطات، اختار حكّام اليوم التعامل مع الأزمة بشفافية... أليس هذا تأثيراً إيجابياً للعولمة؟

- في زمن الأنفلونزا الإسبانيّة، لم نكن نريد أن يعلم الناس، وخاصّة المقاتلين، بخطورة الآفة. هذا التعتيم مستحيل اليوم. حتى النظام الصينيّ لم يتمكن من حجب المعلومات من خلال معاقبة البطل الذي أطلق ناقوس الخطر... لقد مكّنتنا شبكات المعلومات من أن نكون على علم بتطوُّر الحالة الوبائية حسب البلد. لكن ذلك لم يفضي إلى تعاون على مستوى أعلى. هناك مبادرات تعاون دولية عفويّة من الباحثين والأطباء فقط. لا تستطيع منظَّمة الصِّحة العالمية أو الأمم المتحدة توفير وسائل المقاومة لأكثر البلدان حرماناً.

«نحن في حالة حرب»: غالباً ما تُستعمل هذه العبارة لوصف الوضع في إيطاليا وفرنسا. باعتباركم شاهداً على هذه الفترة. ماذا يلهمك هذا التشبيه؟

- في ظل الاحتلال، كانت هناك ظواهر من العزل والحجر الصِّحيّ في المنازل، كانت هناك غيتوات... ولكن الاختلاف الكبير هو أن إجراءات العزل فرضها العدو، بينما الآن يفرضون تلك الإجراءات على العدو، أي الفيروس. بعد بضعة أشهر من الاحتلال الألمانيّ، بدأت القيود على حركة التموين والتزوُّد. لم نصل إلى تلك المرحلة بعد، على الرغم من أن هناك بوادر ذعر. ولكن إذا استمرت هذه الأزمة، مع انخفاض نقل البضائع على المستوى الدولي، يمكننا أن نتوقَّع عودة تقنين الغذاء. هناك ينتهي التشابه. نحن لسنا في حرب من هذا النوع.

لأوّل مرّة منذ عام 1940 يتم إغلاق المدارس والجامعات...

- نعم، ولكن في ذلك الوقت، كان الإغلاق مؤقتاً للغاية. وقع إلحاق الهزيمة بفرنسا في يونيو/حزيران، عندما بدأت الإجازات الصيفية. وفي أكتوبر/تشرين الأول، أعيد فتح المدارس.

ماذا يمكن أن نتوقَّع من إجراءات العزل والتباعد الاجتماعيّ؟ الخوف؟ عدم الثقة بين الأفراد؟ أو، على العكس من ذلك، تطوير علاقات جديدة مع الآخرين؟

- نحن في مجتمع يشهد تدهور هياكل التضامن التقليديّة. من بين التحدّيات الكبيرة استعادة التضامن، بين الجيران، بين العُمَّال، بين المواطنين... ومع القيود التي نمرُّ بها، سيتمُّ تعزيز التضامن بين الآباء والأبناء الذين لم يعودوا إلى المدارس، بين الجيران... حاجياتنا الاستهلاكيّة سوف تتأثر، ويجب علينا الاستفادة من هذا الوضع لإعادة التفكير في النزعة الاستهلاكيّة، وبعبارة أخرى الإدمان، «الاستهلاك المخدر»، أي التسمُّم بمنتجات بدون فائدة حقيقيّة، وتجنُّب استهلاك الوفرة على حساب الجودة.

ربَّما ستتغيّر علاقتنا بالزمن أيضاً...

- نعم بفضل المكوث في المنازل، وبفضل هذا الوقت الذي يتوفّر لدينا، والذي لم يعد مجزئاً، وعلى مدار الساعة، هذا الوقت الذي أفلت من تدافع مترو العمل، ذهاباً وإياباً، يمكننا أن نجد أنفسنا، ونرى ما هي احتياجاتنا الأساسيّة، أي الحب والصداقة والحنان والتضامن وشعر الحياة... البقاء في المنزل للضرورة يمكن أن يساعدنا على التخلّص من السموم التي علقت بنمط حياتنا وأن ندرك أن العيش الأفضل يكمن في تحقيق الـ «أنا»، ولكن دائماً داخل «نحن» المُتنوّعة.

وأخيراً، هل يمكن أن تكون هذه الأزمة مفيدة بشكلٍ عكسي ؟

- لقد تأثرت للغاية لرؤية هؤلاء النساء الإيطاليّات، على شرفاتهن، يغنين ترنيمة الأخوة «Fratelli d'Italia» («إخوة إيطاليا»). يجب أن نؤسّس للتضامن الوطنيّ، بعيداً عن الانغلاق والأنانية، المنفتح على وحدة مصيرنا «الدنيوي» ... قبل ظهور الفيروس، كان البشر من جميع القارات يعانون من نفس المشاكل: تدهور المحيط الحيوي، انتشار الأسلحة النووية، والاقتصاد غير المُنظَم الذي يزيد من حالة عدم المساواة... وحدة المصير موجودة، ولكن بما أن العقول متلهفة، وبدلاً من أن تدرك قيمتها، فإنها تلجأ إلى الأنانية الوطنيّة أو الدينيّة. بالطبع، التضامن الوطني ضروري، ولكن إذا لم ندرك أننا بحاجة إلى وعي مشترك بمصير الإنسان، إذا لم نعزِّز التضامن، إذا لم نغيّر التفكير السياسيّ، فإن أزمة الإنسانيّة ستسوء بالتأكيد. رسالة فيروس كورونا واضحة، ومن المؤسف أننا لا نريد سماعها.

■ **حوار: ديفيد لو بايلي وسيلفان كوراج**
□ **ترجمة: عبد الله بن محمد**

المصدر: مجلّة «L'OBS» عدد 19/03/2020.

البقاء في المنزل للضرورة يمكن أن يساعدنا على التخلّص من السموم التي علقت بنمط حياتنا وأن ندرك أن العيش الأفضل يكمن في تحقيق الـ «أنا»، ولكن دائماً داخل «نحن» المُتنوّعة

إدغار موران..
«أقوال حكيم»

يحلّل إدغار موران الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسيّ الذي يبلغ من العمر 98 سنة، في هذا الحوار، انعكاسات فيروس كورونا على عالمنا الفكريّ والثقافيّ.

هل خطر على بالكم يوماً، بما لكم من حياةٍ حافلة، عيشُ وضعية من هذا القبيل؟

- إطلاقاً، كانت هناك أوبئة عالميّة، لكن لم يسبق أبداً أن كان هناك حجْرٌ صحيّ على النطاق العالميّ. كما كانت هناك اضطرابات وارتجاجات اجتماعيّة أثارتها الأوبئة، لكن لم يسبق أن كان هناك اضطرابٌ عالميّ. لقد كنت من بين أولئك الذين ذهبوا إلى أن المجرى المجنون الذي انجرفت في خضمه الإنسانيّة سيحمل معه كوارث، لكن مثل هذه الكارثة لم تكنْ تخطر لي على بال.

كيف تعيش الحَجْر الصحيّ؟

- أعتبر أن الحظ كان في صفي بأن جعلني أعيش في مثل هذه السن تجربة الحَجْر الصحيّ في منزلي بدلاً من عيشها في دار المسنين. ومحظوظ بعيشي للحَجْر الصحيّ إلى جانب زوجة تحبني وتعتني بي. وأن تكون لي حديقة تتيح لي الجلوس تحت شجرة الويستارية مستمتعاً ببداية فصل الربيع. وأن يكون لنا جيران طيبون يتسوّقون لنا. كما أن بناتي وأسرتي الرائعة وأصدقائي، القريبين والبعيدين، جميعهم حاضرون عبر الهاتف والسكايب. غير أنني أفكّر في كلّ المآسي الناتجة عن الحَجْر من الاكتظاظ في الإقامات الصغيرة إلى النساء المُعنَّفات والأطفال المُرتعبين. فالحَجْر الصحيّ يضاعف الاختلافات والخلافات في العلاقات الزوجية، وبالتالي قد يحطمها، مثلما يشجع تواصلاً وتفاهماً جيّداً جديداً كذلك. فقد صار لي مع زوجتي الكثير من الوقت لأجل التبادل والتواصل.
أيامي في ظلّ الحَجْر الصحيّ لا تعاني فراغاً وهي ممتلئة تماماً، فقد صِرْتُ أُباشِر أنشطتي من بيتي عبر السكايب والبريد الإلكتروني، إذ يلِجُ العالم بيُوتَنا عبر ما هو رقميّ، ليحُثَّنا دون توقف على مساءلتِه وليُسَائِلَنا، كما أن لي طقْساً يومياً رفقة زوجتي هو طقسُ التبادل حول معلومات التليفزيون والمذياع والجرائد لنبحث معاً عن مراجعتها وخلق تقاطع على نحوٍ أفضل بين المعلومات التي تخص الوباء؛ في ما يتعلَّق بمساره، وعلاجاتِه، ووجهات النظر المُتنوِّعة والمُتعارضة أحياناً للأطباء والبيولوجيين بخصوصه، إضافة إلى ما أحدثه الوباء من أزمات في الصين. أضف إلى ذلك ما صرنا نتوفّر عليه من إمكانية أكبر لأن نتشارك في كلّ ما أتوصل به من قبيل طلب إجراء حوارات أو تقديم مقالات، وهو ما تتعاون فيه معي صباح بآرائها وتأملاتها. فكلّ شيء يظل متحرّكاً وغير يقيني، وما نحاوله هو أن نضع تقييماً. ومن جهةٍ أخرى نحن نُثمِّنُ النكت وأشكال التصوير الكاريكاتوري والرسائل السَّاخرة التي أثارها الحَجْر الصحيّ باعتبارها أجساماً مضادة أو مضادات للاكتئاب. وعلى وجه الإجمال قد جنَّبنا التواصل من كلّ نوع الشعورَ بالحَجْر الصحيّ كما لو كان حبساً واحتجازاً.

هل تظن مثل كامو أن «الناس وسط المحن يكون ما يثير الإعجاب فيهم أكثر بكثير ممّا يدعو إلى الاحتقار والازدراء»؟

- إذا كانت هناك بعض الأفعال الدنيئة والخسيسة (عمليّات سرقة الأقنعة، عمليّات احتيال بخصوص الوعود الزائفة بتوفير أدوية مثلاً)، فإننا لم نعْدم تجليات مدهشة للتضامن الذي كان يشارف على التلاشي، انتشرت في صفوف المعالِجين بالدرجة الأولى، ثم عمَّت كلّ مكان تقريباً، على مستوى تقديم يد المساعدة بشكلٍ عفوي لمَنْ يعيشون في وضعية عزلة وللأشخاص المسنين، وللبؤساء، ولمَنْ لا مأوى لهم، وممّا يبعث على العزاء أيضاً أن نرى نكران الذات الذي أبَان عنه العديد من الشباب في الأحياء المُهمَّشة. فقد كانت هناك صحوة للتضامن الجمعي وجدت تعبيرها الرمزي عبر التصفيقات من شرفات المنازل.

أنت الذي عِشت الحرب، بماذا شعرتَ حين سمعت الرئيس يعلن عن «أننا في حالة حرب»؟

- لقد أحسست أن اجتياحنا قد تمّ فعلاً، لكن من طرف عدو ليس عدواً إنسانيّاً، وبأنه لا مناص لنا من المقاومة، وبإيجاز كان للفظ الحرب قيمة استثارة إجراءات الاحتراس (وتبرير الإجراءات التي اتخذتها السلطة)، ولم يكن لأجل تعريف الوضعية وتحديدها على الحقيقة. وهو ما يعني،



كما عليه كان الحال إبَّان حرب 1940، أن هناك الكثير من انعدام الإعداد وأشكال الضعف ومن الأخطاء.

لم يعد في مقدورنا إقامة طقوس تليق بوداع موتانا، ما هي آثار ذلك على علاقتنا بالموت، وعلاقتك أنت بالموت. ألا تقودنا الحياة بشكلٍ مفجع إلى نهايتنا؟

- ما يقتضيه موت قريب هو ضرورة مرافقته إلى أن يتم دفنه، بحيث تلزمنا طقوس ومأتم جماعي، لأن الأحياء يكونون بحاجة إلى التطهر من الألم داخل ضرب من المشاركة. بدون طقس دينيّ يكفل العزاء والمواساة، يشعر البعض وأنا منهم، بالحاجة إلى الطقوس التي تعمل بشكلٍ مكثف على إحياء الشخص الميت في أنفسنا وتُخمِد الألم بنوع من الأوخارستيا eucharistie أو القربان المُقدَّس.

مَثَّلت عمليّات الدفن المستعجلة أحد المظاهر الكارثية للحَجْر الصحيّ، بحيث يتم الاستشهاد بحالة في إيطاليا وصل فيها الأمر إلى حدِّ الإلقاء بجثة ميت في القمامة لغياب مكان لدفنه بالمقبرة.

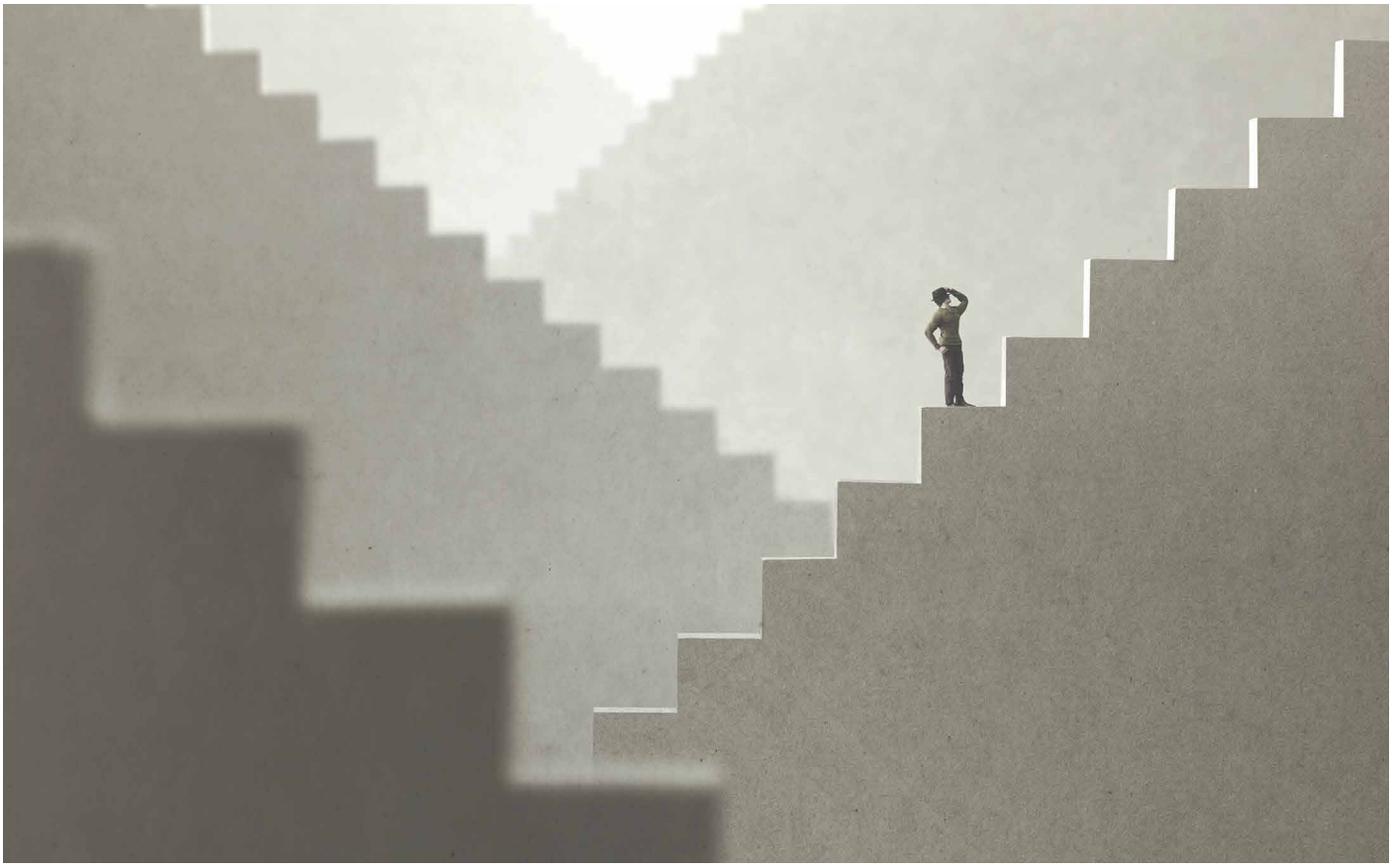
- لقد انتظرت، من جهتي، أن أموت في الثمانين من عمري، وبعد أن تجاوزت التسعين تعودت على الاستمرار في الحياة، لذلك فقد الموت ما يُمكِّنه من إثارة ذهني حتى وإنْ كنت أعلم عِلْمَ اليقين بدنوه وقربه. وهنا كذلك، ما من شكٍّ في أن شباب زوجتي قد أثَّرَ علي بما يشبه العدوى. لأن صباح تجذبني نحو الحياة أكثر مما تجرني صوب الموت. لقد صارت التهديدات المميتة متعدّدة: تحلل الكوكب الأرضي وتكاثر الأسلحة النووية، وعودة صور البربرية، وفي الأخير هذا الفيروس المكتسح الذي فرض التخلي نهائياً عن أسطورة الإنسان سيِّدُ مصيره وسيِّدُ الطبيعة. فنحن في الوقت نفسه أقوياء جدّاً وواهنون إلى أقصى حدٍّ، ظافِرُون على صعيد تقنيَّاتِنا، عاجزون أمام الألم والموت. وعلى العكس من حلم أصحاب النزعة المابعد إنسانيّة، أقول بأن الإنسان إنْ كان في استطاعته تأخير موته الطبيعيّ، من الضروري أن يواجه دائماً الحوادث وأصناف البكتيريا والفيروسات التي تعرف كيف تتحوَّل كي تعيد إنتاج نفسها. لذلك فإن ما يلزم الاعتراف به هو أن كلّ شيء إلى زوال وموت بما في ذلك شمسنا وكوننا، ممّا يجعل من حيواتنا المؤقتة والظرفية هي خيراتنا الوحيدة التي لا ينبغي تبديدها وتبذيرها.

سبق لكم أن قلتم إن الحَجْر الصحيّ يمكن أن يكون ناجعاً لأجل تنقية نمط عيشنا ممّا علق به من سموم، لكن ألن نستأنف عاداتنا بأسرع ممّا يمكن أن نعتقد؟

- قبل الوباء تشكَّل بالتدريج ولكن ببطء اتجاه، وإن كان ممثلوه قلة، من أجل مواجهة النزعة الاستهلاكية، والجبروت الذي يمارسه الزمن المقاس بدقة، ولأجل محاولة العيش بشكلٍ أفضل، وما يقوم به الحَجْر الصحيّ هو أنه يساعدنا على أن نَعِي ما كنَّا نعرفه جميعاً على نحو غامض: أن الحب والصداقة وازدهار الذات داخل جماعة والتضامن هي القيم الحقيقيّة. وإمكانية الاستمتاع بالروائع من الأعمال في فراغ الحَجْر الصحيّ يمكنها إعانتنا على البحث بشكلٍ أفضل عن شعرية الحياة. ماذا تبقى منها؟ لست أدري ..؟

هل يمكن أن يكون هذا الوباء مناسبة لأجل تنمية التزام بيئي مستدام وكوني؟ هل تعتقدون في ميلاد «عالم جديد»، وأشكال جديدة من التضامن؟

- لقد تمّ إطلاق الإنذار البيئي العالميّ منذ خمسين سنة من طرف تقرير «Meadows ميدوز» (صدر سنة 1972)، لكن الوعي يبقى بطيئاً جدّاً وغير كافٍ بشكلٍ كبير أيضاً. أعتقد أن عالماً جديداً سيكون ممكناً لكنه لحدود الآن غير متمتع بالأرجحية. لأن القوى التي تحافظ على الوضع كما هو تبقى هائلة. ما يشهده الفكر السياسيّ من فراغ هائل، بحكم ارتفاع الطلب في كلّ مكان على الفكر التجزيئي الذي يختزل كلّ شيء إلى الحساب. كما أن الربح المنفلت من كلّ عقال يعمل على تقويض كلّ عملية للتضبيط والتنظيم. ولا ينبغي، فضلاً عن ذلك، نسيان التوجه التقدُّمي للنزعة العالميّة خلال السنوات العشر الأخيرة. وأزمة الديموقراطيّات وما



شهدته أمم عظيمة من انتصار وظفر للديماغوجيات، ثم الأزمة العامة للفكر السياسيّ. وما أنتظره هو حصول مُنعطف غير محتمل الوقوع يعمل على تعديل التطوُّر الجاري. لكن يمكنني أن أقول لكم بأن هذا التساؤل: هل تؤمنون بميلاد «عالم جديد» يشكّل جزءاً من الأسئلة التي غالباً ما أتحدّث مع زوجتي وأصدقائي حولها. ولقد حاولت أنا نفسي استخلاص طريق جديد (كتاب طريق la Voie 2012)، وهي الطريق التي تبدو مخَلِّصة وناجعة.

هل سنخرج من الإغراء الذي يمارسه الانطواء على المستوى العالميّ والشخصيّ في نفس الوقت. وهل لازال بالإمكان التفكير في الحل الكوسموبوليتي؟

- لقد أدى الوباء إلى انطواء وانغلاق الدول الوطنيّة على نفسها. وإذا ما كانت هناك أزمة اقتصاديّة كبرى بعد الوباء، سيتفاقم الميل إلى النزعات الوطنيّة القائمة على كراهية الأجانب، بل وحتى نزعات وطنيّة عنيفة. تعرفون مسرحية اوجين يونسكو Ionesco «وحيد القرن»، حيث تتحوّل كائنات إنسانيّة بالتتالي إلى حيوانات وحيد القرن. وإذن فليحاول كلّ واحد منّا ألّا يتحوَّل إلى وحيد القرن! والحلّ الكوسموبوليتي لكونفدرالية عالميّة يبقى حلاً مأمولاً، وممكناً تقنياً، لكنه غير ممكن حالياً. لذلك فما يلزم كشرط مسبق هو الوعي القوي جداً بالمصير المشترك لجميع الكائنات الإنسانيّة.

هل سنفكر في علاقتنا بالآخر من منظور الإيثار والود أكثر من زاوية الجسد والمحبة؟

- لقد تعرَّفتْ الصداقات الحقيقيّة في ظلِّ الحَجْر الصحيّ على نفسها بأن ازدادت متانة، والعلاقات الزوجية تمّ اكتشافها وتعرُّفها بشكلٍ أفضل، غير أن الحَجْر الصحيّ يبقى رهيباً بالنسبة للعلاقات الزوجية المستعرة أو التي هي في طور الانحلال. لابد من التفكير في أن كلّ «أنا» هي حاجة إلى «أنت» وإلى «نحن».

ألا يبدو لكم أن الثقافة صارت أكثر قابلية لأن يتم الولوج إليها مع إمكانية الإطلاق المجاني على شبكة الإنترنت للأوبرا والمتاحف وبعض الكتب؟ أم أننا على العكس سنتجاوزها في المستقبل؟

- فعلاً الإطلاق المجاني على شبكة الإنترنت لأوبريهات ومتاحف وبعض الكتب، مبادرات مُهمّة من أجل فتح الثقافة على ثقافة أولئك الذين ليس لهم منفذ إليها. وهو ما سيولد دون شك صوراً من الافتتان الجمالي لدى أولئك الذين يكتشفون الأعمال المشهورة. أما بالنسبة لي فلا يسعني سوى الحث على قراءة الكُتَّاب الذين أحبهم بالدرجة الأولى دستويفسكي.

هل تعتقد أن تيارات فكريّة وفنيّة ستشهد ميلادها من رحم هذه الفترة؟

- لا أعلم، وفي كل الأحوال سيكون هناك فنٌ وسخرية من الحَجْر الصحيّ مع تزايد الطرائف والنكت ومقاطع فيديو قصيرة والمحاكاة الساخرة التي يتعين المحافظة على بعضها.

ما هو الشيء الذي تودُّ أن تفعله أو أن تراه عند نهاية هذا الحَجْر؟

- احتضان مَنْ أُكرِهْتُ على الانفصالِ عنهم.

■ **حوار: فاليري تريبرفيلور □ ترجمة: يحيى بوافي**

المصدر: Paris Match بتاريخ 2020/04/16.

UNE CERTAINE IDÉE DE L'EUROPE

دروس كورونا لإدغار موران

لنُغيِّر السبيل

يأبى إدغار موران، الذي يبلغ التاسعة والتسعين من العمر، إلّا أن يبقى وفيّاً لمهمّته الأساسيّة: التفكير والكتابة. فبعد أن أضاف العام الماضي إلى لائحة مؤلَّفاته سيرة ذاتية تحت عنوان «لقاء مع الذكريات»، ها هو يطالعنا هذا العام بمؤلَّف جديد، وُلِدَ من رحم اللحظة المُعاصرة الموبوءة بفعل «كوفيد - 19»، تحت عنوان «لنُغيِّر السبيل، دروس فيروس كورونا»، وذلك بالاشتراك مع الباحثة صباح أبو إسلام، ليصبح عدد مؤلَّفاته في مجموعها، ستين مؤلَّفاً. هذه الغزارة في التأليف تشهد في الوقت نفسه على عمق ودقة التحليل من جهة، والرغبة في التغيير نحو الأفضل من جهة أخرى. كما أنه واحد من المُفكرين الفرنسيّين القلائل اليوم، الذين يقومون بخطوة إلى الوراء، في الزمن طبعاً، ليس فقط من أجل فهم الماضي، وإنما أيضاً من أجل استيعاب الحاضر واستشراف المستقبل. هذا ما نلمسه بوضوح في مختلف مؤلَّفاته، وعلى رأسها الكتابان المُشار إليهما أعلاه.

إن كتاب «لنُغيِّر السبيل، دروس فيروس كورونا»، موضوع هذه القراءة، يدل مبدئياً على ارتباط هذا المُفكِّر بالعصر وقضاياه وتحوُّلاته، مع البقاء وفيّاً كالعادة، لاستراتيجيّته الفكريّة والمنهجيّة القائمة على ضرورة اعتماد الفكر المُركَّب في دراستها. وطبقاً لهذه الاستراتيجيّة، فإنّ ظاهرة مثل فيروس كورونا لا يمكن دراستها بشكلٍ معزول، من وجهة نظر طبيّة أو صحيّة بشكلٍ عام، وإنما في ارتباط بأسبابها وامتداداتها السوسيو-اقتصاديّة والسياسيّة والعلميّة والتقنيّة والإيكولوجيّة والثقافيّة. ورغم حجم الكِتاب المُتواضع (حيث لا يتعدَّى عدد صفحاته مئة وستين صفحة من الحجم الصغير)، إلّا أنه متشعِّب وغني بالمُعطيات والأفكار المُتنوِّعة، كما تدل على ذلك عناوينه الفرعية، سواء في الديباجة والتقديم، أو في الفصول الثلاثة، أو حتى في الخاتمة. هذا التشعُّب يفرض على القارئ أيضاً أن يكون ذا حسٍ تركيبيّ، واعٍ تمام الوعي بتداخل الأسباب والنتائج في إنتاج الظواهر وتحديد امتداداتها؛ ولعلّ ظاهرة فيروس كورونا ودراستها من هذا المنظور هي اختبار حقيقيّ لاستراتيجيّة الفكر المُركَّب التي يتبنَّاها ويدعو إليها إدغار موران.

على غرار رائعة «غابرييل غارسيا ماركيز Gabriel Garcia Marquez»، عَنونَ إدغار موران توطئة كتابه هذا بـ«مئة عام من التقلبات»، ليعود بنا إلى سنة 1921، تاريخ ولادته «حياً - ميتاً» على حدٍّ تعبيره، وذلك في أَوْجِ انتشار وباء الأنفلوانزا الإسبانيّة، معتبراً نفسه ضحية غير مباشرة لهذا الوباء، ومدعوا اليوم لتجديد نفس الموعد مع فيروس كورونا، بعد مرور تسعة وتسعين عاماً. عنوان هذا الموعد هو «لنُغيِّر السبيل، دروس فيروس كورونا»، والذي يواجهنا بالتساؤلات التالية: «كيف تمكَّن فيروس غاية في الصغر في مدينة بعيدة جدّاً من مدن الصين من أن يقلب الأمور رأساً على عقب، في مختلف مجالات الحياة وفي سائر المُجتمعات؟ هل تكفي هذه الصدمة لحصول وعي لدى البشر بمصيرهم المُشترك؟ وكذا كبح جماح تسابقنا المحموم نحو التقدُّم التقنيّ والاقتصاديّ؟». كما تذكّرنا هذه التوطئة بتواريخ مرتبطة بأزمات وتقلبات شهدها القرن الماضي، بدءاً من الأزمة الاقتصاديّة العالمية لسنة 1929 وعواقبها الوخيمة على المجالين السياسيّ والاجتماعيّ، مروراً بالإعصار الذي تخلّل العلاقات الدولية بين 1930 و1940 وما تلاه من حربٍ عالمية ثانية مدمِّرة وكارثية، وكذلك الأزمة الثقافيّة الكبرى لسنوات (1956 - 1958) وأحداث مايو/أيار 68، وصولاً إلى الأزمة الإيكولوجيّة خلال سبعينيّات القرن الماضي. يريد موران تأكيد أنه الابن الشرعي لهذه الأزمات، إلّا أن هذا لم يفقده الأمل في يقظة واستيقاظ الوعي لدى البشر «من أجل حماية الكوكب وأنسنة المُجتمع»، كما يشير في مقدِّمة الكتاب، معتبراً أن ما يميِّز «كوفيد - 19» عن غيره من الأوبئة التي عرفتها البشريّة، هو أنه يمثِّل أزمة شاملة (mégacrise)، تتداخل في تشكيلها عناصر الأزمة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والإيكولوجيّة، وتطال المُجتمعات على الصعيدين الوطنيّ والعالميّ، وهي مترابطة فيما بينها وتمثِّل مفهوم التركيب (complexus) خير تمثيل. في هذا السياق تأتي ضرورة تغيير البراديغم الحالي، وهي عملية طويلة المدى وشاقة وغير مضمومة النتائج. ومرحلة ما بعد كورونا لا تخلو هي الأخرى من الخطورة والتخوُّف: «هل ستؤدي الأزمة الصحيّة، الاقتصاديّة، السياسيّة والاجتماعيّة إلى تفكُّك المُجتمعات؟ وهل سنستخلص الدروس من هذه الجَائِحة التي كشفت عن الطابع المُشترك للمصير الإنسانيّ، في ارتباط مع المصير البيو إيكولوجيّ (bioécologique) للكوكب؟»، لقد أصبحنا اليوم في مواجهة لايقينيات كبرى ومستقبل مجهول، وهو ما لم تتهيأ له الإنسانيّة سلفاً: «حان الوقت لتغيير السبيل من أجل حماية الكوكب وأنسنة المُجتمع».

في الفصول الثلاثة لهذا الكتاب، «الدروس الخمسة عشر لفيروس كورونا، تحدّيات ما بعد كورونا، تغيير السبيل»، يبدأ إدغار موران بإحصاء الدروس والعبر المُستخلصة من أزمة «كوفيد - 19»، مشيراً بداية إلى الدرس المُتعلِّق بحياة ووجود الناس في ظلّ تجربة الحَجْر الصحيّ، ومعاناة العديدين في الحصول على الحاجيات الإنسانيّة الضروريّة، ومؤكّداً أن الحَجْر الصحيّ يجب أن يفتح بشكلٍ خاصّ على ما هو





أساسي في الوجود، والتمييز بين الضروريات والكماليات، وعلى إشاعة المحبة والصداقة بين الناس وتضامنهم من خلال صهر الذوات في النحن المُشترك والمصير المُوحّد للبشر الذي يعتبر كلّ واحد منّا جزءاً منه. وهذا يؤدّي إلى ضرورة إعادة النظر في الشرط الإنسانيّ أو الوضع البشريّ في العالم؛ فقوة الإنسان لا تنفي ضعفه، وتحكّمه في الطبيعة لا ينفي خضوعه لها، ومن ثَمَّ فإن عدم طرح السؤال: «ما الإنسان» من جديد هو تجاهل صارخ لهذا الشرط الإنسانيّ. تعلمنا من «كوفيد - 19» أيضاً أن حيواتنا مطبوعة بالجواز، لأن كلّ حياة هي مغامرة، نتائجها غير محدَّدة يقيناً: «نحن لا نعرف مسبقاً الحال الذي ستكون عليه حياتنا المهنية، صحتنا، تجاربنا في الحب، ولا متى ستحضرنا المنية، رغم أنها أمر يقيني حتماً». لقد عمل هذا الوباء العنيف وبشكلٍ مفاجئ، على إحداث تغيير في علاقتنا بالموت: «كانت الحداثة العلمانية قد كبتت جذرياً شبح الموت (...) وفجأة فرض فيروس كورونا انبثاقه من جديد كموتٍ شخصيّ، كان لحدٍّ الآن مؤجَّلاً في الحياة اليومية». يستعيد موران هذه الواقعة التي أثارها «فيليب أرييس Philippe Ariès»، والمُتعلّقة باختفاء الموت في الفضاء الحضري المُعاصِر. لكن، مع ذلك، «نحن نحصي الموتى يومياً، الشيء الذي عزَّز، وربَّما زاد من إمكانية حدوثه بشكلٍ فوري، في ظل هذا الوضع الصحيّ الرهيب والذي حظر الطقوس المُعتادة والضروريّة للتشييع اجتماعيّاً». أدَّى إلغاء مراسيم العزاء إلى إحساس الجميع، بمن فيهم العلمانيون، بالحاجة إلى الطقوس التي تجعلنا نحيي بقوة روح الميت في أنفسنا وتخفِّف من حدَّة ألم الفراق على شاكلة ما يحدث في (حفل) القُدّاس. «علمتنا تجربة الحَجْر الصحيّ أن هناك عالماً داخلياً تناسيناه بفعل قيام حضارتنا المُعاصِرة على «البرّانية» أو التوجُّه نحو الخارج، بدل «الجوّانية» أو التوجُّه نحو الذات، وكذلك سقوطنا ضحية أسلوب شنيع ومشوه في الاستهلاك. لذلك فإني أدعو إلى إصلاح أسلوب الاستهلاك لدينا، وأن نتعلّق بما هو مستدام وليس بما هو عابر وسريع انتهاء الصلاحية»، وأن نعطي الأولوية للكيف (الجودة)، وليس للكمّ (الوفرة)، والتفكير في حضارة تتيح الاستهلاك السليم والمُتاح للجميع بدون تمييز. درس آخر استفدناه من هذا الاختبار غير المسبوق، ويتمثَّل في إيقاظ حِسّ التضامن بمختلف أشكاله ومن جهاتٍ متعدِّدة لمُحاربة الفردانيّة الأنانية، وفتح أعيننا أيضاً على التفاوتات الاجتماعيّة في ظلّ الحَجْر الصحيّ وما تكبَّدته الفئات المحرومة من معاناة ومآسٍ. من جانب آخر، كشفت هذه الأزمة عن اختلاف الأوضاع بين دول العالم، وهو ما أثَّر بشكلٍ لافت على طرق مواجهتها للوباء، خاصّة بين دول الشمال والجنوب، حيث فُوجئ العالم بنجاح بعض دول الشرق الأقصى وشمال إفريقيا في احتواء الأزمة أو الحدِّ منها على الأقلّ. ولا شكّ أن هذه الأزمة قد لعبت دوراً في إثارة مشكلة اللايقينيات العلميّة، خاصّة في مجال الطب، كما فضحت أيضاً صراع المصالح بين لوبيات صناعة الأدوية والمُختبرات في سباقها نحو اكتشاف اللقاح وتسويقه. كلّ هذا يفرض رفع العديد من التحدّيات التي تواجه البشريّة: تحدّي عولمة مأزومة، تحدّي وجودي، سياسيّ، رقميّ، إيكولوجيّ واقتصاديّ. وإذا نحن لم نرفع هذه التحدّيات، فسيكون الخطر متمثِّلاً في انحطاط شامل: ثقافيّ فكريّ، أخلاقيّ وديموقراطيّ. لذلك يقترح موران سبيلاً بديلاً وليس ثورة، لأن («الثورات تسبَّبت، في الغالب، في قمع مضاد لمُهمَّتها التحريريّة»)، سبيلاً سياسيّاً-إيكولوجيّاً-اقتصاديّاً-اجتماعيّاً، كان قد أوضح خطوطه العريضة سلفاً في كتابه «السبيل، من أجل مستقبل الإنسانيّة»**. هذا السبيل يستلزم حكامة تشاورية (الدولة، المُجتمع، المُواطن)، ديموقراطيّة تشاركيّة، يقظة مواطنة، ولكن أيضاً وقبل كلّ شيء «سياسة تُزاوِج بين العولمة والمُواطنة، بين النمو والحَدِّ منه، بين التنمية والكفاف». هذه المُتناقضات ظاهريّاً، يجب أن تكون سبيلاً لبراديغم حضاريّ جديد في المُستقبل. يروق لـ«إدغار موران» مواجهة الثنائيّات الفكريّة والمفاهيميّة المُتعارضة بوضوح وبساطة وجعلها تنتهي إلى التكامل. نلاحظ ذلك في الطبيعة مثلاً، فبفضل التعاون والتشارك تتعايش الأنواع، وتنمو الكائنات الحيّة ويتحقَّق التوازن. يمكن القول، في الختام، يجب التفاؤل رغم كلّ شيء، والرهان على استيقاظ الوعي وتجدُّده، واستجابة الطاقات والهمم المُستنهضة. إننا أمام دعوة للأمل، يقدِّمها لنا موران مشفوعة بتحليله الدقيق لحالات إفلاسنا وإخفاقنا وبكلّ شجاعة. ولعلّ هذه الأخيرة هي ما نحتاجه اليوم كبشر من أجل الانخراط في هذا السبيل البديل والالتزام به، وفاءً للتفكير في موضوع مركَّب، يمثّله وضعنا البشريّ في تطوُّره الفوق - طبيعيّ. ■ **محمد مروان**

الهوامش:

* Edgar Morin, avec la collaboration de Sabah Abouessalam, CHANGEONS DE VOIE, les leçons de coronavirus, DONËL ,2020.

** Edgar Morin, La Voie, pour l'avenir de l'humanité, Fayard, 2011.





كيف واكبت «الدوحة»

جائحة القرن

«زَمنُ جائحةِ «كورونا» غيرُ الزمن الذي كان قبْلها، ولا هو الزمن الذي سيكونُ بَعدَها، لا فقط لأنّ انتشارَ الفيروس صنعَ حدثًا كونيًّا وَضَعَ كلَّ شَيء مَوْضعَ مُساءلة ومُراجعةٍ إلى حدِّ الشروع في الحديث عن تحوُّلٍ لاحق في النِّظام الاقتصاديّ العالميّ وفي النظام الاجتماعيّ للبُلدان، ولكن أيضًا لأنّ هذا الزمنَ أعاد النظرَ في مفهوم الحياة بوَجْه عامّ، مُجسِّدًا رجّةً معرفيّة مَكينة، وليس رجّةً واقعيّة فحسب. إنّ ما ترتّب على ظهور الفيروس وانتشاره يُشكِّلُ إعادةَ نظرٍ جذريّة في مفهوم الحياة..» ◀◀◀

جائحة القرن

الدروس المُستفادة

يتأكّد لنا مرّةً أخرى عبر جائحة كورونا حقيقة المصير المُشترك للبشريّة الذي ينبغي أن يكون منطلق السياسات والعلاقات بين الدول في أوقات الرخاء أو الكوارث، كما تظهر لنا الجائحة مدى صغر حجم قريتنا الكونية التي تقاربت المسافات بين مدنها واتّصلت أطرافها البعيدة بواسطة وسائل المواصلات الحديثة. ومن المفارقة أن الطائرات التي تعدّ الوسيلة الأكثر فعالية في التنقل بين أرجاء الكوكب والأكثر سرعة في نقل الإمدادات الطبية والإغاثية لمواجهة الكوارث بأنواعها، تحوّلت خلال الأسابيع الماضية إلى ما يشبه طائر النار (الحدأة) المتهم بنقل أعواد النار وتوسيع بؤر الحرائق في مناطق الغابات، ففي ظرف أيام قليلة انتقل فيروس كورونا بسرعة مذهلة من بؤرته الأولى في مدينة ووهان الصينية إلى مناطق واسعة وقصيّة في الغرب والشرق. ومع بداية مارس توجَّهت بوصلة معظم حكومات العالم نحو عدوٍ واحد مشترك تكافح لمحاولة احتواء انتشاره من خلال اتخاذ تدابير مشتركة كتعليق حركة الطيران وإغلاقٍ مدن بكاملها وسعي بعض الدول إلى إغلاق الحدود البرية والبحرية ووضع الملايين من البشر قيد الحجر الصحي.

دعا الملياردير الأميركي بيل جيتس في مقال له («نيو إنجلاند جورنال أو ف ميديسن»، 28 فبراير 2020) إلى جملة من الإجراءات السريعة كتدابير لاحتواء الفيروس الذي رأى أنه من تلك الجوائح التي تأتي مرّة كلّ مئة عام، وبدا له هذا الاستقراء من خلال الطريقة التي يتصرّف بها الفيروس، فهناك سببان يجعلان (كوفيد- 19) يمثّل هذا التهديد، «فهو أولاً قادر على قتل البالغين الأصحاء، بالإضافة إلى المسنين الذين يعانون من مشاكل صحية مزمنة. وتشير البيانات حتى الآن إلى أن الفيروس قد يتسبب في وفاة حالة واحدة حوالي 1 %، وهذا المعدَّل من شأنه أن يجعله أكثر حدة عدة مرّات من الأنفلونزا الموسمية النموذجية، الأمر الذي يضعه في مكان ما بين وباء الأنفلونزا في عام 1957 (0. 6 %) ووباء الأنفلونزا في عام 1918 (2 %)».

ثانياً، ينتقل (كوفيد- 19) بكفاءة تامة. فالشخص المصاب ينشر المرض في المتوسط إلى اثنين أو ثلاثة آخرين، وهو معدل زيادة بالغ السرعة. وهناك أيضاً أدلة قوية على أنه يمكن أن ينتقل عن طريق أشخاص يعانون من المرض بشكلٍ طفيف أو حتى لم تظهر عليهم أعراضه. وهذا يعني أن احتواء مرض (كوفيد- 19) سوف يكون أصعب كثيراً من احتواء متلازمة الشرق الأوسط التنفسية أو مرض سارس. وفي الواقع فإن (كوفيد- 19) قد تسبب بالفعل بعشرة أضعاف عدد حالات انتشار السارس في ربع الوقت.

من جانبه يتساءل جستن فوكس مدير التحرير السابق لمجلّة هارفارد بيزنس ريفيو (وكالة بلومبرغ 7 مارس/آذار 2020): إذا كان مرض سارس أكثر فتكاً من (كوفيد- 19) فلماذا تمّ القضاء عليه في حوالي عام، في حين أن بعض الخبراء يحذرون من أن (كوفيد- 19) قد يكون موجوداً إلى الأبد؟ لأن سارس عادةً لا يصبح معدياً إلّا بعد عدة أيام من ظهور الأعراض، ويبدو أن (كوفيد- 19) ينتقل قبل أن تظهر الأعراض وإنْ كان بمعدل قليل جدّاً.

لا شكّ أن البشرية تمر الآن بكارثة لم تكن في الحسبان إذ يواصل (كوفيد- 19) تمدده المستمر في مناطق جديدة من العالم فيرتفع بذلك عدد الإصابات وتزداد أرقام الضحايا، وما زاد الأمر سوءاً، كما يكتب «آلان ليفينوفيتز» أستاذ الفلسفة والديانة الصينية بجامعة جيمس ماديسون (مجلّة السياسة الخارجية، 5 مارس/آذار 2020)، أن خطاب أصحاب الخبرات المسؤولة ينزاح إلى الخلف وتحلّ محلّه همسات التآمر لدى أولئك الذين يزعمون معرفة الحقيقة. فهواة الصحّة الطبيعية المناهضون للقاحات يتهمون شركات الأدوية بإثارة الذعر بين السكّان لبيع منتجاتها، في حين يرى النباتيون والمدافعون عن حقوق الحيوان أن أسواق اللحوم هي مصدر الأمراض القاتلة. إن ردود الأفعال المضخمة أيديولوجياً تجاه (كوفيد- 19) غالباً ما تتجاوز مجالات الصحّة والطب، وتصبح في المقام الأول سياسية ولاهوتية. فالساسة اليمينيون في جميع أنحاء العالم يرون الفيروس عقاباً على انفتاح الحدود تجاه المهاجرين. وبطبيعة الحال فالمتعصبون الدينيون يرون ذلك كعقوبة على خطايانا. وهؤلاء جميعاً يستغلون الرغبة الإنسانية في إقامة نظام ثنائي تبسيطي لتفسير الخير والشر، الذي يعبّر عنه تقليدياً بالأنظمة الطبيعية وغير الطبيعية. عليك أن تطيع قوانين تلك الأنظمة لتنجو، وإذا خالفتها ستعاني.

يرى «ليفينوفيتز» أن اللاطبيعية (unnaturalness) كانت تستخدم منذ فترة طويلة لتفسير كلّ أشكال الخلل الوظيفي. ففي جميع مسرحيات شكسبير، على سبيل المثال، تعمل كلمة «اللاطبيعية» كمرادف للنقص الأخلاقي: «غير طبيعي وغير لطيف»، و«غير جدير وغير طبيعي»، و«بربري وغير طبيعي»، و«غير إنساني وغير طبيعي». ففي عصر



شكسبير- وقبله- كانت الولادة «غير الطبيعية» تعني طفلاً يولد مع بعض التشوُّه. والموت «غير الطبيعي» يعني، ولا يزال، الحياة التي تنتهي مبكراً بسبب القتل أو وقوع حادث. وفيما يتعلق بالنشاط الجنسي، فإن تعبير «غير الطبيعي» هو توصيف لانحرافات الرغبة، وفي السُّلطة الحاكمة، توصيف لانحرافات العدالة.

لقد تعوّدنا على فكرة الشر غير الطبيعي إلى الدرجة التي يبدو معها النشاط غير الطبيعي وكأنه الأصل البديهي لجميع الويلات. لكن اللاطبيعية ليست تفسيراً للخلل الوظيفي. بعض الأنظمة الطبيعية- كالولادة الطبيعية مثلاً- هي أدنى بشكلٍ واضح من إصداراتنا المحسَّنة اصطناعياً. والأشكال التكنولوجية المتقدّمة لتوليد الطاقة مثل الألواح الشمسية هي أفضل للعالم الطبيعي من التنقيب عن الفحم وإشعال النار فيه، برغم كون الأخير مادة طبيعية. إن كلمة «الطبيعي» و«غير الطبيعي» هي مجرَّد أوصاف، ورغم ذلك فإننا نصر على استخدامها كأحكام.

يخلص «ليفينوفيتز» إلى أن الحديث عن المرض باعتباره نتاجاً لنشاط غير طبيعي يفتح المجال لإبراز الأسباب والحلول المؤدلجة، وعندما يهدّد فيروس آخر العالم، سيكون هناك سياسيون شعبويون يستخدمونه لزيادة الكراهية وكراهية الأجانب. وسوف يرون في شبح المرض مبرراً لميولهم الأيديولوجية الخاصّة. ربَّما هذا أمر لا مفرّ منه. ولكن إذا لم نتخذ التدابير اللازمة لتغيير الكيفية التي نتحدّث بها عن أسباب أزمتنا، بداية بـ«كوفيد- 19»، فإن جزءاً من اللوم سوف يقع علينا.

من جهةٍ أخرى يرى بيل ماكيبين الكاتب والمدافع عن البيئة (مجلّة النيويوركر، 5 مارس/آذار 2020) أنه على الرغم ممّا قد ينجم من خسائر بشرية كبيرة بسبب هذه الجائحة إلّا أن ثمّة دروساً يمكننا تعلمها، وبعض هذه الدروس تبدو واضحة، فسفن الرحلات العملاقة هي عبارة عن قاتل للمناخ، ومن الممكن أن تتحوّل إلى عنابر عائمة للمرضى. ومن الجدير أن نلاحظ الكيفية التي بدا فيها أن الملايين من الناس قد تعلّموا بشكل أسرع أنماطاً جديدة. فالشركات مثلاً تكافح اليوم من أجل الحفاظ على إنتاجيتها، ولو عمل العديد من الناس من منازلهم. كما أن فكرة أننا نحتاج إلى سفر يومي إلى موقع مركزي للقيام بعملنا قد تكون في كثير من الأحيان نتيجة حالة من الجمود أكثر من أي شيء آخر. وفي ظل حاجتنا الفعلية إلى التنقل بالماوس بدلاً من السيارة ربَّما سنرى أن فوائد المرونة في مكان العمل تمتد لتشمل كلّ شيء بدءاً من استهلاك البنزين إلى مدى حاجتنا إلى مجمعات مكتبية مترامية الأطراف.

ويضيف ماكيبين أن العلّة الكامنة وراء تجمّع الموظفين بالنسبة للعمل هي تلاقح الأفكار لزيادة الإنتاجية، وبالنسبة للمجتمع فإن الغاية من التجمع انتفاع الناس من بعضهم البعض، وهو أمر يزداد صعوبة في الوقت الراهن. ولكن «الإبعاد الاجتماعي» الذي يطالبنا به علماء الأوبئة الآن لوقف انتشار المرض المعدي مألوف بالفعل لدى العديد من الأميركيين. فنحن نعيش حياة من العزلة النسبية، وربَّما تقودنا احتمالات العزلة القسرية على نحو غريب إلى أن نغدو اجتماعيين بشكلٍ أكبر حين يختفي الفيروس. ■ **ربيع ردمان** (اليمن)

عولمة الفزع

ربَّما ساهمت العولمة في هذا الانتشار المُثير للرعب والفزع، وربَّما ساهمت وسائل الإعلام أيضاً في ارتفاع حدَّة هذا الفزع في عالم تحوَّل إلى قريةٍ صغيرة. الدول والحكومات والساسة يفكّرون عادةً في اتخاذ الإجراءات والتدابير في مثل هذه الحوادث قصدِ تقليص الخسائر إلى حدِّها الأدنى، مستعينين في ذلك بالمؤسَّسات الرَّسميّة والمجتمع المدني. أمّا المُفكّرون والمُثقَّفون فإن اهتمامهم ينصرف إلى تحليل الأسباب وتقييم النتائج البعيدة المدى وتأثيرها على الوضع البشريّ في القادم من الأيام.

في أواخر سنة 2019 ظهر فيروس كورونا المُستجَد الذي أصبحت تسميته العلمية «كوفيد 19»، وانتشر بسرعة ليتحوَّل إلى وباء ضرب العديد من الدول الإقليمية، ثم تحوَّل إلى جائحةٍ مُعلَنة من طرف منظَّمة الصحَّة العالميّة، بعد أن غزا مختلفَ الدول والمناطق في العالم مطلع سنة 2020. صحيح أن البشريّة عاشت أهوال الأوبئة والجوائح غيرما مرّة، من قبيل «الطاعون الأسود» و«الأنفلونزا الإسبانية» وغيرهما، إلّا أن المُقلق والمخيف في هذا الفيروس الجديد هو سرعة انتشاره وقوة فتكه بالأجساد الضعيفة المنخورة بالأمراض المزمنة أو التي تنقصها المناعة الكافية.

وإذا كان من الصعب الإحاطة بكلّ ما يروَّج في عالم الفكر اليوم حول هذه الجائحة، فإن بعض النماذج يمكن أن تقدِّم لنا صورة عن واقع اليوم وسيناريوهات المستقبل. لذلك انفتحنا على مفكِّرين لهم علاقة وثيقة بعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس، وهي المجالات المعنية أكثر من غيرها الآن بهذه الجائحة العابرة للقارات، فلعلّها تمدّنا بإشارات إلى الطريق الذي يجب أن نسلكه مستقبلاً.

نعتقد أننا نعيش تطوُّراً، بل تحوُّلاً جذرياً، لكن الفيروس يذكّرنا بأننا نعيش المغامرة؛ المغامرة أمام المجهول وداخله، المغامرة التي لم نسمع عنها من قبل بالنسبة للجنس البشريّ



تبدو حالتنا اليوم على أنها حالة فزع الكلّ من الكلّ، حالة من الشك والريبة وانعدام اليقين إزاء المجهول؛ والسبب في هذا يعود إلى جائحة «كوفيد 19». إننا أمام فزع مُعولَم يدل على حجم الأزمة التي تعصف بصحّة البشر التي هي الخير الأعظم على حدِّ تعبير ديكارت. ومن أهمّ دروس هذه الأزمة الكبرى في نظر السوسيولوجي الفرنسي «إدغار موران Edgar Morin» أنه لا يمكننا الانفلات من الريبة واللايقين: نحن لا زلنا دائماً مرتابين بصدد إيجاد علاج لهذا الفيروس، وكذلك إزاء تطوُّرات ونتائج هذه الأزمة. بناءً على ذلك، يحدِّد موران مهمَّة أساسيّة للتربية، تتمثَّل في تدريس الريبة واللايقين. إلّا أنه من مفارقات هذه الريبة أنها تتضمَّن في نفس الوقت الخطر والأمل. نعتقد أننا نعيش تطوُّراً، بل تحوُّلاً جذرياً، لكن الفيروس يذكّرنا بأننا نعيش المغامرة؛ المغامرة أمام المجهول وداخله، المغامرة التي لم نسمع عنها من قبل بالنسبة للجنس البشريّ. ويبدو، في نظره، أن الفيروس يقتل النيوليبرالية ويقتلنا معها في نفس الوقت؛ ولذلك فإنه سيكون من المحزن جدّاً ألّا يخرج من هذه الأزمة فكرٌ سياسيٌّ يرسم طريقاً جديداً. من هذه الفكرة، أي ضرورة فكر سياسيّ جديد، ينطلق الفيلسوف والمُؤرِّخ الفرنسي «مارسيل غوشيه Marcel Gaucher»، معتبراً أن الأزمة التي نمرّ بها هي فرصة للحظة الحقيقة، الرهان فيها يتركز على علاقة كلّ مواطن بالجماعة السياسيّة. وينتقد غوشيه عبارة «إننا في حالة حرب»، لأنها بعيدة عن الواقع، وربَّما مجرَّد وصف مجازي لهول هذه الأزمة، مؤكّداً ذلك بقوله «لسنا في حالة حرب، أو إن الأمر يشبه الحرب الزائفة... تذكرون أنه خلال حرب 1914 - 1918 سقط أكثر من عشرين ألف قتيل في يومها الأوّل. نحن، لحسن الحظ، بعيدون جدّاً عن ذلك».

إن أهمّ ما كشفت عنه هذه الأزمة هو عودة ما هو سياسي (le politique)، أي ما يضمن بقاء ودوام جماعة ما، وقاعدة مشتركة تلزم الجميع لأنها تهم حياة وموت كلّ عضو من الجماعة. ففي نظر غوشيه أن الدلالة العميقة لهذا الحدث تتمثَّل في صحوة البعد المُتعلِّق بما هو سياسي والذي نسيناه واعتقدنا أنه يمكننا الاستغناء عنه. ما هو سياسيّ



يرتبط بحياة الجماعة، وهو الأهم حالياً؛ أمّا الانتخابات البلدية، فهي ترتبط بالسياسة (la politique)، وهي تهتم بمَنْ نجح أو خسر فيها، وهي تافهة حالياً، بل ومدعاة للسخرية والتهكم.

في تقدير غوشيه، أن «كوفيد 19»، رغم كونه يتطوَّر بشكلٍ تصاعدي، إلّا أنه لحد الآن، لم يصل بعد إلى هول الطاعون الأسود أو الأنفلونزا الإسبانيّة، وفي توقّعه وتساؤله معاً: أننا سنعرف في القادم من الأيام، إلى أي مدى ستتقلص أو تتمدَّد الفجوة بين الفرد والجماعة. يعني هذا أننا نعيش اليوم اختباراً سياسيّاً حقيقياً وعلى أعلى مستوى؛ فهل البعد الفرداني الليبرالي والخاصّ هو المُهيمن كلّيةً على مجتمعاتنا الغربية؟ سنكتشف هذا الأمر في المستقبل القريب. هذا هو ما يهم، وهذا هو الأساسي في هذه الأزمة على حدِّ تعبير غوشيه.

وعلى غرار إدغار موران، يرى غوشيه أن العولمة الليبرالية قد ماتت، وأن المبدأ القائل بأن «التجارة الناعمة» ستحلّ جميع المشاكل أصبح بائداً. وفي معرض الحديث عن مناعة الجسم السياسيّ، يقول بأنه ليس من البساطة والبداهة، في مجتمع يتكوَّن من أفراد، أن يضمن مناعته السياسيّة. ذلك أننا نطلب من الأفراد أن يبتعدوا عن بعضهم البعض قدر الإمكان (الحجر الصحي)، لكننا نقول لهم في نفس الوقت «فكّروا في الآخرين فقد تكونوا خطراً عليهم». هكذا يجد الأفراد أنفسهم بين شدٍّ وجذب، أي في حالة توتر بين المسافة الفردانية والالتزام الغيري. في الأخير، يؤكّد بأن هناك رجّة فكرية وخلخلة أيديولوجية كبيرة وقويّة، ولا أحد يمكنه التنبؤ بخطورة الحدث وما سيترتب عنه، إلّا أننا في حاجةٍ ماسة إلى برنامج سياسيّ جديد.

وبالنظر إلى فرادة التجربة البريطانيّة في التعاطي مع أزمة «كوفيد 19»، ارتأينا أن ننفتح على بعض فلاسفتها الأكثر حضوراً إعلامياً، خاصّة على صفحات «الغارديان Guardian» وقناة الـ«BBC»، يتعلّق الأمر بالفيلسوف الإنجليزي «جوليان باجيني Julian Baggini» الذي يتماثل للشفاء حالياً من أزمة التهاب رئوي. ما يبدو غريباً بالنسبة لنا جميعاً، هو تأكيد الوزير الأوّل «بوريس جونسون Boris Johnson» أن المملكة المتَّحدة لن تتخذ أي إجراء من قبيل إغلاق المدارس وفرض الحجر الصحي، إلخ. لكن بالنسبة لهذا الفيلسوف، يمكن فهم هذا الأمر بسهولة ووضوح بالنسبة لمَنْ يعرف طريقة تفكير الإنجليز. فقد حاول جاهداً في كتابه «كيف يفكّر العالم How The World Think» توضيح التشابهات القوية بين الخصائص المهيمنة على ثقافةٍ ما والنموذج الفلسفيّ الذي تجسده. ولعلّ الأزمة الحالية تجسيد واضح لهذه الفكرة. فهو يرى أن جونسون قدَّم استراتيجيته باعتبارها «أمبريقية empirique» في تعارض مع المثالية، إذ أوضح أن القرار الذي اتّخذه جاء بعد استشارة العلماء المرموقين حول الموضوع؛ وهؤلاء أقنعوه بأنه في مصلحة الشعب أن يطوِّر قدراته ودفاعاته المناعية (مناعة القطيع)، حتى لو كان ذلك يعني تكبُّد المزيد من الخسائر في البداية. بالإضافة إلى ذلك، إنها مقاربة ذرائعية. ومعلوم أن هذه الأخيرة تشير إلى مذهب فلسفيّ سياسيّ وأخلاقيّ، تبلور مع كلّ من «جيريمي بنثهام Jeremy Bentham» (1748-1832) و«جون ستيوارت ميل John Stuart Mill» (1806-1873))، ويقوم على مبدأ عام هو تجويد الوجود إلى أقصى حدٍّ لفائدة الأغلبية، حتى ولو ترتَّب عن ذلك إجحاف أو ظلم في حقّ بعض الأفراد، أي حتى ولو كان الأمر يتعلَّق بعدد من الوفيات في الحالة التي نتحدَّث عنها وهي الجائحة. يسعى باجيني من وراء كلّ هذا إلى توضيح أن الفلسفة الإنجليزية ليست عاطفيّة، إنها تريد أن تكون، عكس ذلك، هادئة وعقلانية، على حدِّ تعبيره. فالذرائعي الصارم والمُتشدِّد، لا يجب عليه فقط التقليص من عدد الوفيات، وإنما التساؤل أساساً عن عدد الذين سينعمون بإمكانية العيش المديد وبصحة جيّدة. بعبارة أخرى، إذا كان الأشخاص المُسنّون في البلد، هم مَنْ سيموت توّاً، فيما سيطوِّر الشباب مناعة ضد «كوفيد 19»، فالحساب جيّد؛ ولعلّ هذا الاستثناء يبدو إنجليزيّاً محضاً. يضاف إلى ذلك أن التقليد الليبرالي في المملكة المتَّحدة، يفرض على الحكومة اعتماد مبدأ المسؤوليّة الفرديّة



وكأن الحكومة تخاطب الأفراد قائلة: ابقَ هادئاً وتابع طريقك. هذه هي الطريقة الإنجليزيّة في كيفية مواجهة الشدائد. وقد لاحظ باجيني أن تغيير نبرة خطاب الوزير الأوّل وبعض السياسيّين نابع من الشكّ في النموذج العلمي المعتمد في اتخاذ هذا القرار، والتخوُّف من عرض جثث الموتى بالآلاف في المستشفيات على مختلف وسائل الإعلام والتواصل. هذا التغيير يحرِّكه، في نظره طموحٌ سياسيٌّ شخصيّ وليس بدافع الغيرية. لكن يبدو أن المملكة المتَّحدة رضخت أخيراً لتتخذ نفس التدابير والإجراءات التي اتخذتها الدول الأخرى. وفي علاقة مع الأزمة الصحّية التي مرّ بها (التهاب رئوي) ودور الفلسفة فيها، انتقد الاعتقاد السائد عند الكثيرين في أن الفلسفة تجعلنا سعداء وتساعدنا على تخطي المصاعب، إلّا أنه يؤكّد في نفس الوقت أهمّيتها: إنها تمنحنا فهماً أوضح لما نعيشه، وتحول دون انجرافنا مع الأهواء واللامعقول. وفي كلمةٍ أخيرة: ما هو أساسي، بالنسبة إليه، هو تقبل الجواز الذي يطبع الوضع البشريّ وكذا طبيعة الحياة العابرة.

ومن منظور يمتزج فيه التحليل النفسيّ بالنقد السياسيّ، خصص الفيلسوف السلوفيني «سلافوي جيجيك Slavoj Zizek» مقالاته الأخيرة لتقديم آرائه حول جائحة (كوفيد 19). وقد ركّز بداية على طريقة ردود أفعالنا إزاء هذه الجائحة، معتمداً في ذلك على خطاطة الطبيبة النفسانية «إليزابيث كوبلر-روس Elisabeth Kübler-Ross» والتي عرضتها في كتابها «اللحظات الأخيرة للحياة». تتكوّن هذه الخطاطة من خمس مراحل هي: الإنكار، الغضب، المساومة، الإحباط والتقبل. في البداية كان الإنكار (الأمر ليس على هذه الدرجة من الخطورة)، ثم الغضب «بنبرات لا تخلو من عنصرية أو عداء للدول»: (مرّة أخرى الخطأ صادر عن هؤلاء الصينيين)، (حكومتنا ضعيفة وغير فعّالة)، بعد ذلك جاء دور المساومة (هناك طبعاً ضحايا، لكن يجب أن نكون قادرين على الحدّ من الخسائر)، وإذا لم تسر الأمور في هذا الاتّجاه سيظهر الإحباط (يجب ألّا نخدع أنفسنا، نحن جميعاً مدانون)؛ أمّا مرحلة التقبُّل فقد عبَّر عنها جيجيك بقوله (يجب علينا تقبُّل واقع أن الوباء سيأخذ حتماً بعداً عالميّاً، وأنه لا يمكن احتواؤه عن طريق الحجر والعزل ولا عن طريق أي تدبير وحشي ناجم عن الذعر والفزع. يتعلَّق الأمر إذن بتقبُّله، مع الوعي بأن معدل الوفيات منخفض نسبياً، وبشيء من الحكمة ستكون لنا فرصة للنجاة...). إلّا أن ما هو أعمق من ذلك، وما يجب تقبُّله، وما يجب علينا التوافُق معه، هو أن الحياة كانت دائماً قائمة على أساس الانتشار الغبي والمُتكرِّر للفيروسات التي، مثل أموات أحياء، تلقي بظلالها علينا، مُهدّدة بقاءنا. هكذا تذكّرنا الفيروسات في العمق بجواز وعدم أهمّية وجودنا: مهما كان حجم الآثار العقلية الروحية التي أقامتها البشريّة، فإن طارئاً طبيعياً غبياً مثل فيروس أو كويكب يمكنه أن يدمِّر كلّ شيء. هذا دون الحديث عن درس الإيكولوجيا الذي يمكننا استخلاصه من هذا: إن الإنسانيّة، من دون قصد، تخاطر بتعجيل نهايتها. كما يؤكِّد بأن الخطوة الأولى نحو التقبُّل، تفترض حدّاً أدنى من الثقة بين سلطات الدول وشعوبها. لذلك ينتقد جيجيك الطريقة التي تعاملت بها الصين مع الدكتور «لي وينليانغ Li Wenliang» الذي كان هو أوّل من اكتشف الوباء المُنتشر، وتمَّ منعه وإخضاعه للرقابة بدعوى محاربة الشائعات والحدّ منها لتفادي الذعر والفزع. من جهةٍ أخرى، يرى جيجيك ضرورة اتخاذ تدابير يعتبر أغلبنا بأنها شيوعية، مثل التنسيق والمُواءمة بين الإنتاج والتوزيع خارج معايير السوق وبمعزل عنها. والواقع أن المهمَّة التي تنتظرنا هي في غاية الصعوبة والتعقيد: يجب علينا التخلّص من أي حنين إلى شيوعيّة القرن العشرين البائدة، وإبداع أشكال جديدة متمركزة حول المشترك الإنساني؛ وإنه لمن اليوتوبيا المُجنَّحة الاعتقاد في طريقةٍ أخرى للخلاص. في معرض هذا الحديث، أشار جيجيك إلى أن الوزير الأوّل الإسرائيليّ، ومن أجل الحدِّ من انتشار الفيروس، اقترح على السُّلطات الفلسطينيّة المساعدة والتنسيق، معلِّقاً على ذلك بقوله، إن هذا الاقتراح ليس بدافع الخير أو الإنسانيّة، وإنما بكلّ بساطة، لأن الفيروس لا يميِّز بين اليهود والفلسطينيّين. إضافة إلى هذا، فشعار «أميركا (أو أي دولة أخرى) أوّلاً» انتهت صلاحيته في ظلّ عولمة الفزع. وفي الأخير يذكّرنا بما قاله مارتن لوثر كينغ منذ ما يزيد على نصف قرن: «لقد قدمنا على مراكب مختلفة، لكننا اليوم جميعاً على نفس السفينة». وإذا لم نترجم هذه الأقوال إلى أفعال، فإننا نجازف بأن نجد أنفسنا على متن «أميرة الماس»، وهو اسم السفينة التي اجتاحها الوباء. ■ **محمد مروان**

في زمن الجائحة

زَمنُ جائحةِ «كورونا» غيرُ الزمن الذي كان قبْلها، ولا هو الزمن الذي سيكونُ بَعدَها، لا فقط لأنّ انتشارَ الفيروس صنَعَ حدثًا كونيًّا وَضَعَ كلَّ شَيء مَوْضعَ مُساءلة ومُراجعةٍ إلى حدِّ الشروع في الحديث عن تحوُّل لاحق في النظام الاقتصاديّ العالميّ وفي النظام الاجتماعيّ للبُلدان، ولكن أيضًا لأنّ هذا الزمنَ أعاد النظرَ في مفهوم الحياة بوَجْه عامّ، مُجسِّدًا رجّةً معرفيّة مَكينة، وليس رجّةً واقعيّة فحسب. إنّ ما ترتّب على ظهور الفيروس وانتشاره يُشكّلُ إعادةَ نظرٍ جذريّة في مفهوم الحياة..

في مُقابل العَولمة، التي قامَت على إلغاء الحُدود وتمْكين خَصيصة العبور من التحكّم في نظام الحياة العامّ، فرضَ وباءُ كورونا المُستجدّ إقامةَ الحدود لا بَين البلدان وحسب، بل بين مُدُن البَلد الواحد، وحتى بين مكان المُصابين والمدينة التي فيها يُوجَدون، وبين سكّان الحيّ الواحد أو العمارة الواحدة، وَفق ما يقتضيه العزْل الإراديّ أو الحَجْر الطّبيّ. أبْعد من ذلك، فرَض الفيروس حُدودًا بين الفرد وذاته، مُلزِمًا إيّاه بتغيير عاداته، وقلْب سُلوكه اليَوميّ، وتقوية شعوره بجَسده، على نحو ما يُفصحُ عنهُ الخطابُ الطبّيّ وهو يُواصلُ تنبيهاته عبْر سلسلةٍ من الأوامر والنواهي: «اعتزل التجمّعات»، «لا تُصافح»، «لا تُعانق»، «لا تلمس الأشياء إلّا وأنت مُرْتدٍ قفّازات واقية».. كما لو أنّ الحياة غدَت هي الانفصال والانغلاق. إنّ الحُدودَ التي رَسمَها الفيروس شديدةُ الصّرامة، وهي تتطلّبُ عُزلةً لا تَستثني أحدًا. لقد أعاد الفيروس للعُزلة وَضْعَها الاعتباريّ المَنسيّ وألزمَ بإدماجها في نَمط الحياة، ولكن على نحو مَمزُوج بالإكراه والتوَجُّس والهَلع وتعليق مَكاسب حُقوق الإنسان، لأنّ دلالةَ الحقّ في الحياة شهدَ إبدالًا دلاليًّا، على غرار الإبدالات التي مسَّت كلَّ شيء. إلى جانب هذه العُزلة الضروريّة، مكّنَ الفيروسُ الفراغَ من حُضور قويٍّ في كلّ الفضاءات العامّة، التي صارَت شبيهةً بالخَلاء، فغدا الفراغُ والإغْلاق والحَجْر أمورًا دالّة لا على رفْض الآخَر، بل على احترام حقّه في الحياة.

رغم هذا المَنحى الذي يُلزمُ بالحُدود ويَفرض نظامًا وَفقها، يَحتفظُ الفيروس بخصائصَ مشدودةٍ إلى نتائج العولمة، ولا سيما في نظامٍ تكاثُره الرّهيب وانتشاره الذي يَمتلكُ سِمة اللانهائيّ، انطلاقًا من صُعوبةِ تطويقه التي لا تستبعدُ احتمالَ الاستحالة المُرعب، إذ تبدّى سُلوكُ الفيروس، بناءً على رحلته وعلى الخريطة التي رَسمَها انتشارُه، مُنسجمًا مع تحوُّل العالم إلى قريةٍ صغيرة. تحرَّكَ الفيروس، قادمًا من أقصى مكان قبْل أن يتوَزَّع في مُختلف بقاع العالم، بسُرعةٍ تَحملُ خصائصَ الإيقاع الذي أرْساهُ الزمنُ الرقميُّ والافتراضيّ. إيقاعٌ يبدو كما لو أنّ تناميه المَحمومَ يُنافسُ الزمنَ الضَّوئيَّ، في عَصْر غدَت فيه الأسلحةُ / الصواريخُ تُنافسُ سُرعةَ الصَّوت وتتفوّقُ عليها. فالرُّعبُ المُلازمُ، اليَوم، للجائحة مُترتّبٌ على كون الفيروس يَنتشرُ مِن كُلّ شيء، وفي كلّ شيء، وعبْر كلّ شيء، بإيقاع مُخيف. كما أنّ إبطاءَ الانتشار، الذي هو المُمكنُ المُتاح، لحدِّ الآن، في التصدِّي للفيروس، مُتطلّبٌ بصُورةٍ قريبة من الإعجاز، لِما يترتّبُ على هذا الإبطاء اقتصاديًّا واجتماعيًّا، ولِما يَقتضيه مِن تجهيزات طبّيّة، وتعليقٍ لمَكاسب حُقوق الإنسان، وقلبٍ في نظام الحياة ذاتها، مادام الفردُ قد غدا، في زَمن كورونا، مُرتابًا في أعضائه، ومَلابسه، وحذائه، واحتكاكاته، وفي الهواء الذي يَستنشقهُ، وهو يَتهجّى، إلى جانب ذلك كلّه، أبجديّةَ العُزلة ويتعلَّمُ ضَوابطَها وقواعدها.

لقد التبسَ الأمرُ فجأةً على الإنسان حتى صارَ يشعرُ كما لو أنّهُ يُؤدّي، دون إرادته ودون استعداد قبْليٍّ، دَورَ شخصيّةٍ في رواية من روايات الرّعب، أو في فيلمٍ من أفلام الخيال العلميّ.

في زمن كورونا المُستجدّ، كلُّ شيء صارَ موضوعَ شُبهة. لقد توسّعَ هاجسُ الارتياب على نحو لم يَعُد يَستثني أيَّ شيء، بما في ذلك علاقة الفرد بذاته. لم يعُد مَوضوعُ الاشتباه خارجيًّا، بل غدا الاشتباهُ إحساسًا تُجاه الذات. صارَ المرءُ مُرتابًا لا من الأشياء وحسب، بل حتى من ذاته وهو يُجابهُ عدوًّا لا مَرئيًّا، شاعرًا، في الآن ذاته، أنّ هذا العدوَّ يترصّدُه في أدقّ تفاصيل حياته. تَرَصُّدٌ ألزمَ الفردَ بأنْ يُفكّر،

صارَ المرءُ مُرتابًا لا من الأشياء وحسب، بل حتى من ذاته وهو يُجابهُ عدوًا لا مَرئيًا، شاعرًا، في الآن ذاته، أنّ هذا العدوّ يترصّدُه في أدقّ تفاصيل حياته

على امتداد يَومه، بالفيروس، وأن يفكّرَ فيه وانطلاقًا منه؛ فأيُّ عرَض مَرضيّ يَستشْعِرهُ الفردُ، في زمن كورونا المُستجدّ، إلّا ويُفسّرُهُ بتَوجيهٍ من احتمالِ الإصابة بالفيروس. إنّها استيهاماتُ هذا الزّمن، الذي فرضَ لا نمطَ حياةٍ جديدة وحسب، بل استنبتَ أيضًا خيالًا وتوقّعات وأوهامًا وهلوسات وهلعًا. كما بدأ يفرضُ تعوُّدًا على جعْل الهلع جُزءًا من الحياة، بالتعايُش مع خطابِ الرّعب وصُوَره ومشاهده. ذلك أنّ احتمالَ الإصابة بالفيروس ليس مُرتبطًا، في هذه الجائحة، بالغَير، بل بالذات نفْسها. لا يتعلّقُ الأمرُ بخَطر العدوى من الغَير، بل من أنْ يكون الفردُ ذاتهُ حاملًا للفيروس، أي مصدرًا للعدوى وليس فقط مُعرَّضًا لها. كلُّ شَخص، بل كلُّ شيء، في زَمن كورونا المُستجدّ، مُصابٌ بالفيروس إلى أن تَثبُتَ صحّتُهُ وسلامتُه، لكنّ هذا الإثباتَ ذاتَهُ يَبقى هشًّا، غيرَ قادر على أنْ يَصمُدَ أمام الرّعب من الآتي، ومن المَجهول الذي يتّسعُ باتّساع انتشار الفيروس، كما لو أنّ النجاةَ مِن فتْك هذا الوباء ليْست سوى تأجيل لقدَر حتميّ، وهذا أحدُ عوامل الرّعب الذي تولّد لدى الإنسان، بَعْد أنْ تأكّد العالَمُ من أنّ الأمْرَ يتعلّقُ بجائحةٍ غريبة أصابَت كوكب الأرض، وجَعلَت حاضرَ البلدان الأكثر تضرُّرًا في العالَم مُجسّدًا لمُستقبَل البلدان التي مازال الوباءُ يَزحفُ فيها بإيقاع أبطأ. فالمراحل التي بها رَسمَتْ البلدانُ درجَةَ انتشار الفيروس كشفَت أنّ الزمنَ صارَ خاضعًا لنُمو هذا الفيروس، الذي غدا مُتحكِّما في تقسيم الزّمن. إنّ كورونا المُستجدّ لا يَصوغ زَمنًا جديدًا وحسب، بل يَفرضُ علاقةً جديدةً بالمكان، أي أنّ لكورونا المُستجدّ أثرًا حاسمًا في تصوُّر الزّمن والمكان، وفي إعادة ترتيب العلاقة معهما، أي أنّ له أثرًا على ما يُعَدُّ مُرتكزَ الحياة، ومُرتكزَ التاريخ بوَجهٍ عامّ.

لقد أعاد الفيروس، بَعد أن كشفَ هشاشةَ الإنسان ووَهْمَ طُغيانه، ترتيبَ علاقةِ الفرد بالأشياء وباليَوميّ، وغدا نمطَ حياة، لأنّه لم يَبق مُجرّد هاجس مقصور على أمْر بعَيْنه، بل صارَ مُوجِّهًا لكلّ السلوكات اليَوميّة وأسَّ الانشغال في كلّ بقاع العالَم؛ به يُفكّرُ المَرءُ في كلّ ما يُقْبل عليه في يَومه، وبه تُفكّرُ المُؤسّساتُ والدول في الحاضر والآتي، بعْد أن أحْدثَ تحوُّلا في نَمط الحياة وفي نَمط التعامل مع الزّمن والمكان. ضمن هذا التحوُّل الذي طالَ نمط الحياة، أعادَ الفيروس الاعتبارَ لمفهوم البُعد، الذي كان قد تغيّرَ مُنذ القلْب الذي أحدَثهُ المفهومُ الافتراضيّ للمكان والزمن. في المسعى الشاقّ إلى إبطاءِ انتشار الوَباء، لم يَعُد القربُ الفعليُّ أمرًا مقبولًا ولا مُستساغًا، وهو، لِلْمُفارَقة، ما كان الإنسانُ يُفكّكُ خطورةَ التقنية في ضَوئه عندما نبّهَ على أنّها جعلَت القُربَ بين الناس مُفتقِدًا للقُرب. صارَ التواصلُ وتدبيرُ الحياة والتصدّي للجائحة أمورًا تتمُّ، في زمن كورونا، من بُعد، على نحو كشفَ الحاجة إلى التقنية، وأبرزَ الوَجهَ الآخَرَ للآلة، أي وَجْهها الإنسانيّ، لِما تُتيحُهُ مِنْ إمكانٍ في إنجاز الإبْطاء؛ إبطاءِ هذا الوباء المُتكاثر بإيقاعٍ يُضاهي إيقاعَ الزّمن الرّقميّ. فالآلة، بهذا المَعنى، تعملُ على تأمين البُعْد المُحقِّق للإبطاء، كما لو أنّ الآلة تشتغلُ ضدّ مَنطقها، وضدَّ عالَمها الذي هو عالمُ السّرعة، ممّا كشفَ عن وَجهٍ مُغاير لحَقيقتها. فالآلة المهووسة بالسّرعة هي ما صارَ يُسْهمُ في الإبطاء. إنّه أحدُ مظاهر القلْب الذي أحْدَثهُ الفيروس لا في العديد من السلوكات والوقائع، بل أيضًا في تصوُّر العديد من الأشياء.

بانتشار الفيروس، تبدَّت الحاجةُ إلى التقنية، وهي حاجةٌ تَنطَوي على مَلمَحيْن؛ أوّلهما أنّها تُعيدُ ترتيبَ العلاقة بين العُزلة والتقنية، إذ أخذَت هذه العلاقة توَجُّهًا آخَرَ غيْرَ الذي تكرّسَ مع غزو التقنية للحياة الحديثة وتحوُّلِها إلى نمط وُجود. خلقَ فيروس كورونا المُستجدّ نمطَ حياةٍ آخَر، مُستفيدًا من الإمكانات التي أتاحتْها التقنيّة في تأمين الاتّصال مِن بُعد، وفي الحفاظ على الدِّفء الإنسانيّ، كما لو أنّ البُعْدَ المكانيّ المفروض، في زمن كورونا، مكّنَ بُرودَ الآلة من دِفءٍ اضطراريٍّ لم يَكُن من انشغالاتها. المَلمحُ الثاني هو أنّ النقد الفكريّ، المُوَجَّه إلى التقنية وإلى مظهر إجهازها على الإنسانيّ، لا يُمْكنُ أنْ يَنسى الدَّورَ الذي تضطلِعُ به في تأمين التصدّي لكورونا، وهو ما تبدَّى من تأمين تدبير مَرافق





الحياة مِن بُعد، ومن الدور الذي يُمْكن أن يُؤدّيَه الذَّكاءُ الاصطناعيّ في الاستشفاء من فيروس ينتقلُ من الإنسان إلى الإنسان، لكنّه لا يَنتقلُ على كلّ حال بين الإنسان وداخل الآلة/ الروبو، التي يَظلّ ذكاؤُها الاصطناعيّ مَصونًا متى تمَّت بَرمَجتُها على تعقيم خارجها.

زَمنُ جائحةِ «كورونا» غيرُ الزمن الذي كان قبْلها، ولا هو الزمن الذي سيكونُ بَعدَها، لا فقط لأنّ انتشارَ الفيروس صنعَ حدثًا كونيًّا وَضَعَ كلَّ شَيء مَوْضعَ مُساءلة ومُراجعةٍ إلى حدّ الشروع في الحديث عن تحوُّلٍ لاحق في النظام الاقتصاديّ العالميّ وفي النظام الاجتماعيّ للبُلدان، ولكن أيضًا لأنّ هذا الزمنَ أعاد النظرَ في مفهوم الحياة بوَجْهٍ عامّ، مُجسِّدًا رجّةً معرفيّة مَكينة، وليس رجّةً واقعيّة فحسب. إنّ ما ترتّب على ظهور الفيروس وانتشاره يُشكِّلُ إعادةَ نظرَ جذريّة في مفهوم الحياة، بما مَنَحَهُ من فسحةٍ، غيرِ مُنفصلة عن التوَجُّس والقلق والارتياب، للتأمُّل في هذا المفهوم وإعادةِ صَوغه بالحِرْص على رفْع الحُجُب عن الحياة، أي رفْعِها عمَّا لا ينفكّ ينأى في الحياة، ويُحْجَبُ فيها ويَختفي. لقد كانت الحياةُ حتى قبل كورونا تكشفُ عن أنّها تُسْرعُ في الابتعادِ عن نفْسها باسْم التطوُّر والتقدُّم، أي باسْم وجْهٍ آخَر للحياة يَبنيه تحوُّلُ البلاهة والتفاهة والجشع إلى أمورٍ بدَهيّة. وقد لَبسَ نأيُ الحياةِ عن نَفْسها صُورةَ بداهةٍ لا تكُفُّ عن تسويغ توَحُّش الإنسان بسُبُلٍ عديدة، قبل أن تُلحّ الجائحةُ على إعادة ترتيبِ علاقة الإنسان مع الطبيعة بَعد أن تكشّفَ طغيانُهُ عليها، بما حجبَ عنهُ حقيقةَ هشاشته تُجاهَها، وعلى إعادة ترتيب علاقة الإنسان بنَفسه، وعلاقةِ الإنسان بالإنسان.

لقد كشفَ زَمن كورونا، على الأقلّ من مظاهره الأولى، أنّ غريزةَ البقاء لدى الإنسان لمْ تخترقها القيَمُ التي يُمْكنُ أنْ تنتقلَ بها من الوَضْع الغريزيّ إلى الأفق الرّحْب لمَحبّة الحياة. ذلك أنّ غريزةَ البقاء غيرُ محبّة الحياة، لأنّ محبّة الحياة قيمةٌ ترتكزُ على تقدير الذات للغَير، وعلى خروج الذات من الغريزيّ نحو الثقافيّ. فالأوضاعُ التي شهدَتها المحلّات التجاريّة في مُختلف بقاع العالم، والتسابُق المحموم للظفَر بالموادّ الغذائيّة وغيرها، وظهور تُجّار الحروب والأوبئة والأزمات، أي تُجّار المَوت، أتاحتْ للإنسان أن يَتفرَّجَ، على حقيقةِ الذات البَشريّة التي لم تستطع أنْ ترقى بالبَقاء إلى فعلٍ قيميّ، بإبْعاده عن الغريزيّ، وأتاحتْ له أن يشهدَ على انهيار فادح للقيَم. انهيارٌ تكشّفَت فداحتُهُ، التي كانت ملامحُها ترتسمُ بصُورة مُخيفة حتى قبْل كورونا، مع أوّل امتحان تُجاه الموت. والحال أنّ زمن الجائحة، أيًّا كان اسمُها وخطرُها، هو لحظة لإعادة ترتيب العلاقة مع القيَم. لابدّ من تعقيمٍ مُضاعَفٍ يَمتدّ من جَسد الإنسان إلى رُوحه. كلّما اهترأت الرّوح وأُصيبَت في جَوهرها الإنسانيّ وصارت خرابًا، يبقى كلُّ تعقيم وتطهير عاجزيْن عن صَون المعنى الآخَر للحياة من الوباء، المعنى الذي لا يُقابل المَوت بالضّرورة. إنّ الانهيارَ الاجتماعيّ الذي يُمْكنُ أن يُهدِّدَ، اليوم، مفهومَ المجتمع ويُهدّدَ الأسُسَ التي عليها يقومُ المجتمعُ واقعيًّا قادمٌ من خُطورة انهيار القيَم في زَمن الجائحة، بوَصفه زَمن قيَم، وزمنَ حاجةٍ مُلحّة إلى القيَم. وبما هو كذلك، فهو زمن مَحبّةِ الحياة، على نحو ما تبدَّى، في مَشاهدَ عديدة من بقاع العالَم، مِن رُوح المَرح والأمل، ومن روح السخريّة التي تُعدُّ قوّةً وانتصارًا على الهشاشة ما لمْ تتحوَّل إلى تهوُّر أو استخفاف بالجائحة أو قذفٍ بها في متاهة الخرافة والهلوسات. لا يتعلَّقُ الأمرُ إطلاقًا، في هذا السياق، بخطاب أخلاقيّ، بل برُؤية للحياة تجعلُ مَحبّتَها وتمجيدَها والفرحَ بها مُتوَقّفًا على نُبْل العلاقة بالآخَر. فالانفصال، الذي فرَضتْهُ الجائحة، وامتدّ إلى العلاقة بين الناس ليس سوى إعادةِ تأمّل لمفهوم العلاقة ولمفهوم الحياة، مادامت الحياة، في عُمقها، علاقةً مُتشعّبةَ الخُيوط.

رغم أنّ المجهولَ كان دومًا نُسغَ الحياة وأسُّها الحامي لأسرارها ودَهشتها وتجدُّدها، يبدو مجهولُ جائحةِ «كورونا» قاتمًا، ومُحتفظًا للمَوت بصُورةِ القتل. لربّما المُضيء في هذا المجهول هو أنّه كشفَ، من بين ما كشفَ عنه، عن الحاجةِ إلى العِلم الإنسانيّ وإلى العُلماء، وإلى نظام صحّيٍّ متطوِّر، في زَمن غدا فيه التسابُق على التفاهة وتطويرها قيمَةَ القيَم، حتى تحوَّلَ التنافُس على إنتاج التفاهة علامةَ الزمن الحديث، بما أفْضَى إلى إنتاج فائض من التفاهة. فائضٌ لا يبدو، في زمن كورونا، مُعيقًا وحسب، بل عاملًا من عوامل الإحساس بحدّةِ الهشاشة. ■ **خالد بلقاسم**

«كورونا» الذي يُعيد «تربية» العالم

العدو اللامرئي وسرديّة الرعب المُعمم

لربَّما من السابق لأوانه، الدخول في محاولة لاستخلاص الدروس والعبر من رعب كورونا «السائل»، لربَّما من غير المنطقي، الحسم في مآلات الوضع المربك والمخيف الذي نختبره آناً، ومع ذلك لا بأس أن نجرِّب القراءة ونهفو إلى تلّمس الخلاص. الأمر جلل والموقف عصي على الفهم والتأويل، فالعالم الذي كان مطمئنا إلى يقينياته واعتقاداته المتصلّبة، بات غائصاً في حيرة كبرى، وكأنّه يجرب دهشة البدايات وقلق النهايات كما في العود الأبدي، فلا حقيقة تصمد ولا معنى يُؤَوِّل ويُؤَوَّل، فقط هو «اللايقين» ما يشمخ عالياً في كلّ المسالك والمتاهات، فقط هو الضعف والخوف والمرض والموت، ما يعيدنا إلى الصفر ويدفعنا نحو المجهول.

لا الحكومات التي أدمنت طويلاً «البلطجة الدولية» والاستبداد السياسي، في الشمال أو الجنوب، استطاعت أن تتغلَّب على هذا العدو اللامرئي، الذي ينتشر سريعاً ولا يبقي ولا يذر. ولا الحكومات التي أدمنت «التبعية» أو «الأنفة وعزة النفس» استطاعت بدورها أن تتحرَّر من لعنة كورونا، وتبقى في حِلٍّ من «رعبه» و«ترعيبه»، فالفقراء كما الأغنياء، المشاهير والمغمورون، آل الشمال وآل الجنوب، الكلّ بات خائفاً من الجائحة، ومُوقِناً بأن رساميله الرمزية والمادية لن تمنع عنه «الوباء السائل».

فجأة توارت عن قصاصات وكالات الأنباء ومسائيات الإذاعة والتلفزة أخبار داعش وقفشات ترامب وتداعيات بريكسيت وثورات الربيع، تراجع كلّ ذلك إلى الوراء، ليصير خبزنا اليومي هو فيروس كورونا القاتل، نداعب شاشات الهاتف وأزرار الريموت كونترول، بحثاً عن أعداد القتلى والمصابين في الهنا والهناك، ونتطلَّع إلى أخبار تُبشّر باكتشاف اللقاح، نَتَنَدَّرُ حيناً بِنُكَتٍ للضحك والتهوين من الواقعة، أو ننخرط خطأً في مسارات التهويل والرفع من منسوب الذعر جراء تقاسم بعض الأخبار الزائفة أو الصادقة.

يبدو أنه «وباء مُعَلِّمٌ» جاء ليضع الإنسانية أمام ضعفها المتأصّل، ليذكّرها بألا شيء يمكن التحكّم فيه، وأن للطبيعة منطقاً آخر، و«رياضيات» أخرى، لا تخضع لقوانين السوق ومتاهات الحداثة المفرطة، جاء لِيُعْلِيَ من فرضية «سردية الرعب المعمم»، حيث قلق الموت ينتصر على قلق المعنى، وحيث غريزة البقاء تحاور غريزة الموت، وتفاوض بشأن التجاوز والانتصار على فيروس، يعبث بالأبدان والأرواح والاقتصاديات ويقودها قسراً نحو أحلك الاحتمالات.

مَنْ كان يعتقد، يوماً، أن تصير المطارات والفنادق والمزارات السياحية بلا مسافرين وزائرين؟ مَنْ كان يتخيّل أن تصير فينيسيا «البندقية»، مدينة الحبّ والجمال، خاوية على عروشها؟

لقد تحوّل العالم إلى محجر صحي كبير، وانسجن الأفراد تحت ضغط الجائحة في منازلهم، وتوقَّفت دورة الإنتاج في كثير من المصانع والإدارات، وباتت البِيَّعُ والكنائس والمساجد، توصد أبوابها في وجه المصلين، فَمن كان يعتقد يوماً أن يصير الحرم المكي فارغاً؟ وأن تنتهي السعودية من منح تأشيرات العمرة؟ مَنْ كان يعتقد، يوماً، أن تصير المطارات والفنادق والمزارات السياحية بلا مسافرين وزائرين؟ مَنْ كان يتخيّل أن تصير فينيسيا «البندقية»، مدينة الحبّ والجمال، خاوية على عروشها؟

إن سردية الرعب المعمم نابعة أساساً من خطاب التهوين أو التهويل الذي رافق الفيروس منذ ظهوره الأول في إقليم ووهان الصيني، فلم تَنْتَهِ الآلة الإعلامية، ولو من غير قصدية مباشرة، من بث القلق والذعر في نفوس المواطنين في أكثر من سياق، مثلما لم تنته قنوات التواصل الشعبية من إنتاج النكت والشائعات والأخبار الزائفة بصدد الفيروس، ليتدخَّل «تجار الحروب وأثرياء الأزمات»، لصب مزيد من الزيت على النار، باحتكار السلع وتوجيه المستهلك نحو سُعار الشراء والتخزين استعداداً للأسوأ، كلّ ذلك كان سبباً رئيساً في تعميم الرعب والهلع وفتح علبة شرور العالم من جديد.

الفيروس فعلها، وأعاد كلّ شيء إلى الصفر، أعاد الإنسان إلى سردية الرعب الممتدة عبر الأزمنة، والتي دعته في حالة «حرب الجميع ضد الجميع» إلى الاحتماء بالسحر والمعتقد والخيال لمواجهة ظلام الجهل والمرض وباقي الشرور. كورونا فعلها وأعاد الإنسان إلى ضعفه وعجزه، فلا يجد بدّاً من الاختباء والامتناع عن اللقاء بالآخر. إنه



الفيروس الذي يعيد بناء المسافة الاجتماعية ويعمل في الآن ذاته على تحيين أو تهجين الرابط الاجتماعي. ففي لحظات الخطر تلوح الحاجة إلى الشبيه، لمواجهة عنف المتوقّع واللامتوقّع، فكيف يستقيم الأمر في ظل فيروس يقتضي التباعد لا التقارب؟ هنا يشتغل الرمزي بدرجة أعلى وتصير المسافة «صحية/احترازية»، مع عودة دالة إلى الذات والآخر، في أشكال تضامنية وحدوية لمواجهة الخطر، بل وحتى في مستوى أشكال عدوانية تعلن انتصار الأنانية والجشع والاحتكار. وهو ما لاح بقوة في التسابق نحو إدخار الطعام وإعادة ترتيب الأولويات.

لقد تنازل الفرد، مكرهاً، عن طقوسه اليومية، وانسجن، ضداً على رغباته، في بيته، مذعوراً من خطر محدق، قادم من لمس زر مصعد أو فتح باب أو مصافحة مريض، لم يعد ذات الفرد منشغلاً بالبحث عن الأسفار والرحلات الأقلّ سعراً، أو مهووساً بالتمشهد الرقمي لحصد اللايكات وتسويق الذات، ما يهمه في سردية الرعب المعمّم هو البقاء وتلافي ممكنات العدوى والاعتلال.

لقد بات الهمّ الوجودي للأفراد والجماعات هو تخزين الطعام والتسابق نحو تأمين أكبر قدر من الدواء، وهو ما فتح الباب لظهور الأنانيات المستحكمة والفردانيات المعطوبة والهويّات القاتلة، وكأن الأمر يتعلّق بهندسة اجتماعية جديدة أساسها التباعد الاجتماعي والإعلاء من شرط البقاء. فكلّ التعليمات الاحترازية توصي بضرورة الانتهاء من طقوس التحية والتقبيل والعناق، لصالح أشكال جديدة من «اليومي التواصلي»، تنبني على التباعد لا التقارب، وعلى الانفصال لا الاتّصال. وهو ما تعضده خيارات منع التجمعات العامّة وإغلاق دور العبادة والمطارات والمقاهي والمطاعم.

إنها مجتمعات الخطر والمخاطرة التي أهدتنا إياها النيوليبرالية المتوحشة، وقادتنا إليها التفكيكات والتذريرات المتواصلة للرابط الاجتماعي ولكافة أشكال وبنيات التضامن والتعاضد الجمعي، إنها ذات المجتمعات، التي تعرَّضت، ولأسباب تاريخية وسياسية واقتصادية صرفة، للمزيد من التهجين والمسخ والاحتباس القيمي، وأنتجت في النهاية «مسخاً إنسانياً» هشّاً، لا يصمد طويلاً أمام اختبارات الجوائح والأوبئة، بل يكشف سريعاً عن الجانب المخفق والبائس المتأصّل في أعماقه، يستيقظ فيه الوحش، ويموت فيه الإنسان.

رسائل/دروس الجائحة لا تنتهي، إنها تتجاوز المحلي إلى الكوني، وتتفوّق على كلّ السرديات الدائرة بغير انقطاع، لتعلن للجميع، وفي عتبة العتبات، أن الجائحة ديموقراطية، في استهدافها للدول الغنية كما الفقيرة، وللفئات المهيمن عليها، كما الأخرى التي تهيمن وتمتلك وسائل الإنتاج والإكراه، فهو فيروس لا يختار ضحاياه بسبب اللون أو الدين أو الانتماء المراتبي، مثلما هو الحال بالنسبة لمرض السل الذي يصيب آل القاع الاجتماعي من الذين يقيمون في سكن حاط بالكرامة، أو فيروس الإيبولا الذي استهدف مواطنين من إفريقيا الوسطى بالتحديد. هنا الجائحة تعلن أنها جاءت لتقول للجميع، بألّا واحدة من الدول الكبرى أو الصغرى بمقدورها التحصّن ضد الفيروس.

في عتبة ثانية يعلن الفيروس للجميع أن العلم هو مفتاح الفرج، وأن المراهنة على التفاهة ونجوم الكرة والغناء والبلاهة، لن تنقذ العالم من مصير الهاوية، فقط هو البحث العلمي ما قد يقود إلى اكتشاف اللقاح وتأمين المستقبل، وهو ما يكون قبلاً بالاستثمار في بنيات التربية والتعليم والصحّة. فالفيروس وضع الإنسانية مرّة أخرى أمام حقيقة القطاعات الحيوية التي أُهمِلت بسبب توصيات المؤسَّسات المانحة والمُقرِضة، والتي توصي دوماً بوجوب تخلي الدولة عن الإنفاق العمومي لصالح الصحّة والتعليم وباقي القطاعات الاجتماعية.

ثمّة عتبة أخرى للفهم والسؤال المستفز، تنكشف من خلال تداعيات «حرب كورونا»، وهي بالضبط عتبة المصير المشترك، فالإنسانية تختبر اليوم، عبر سردية الرعب المعمّم التي أفرزتها وعززتها جائحة



كورونا، تختبر أن الألم مشترك والمعاناة واحدة، وأن الخوف من المجهول يتسيّد الوضع، ويلقي بثقله على كلّ الديناميات والفعاليات الإنسانية، فالكلّ بات منشغلاً بعدد المصابين والمتعافين والراحلين تباعاً، في الصين وإيطاليا والمدينة الفلانية والحي الأقرب، لم تعد أهداف ميسي ولا مؤخرة كارديشيان تغري بالمتابعة على اليوتيوب، وتحقّق بالتالي أعلى أرقام «الطوندونس»، فقط هو الخوف من الاعتلال ما يشكل أُسَّ الانهمام ومَكْمَنَ الرهاب.

لقد أحدث كورونا، فينا ومن حولنا، فائق الارتباك وعميق الصدمة، لقد عَرَّانا من الداخل قبل الخارج، وكشف جروحنا النرجسية العميقة، وأعطابنا الاجتماعية والسياسية الثقيلة، وكشف، وهذا هو الأهمّ، خسائرنا القيمية الكبرى، في إنتاج «إنسانية جمعية» أو حتى «فردانية عقلانية» تدبر الأزمات العصيبة بمزيد من الحكمة والتبصّر والإيثار. لهذا يتوجَّب علينا الاعتراف بأن الإنسانية رسبت في هذا الامتحان العسير، وأن ما بشّرت به العولمة والحداثة وحوار الحضارات، وما إلى ذلك من «مفاهيم مسكوكة وترحالية»، لم نجد له من أثر في قلب الإعصار، وتحديداً في الدول التي لم يُبْنَ فيها الإنسان، وتُرِكَ فيها منذوراً لأدوات «التضبيع» والتتفيه.

في الختام لا بدَّ من التأكيد على أن درس الدرس الذي يتوجَّب الخلوص إليه، من هذي الجائحة، هو البناء الحضاري للأمم والشعوب، عبر بناء الإنسان وجعله محور كلّ الاستهدافات التنموية، مع ما يوجبه هذا البناء من تعاقدات مجتمعية جديدة، ومصالحات ذكية بين الطبيعة والإنسان، وبين الإنسان والإنسان. فهذا الوباء المُعَوْلِمُ للألم والفزع والشر، سيغرس في ذاكرة الشعوب خبرات مؤلمة عن سوء التدبير والتعاطي مع الأزمات، وسيذكرها بأن ما حقّقته البشرية من انتصارات مزعومة على الطبيعة، وما بلغته من شأوٍ في باب المستحدثات التقنية، وأن ما كرّسته من قيم الاستهلاك واحتمالات الضبط والتوجيه، بات بلا معنى، أمام فيروس مجهري أصاب العالم في مقتل، وعمق من جرحه النرجسي.

ستدرك البشرية، ولو بعد حين، أن الحياة تستمر بالضروري من أساسيات حفظ النفس والحياة، وألا حاجة إلى العلامات الفاخرة لتأكيد التمايز الاجتماعي، وألا حاجة إلى «المؤثرين» من صنَّاع التفاهة والبلاهة، لصناعة الرأي العام، وأن ما يمكث وينفع الناس هو العلم/مفتاح الفرج.

إن الحجر الصحي الذي يختبره العالم اليوم، هو أشبه ما يكون بعودة مفروضة إلى الذات، في شكل خلوة تفكير وتغيير وتنوير، لإعادة اكتشاف الأنا والآخر، وإزالة السحر عن الوقائع والأشياء، فالمطلوب أن تصير هذه «الخلوة القسرية» عتبة تأسيساتية فارقة ومائزة لإعادة قراءة وتأويل الحال والمآل، عبر اكتشاف الذات في محدوديتها القصوى، بعيداً عن وهم التضخّم الهويّاتي.

لربَّما كان من الضروري، أن تصفع الجوائح، الإنسان من حين لآخر، علّه يستفيق وينتهي من «رأسمالية الكوارث»، فعالم ما قبل سردية الرعب الكوروني، كان غائصاً في بلطجة دولية فجّة، لم يكن معها يعير أدنى انتباه لِأُمِّنَا الأرض، ولا إلى تلوثها ونهبها وتدميرها الذي فاق كلّ المعدَّلات، كان منشغلاً فقط بالتحريض على الاستهلاك وتوطين قيم السوق والتفاهة. وها هو الفيروس يصفع الجميع، ويعيد الإنسان إلى عُريه وضعفه ودهشة البدء، فهل سيستوعب الواقعة والدرس؟ والتي تتلخّص في هكذا عبارة «ألا ما أضعفك أيها الإنسان». ■ **عبد الرحيم العطري**

إن الحجر الصحي الذي يختبره العالم اليوم، هو أشبه ما يكون بعودة مفروضة إلى الذات، في شكل خلوة تفكير وتغيير وتنوير

جان كالبيتسر:

العالم غير آمِن وعلينا التكيُّف

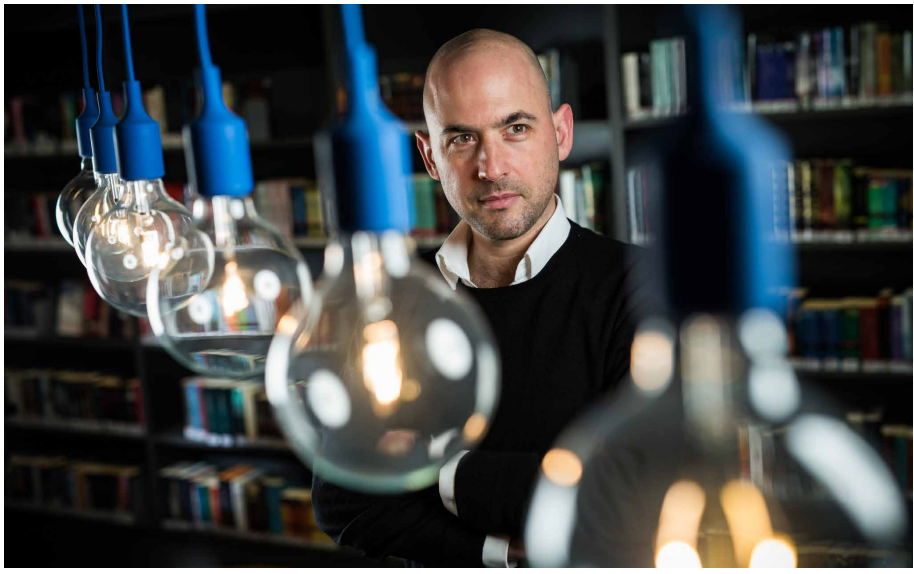
كان لعام 2020 استهلالٌ غير مُبشِّر: ففي يناير/ كانون الثاني، دمَّرت الحرائق المروِّعة غابات أستراليا، والتهمت النيران آلاف الحيوانات البريّة، لتصبح أزمة «التغييرات المناخية» معضلةً أكثر واقعية من أي وقتٍ مضى، بينما تواصل مئات الآلاف زحفها هرباً من الحروب والصِّراعات، ليأتي فيروس «كورونا» المُستجَد المُنتشر في جميع أنحاء العالم، خالقاً حالة من القلق وعدم الاستقرار، فأصبح الكثيرون يعتكفون في المنازل ويتقوقعون على ذواتهم جرَّاء نوباتٍ من الهلع الاستباقي خشية ما هو آتٍ وما تحمله الأيّام القادمة.

انطلاقاً من أهمِّية احتواء مخاوف البعض والتخفيف من تهويلات البعض الآخر، كان لموقع «دي تسايت» الألماني هذا الحوار مع الطبيب النفسي «جان كالبيتسر» الحاصل على دكتوراه الطب النفسيّ من جامعة كوبنهاغن، ورئيس وحدة العلاج النفسيّ في عيادة أوبيربرج النهارية Kurfürstendamm في برلين، الذي صدر له العام الماضي كتاب بعنوان «أن تكون مصاباً بالبارنويا الرَّقميّة/ Digitale Paranoia - bleiben»، إذ يفنِّد «كالبيتسر» في حواره أهمِّية التواصل مع الآخرين للحَدِّ من المخاوف التي تحيط بهم والتعاطي معها بصورةٍ أكثر إيجابية.



هل أصبح البشر أكثر تخوُّفاً من المُعتاد مقارنةً بالماضي؟

- نعم، بالتأكيد . لاحظت ذلك في مجال عملي سواء على الصعيد الجماعي أو الفردي، وعلى ما يبدو أن الأمر في تصاعد بحكم تزايد التهديدات العالمية التي صارت تؤثِّر حالياً على محيط حياتنا الشخصيّة. فعلى سبيل المثال، لدينا فيروس كورونا المُستجَد وما يثيره من حالة هلع لدى المواطنين، فبعض الأشخاص الذين يأتون إلينا في العيادة الخارجية والعيادة النهارية لم يعد بإمكانهم التفكير بمعزل عن هذه الأحداث، وذلك نظراً لحجم التهديدات المباشرة وتداول الأخبار السيئة، التي لم يعد بالإمكان إيقافها أو حجبها.



إذن أنت ترى أن الآلة الإعلامية تلعب دوراً حاسماً في مثل هذه الأحوال..

- بالطبع.. الصحف ووسائل الإعلام الاجتماعيّة تعد نافذة هامّة نُبصِر من خلالها العالم كلّه. كذلك هناك أهمِّية حثيثة لعنصري الصورة واللُّغة باعتبارهما عاملين حاسمين في رسم الصورة الذهنية للمُتلقِّي، ومن ثَمَّ وجب على هذه الوسائل الجماهيرية أن تنقل صورةً حقيقية تتماهى مع العالم على أرض الواقع، ولكن غالباً ما يتم ذلك بصورة يشوبها القصور. على سبيل المثال، نجد بعض التقارير التليفزيونية تتضمَّن صوراً لأشخاص من أصل آسيوي يرتدون أقنعة التنفس والسُترات الواقية، وهي صور لا تعبِّر عن واقع الحال في دولتنا الاتّحادية. المشكلة تكمن أيضاً في الإشارات الخاطئة التي تثير التحيُّزات والمخاوف.. لا يمكنني تأكيد حجم الميلودراما النفسيّة التي تخلقها مثل هذه الإيعازات غير الدقيقة في شوارع ألمانيا. ما نحتاجه بحقّ أن نعي حجم الخطر المُهدِّد للبشريّة ككلّ، ليكون بيننا نوعٌ من التراحم المطلوب تحديداً في أوقاتٍ كهذه، بحيث لا يفكِّر الجميع في خلاصهم فحسب، بل أيضاً يفكِّرون في الصورة الكبيرة للبشريّة.



في رأيك، هل الخوف مسألة نسبيّة ترتبط بالفئة العمرية، أم أن الشبابّ والكبار يتخوَّفون بالقدر نفسه ممّا يشهده العالم حالياً؟

- الخوف شعور فطري لا إرادي يعتري جميع الفئات العمرية. وإنْ كنت أرى انتشار المخاوف غير المُبرَّرة والمُبالغ فيها بالأكثر لدى كبار السن، كالخوف من اعتداءات المهاجرين أو جرائم العصابات. هنا يلعب الإعلام أيضاً دوراً هامّاً للغاية، فقد أصبح من الممكن أن تشوِّه وسائل التواصل الاجتماعي فحوى الرسالة الجماهيرية وتجعلها على النقيض تماماً. أمّا فيما يخصُّ الشباب، فهم بالطبع قلقون من إيذاء المستقبل وما يحمله لهم. ومع ذلك، فإنهم غالباً ما ينجحون في إحالة الخوف إلى شعور إيجابي من خلال ممارسة نشاط سياسيّ أو توعويّ. هذا الشعور بالقدرة على فعل شيء يساعدهم على تجاوز السياج السلبي لمشاعر الخوف والقلق.. فلا غضاضة من تعامل شريحة الشباب مع تهديدات العالم، لأنهم يستطيعون بلورة واستنفار قدراتهم. ما يؤرِّقني حقّاً كمعالج نفسيّ «الأطفال»، إذ تنبغي حمايتهم من تسلل مخاوف الآباء إليهم، كما ينبغي أن يظلّوا بمعزل عن تهديدات العالم الصاخب قدر المستطاع.

ربّما الأحرى بنا في التعامل مع تحدّي فيروس كورونا أن نلتقط الدرس المُستفاد عندما تبدأ مشاعر الخوف والقلق في الانحسار

في ظلّ التصدي للتغيُّرات المناخية، يشعر الغالبية بالارتباك والعجز وكونهم بمعزل عن واضعي السياسات، ما هي رؤيتك حيال ذلك؟

- لكي يصبح الخوف نشاطاً إيجابياً، من المهمّ أن تكون هناك مساحة للعمل المشترك. هذه هي أفضل طريقة لمواجهة مشاعر الخوف. فإذا كانت السياسات تُوضع في الأساس من أجل الأفراد، فيمكن تطويعها أيضاً لحماية الصحَّة العقلية للسكّان وتشجيع المشاركة. فعلى سبيل المثال، يمكن تيسير شروط ولوائح البناء، ممّا يسهِّل على سكّان المنازل تثبيت أنظمة الطاقة الشمسية أو إنشاء واجهات خضراء للمنازل. من حيث التأثير الملموس، قد لا يكون هذا الأمر ذا مردودٍ كبير، ولكن حتى نتمكَّن من استيعاب مثل هذه التحدّيات، يجب على الفرد أن يكون قادراً فعلياً على القيام بشيء لتحسين بيئته المعيشية إلى جانب جهود الدولة.

هناك مصطلح مستحدَث في اللُّغة الإنجليزية؛ يُعرَف بـ«الحزن الناشئ عن تغيُّر المناخ/ Solastalgia».. ترى أي المشاعر يعكسها هذا المصطلح؟

- من الطبيعي أن تهيمن مشاعر الحزن والخوف والعجز على البشريّة جرَّاء تمرُّد الطبيعة الذي بات يتوعَّد الإنسان بمخاطر هو المتسبِّب فيها جرَّاء تعامله غير المُنضبِط معها. لا شكّ أن الناس يشعرون بالارتباك تجاه العديد من الأحداث المُخيِّبة للآمال، ولكن في بعض الأحيان تتطوَّر مشاعر الارتباك بصورةٍ إيجابية يمكنها أن تُحدِث انفراجاً. الأخطر هو أن يصبح الاضطراب حالةً دائمة لا تزول، لكونها تلتهم طاقة الفرد كاملةً. ثم يمكن أن تتحوَّل هذه الحالة فيما بعد إلى اكتئاب. وهو ما يصيب البعض بعدم التوازن والعجز التام إزاء ما يواجهون، وكأنهم يريدون فقط الاختباء وسحب الأغطية فوق رؤوسهم.. لابدّ من التعامل مع الأمر قبيل الوصول إلى مثل هذه النقطة اليائسة.

كيف يمكن التعامل مع هذه المشاعر على أرض الواقع؟

- ردود الفعل هامّة للغاية. كثيرون يفضلون الانسحاب، نظراً لاحتياجهم المُلح إلى مساحات وفرص تجعلهم يشعرون

أنهم على ما يرام. ولكن من المهمّ خلق توازن صحي بين الرجوع إلى المنطقة الآمنة وبين التحدّيات التي تهدّدنا بالخارج. يحتاج البعض أحياناً إلى الانزواء والابتعاد، ولكن عليهم ألّا يطيلوا أمد ذلك، فيسقطون من حسابات العالم ويصبحون معزولين عن الواقع المُعاش. الانسحاب لا يدرأ مخاطر الأشياء السلبية فحسب، بل يجعلهم يفقدون أيضاً أولئك الأشخاص المُعضدِين لهم واللحظات الجميلة التي تسعِدهم. وبذلك يصبحون بالفعل خارج العالم وخارج الحياة. فعندما ينحصر الإطار الذي يتحرَّك فيه الشخص أكثر وأكثر بسبب المخاوف والانسحابات، يُعرَف ذلك في علم النفس بـ«فقدان التعزيز الإيجابيّ»، وهو العامل الأساسيّ المسؤول عن تطوُّر مشاعر الاكتئاب.

كيف يمكن تجنُّب الوصول إلى ذلك المنعطف النفسيّ؟

- يجب التحدُّث أوّلاً مع الآخرين حول هذه المخاوف. وإخبار الأصدقاء أو العائلة أو زملاء العمل بالحاجة إلى الخروج تدريجياً من ذلك النفق المظلم. والأفضل، بالطبع، أن يكون ذلك بمرافقة أحد المُقرَّبين، للمساعدة وقت أن تخرج الأمور عن السيطرة.. أولى الخطوات تبدأ بكسر دائرة الخوف والاشتباك الحسي مع فعل مغاير كمشاهدة سلسلة دراما تليفزيونية جديدة تساعد على الانفصال اللحظي المؤقت عن دائرة الأفكار المشتعلة، وليكن ذلك المساء وكلّ مساء هو الموعد الذي يتمُّ اختياره للامتناع عن الحديث بشأن المخاوف أو حتى التفكير فيها، وكأنه تمرين يومي لكسر الدائرة المحترقة داخل العقل.

إذا لم تتح هذه الفرصة ولم تكن هناك بيئة اجتماعيّة ثابتة تساعد على ذلك، ما البدائل الأخرى؟

- هناك ضرورة، في هذه الحالة، لإيجاد مجموعة يتمُّ الشعور بالانتماء إليها. من المهمّ وجود حلفاء في مثل هذه المرحلة. يمكن الانضمام



إلى جمعية أو الاشتراك في نشاط خدمي تطوعي سواء داخل العمل، أماكن العبادة، أو غيرها من الكيانات المجتمعيّة. لابدّ من خلق أهدافٍ مشتركة مع آخرين، فهو أمرٌ حيوي وضروي لاستمرارية المقاومة النفسيّة. يمكن الاستفادة أيضاً من تقنيات الواقع الرَّقميّ للحصول على فرص جديدة للتواصل مع أشخاصٍ متطابقين في طريقة التفكير، ما يجعل الأمر أكثر نجاحاً.

وقف تغيُّر المناخ، أو منع الجرائم الفظيعة، أو تعطيل زحف فيروس قاتل، كلّها أهداف تبدو ضخمة ويصعب تحقيقها. كيف يمكن إذن خلق هدف مَرِن وإدارته...؟

- يجب أوّلاً تحديد الشيء أو الهدف المرجو الحفاظ عليه. بالطبع إنقاذ البشريّة هدف نبيل، لكنه غير واقعي. لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك بمفرده، حتى الشخصيات البارزة مثل غريتا ثونبرغ، المهاتما غاندي، روزا باركس، نيلسون مانديلا... لم يتمكّنوا من إحداث تأثير كبير، لكنهم بدأوا خطواتهم أيضاً على نطاقٍ فرديّ. وهذه هي نواة أي فِعل عظيم أن نبدأ بأنفسنا أوّلاً.. فقط ينبغي أن يعمل كلّ فرد في بيئته للحفاظ على الإنسانيّة ككلّ. فالأمر يتعلَّق بإبقاء مسيرة الحياة رغم كلّ المخاوف والتهديدات الحقيقيّة. بهذه الطريقة، يمكن الحفاظ على مساحتنا الصغيرة داخل المنظومة الأكبر.

ألمانيا من الدول الأقلّ تأثُّراً بتغيُّرات المناخ مقارنةً بالبلدان الأخرى. معدَّلات الإصابة بفيروس كورونا قليلة نسبيّاً في ألمانيا. تنعم دولتنا الاتّحادية بالسلام، على عكس أجزاء أخرى من العالم، تُرى.. هل تبدو مشاعر الخوف التي تعتري كثيراً من الناس في ألمانيا أمراً غير منطقي في رأيك؟

- إن المخاوف من التأثُّر المباشر بالكوارث الشديدة لتغيُّر المناخ في ألمانيا، هي أمر غير منطقي، على الأقلّ في الوقت الحالي. كذلك لا يؤثِّر تفشي فيروس كورونا علينا بصورة مقلقة مثل البلدان الأخرى: لدينا حالاتٌ أقلّ ونظامٌ صحي أفضل وسياسة أكثر فاعلية وشفافية ووسائل إعلام مجانية. لكن الخوف غير المُبرَّر قد يكون له معنى أيضاً. أننا نحاكي مفهوم الإدراك الجمعي لكلمة «مخاطر» حتى وإنْ لم تؤثِّر علينا شخصيّاً، فهي في النهاية تهمّنا باعتبارنا جزءاً من سكّان هذا الكوكب. والواقع أن هذا يقودنا إلى التفكير بصورةٍ أعمق في القضايا ذات البعد العالمي.

هل الخوف لدى أفراد في أجزاءٍ أخرى من العالم يختلف عن مخاوف البعض في ألمانيا؟

- هناك أشكال متطرِّفة من الخوف يمكن أن تشل حياة البشر، ونادراً ما يكون ذلك في الدول الغنيّة. ومع ذلك، نجد في مخيمات اللاجئين اليونانية، الأطفال يعيشون في حالةٍ من اليأس التام، حيث تنتاب بعضهم حالة من اللامبالاة، ويلتزمون الصمت، ولا يكادون يأكلون، فقط يحدِّقون في الفضاء. نحن جزء من الإنسانيّة التي ينتمون إليها أيضاً. ومن المهمّ أن يكون لدينا وعيٌ بأن هذه الكوارث الإنسانيّة تحدث، حتى لو لم نتمكَّن من رؤيتها مباشرة. فالأمر يتعلَّق دائماً بضرورة الانفصال عن وهم «المدينة الفاضلة». نحن نعلم أن العالم ليس آمناً. وعلينا أن نتكيَّف مع هذه الحقيقة، فدائماً ما نواجه التحدّيات. ولكن ربَّما الأحرى بنا في التعامل مع تحدّي فيروس كورونا أن نلتقط الدرس المُستفاد عندما تبدأ مشاعر الخوف والقلق في الانحسار.

■ **حوار: ماريا ماست** □ **ترجمة: شيرين ماهر**

المصدر: موقع «Die Zeit/ دى تسايت» الألماني 2020/3/1.

حافة الذعر الكونيّ

مع كلّ ظهورٍ حديث لفيروس جديد، تتوخَّى الحكومات مع المهنيين الصحِّيين اليقظة والاستباقية لاحتواء التهديد. لكن وباء الإفراط في ردِّ الفعل المتسرِّع قد يكون تهديداً أكبر من الفيروس بحدِّ ذاته. حيث يبدو أن الحكومات ووسائل الإعلام العالميّة والمؤسَّسات المختلفة غير قادرة على الاستجابة لفيروس كورونا بطريقة هادئة وعقلانية. أحد أسباب ذلك هو أن العلماء والمهنيين الصحِّيين يميلون إلى أن يكونوا أكثر قلقاً بشأن انتشار فيروس جديد مقارنةً بسلالاتِ الأنفلونزا الأكثر شيوعاً. في مناخٍ اجتماعيٍّ تهيمن عليه ثقافة الخوف، هناك دائماً توقُّع بأن يكون الفيروس الجديد الأخطر على الإطلاق.

غداة تفشي وباء كورونا شهدت أسواق الأسهم العالمية أسوأ أسبوع لها منذ الأزمة المالية في 2008، بخسارة أكثر من 6 تريليونات دولار في قيمة الأسهم، وفي بعض الأسواق، سجّلت عمليّات بيع بمعدَّل لم يشهده العالم منذ الكساد الكبير قبل قرن تقريباً. لماذا؟ لأن المستثمرين العالميين في ذعر غير مسبوق بسبب التداعيات الاقتصاديّة المُحتملة لوباء كورونا.

يشير العديد من المُعلِّقين إلى أن المشهد العالميّ يرتقي لحالة الجنون. يجادل «روس كلارك» بشكلٍ مقنع في مجلّة «Spectator» بأن «أخطر شيء في فيروس كورونا هو حالة الهستيريا». ويوافق فيليب ألدريك، محرِّر الاقتصاد في صحيفة «التايمز»، على ذلك: «ما يجب أن نخافه هو حالة الذعر أكثر من الفيروس بحدِّ ذاته».

ويلقى باللوم على نزعتنا للتفكير في القدر والخوف من المجهول كتفسيرات لهذا السلوك. إن ثقافة المخاطرة وميلنا للمبالغة في ردّ الفعل تجاه التهديدات هما بالتأكيد أسباب لما يحدث اليوم. لكن هناك عنصراً آخر لا يقل أهمِّية مرتبط بهذه العناصر لم يتم طرحه - أن هذا الجنون لا يتأتّى من «الجماهير الجاهلة، بسيطة المعرفة، سهلة الانقياد، والساذجة»، ولكن من الطبقة الراقية المطّلعة جيّداً، والمُتخرِّجين من أعلى الجامعات، والنخب المُثقَّفة والحكومات.

كان التناقض بين ردود الفعل تجاه انتشار الفيروس من النخب وعامّة الناس صارخاً. فحتى مع ارتفاع مستوى الذعر في التقارير المتواترة حول فيروس كورونا، واصل الناس العاديون حياتهم بنسقٍ عادي. النخبة التي يفترض أنها على درايةٍ جيّدة، والتي تتّهم في كثيرٍ من الأحيان الجماهير «الغبية» بأنها عرضة للهستيريا و«الأخبار المُزيَّفة» بسهولة، كانت تحفّز على الذعر. في هذه الأثناء، وباستثناء مناطق الحجز الصحّي، يواصل الناس العاديون العمل، والتنقُّل، والذهاب إلى المطاعم... إنهم ببساطة يواصلون حياتهم الطبيعية، وفي الوقت نفسه ينتبهون للمخاطر المُحتملة.

النخب في سقوطٍ حرّ نحو حالة من الذعر؛ مثل قطيع من الحيوانات البرية، مذعور من رؤية حيوان مفترس واندفاع أعمى عبر المياه الموبوءة بالتماسيح، قد يتسبَّبون في انهيارٍ اقتصاديّ عالميّ محتمل. وفي الوقت نفسه، نرى الحس الرواقي السليم، والحكمة البسيطة ولكن العميقة، للحشود «العظيمة غير المُتطهّرة».

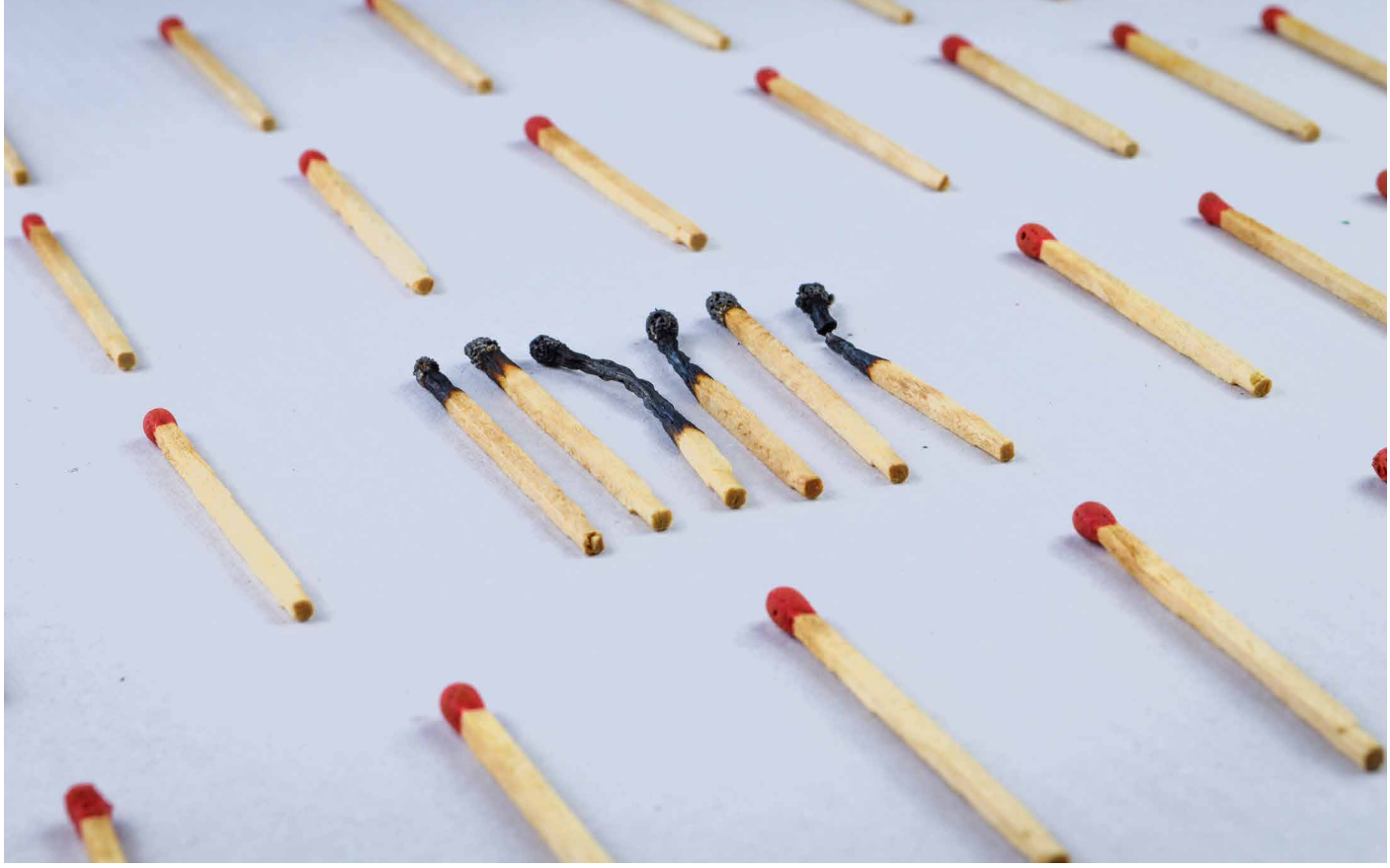
ردود النخبة، في جزءٍ منها، كانت نتاج سوء تصرُّف. لعقودٍ من الزمن حتى الآن، استسلمت ثقافتنا لفكرة أن البشر هم مصدر مشاكل العالم. يتمُّ تصوير الناس دائماً على أنهم المشكلة: سواء كنّا بصدد تدمير الكوكب أو حمل أمراض مهدّدة.

هذه الظاهرة لها تاريخ طويل في المجتمع الغربيّ. لويس باستور، العالم العظيم في القرن التاسع عشر الذي اكتشف الميكروبات، كان لديه رعب من الديموقراطية. على حدِّ تعبير «ديفيد بودانيس»، اعتبر باستور الغوغاء بأنهم «مجموعة من المخلوقات الصغيرة المصابة والتي لم يتعوَّد الناس المحترمون على رؤيتها عادةً، ولكنها كانت موجودة دائماً، جاهزة للانقضاض، لدخول مجتمعنا وتولّي المسؤولية والتكاثر».

استعارة هذا التشبيه للجماهير كبكتيريا -كائنات صغيرة تنتشر في كلّ مكان، وعلى استعداد للهجوم والنمو والانتشار- تلخّص خوف اليمين من الجماهير في ذلك الوقت.

طوال القرن العشرين، خاصّة بعد الثورة البلشفية لعام 1917، عندما أصبحت الجماهير قوة اجتماعيّة وسياسيّة حقيقيّة في المجتمع، أصبحت استعارة الحشود / البكتيريا

لعقودٍ من الزمن حتى الآن، استسلمت ثقافتنا لفكرة أن البشر هم مصدر مشاكل العالم. يتمُّ تصوير الناس دائماً على أنهم المشكلة: سواء كنّا بصدد تدمير الكوكب أو حمل أمراض مهدّدة



يمكن للإبداع البشريّ وقدرتنا على حل المشاكل أن تحتوي، وستحتوي فيروس كورونا بالتأكيد. الأفراد ليسوا المشكل، لكن النخب العالميّة هي بالتأكيد كذلك، إن سلوكهم يثير المزيد من الذعر، ويهدّد المجتمعات البشريّة بالركودَ الاقتصاديّ

سائدة بشكلٍ خاصّ. عندما تمّ إرسال لينين إلى روسيا عام 1917، وُصف بـ«طاعون (بكتيريا) العصية»، وهو جالس في قطاره محكم الإغلاق. استخدم قادة أوروبا الغربية عبارة «التطويق الصحي - cordon sanitaire» لوصف سياسة تطويق الوافد الجديد (القطار) هناك، لمنع التلوُّث والعدوى من التسرُّب بداخله.

وفي عام 1920، وصف «ونستون تشرشل»، الذي كان آنذاك وزير الخارجية للحرب والجو، الثورة البلشفية بأنها «روسيا المسمومة، وروسيا المصابة، وروسيا التي تحمل الطاعون، وروسيا الحشود المسلَّحة التي لا تضرب فقط بالحربة والمدفع، ولكن ترافقها وتسبقها أسراب من الهوامّ الحاملة للتيفوس الذي يقتل أجساد الرجال، والمذاهب السياسيّة التي تدمِّر صحَّة الأمم وحتى روحها».

في تلك الأثناء، اعتبر هتلر والنازيون اليهوديّة فيروسا قاتلاً، واليهود همّ مَنْ ينقلوه، وبالتالي كان الحلّ الوحيد هو القضاء عليهم. نظريّة احتواء ما بعد الحرب التي تهدف إلى وقف انتشار الشيوعيّة، أو في حالة الصين الشيوعيّة، «الخطر الأصفر»، هي نسخة أكثر حداثة من نفس الشعور اليوم. وفي الولايات المتَّحدة، تأسَّست المكارثية في محاولة لوقف انتشار الشيوعيّة مثل البكتيريا في المنزل.

هذا النوع من اللّغة لا يستخدم على نطاقٍ واسع في حالة الذعر اليوم حول فيروس كورونا، بالطبع. (رغم وجود بعض الإشارات إلى «خطر أصفر» جديد). ومع ذلك، فإننا نحمل هذا الشعور الأساسيّ بالتأكيد: سواء كان الناس يقاطعون الحي الصيني في مراكز المدن، أو السياسيّين الشعبويّين مثل ماتيو سالفيني أو مارين لوبان الذين يلقون باللوم على الأجانب في تفشّي المرض.

الأفراد هم الخطر -هكذا يتمُّ تصويرهم- عن غير قصد يحملون تهديداً مميتاً وغير مرئي. وهو اعتقاد يستند إلى رواية خبيثة موجودة من قبل، ولكنها لا يمكن إلّا أن تزيد من تقسيم المجتمع، وتزيد من الشعور بالضعف الذَّري (at-omised)، وتنأى بالنخب العالمية غير العقلانية والمذعورة بعيداً عن مجال الخطر في هذه العملية.

إنها حالة مأساوية. والوفيّات بسبب فيروس كورونا (Cov-id-19)، باستخدام اسمه الرَّسميّ، أمر مؤسف للغاية، لكننا بحاجة إلى إحساس بالتناسب. يعتقد أن معدَّل إماتة الفيروس لا تتجاوز واحداً في المئة، وهذا أعلى بنحو سبع مرَّات من معدَّل إماتة الأنفلونزا المألوفة، ولكنه يمثِّل جزءاً بسيطاً من معدَّل وفيات متلازمة الجهاز التنفسيّ الحادّة لعام 2003 (9.6 في المئة)، ومتلازمة الشرق الأوسط التنفسيّة في عام 2012 (34.4 في المئة).

يعتبر فيروس كورونا معدياً أكثر من مرض السارس ومتلازمة الشرق الأوسط التنفسيّة، لكن العلماء يعملون جاهدين على إيجاد العلاجات واللقاحات. وتعتقد منظَّمة الصحَّة العالميّة أن عقار «remdesivir»، الذي طوَّرته شركة «Gilead Sciences»، قد يكون علاجاً فعّالاً، وهو حالياً في طور التجارب الإكلينيكية.

ويمكن للإبداع البشريّ وقدرتنا على حلّ المشاكل أن تحتوي، وستحتوي فيروس كورونا بالتأكيد. الأفراد ليسوا المشكل، لكن النخب العالميّة هي بالتأكيد كذلك، إن سلوكهم يثير المزيد من الذعر، ويهدِّد المجتمعات البشريّة بالركودِ الاقتصاديّ. ونحن بحاجة اليوم إلى تبنِّي هدوء وحكمة الجماهير، بدل جنون وهستيريا النخب.

■ **نورمان لويس** □ **ترجمة: مروى بن مسعود** (تونس)

المصدر: www.spiked-online.com

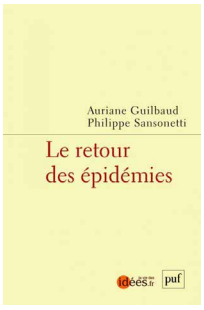
هل أصبحنا عرضة لها مرّة أخرى؟
عودة الأوبئة

إن الوباء موضوع الساعة قد شغل الناس وقلب عاداتنا وأنماط حياتنا ويقيننا بشكلٍ غير مسبوق. أعاد ترتيب أولوياتنا وعطّل حركتنا لبعض الوقت. وأصبحنا نشعر، بدرجات متفاوتة، بعجزنا عن مواجهته. والعجيب في الأمر أننا لم نعد نعرف دائماً ممَّنْ نخاف، أو حتى ما إذا كان يجب أن نخاف، خاصّة وأن الفيروس لا يعترف بالحدود. إن حالة عدم اليقين السائدة قد غذّت أوهاماً لا حدَّ لها، وأثارت شائعات جامحة تكبر وتتسارع ككرة ثلج.

منذ القدم، كانت الفيروسات والطفيليات والبكتيريا والكائنات الدقيقة الأخرى التي تسبِّب الأمراض المعدية تتعايش مع البشر. ورغم التقدُّم العلميّ وتطوُّر الصحَّة العامّة، لا تزال الأمراض المعروفة منذ قرونٍ تصيب البشر (كالكوليرا والملاريا) ، مع ظهور أمراض جديدة يمكن أن تنتشر على نطاقٍ واسع (كالإيدز والسارس). وبنهاية القرن العشرين، بدتْ إمكانية انتشار وباءٍ عالميّ حقيقي أمراً غير مستبعد ممّا فاقم شعورنا بالضعف، وأذكى المخاوف من العودة إلى «العصر الأسود» عندما كانت البشريّة عاجزةً عن مواجهة الأوبئة. لكن لماذا تظهر (من جديد) هذه الأمراض وتتحوَّل إلى أوبئة؟ وكيف يمكننا محاربتها؟ يستعرض كتاب «عودة الأوبئة»، الذي شاركت في تأليفه الباحثة في المركز الوطنيّ للبحوث العلميّة بفرنسا والمُحاضِرة في العلوم السياسيّة بمعهد الدراسات الأوروبيّة في جامعة «باريس 8»، «أوريان غيلبو»، بعض الأوبئة التي أثَّرت على سكّان العالم في بداية القرن الحادي والعشرين، ويحلِّل أبرز التحدّيات العلميّة والاجتماعيّة والسياسيّة لانتشارها.



أوريان غيلبو ▲



في عام 2015، قمتم بنشر عمل جماعيّ بعنوان «عودة الأوبئة»: لماذا يتزايد خطر انتشار الأمراض المعدية على نطاقٍ واسع في السنوات الأخيرة؟

- إن فكرة الظهور الدائم للأمراض المعدية في كلّ مرّة ليست جديدة: كما توقَّع تشارلز نيكول، الحائز على جائزة نوبل عام 1928، فإن الميكروبات تتكيَّف دائماً. يساهم في هذا الوضع العديد من العوامل التي ازدادت حدَّتها في السنوات الأخيرة، ولا سيما تطوُّر النقل الجماعيّ، والاحترار العالميّ، وزيادة عدد سكّان العالم، وتوسيع الزراعة وتكثيفها، والتكاثر وإزالة الغابات ممّا يعني زيادة الاتِّصال بين البشر والحيوانات، وتعزيز انتقال الفيروسات بين الأنواع.

هل أصبحنا أكثر عرضةً لمثل هذه الأوبئة مرّة أخرى؟

- التقدُّم العلميّ والبحث الطبيّ يقدِّمان لنا آفاقاً أرحب لمكافحة الأوبئة التي لم يكن من الممكن التفكير فيها من قبل، سواء من حيث الكشف أو العلاج. لكن هذا التقدُّم تقابله تطوُّرات مقلقة، لا سيما الاستخدام المُتهوِّر للمضادات الحيويّة في الطب البشريّ والبيطريّ الذي يعزِّز المقاومة، وعودة التناقض النسبيّ مقابل التطعيم. وقد أبرزت جميع الأوبئة السابقة أهمِّية التعاون الدوليّ.

ما هي الدروس المُستفادة التي تعلَّمناها من الأوبئة السابقة (الإيبولا، فيروس الأنفلونزا أ H1N1، السارس...)؟

- أبرزت جميع الأوبئة السابقة أهمِّية التعاون الدوليّ وعدم فعالية التدابير الجزئية والفوضوية مثل إغلاق الحدود بدون تنسيق. وقد بيَّن لنا وباء «سارز» و «H1N1» بشكلٍ خاصّ أهمِّية التواصل والشفافية بين الدول ومع الناس. بذلت الصين هذه المرّة جهوداً كبيرة في هذا الصدد بعد انتقادات لإدارتها لفيروس السارس في عام 2003. وتعمل منظَّمة الصحَّة العالميّة أيضاً على ذلك، للتكيُّف مع السياق الحالي: اجتمعت على سبيل المثال في 13 فبراير/شباط كلّ من غوغل، وفيسبوك، ويوتيوب... للحدّ من تداول المعلومات الكاذبة.

أبرز وباء إيبولا الأخير، حيث أصبحت المعركة ضدّ المرض صعبة للغاية في البلدان التي تعاني من خلل في النظم



الصحّية، أهمِّية وجود أنظمة صحّية قويّة ومرنة. في جميع هذه النقاط، لا يزال هناك الكثير الذي يتعيَّن القيام به، ولكن الحالة دقيقة بشكلٍ خاصّ فيما يتعلَّق بتعزيز النظم الصحّية، لضمان الوصول إلى الرعايةً الطبيّة والبنية التحتية الوظيفيّة، القادرة على استيعاب الزيادة المُفاجئة في عدد المرضى.

هل المؤسَّسات الصحّية العالمية مستعدة بشكلٍ أفضل ممّا كانت عليه قبل بضع سنوات؟ هل لا يزال التفاوت قائماً بين دولٍ أو مناطق من العالم؟

- يبدو لي أن منظَّمة الصحّة العالميّة تتواصل بشكلٍ أفضل ممّا كانت عليه في الأوبئة السابقة وتظهر وجودها بحزمٍ أكبر: يمكننا أن نرى ذلك على سبيل المثال في جهودها الرامية إلى عدِم التقليل من خطورة الوضع، دون التسرُّع في إعلان كورونا وباء عالميّاً. من وجهة النظر هذه، يمكننا القول إنها تعلَّمت الدرس من فيروس H1N1 السابق (حيث تمَّ انتقادها لتسرُّعها في الإعلان عن حالة وباء) ومع إيبولا (خلال وباء 2014 في غرب إفريقيا، تعرَّضت لانتقاداتٍ لإعلانها حالة الطوارئ بعد فوات الأوان). لا تزال هناك تفاوتات عالميّة قويّة للغاية في ما يتعلَّق بمرونة النظم الصحّية، الأمر الذي يمكن أن يجعل جميع جهود التحضير باليةً. وعلى الرغم من الدروس المستفادة من وباء الإيبولا، لا يزال الوضع في غرب إفريقيا مقلقاً، على سبيل المثال، وقد أعربت منظَّمة الصحَّة العالميّة عن قلقها بشأن قدرة القارة الإفريقيّة على التعامل مع فيروس كورونا.

لقد انتقدتم التعاون الصحّيّ الدوليّ، وخاصّة منظَّمة الصحَّة العالميّة. هل ما زالت انتقاداتكم سارية في عام 2020، بينما يستعد العالم لمواجهة وباء جديد واسع النطاق؟

- لقد تعلَّمت منظَّمة الصحَّة العالميّة من تجاربها السابقة، لكنها لا تزال منظَّمة حكوميّة دوليّة، وصنَّاع القرار همّ في نهاية المطاف الدول الأعضاء. وكما هو الحال في الأوبئة السابقة، على الرغم من إلحاحية الوضع سواء السابق أو الحالي، لم تكن التمويلات بالشكل أو السرعة المطلوبة: من 61 مليون دولار طلبتها المنظَّمة لمكافحة فيروس كورونا (COVID-19)، لم تحصل سوى على 1.4 مليون حتى الآن، و28 مليون دولار في شكل وعود.

من المُفارقات أن كورونا يأتي في سياق يشكِّك في التمويل طويل المدى للمستشفيات والبحوث العامّة.

- بالنسبة لآليات التمويل البديلة التي يقترحها البنك الدوليّ، مثل الأموال المتأتّية من شراء «سندات كارثة وبائية»، حيث يخاطر المستثمرون بعدم تلقِّي فوائد أو خسارة جزء من رأسمالهم في حالة تفشيّ الوباء ولكنهم يحصلون على عائدات مرتفعة جدّاً طالما لم ينتشر الوباء) ، فقد ثبت أنها غير كافية. في عام 2018، لم يسمحوا بالإفراج عن تمويلات لوباء الإيبولا في جمهورية الكونغو الديموقراطية، لأن تعريفها كان مقيَّداً للغاية. وفيما يتعلَّق بوباء فيروس كورونا الحالي، حتى لو تمَّ الإفراج عن الأموال، سيكون ذلك في أحسن الأحوال في أبريل/ نيسان - بعد فوات الأوان...
يجب الاستعداد لمكافحة الوباء في وقتٍ مبكِّر، وعلى نطاقٍ عالميّ، لا سيما من خلال الجمع بين أنظمة الصحَّة والبحوث الدقيقة مع التمويل الدائم. وهذا النسيج يقوم على دعم المصلحة العامّة الوطنيّة والعالميّة، بعد أن كشفت الأوبئة عن أوجه القصور فيها. ومن المُفارقات أن وباء كورونا يأتي في سياق يشكِّك في التمويل طويل المدى للمستشفيات والبحوث العامّة. ■ **حوار: بول سوجي** □ **ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر: le figaro عدد 27 فبراير 2020.

اقتصاد ما بعد كورونا

هل سينطلق من الصفر؟!

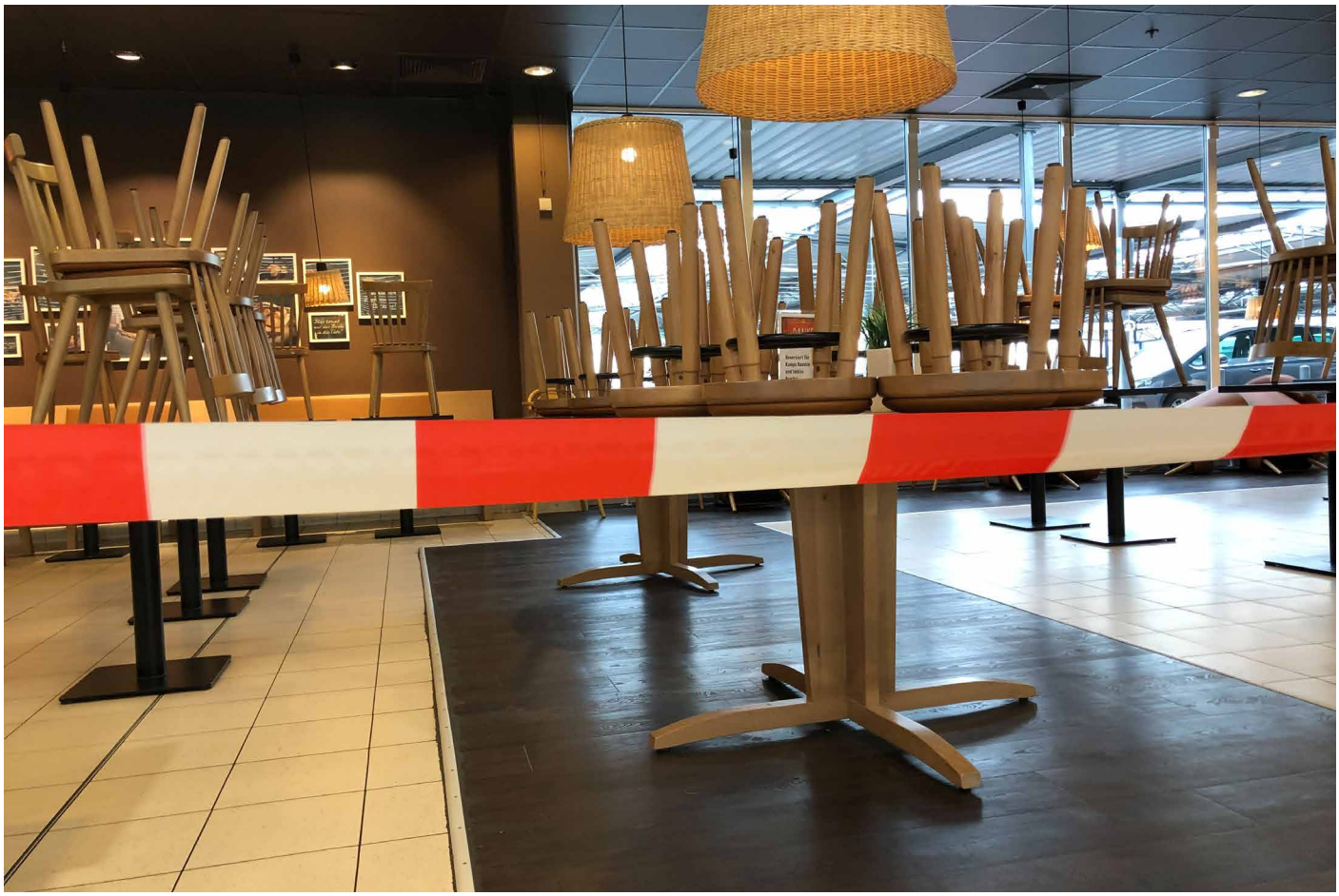
يطلق كثيرٌ من المُحللين الاقتصاديّين والمُتتبعين لمستجدات الأحداث الدوليّة مقارنات بين ما يحدث منذ بداية السنة الجارية 2020 والأزمات الاقتصاديّة التي عرفها العالمِ على الأقلّ منذ أزمة 1929 التي مهَّدت للحرب العالميّة الثانية، وما تمخَّض عنها بعد نهايتها، وصولاً إلى الأزمة الماليّة لسنة 2008. والواقع أنه من الصعب إيجاد مداخل للمُقارنة بين أزمة كورونا وتداعياتها وأيٍّ من سابقاتها. هذا الاستنتاج لا يحتاج إلى ما يُستدل بهِ لتأكيدهِ. إن الأمر لا يتعلّق بتوترات عالميّة بين الدول أدت إلى اندلاع حرب، ولا بحروب الشرق الأوسط وسلاح النفط، كما لا يتعلّق بأزمة عقارات أو هبوط أسهم، أو بمضاربات أدَّت إلى سحب الأموال من بلدانٍ وضخها في أخرى. اليوم الأزمة مختلفة في أسبابها، وبالتأكيد في نتائجها وتداعياتها.

لقد نسي العالم، أو بالأحرى تناسى، أن محاولات الخروج من أزمة 2008، تسبّبت في اندلاع حرب تجاريّة بين الصين والولايات المتحدة، باتهام الأخيرة للأولى بعدم احترام قواعد السوق في التجارة الدوليّة، وباتهام العالم لأميركا ترامب بالتراجع عن التزاماتها، سواء بالنسبة للعديد من القضايا التجاريّة أم للتغيُّرات المناخيّة، وبالعمل الحثيث على العودة إلى إرساء الإجراءات الحمائية التي تمَّ رفعها في إطار منظَّمة التجارة العالميّة، حيث صارت الصين، كما اتضح في الدورات الأخيرة لمنتدى دافوس الاقتصاديّ مثلاً، هي المدافع الأكبر عن حرّيّة التجارة الدوليّة وتنقل الأموال. ولم تعد التوترات الإقليميّة واللاجئون والعقوبات على إيران تحتلّ عناوين الأخبار الدوليّة. وأوقف الأوروبيّون التفكير في ما بعد خروج بريطانيا، وما إذا كان هذا الحدث إيذاناً بتفكك الاتحاد الأوروبيّ وخروج أعضاء آخرين في السنوات المقبلة، كما لم يعد يهمّهم نقاشُ اليسار واليمين وصعود اليمين المُتطرِّف. لكلّ هذا من غير الممكن التفكير في ما بعد الأزمة بالمنطق نفسه بالنسبة للأزمات السابقة. الآنَ ثمَّة مفارقةٌ لم يعرفها العالم المُعاصِرُ في أي فترةٍ من الفتراتِ، يتمثلُ قطباها، أولاً في وجود تحالفٍ غير معلنٍ وحيدٍ بينَ الشرقِ والغربِ، بين الدول التي تناحرتْ طويلاً بسبب خلافات سياسيّة مختلفة أو تجاريّة، كما كان عليه الأمر منذ وصول دونالد ترامب إلى البيت الأبيض،

في ظلِّ الإجراءات المُتخَذة يصعب تحفيز الأنشطة الاقتصاديّة خاصة منها الأكثر تضرراً، وبالتالي من المُحتمَل جداً أن يسجل الاقتصاد أسوأ تراجع لهُ مقارنةً مع ما شهده خلال السنوات التي تلت أزمة 1929، وأيضا خلال السنوات العشر الأخيرة منذ الأزمة المالية لسنة 2008

وبينَ الأحزابِ التي تخوض نزالاتٍ شرسة من أجل الفوز بالناخبين والمناصب والسُّلطة والأمثلة على ذلك عديدة في أميركا وأوروبا وفي البرازيل إبان الانتخابات التي أتت بجايير بولسونارو اليميني إلى الحكم؛ وثانياً في أن آفاق هذا التحالف من أجل محاربة الجَائِحة التي جفَّفت حتى المنابع التي كان يعوَّلُ عليها لتعافي الاقتصاد العالميّ من أزمة 2008، تبدو غائمةً إلى حدٍّ بعيدٍ في ظلِّ استمرار الوباء والتوقعات المُتشائمة بشأن تراجعه قريباً، وهو ما يمكن قراءته مثلاً نقلاً عن صندوق النقد الدوليّ في آخر تقاريره حول آفاق الاقتصاد العالمي لسنة 2020 عندما يقول إن هذه الأزمة غير مسبوقة، وأنه في ظلِّ الإجراءات المُتخَذة يصعب تحفيز الأنشطة الاقتصاديّة خاصة منها الأكثر تضرراً، وبالتالي من المُحتمَل جداً أن يسجل الاقتصاد أسوأ تراجع لهُ مقارنةً مع ما شهده خلال السنوات التي تلت أزمة 1929، وأيضا خلال السنوات العشر الأخيرة منذ الأزمة المالية لسنة 2008.

وإذا كان ثمّة من وصفٍ تقريبيّ يُستنتجُ مما سبق حول الوضعية الراهنة للاقتصاد العالميّ، فهو أنه سينطلق من الصفر، أو يكاد، بعد انقشاع الأزمة. فقد تعقَّدت حالة المُبادلات التجاريّة الدوليّة إلى الحدِّ الذي بدت معه المُنظمة العالميّة للتجارة غير قادرة على تحديد نسبة تقريبيّة لتراجعها خلال السنة الجارية. وتظهر هذه الحيرة



في الفرق الكبير بين الحدِّ الأدنى (13 في المئة) والحدِّ الأقصى (32 في المئة) المُتوقَع من خبرائها لهذا التراجع مقارنةً مع سنة 2019. وعلى خلاف النبرة التي لاذ بها خبراء صندوق النقد الدوليّ للتعبير عن بصيص من التفاؤل بالإشارة إلى أنه من المُحتمَل تسجيل انتعاش في الاقتصاد العالمي بدايةً من 2021 إذا قدَّمت الحكومات دعماً سياسيّاً لاقتصاداتها، فإن المنظمة العالميّة للتجارة التي قال مديرها عن نسب التراجع المُتوقعة بأنها «أرقام مخيفة»، لا ترى ما يراه الصندوق، مستندةً إلى الواقع الناتج عن أزمة 2008، التي لم يتعافَ منها الاقتصاد العالميّ حتى الآن بالرغم من أنها أزمة لا تصل في خطورتها إلى أزمة كورونا. إن المُبادلات التجاريّة لا تعدو مجرَّد مثالٍ وصورة للمجالات الاقتصاديّة والماليّة الأخرى، التي دمَّرها الوباء، وهي نفسها مرآة لحجم الإنتاج الذي يوجد في أدنى مستوياته بسبب الحَجْر المفروض على ما يقارب نصف سكّان الأرض، أغلبهم في الدول الصناعيّة الكبرى بما فيها الصين، ولحجم الاستثمارات الأجنبيّة المُباشرة التي كانت تنشط الإنتاج وسوق الشغل، وتمتص البطالة، وتغذّي بالتالي الطلب الداخلي والاستهلاك في الكثير من الدول الناشئة والفقيرة، دون الحديث عن دورها في رفع دينامية الاقتصاد في الدول الكبرى. فهذه الاستثمارات من المُتوقّع أن تشهد تراجعاً حاداً هذه السنة، حسب نشرة مارس/آذار 2020 لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (أونكتاد)، يتراوح بين 5 و15 في المئة، خاصّة أن شركات عالميّة كبرى لها أنشطة عبر العالم أعلنت عن تأثرٍ كبيرٍ، وعن تراجعٍ غير مسبوقٍ لأرباحها، وأنها مضطرة لتقليص نفقاتها. انطلاقاً من ذلك، يمكن الحكم على توقعات صندوق النقد الدوليّ بانكماش الاقتصاد العالميّ خلال السنة الحالية بنسبة 3 في المئة بأنها متفائلة، أو على الأقلّ تنأى ما أمكن عن الحديث عن احتمال حدوث كسادٍ حقيقيّ علما أن أسبابه قائمة، وباتت منظوراً إليها بوضوح ربَّما أكثر من أي وقتٍ سابق (بطالة مرتفعة مقرونةً بضعفٍ كبيرٍ في القدرة الشرائيّة، تراجع الموجودات، انخفاض الإنتاج وتقلصٌ قد تصل نسبته إلى الثلث في التجارة الدوليّة). ولأن الأزمة شاملة لم تستثنِ أي بلد، وإنْ بشكلٍ متفاوت، فإن محفزات الانتعاش سيكون مفعولها بطيئاً في أفضل الأحوال. فوفقاً للمُعطيات الواردة في نشرة الأونكتاد المذكورة، كلّ القطاعات الصناعيّة والطاقيّة والتجاريّة والخدماتيّة لم تسلم من آثار الجَائِحة، خاصّة أن عدداً من الدول الكبرى والناشئة على حدٍّ سواء اتخذت إجراءات صارمة لمواجهة الوباء عطّلت بشكلٍ كامل تقريباً الحركة الاقتصاديّة داخليّاً وخارجيّاً. وهي المعطيات التي دعمتها لجنة التنمية للبنك الدوليّ بعد اجتماعها منتصف أبريل/ نيسان الماضي بالتأكيد على أن «الجَائِحة تسبّبت في تعطيل التجارة، وسلاسل التوريد، وتدفُّق الاستثمارات. وأن رأس المال البشريّ غير مستغل، بينما تناقصت بسرعة التحويلات المالية للمُغتربين، وعائدات النقل، والسياحة، بالإضافة إلى انهيار أسعار المواد الأوليّة».

إنّ إجماع هذه المؤسَّسات الماليّة والاقتصاديّة الدوليّة، بالإضافة إلى التحالف العالميّ غير المُعلن، بالرغم من الاتهامات المُتبادلة- أحياناً- بصنع الفيروس وبقرصنة المواد الصِّحيّة المُوجَّهة لهذا البلد أو ذاك- أحياناً أخرى- وغير ذلك، يعني أن لا أحد يملك الإجابةَ عن سؤال المُستقبل، سواء في المدى القصير أم المُتوسط ناهيك عن المدى الطويل.

بيد أن قراءة في التصرُّفات والإجراءات التي تمَّ التعامل بها مع الوباءِ، من شأنها أن تقدِّم صورة مركَّبة مُحتمَلة لما ستكون عليه التوجُّهات الاقتصاديّة لعالم ما بعد الجائحة التي يمكن اعتبارها منعطفاً في ما يتعلَّق بإعادة ترتيب الأولويات ليس الاقتصاديّة فحسب، بل الاجتماعيّة أيضاً، وهو ما يحتم القيام بإصلاحات سياسيّة عميقة ملاءمة بإمكانها مواجهة الأزمات المُحتمَلة في المستقبل بفعالية ونجاعة أكثر.

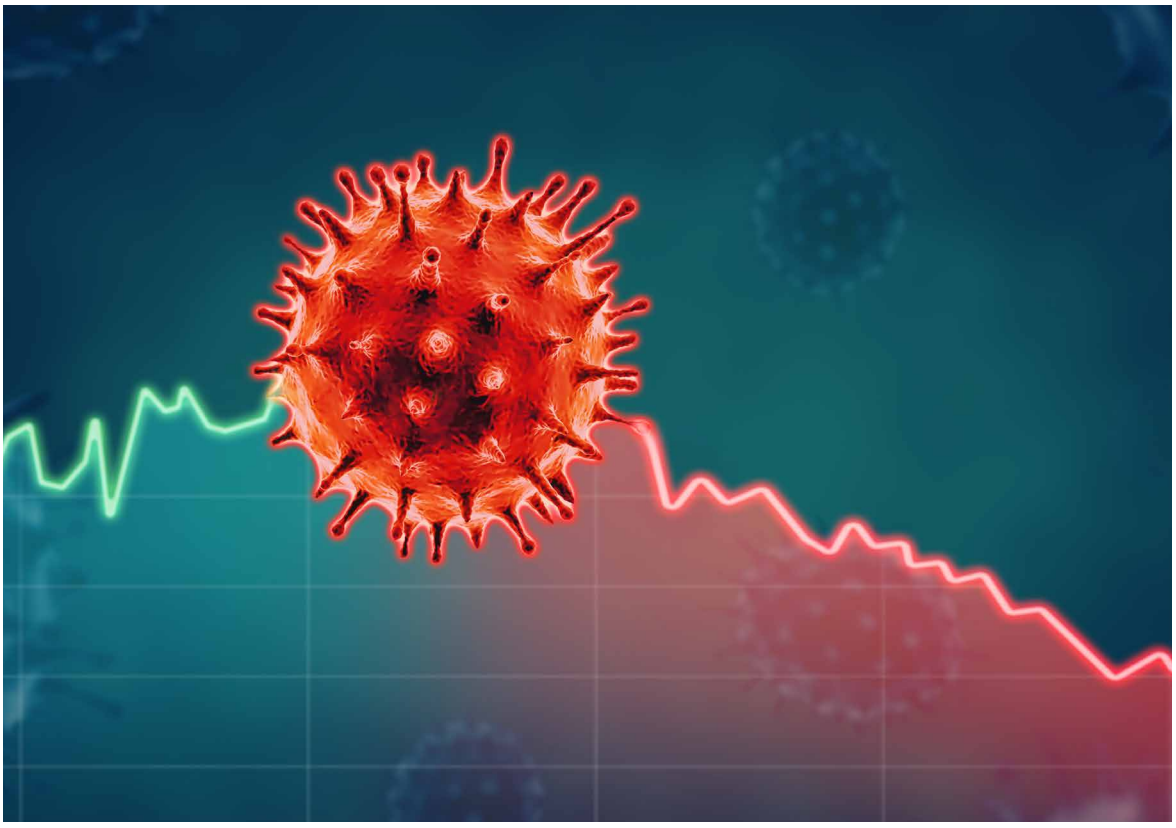
في هذا السياق، يمكن التمثيل بالوضع في القارة الإفريقيّة التي اعتبرها محللون ومؤسَّسات دوليّة، خاصّة مع توالي الاضطرابات على الاقتصاد العالميّ، قارة الأمل بالنظر إلى نسب النمو المُتواصلة خلال العقدين الأخيرين. ذلك أن التوقُّعات تبدو سيئةً، لأن هذا النمو ظلَّ مرتبطاً بشكلٍ كبير بالشركاء الأساسيّين للدول الإفريقيّة خاصّة الصين التي كسبت مواقع متقدِّمة على حساب الشركاء التقليديّين الأوروبيّين والولايات المتحدة، وبعد هذه السنوات «الزاهرة» التي لم تتأثر كثيراً بتداعيات أزمة 2008، يتوقّع البنك الدوليّ تسجيل نسبة نمو سلبية تتراوح بين ناقص 2.1 في المئة وناقص 5.1 في المئة في بالنسبة للدول الإفريقيّة جنوب الصحراء، معللاً ذلك بانخفاض أسعار المواد الأوليّة وتراجع السياحة، يُضاف إليهما غلق منافذ التصدير وتوقُّف تدفُّق الاستثمارات.

إنّ هذه الوضعيّة يمكن تعميمها لتشمل أغلب البلدان النامية والفقيرة أو الغنيّة بالمواد الأوليّة الأساسيّة، والتي تحتاج ديناميّة الاقتصاد فيها إلى مُحفزات خارجيّة، سواء تعلَّق الأمر بالاستيراد والتصدير أم بتحويلات المُهاجرين والاستثمارات الخارجيّة، أم كذلك بالمساعدات والقروض المُوجَّهة لمشاريع تهمُّ التنمية البشريّة أو إنعاش القطاعات الحيويّة.

إن هذه الهزة غير المسبوقة تفرض على هذه الدول إعادة النظر أولاً في نماذجها الاقتصاديّة باتجاه الحدِّ من تبعيتها الاختياريّة بحكم المُوارد المُتوفرة والتي تتحكَّم في توجيه سياسات هذه الدول في مجال الاقتصاد، أو المفروضة بحكم موازين القوى الدوليّة، وبحكم ظروف تاريخيّة كالاستعمار مثلاً، وتحويل هذه التبعية إلى علاقات تأخذ في الاعتبار المصالح الوطنية تماماً كما تقوم بذلك الدول القويّة الغنيّة.

لقد أدت الظرفيّة المُفاجئة التي فرضها الوباءُ، كما سبق الذكر، إلى صعودٍ مفاجئ أيضاً لروح جماعيّة على مستوى العالم، والتفكير بشكلٍ مشترك في الحلول، بالرغم ممّا يطفو إلى سطح الأحداث من ممارساتٍ (أنانية) من قِبَل دول كبرى أحياناً تجعل كلّ ذلك في مهب شكوك كثيرة بشأن المستقبل. إلّا أن الأمر قد يتجاوز الشكوك ليصبح حقيقة. فإذا كان طبيعيّاً وعادياً أن تتضرَّر الدول الفقيرة فإنّ كثيراً من الدول العظمى تبدو ضعيفة أمام أزمة مثل الأزمة الراهنة، يتداخل فيها الاقتصاديّ بضرورة المحافظة على الحياة البشريّة، توفير الغذاء بتأمين المُستلزمات الصِّحيّة، وفي ذلكَ لم ينفعها ما أنفقته من جهدٍ ماليّ وسياسيّ، وأحياناً عسكريّ للاستحواذ على الأسواق الاستهلاكيّة أو الاستثماريّة في العالم، وهذا قد يدفع الولايات المتحدة مثلاً إلى المزيد من «أميركا أولاً» ولو بدون ترامب، والعديدَ من دول الاتحاد الأوروبيّ إلى إعادة الاعتبار لسيادتها ولقرارها الوطنيّين اقتصاديّاً وسياسيّاً، خاصّة أن المؤسَّسات الأوروبيّة لم تقدّم ما يكفي من الدعم لأعضائها.

إنّ العالم يُعاد تشكيله وفق معايير جديدةٍ، لم تفرضها قوة عسكريّة ولا يد لأحد فيها بشكلٍ مباشر، على الأقلّ حتى الآن، ومن غير المُستبعد أن نشهد عودةً بشكلٍ مرنٍ إلى بعض المبادئ التي قامت عليها الأممُ من سيادة وطنيّة وإجراءات لحماية ودعم الاقتصاد، والانفتاح المدروس على الخارج بما لا يؤثِّر على المصالح الوطنيّة الحيويّة، ولعلّ بوادر المرحلة المُقبلة بدأت فعلاً بفرض بعض المعايير المُقيِّدة للاستثمارات الأجنبيّة في دول الاتحاد الأوروبيّ، والدعوات إلى الحفاظ على المحاصيل الزراعيّة ومخزونات الأدوية، بالإضافة إلى ما كان دونالد ترامب قد شرع في تنفيذه قبل ظهور الوباء من إجراءات حمائيّة، كما أن الدعم المُقرر للمقاولات قد يستمر لوقتٍ طويل لمُواجهة المُنافسة الخارجيّة عند الاقتضاء. فهل يكون ما يحدث إيذاناً بنهاية مرحلة من العولمة الشاملةِ؟ ■ **جمال الموساوي**



من غير المُستبعد أن نشهد عودةً بشكلٍ مرنٍ إلى بعض المبادئ التي قامت عليها الأممُ من سيادة وطنيّة وإجراءات لحماية ودعم الاقتصاد، والانفتاح المدروس على الخارج بما لا يؤثِّر على المصالح الوطنيّة الحيويّة


Jess Rodrigues (Espagne) shutterstock

إيمانويل كوكيا:
الفيروس قوة فوضويّة للتحوُّل

منذ بداية وباء (كوفيد - 19)، غزت الفيروسات الأجساد والعقول. لكن أي نوع من الكائنات هي؟ بالنسبة لإيمانويل كوكيا، الفيلسوف والمحاضر في كلية الدراسات المتقدِّمة في العلوم الاجتماعيّة بفرنسا، فإن الفيروسات هي قبل كلّ شيء قوة تحوُّل. بانتقالها من مخلوقٍ إلى آخر، تشهد على أن أصل الحياة واحد. في هذه المقابلة، يطرح الفيلسوف فكرته من زاوية مختلفة، ربَّما للتخفيف من القلق جرَّاء العدوى.

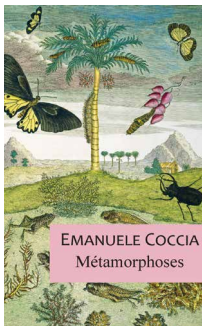

إيمانويل كوكيا ▲

في كتابك الأخير «التحوُّلات»، تؤكِّد بأن جميع الكائنات الحيّة تنطلق من حياة واحدة، تتحوَّل إلى ما لا نهاية. أليس هذا ما نشهده جميعاً مع هذا الوباء؟

- آخر صفحتين من «التحوُّلات» خصّصتهما للفيروسات. أرى بأن الفيروسات هي الطريقة التي يتحقّق بها المستقبل في الحاضر. الفيروس، في الواقع، قوة نقية من التحوُّل الذي ينتقل من حياة إلى أخرى دون أن يقتصر على حدود الجسم. حر، فوضوي، غير مادي تقريباً، لا ينتمي إلى أي فرد، لديه القدرة على تحويل جميع الكائنات الحيّة ويسمح لها بتحقيق شكلها المُميَّز. أعتقد أن جزء من حمضنا النووي، ربَّما حوالي 8 %، من أصل فيروسي! الفيروسات هي قوة التجديد والتعديل والتحوُّل، ولديها إمكانية للاختراع الذي يلعب دوراً أساسياً في التطوُّر. إنها دليل على أن هويّاتنا الجينية كانت نتيجة لتداخلات متعدِّدة. أستحضر هنا ما ذكره جيل ديلوز، «نحن نصنع جذوراً مع فيروساتنا، أو بالأحرى فيروساتنا تجعلنا نمد الجذور مع الكائنات الأخرى». من وجهة النظر هذه، فإن المستقبل يشبه مرض الهويّة، وسرطان الحاضر: إنه يجبر كلّ الكائنات الحيّة على التحوُّل. عليك أن تمرض، وتسمح لنفسك بالتقاط العدوى، وربَّما الموت، حتى تمضي الحياة في مسارها وتصنع المستقبل.

قد تبدو هذه النظرة إلى الأشياء أكثر إزعاجاً بدلاً من الطمأنة...

- من الواضح أن القوة التحويلية للفيروسات لديها شيء مخيف في الوقت الذي نجح فيه (كوفيد - 19) في تغيير عالمنا بشكلٍ عميق. سيتمُّ التغلب على الأزمة الوبائية في نهاية المطاف، ولكن ظهور هذا الفيروس قد غيّر أنماط حياتنا وواقعنا الاجتماعيّ وتوازناتنا الجيوسياسيّة. ينتج الكثير من الألم الذي نعيشه اليوم عن إدراكنا بأن أصغر كائن حيّ قادر على شلّ أفضل حضارة بشريّة مجهزة من وجهة نظر تقنية. أعتقد أن هذه القوة التحويلية لكائن غير مرئي تثير تساؤلات حول نرجسيّة مجتمعاتنا.



بمعنى؟

- لا أفكر فقط في النرجسيّة التي تجعل الإنسان سيّد الطبيعة، ولكن أيضاً ما يقودنا إلى أن ننسب للإنسان قوة مدمّرة وحصريّة على التوازنات الطبيعيّة. نحن متميّزون ومختلفون واستثنائيون في الكون، هكذا نعتقد، رغم الضرر الذي نلحقه بالكائنات الحيّة الأخرى. ومع ذلك، فإن قوة التدمير هذه، تماماً مثل قوة التوالد، موزَّعة بشكلٍ عادل على جميع الكائنات الحيّة. الإنسان ليس الكائن الوحيد القادر على تغيير الطبيعة. أي بكتيريا أو فيروس أو حشرة يمكن أن يكون لها تأثيرٌ كبيرٌ على العالم.

هل ينبغي أن يدفعنا الوباء الحالي إلى تغيير تفكيرنا في الطبيعة؟

- لا تزال البيئة المُعاصِرة تتغذَّى من خيال تظهر فيه الأرض كمنزل الحياة. هذه الفكرة مُضمَّنة في كلمات علم البيئة والنظام البيئيّ: oikos، باليونانيّة، تعني المسكن، المجال المحليّ المُنظم جيداً. في الواقع، الطبيعة ليست مجال التوازن الدائم، حيث يكون الجميع في مكانهم. إنها مساحة للاختراع الدائم للكائنات الحيّة الجديدة التي تخلّ بالتوازن. تهاجر جميع الكائنات، وتحتلّ جميع الكائنات منازل الآخرين. هذا هو، في الأساس، جوهر الحياة.

أكثر من الخوف من الفيروس، هل يكشف المناخ الحالي عن الخوف من الموت بالنسبة لك؟

- بالتأكيد. من الطبيعيّ أن تخاف من الموت وتتجنّبه قدر الإمكان. ومن الطبيعيّ اتخاذ إجراءات لحماية المجتمع وخاصّةً أفراده الأكثر هشاشة. لكن ما وراء الأزمة التي نمر بها، تميل مجتمعاتنا إلى مكافحة الموت والتفكير في الحياة الفرديّة من حيث المطلق. ورغم ذلك، فإن الحياة التي نعيشها لا تبدأ بلحظة ميلادنا: إنها حياة أُمنا التي امتدَّت إلينا وستستمر مع أطفالنا. نحن نستمد الجسد، والنفس، والذرات من أمنا التي حملتنا في بطنها تسعة أشهر. تنتقل الحياة من جسدٍ إلى آخر، من الأنواع إلى الأنواع، من مملكة



إلى مملكة من خلال الولادة والتغذية، ولكن كذلك والأهم الموت. وبحكم النفس الذي نتقاسمه (البشر، والحيوانات، والنباتات، والفطريات، والفيروسات، وما إلى ذلك)، والموت الذي نفضي إليه: الحياة التي في داخلي يمكن أن تصبح حياة جديدة لكائن آخر بعد أن أفقدها.

إنه نهج تحرُّري، ولكنه مقلق في البداية، أليس كذلك؟

- الحياة بحدِّ ذاتها تثير القلق والغموض! كلّ الحياة هي إمكانية للخلق، والاختراع. كلّ حياة قادرة على فرض نظام جديد، منظور جديد، طريقة جديدة للوجود. لكن هذا الانفتاح على الجديد ينطوي دائماً على جزء مظلم ومدمّر. يكفي التفكير في الحقيقة الأولية للأكل: حياتنا مبنية حرفياً على جثث الأحياء. جسدنا مقبرة لعددٍ لا نهائي من الكائنات الأخرى. ونحن أنفسنا سنستهلك من قِبَل الأحياء الآخرين. مع الفيروس، ندرك أن هذه القوة المذهلة للحداثة لا ترتبط بميزة محدَّدة، على سبيل المثال في الحجم، أو في القدرات الدماغية. بمجرَّد أن تكون هناك حياة، بغض النظر عن مكانها في شجرة التطوُّر، فإننا نشهد على قوة هائلة قادرة على تغيير وجه الكوكب.

نحن لسنا كائناً حيّاً واحداً، بل شعباً، أشبه بحديقة حيوانات متنقِّلة. والأعمق من ذلك، عدد كبير من الكائنات غير البشريّة -بدءاً بالفيروسات- ساهم في تشكيل الكائن البشريّ وشكله وبنيته

لذلك هل يجب أن نتخلّى عن الفكرة التقليديّة لتسلسل الأنواع؟

- بالطبع. نفترض تلقائياً أن الحيوان متفوِّق على النبات، والنبات على البكتيريا، وما إلى ذلك. ومع ذلك، فإن أصغر أشكال الحياة ليست هي الأشكال الأساسيّة أو الأكثر بدائية. لم يحتفظ أي كائن حيّ بالشكل الذي كان عليه منذ ملايين السنين. وراء كلّ كائن حيّ تاريخ الألفية الذي يشمل كائنات أخرى. يرتبط تطوُّر الفيروسات، على سبيل المثال، بتطوُّر الكائنات الحيّة الأخرى، لأنها تتغذَّى على أجزاء من الحمض النووي.

ما المُميّز في حالة الفيروسات؟

- بداية، هناك نقاشات أعتقد أنه لن يتمَّ الاتفاق بشأنها أبداً: هل الفيروسات كائنات حيّة؟ هذا النقاش النظريّ، في اعتقادي، سؤال ضعيف طرحه. في الواقع يوجد دائماً غير الأحياء في الأحياء. نحن مخلوقون من نفس مادة الأرض؛ لدينا بنية جزيئية تتكوَّن من عنصرٍ معدني. لذلك فإن كتاباً جميلاً للغاية من تأليف توماس هيمز يقترح التحدُّث عن «ما دون الأحياء» بدلاً من عدم الأحياء. يتم اختزال الفيروسات تقريباً إلى DNA أو RNA - باختصار، هي مادة وراثية. ليس لديها بنية خلية - النواة، الميتوكوندريا، وما إلى ذلك. هذا مدهش، لأن الخلية غالباً ما تمرُّ بالوحدة الأساسيّة المشتركة لجميع الكائنات الحيّة. حتى البكتيريا لها بنية خلويّة، رغم أنها محدّدة للغاية. ومع ذلك، تحتاج الفيروسات إلى الاعتماد على تركيبة بيولوجية أخرى أكبر للتكاثر: «تخترق» خلايا الكائنات الحيّة الأخرى وتعطيها تعليمات جينية جديدة لتتكاثر.

ما رأيك في استعارة فيروس الكمبيوتر؟

- أعتقد أنه يجب أن نقلبها: كلّ معلومة هي فيروس. جميع المعلومات تأتينا من مكانٍ آخر. بنفس المعنى، يمكن القول إن اللّغة والفكر منظمّان مثل الجينات: كلّ فكر يمكن تقسيمه إلى عناصر بدرجاتٍ متفاوتة من التعقيد، ويمكن أن ننقلها، تماماً مثل الجينات. هذا يسمح لعقول أولئك الذين يستقبلونها بالتفكير في نفس الشيء، أو القيام بنفس الإيماءة - في سياقٍ جديد.

هل يجب أن نعترف بأن الفيروسات جزءٌ من الكائنات المُتعدِّدة التي تسكننا؟

- أجسامنا تحمل كميّة لا تصدَّق من البكتيريا والفيروسات والفطريات، كائنات غير بشريّة. 100 مليار بكتيريا من 500 إلى 1000 نوع تستقر فينا. أكثر من عدد الخلايا التي يتكوَّن منها الجسم بعشر مرّات. باختصار، نحن لسنا كائناً حيّاً واحداً، بل شعباً، أشبه بحديقة حيوانات متنقِّلة. والأعمق من ذلك، عدد كبير من الكائنات غير البشريّة- بدءاً بالفيروسات- ساهم في تشكيل الكائن البشريّ وشكله وبنيته. وبالتالي فإن ميتوكوندريا خلايانا، التي تنتج الطاقة، هي نتيجة دمج البكتيريا. يجب أن يقودنا هذا الدليل العلمي إلى التشكيك في جوهرية الفرد، والفكرة بأنه كيانٌ منطوٍ على نفسه، ومغلق على العالم والآخر، ولكن يجب علينا أيضاً التخلُّص من تعميم الأنواع...

■ **حوار: أوكتاف لارمانياك - ماثرون □ ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر:
مجلّة «Philosophie magazine» (مارس 2020)

إشارات لنهاية عصر ساد طويلاً

عندما تتربَّص الطبيعة بالحداثة المُتعجرِفة

يعيش العالَمُ اليوم حدثاً تاريخيّاً مهمّاً قد لا نستطيع قياس قدر المعاني التي يتضمَّنها، ولعلّها إشارات لنهاية عصر ساد طويلاً، وبداية عصر جديد سبق وأطلقنا عليه اسم عصر «الحداثة العابرة - Trans-modernity».

إنّ الفيروس الذي يهاجم الإنسانيّة اليوم، لأوّل مرّة خلال ألفية تطوُّرها، وفي لحظةٍ هي قادرة فيه تماماً على إدراك حجم التزامن داخلها والتحقُّق منه عن طريق الوسائل الإلكترونيّة الحديثة، يجعلنا نفكِّر في هذا الصمت وهذه العزلة اللذين فرضهما كلّ إنسان على نفسه تلقائيّاً لمواجهة خطر أظهر حقيقة عيشنا داخل قصر من ورق بعدما كنّا نعتقد أن العالم هيكل بالغ التحصين. وقد أثار الحدث ردود فعل لا تُحصى من الزملاء الفلاسفة والعلماء؛ ردودٌ جديرة بالاهتمام العميق، وسنحاول بدورنا أن نضيف حبة رمل صغيرة لجملة هاته التأمُّلات المُتعلِّقة بهذا الحدث الصادم.

لقد تمكَّنت البشريّة على الأقلّ في نسخة «الإنسان العاقل - homo sapiens» ولمدة مئتي ألف عام تقريباً أن تتطوَّر عبر التغلُّب على عقبات لا حصر لها على مدى التاريخ حفاظاً على بقائها، وقد دخلت- إن شئنا أن نبدأ من الأصل- في مشروع كان قد بدأ من قَبل مع ما يسمَّى بالانفجار العظيم (Big Bang) (منذ حوالي خمسة عشر مليار سنة) في لحظة تجمُّد الكرة الأرضية (منذ حوالي خمسة ملايير سنة)، ثم بدأت الحياة في التحوُّل إلى غايا[1] (Gaya) (منذ حوالي ثلاثة ملايير ونصف المليار عام)، حيث قامت الحياة تحت غلاف جوي ومحيط حيوي لا تقدر الأشعة فوق البنفسجية على تدميره، وقبل حوالي سبعين مليون عام ظهرت الرئيسات، وأخيراً الهوموسابيان (مجال العقل Noosphere عند بيير دي شاردان، والذي يُدعى الآن بالأنثروبوسين أو عصر الوجود الإنسانيّ فوق الأرض).

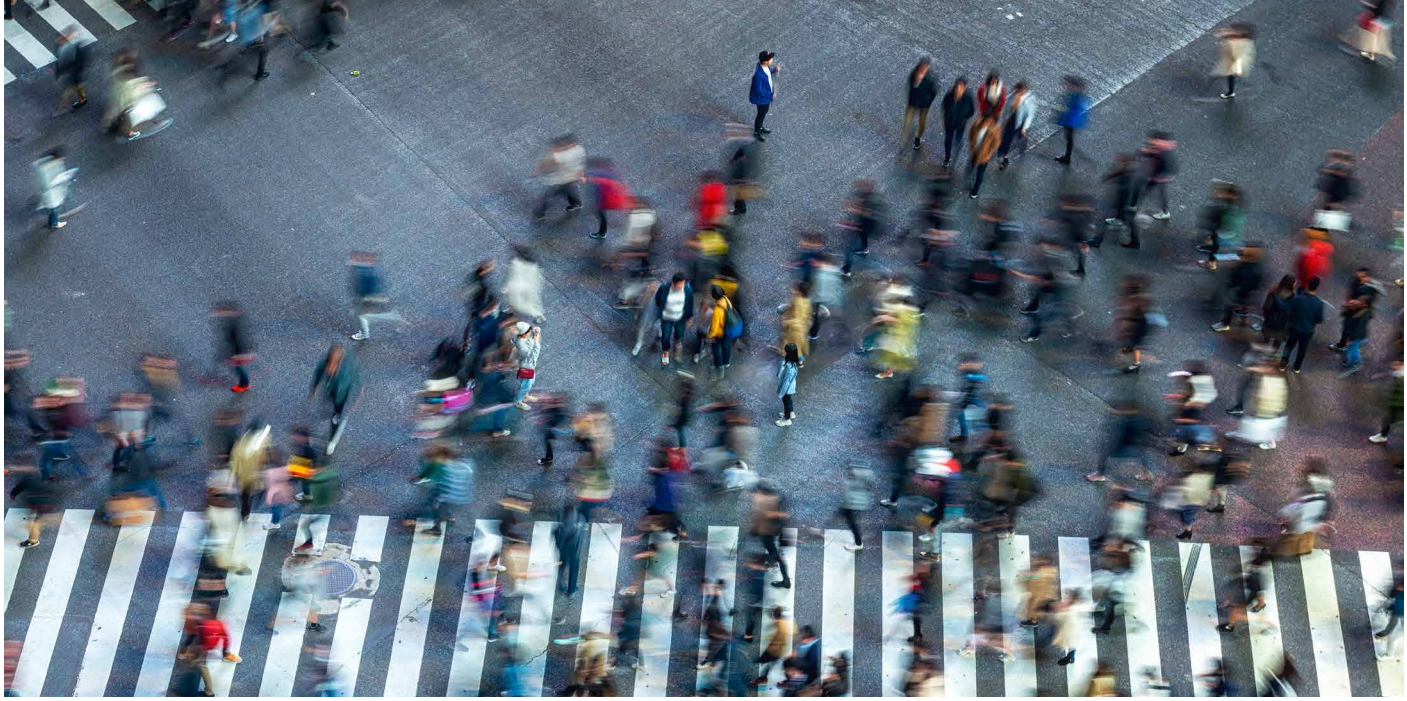
ومع العصر الحجري (Neolithic) (قبل حوالي خمسة عشر ألف عام) بدأت الإنسانيّة في التحوُّل من مرحلة عيش الرُحَّل إلى مرحلة الاستقرار بمناطق حضريّة، وبدأت في إنشاء أولى القرى والمدن بفضل تنظيم ما يُعرف بـ«التطفيل المزدوج - DoubleParasitism» (من الخضراوات مع الزراعة ومن الحيوانات مع الرعي)، وهكذا كان علينا كبشر أحياء أن نتغذّى على الخضراوات للحصول على البروتينات ومواد أخرى لا توجد إلّا فيها، فكانت تلك هي البداية الحتمية للانتروبيا (الانتقال من الاستعمال الجيّد لشيء عديم الفائدة إلى تبديده عشوائياً مع عدم القدرة على استرجاعه واستغلاله)، ويعدُّ تدمير الغابات التي تنتج الأوكسجين لتحويلها إلى حقول زراعية مثالاً عليها. وكمخلوقات لاحمة فإننا معشر البشر نقتلُ لنتغذَّى بالحيوانات غير البشرية (كان أوّل طابو وضعه الإنسان هو تحريم أكل لحم البشر)، هكذا نشأت وتطوَّرت الحضارات المدنية الكبرى في العصر الحجري الحديث بأوراسيا وإفريقيا وأميركا.

في حدود عام 1492 بعد الميلاد، سيحاول كريستوفر كولومبوس، وهو شخصٌ ينحدر من أوروبا اللاتينية الجرمانية استكشاف المحيط الأطلسي، وسيغزو أرض الهنود الحمر ليولَد معه عصر الأنثروبوسين الأخير، أي عصر الحداثة، حيث ساهمت في إنتاج ثورة علميّة وتقنية ستترك خلفها باقي حضارات الماضي وتصنفها كحضاراتٍ متأخّرة ومتخلِّفة وحِرَفية، هي التي نطلق عليها الآن مصطلح (الجنوب)، كلّ هذا التحوُّل حصل منذ ما يُقارب الخمسمئة عام.

منهجياً، سيتمُّ ربط هذا العصر المُبهر بالطبيعة مع فرانسيس بيكون (1626 - 1662) في عمله Novum Organum، وكذلك انطلاقاً من البيان الفلسفيّ لرينيه ديكارت (1596 - 1650)، الذي أورده في (مقال في المنهج 1677)، حيث سيتمُّ النظر لهذه الطبيعة كشيءٍ قابل للمُلاحظة والاستغلال، وأن مواردها لا نهاية لها باعتبارها جسماً قابلاً للتحكُّم فيه من قِبل ديميورغوس بشري تمَّ تصويره كذاتٍ لا حدود لمعارفها ولقدراتها على التحكُّم في هذا الجسم / الطبيعة.

إن الكائن الإنسانيّ حسب ديكارت هو «روح ليست بحاجة للجسد»، مؤكّداً بذلك على ثنائية راديكالية، فالجسدُ كما الطبيعة يمتاز بخاصية الامتداد، بمعنى أن حقيقته كميّة، ولا أهمِّية تُعطى للماهية أو الحياة، بل يتم تفسيره كآلة كان للرياضيات امتياز التعرف عليها. وبهذا الاعتبار فإن الطبيعة هي شيء قابل للإدراك وللتحكُّم والاستغلال، وستتحوَّل الفيزياء إلى علم أساسي بعد أن بنى الكائن الإنساني تميزه على أساس مبدأ (أنا أفكر)، الذي يجعله نظريّاً في مقابل الأشياء الطبيعيّة

الطبيعة تتحدّانا اليوم، ولسان حالها يقول: إما أن تحترمني أو أبيدك!!، وأمّا الحدث فإنه يعرض نفسه كعلامة من علامات نهاية الحداثة، وكإعلانٍ عن بزوغ عصر جديد في العالم يخلف هذه الحضارة الحديثة المُتعجرفة التي أصبحت حضارة انتحارية



القابلة للقياس الكميّ، والتي تخضع لتصرُّفنا بالكامل، وبهذه الافتراضات مرَّت القرون التالية، إذ أثار مبدأ (أنا أفكر) ثورة علمية في القرن السابع عشر، وثورة تكنولوجيّة في القرن الثامن عشر بعد أن كان قد بدأ منذ القرن السادس عشر الشروع في إنشاء نظام رأسماليّ يتمحور منطقه الغائي على الزيادة الكميّة في معدّل الربح في أي استثمار داخل السوق عبر الاستئثار بفائض القيمة التي يخلقها العمَّال، مع تغليفه بأيديولوجيّة حداثية ذات نزعة مركزية أوروبيّة (التفوُّق الثقافيّ والجماليّ والأخلاقيّ والسياسيّ.... إلخ)، وطابع كولونيالي (كانت أوروبا مركز النظام الدوليّ بفضل عنفها العسكري الذي أعطاها الحقّ في السيطرة على باقي الشعوب)، وكذا بجسٍّ باتريارکي (حيث سُمح للذكر الأبيض أن يسيطر على المرأة في أوروبا أوّلاً، ثم على باقي النساء المُلوَّنات)، وكنتيجة تراكمية لكلّ ذلك فإن الأوروبي قد تموضع كمستغلٍ مطلق للطبيعة.

في الواقع فإن القيم الإيجابية للحداثة، والتي لا يمكن لأحد أن ينكرها قد تعرَّضت للفساد وللتنكُّر من خلال التعامي الممنهج عن الآثار السلبية لاكتشافاتها ولتدخلاتها المستمرة في الطبيعة، ويرجع ذلك في جزءٍ منه إلى التبخيس من القيمة النوعية للطبيعة، وبالأخص القيمة التأسيسيّة العليا التي تنظر للطبيعة كشيءٍ حي وعضوي وليست مجرَّد شيءٍ ميكانيكي، فالطبيعة ليست مجرَّد جسم له خاصية الامتداد وقابل للقياس الكميّ.

لم تعد الفيزياء هي المتربّعة على عرش العلم وأخذت البيولوجيا مكانها، وفي هذه اللحظة المركزية كونياً يتزايد الاهتمام بعلم الأحياء العصبي، أي بالدماغ البشريّ، هذا الأخير هو أشدُّ الكائنات الحيّة تعقيداً في العالم، لكن بالرغم من ذلك فإن الطبيعة ليست مجرَّد مادة للمعرفة، إنها الكلّ (الشامل)، ونحن ككائنات إنسانيّة نُشكِّل جزءاً من هذا الكلّ، إننا إذن ثمرة لتطوُّر حياة الطبيعة التي تتموضع كأصلٍ لنا وتحملنا كمجدٍ لها، وقد أوجدتنا كنتيجة لعمليّة داخلية (نحن أبناؤها وبناتها) ولذلك، ومن غير مجازية، قامت الأخلاق في مبدأها الأوّل المطلق والكوني على تأكيد الحياة بشكلٍ عام والحياة الإنسانية كأمجد ما فيها، لأن ذلك هو شرط الإمكانية المُطلقة والكونية لكلّ ما تبقى، أي لإمكانية الحضارة، السعادة، العلم، التكنولوجيا وحتى الدين، إذ يستحيل أن يستمر إجراءٌ ما أو مؤسّسةٌ ما إذا ماتت الإنسانيّة.

لقد تمرَّدت أمنا الطبيعة- بصيغة مجازيّة وحقيقيّة الآن- وها هي تتربَّص على شاكلة «كش ملك» في الشطرنج بابنتها الإنسانيّة، مستخدمة عنصراً بسيطاً في الطبيعة (الفيروس جزء من الطبيعة، ويتشارك في هذه الحقيقة مع الإنسان). إنه حدث يجعل الحداثة في موضع مساءلة، ويفعل ذلك من خلال «الفيروس» الذي هو كائن حي أصغر بكثير من البكتيريا، ومن الخلية، وأبسط إلى ما لا نهاية من الكائن الإنسانيّ الذي يمتلك مليارات الخلايا ذات الوظائف المختلفة والمُعقَّدة (تصل للملايين).

هي الطبيعة إذن مَنْ تتحدَّانا اليوم، ولسان حالها يقول: إما أن تحترمني أو أبيدك!!، وأمّا الحدث فإنه يعرض نفسه كعلامة من علامات نهاية الحداثة، وكإعلانٍ عن بزوغ عصر جديد في العالم يخلف هذه الحضارة الحديثة المُتعجرِفة التي أصبحت حضارة انتحارية، وكما نبّه فالتر بنيامين، فإنه كان يتعيَّن علينا أن نستخدم الفرامل وليس دواسة السرعة، حتى نوقف المسير نحو الهاوية.

يتعلَّق الأمر إذن بمحاولة فهم للوباء الحالي كما لو كان بوميرانغ[2] رمته الحداثة من قبل في وجه الطبيعة (طفرات الجراثيم المُسبِّبة للأمراض هي تأثير غير مقصود أنتجته أبحاث علوم الطب وصناعة الأدوية)، وبدأ يرجع ضدها على شكل فيروس ينطلق من المختبرات أو يولد نتيجة التكنولوجيا العلاجية.

إن هذه القراءة تحاول التنبيه إلى أن هذا الحدث الذي لم نشهده من قبل بطريقته المعولمة التي نعايشها الآن، هو شيء يتجاوز فكرة التعميم السياسيّ لحالة الطوارئ (على النحو الذي اقترحه ج.أغامبين)، أو اختزاله في ضرورة تجاوز الرأسمالية (كما هو موقف سلافوي جيجيك)، والاكتفاء بالمطالبة بإظهار فشل نيوليبرالية الدولة المختزلة التي تترك صحة الشعب في يد السوق والرأسمال الخاص، وغير ذلك من الآراء المُهمّة. إننا نعتقد أننا نشهد لأوّل مرّة في تاريخ الكون والإنسانيّة أعراض الإنهاك الشديد على الحداثة باعتبارها مرحلة أخيرة من عصر الأنثروبوسين، وهو ما يسنح لنا بإلقاء إطلالة على عصرٍ عالميّ جديد، هو عصر الحداثة العابرة، والذي عرضنا لبعض خصائصه في مقالاتٍ وكُتبٍ أخرى، حيث يتحتَّم على الإنسانية أن تتعلَّم من أخطاء الحداثة لولوج عصر جديد للعالم، يفترض علينا خلالها أن نستفيد من ثقافة الموت (necro-culture) التي سادت خلال القرون الخمسة الأخيرة، لنؤكّد قبل كلّ شيء على أولوية الحياة على الرأسمال والكولونيالية والباتريارکية، وباقي التحدّيات المُدمِّرة للشروط الكونية لإعادة إنتاج الحياة على الأرض، وهذا تحدٍّ يتطلّب نفَساً طويلاً لتحقيقه خلال القرن الحادي والعشرين الذي بدأناه للتو.

إننا في غمرة هذا الصمت الذي يُطبق على عزلتنا التي طالبتنا بها الحكومات كي لا تصيبنا عدوى علامة القيامة، في أمسِّ الحاجة لأخذ وقتٍ كافٍ للتفكير في مصير الإنسانيّة مستقبلاً.

■ **إنريكي دوسيل** □ **ترجمة: البشير عبدالسلام**

هوامش:

1 - حسب فرضية غايا Gaya فإن أي نشاط بشريّ يؤثّر في البيئة في أي مكان من الكرة الأرضية يولّد ردّة فعل تلقائيّة معاكسة في المنظومة البيئيّة تهدف إلى إعادة التوازن.

2 - لعبة على شكل مثلث يتمُّ إطلاقها في الهواء لترجع في حركة تتطلّب تمرينات، وقد كانت تُستخدَم في الصيد أيضاً.

إعلامُ الجَائِحة..

وسيط المعرفة أم سلاحٌ ذو حدين؟

فيما يسعى مسؤولو القطاع الصحيّ إلى احتواء أزمة فيروس كورونا المُستجَد والتخفيف من آثاره على قطاع الصحّة العامّة حول العالم، يظهر في الأفق خطرٌ آخر لم يتحسَّب له هؤلاء، ألا وهو طريقة تعاطي الإعلام الدوليّ مع الأزمة.

جاء التقرير الذي نشرته مجلّة Health Psychology الصادرة عن الجمعية الأميركيّة لعلم النفس ليؤكِّد على التداعيات المُرتقبة للتعرُّض ا لمستمر لوسائل الإعلام خلال أوقات الأزمات، حيث تشمل تلك التداعيات ارتفاع مستويات التوتر والقلق لدى الأفراد، وتفاقم السلوكيات المتطلبة للدعم المستمر، والتي من شأنها خلق أعباء إضافية على مؤسَّسات ومرافق الرعاية الصحيّة.

يستند التقرير إلى أبحاث تمَّت الاستعانة بها خلال أزمات مشابهة، على سبيل المثال، خلال أزمة تفشي مرض الإيبولا وأنفلونزا الخنازير (H1N1)، وخلال أحداث مثلت كوارث جمعية، كالهجمات الإرهابية، حيث أشارت تلك الأبحاث إلى العواقب الوخيمة التي ساهمت في خلقها الكيفية التي تعاطت بها وسائل الإعلام مع تلك الأحداث، وتداعيات ذلك على القطاع الصحيّ.

في غضون أقلّ من شهر، كانت أعداد الحالات الإيجابيّة المُؤكَّدة لفيروس كورونا المُستجَد قد تخطّت ما سجله فيروس سارس (SARS-COV) من حالات إيجابيّة مؤكَّدة خلال تسعة أشهر كاملة، وعلى الفور، وفي يناير/ كانون الثاني 2020، أعلنت منظَّمة الصحّة العالميّة حالة الطوارئ عالمياً، وهو الإعلان الذي عكف العلماء على إثره على تحليل خصائص الفيروس، قابليته للانتشار، ومعدَّلات الوفاة الناجمة عنه، وبالتزامن مع ذلك، شرع مسؤولو القطاع الصحيّ في نقل المعلومات الحيويّة التي من شأنها مساعدة الأفراد على اتخاذ التدابير والاحتياطات المُثلى للوقاية من المرض، والحكومات على سرعة التخطيط والاستجابة لتفشي الوباء.

ولكن، وللمُفارقة، في الوقت الذي كان فيه صحافيون ومسؤولون بالقطاع الصحيّ يبذلون جهوداً مضنية من أجل نقل ما يلزم العامّة من معلومات حيويّة ونصائح وتوصيات للتعامل الأمثل مع أزمة تفشي الفيروس، برز خطرٌ آخر لم يكن في الحسبان، ألا وهو ظهور أزمات نفسيّة ناجمة عن التعرُّض المستمر لوسائل الإعلام التي تغطي مستجدات الجَائِحة، وهو الأمر الذي ينذر بتداعيات سلبية مباشرة، ليس فقط على الصعيد الاجتماعيّ والاقتصاديّ الذي يشهد تدهوراً غير مسبوق، ولكن أيضاً- وبمرور الوقت- على صعيد الصحّة النفسيّة والجسديّة للأفراد، وهو ما أكَّدته مجموعة من الاستطلاعات، والتي أشارت إلى أن مستويات القلق المُرتفعة أثناء وفي أعقاب الأزمات التي تشكّل تهديداً على الحياة، تؤدّي إلى عواقب سلبية على صعيد الصحّة النفسيّة والجسديّة، الأمر الذي تتبعه زيادة في السلوكيات المتطلبة للدعم المستمر، والتي تتسم بالمبالغة غير المتسقة مع حجم الح دث الفعلي، تلك السلوكيات من شأنها خلق أعباء إضافية على مرافق الرعاية الصحيّة وغيرها من الموارد الحيويّة، مثال على ذلك ما شهدناه مؤخَّراً من مظاهر هوس الشراء النابع من الإحساس بالذعر، والتي أدت- وبشكلٍ مباشر- إلى نقص عالمي في بعض المواد الأساسيّة والتلاعب بأسعارها.

خلال أوقات الأزمات الصحيّة، يعتمد عامّة الناس على وسائل الإعلام من أجل الحصول على المعلومات الدقيقة لمساعدتهم على الوصول إلى قرارات مستنيرة تتعلَّق بما يتعيَّن عليهم اتباعه من سلوكيات وقائيّة، حينما تمتزج الأزمة مع مشاعر اللايقين والغموض والتخبُّط، تتعاظم تلك الاعتمادية بشكلٍ كبير، لذا فمن الضروري توفُّر مصادر معلوماتية موثوق بها لتزويد المُواطنين بما يحتاجون إليه من توصيات وأدوات لتقييم الأبعاد الحقيقية للأزمة. يؤكِّد «علم اتخاذ القرار» أنه في حال توفُّر الحقائق والمعلومات الدقيقة مع توفُّر الوسائل الفعّالة لنقلها، تزداد قدرة العامّة على تقييم وإدراك الحجم الحقيقيّ للمخاطر، أمّا الالتباس الناجم عن عدم توفُّر تلك المعلومات لدى المسؤولين أو نقلها بشكلٍ لا يتسم بالفاعلية الكافية فيؤدّي إلى تقييم مبالغ فيه لحجم ما يتهدّدهم من مخاطر.

ولعَلّ من أكثر الأمثلة وضوحاً ما حدث خلال أزمة أنفلونزا الخنازير (H1N1) حينما أدّت مشاعر التخبُّط وفقدان السيطرة إلى تعزيز مشاعر القلق والخوف لدى العامّة بشكلٍ كبير، بل وأدّت إلى تفاقمها. مثالٌ آخر يمكن رؤيته خلال كوارث إطلاق النار على المدارس حينما أدّى تباطؤ المسؤولين في تزويد العامّة بالمعلومات الكافية وموافاتهم بالتحديثات اللازمة في حينها إلى انتشار الشائعات والمعلومات المغلوطة ممّا فاقم من مشاعر القلق والحزن. يمكن تطبيق كلّ ذلك على أزمة فيروس كورونا بشكلٍ خاص، إذ تؤكِّد الأبحاث العلميّة على ميل الناس إلى اعتبار الفيروسات الجديدة المجهولة أشدّ خطورة وفتكاً من الفيروسات المعلومة لهم، لذا فمن الضروري الحرص على موافاة العامّة بالحقائق والمعلومات المُحدَّثة باستمرار حول كلّ ما يخصُّ الفيروس المجهول، وإلّا فإننا نخاطر بنزع فتيل الشائعات وانتشار المعلومات المغلوطة التي ستُفاقم حتماً من مستويات الألم النفسيّ والجسديّ.

تقع وكالات إدارة الطوارئ في خطأ عدم استغلال وسائل التواصل الاجتماعيّ



كمصدر للإبلاغ عن المخاطر، حيث يعدُّ الاستغلال الاستراتيجي لمثل هذه الوسائل («الهاشتاج» على سبيل المثال) من الوسائل الفعّالة في نقل المعلومات الدقيقة للعامّة خلال أوقات الأزمات. يمكن توجيه السكّان إلى التواصل مع الهيئات الصحيّة وغيرها من مقدّمي الخدمات العامّة للحصول على المعلومات الأكثر دقة من الناحية الجغرافيّة، كما يمكن للباحثين استخدام «البيانات الضخمة» المُتاحة للجمهور عن طريق «التغريدات» المحلّية- على سبيل المثال- لقياس الجهود التي تبذلها الشركات والوكالات المحلّية في الإبلاغ عن المخاطر.

في مجتمعاتنا المُتشابكة، يمكن أن تمتد التهديدات الصحيّة العامّة إلى نقطة أبعد من المتوقع. ومع ذلك، فإن التعرُّض المستمر والواسع للأخبار التي تبثها وسائل الإعلام على مدار الساعة طيلة أيام الأسبوع يمكن أن يدفع المُشاهدين إلى تقدير حجم المخاطر على مجتمعاتهم بشكلٍ غير دقيق أو مبالغ فيه. على سبيل المثال، كان معدّل الإصابة بفيروس الإيبولا خلال موجة تفشيه عام 2014 منخفضاً للغاية في الولايات المتحدة، ومع ذلك، أظهرت نتائج الدراسات على عيّنة من المقيمين داخل الولايات المتحدة أن التعرُّض المُكثف للأخبار التي تبثها وسائل الإعلام حول الإيبولا أدّى إلى تزايد مشاعر الضيق وضعف الأداء لدى هؤلاء الأفراد.

قد يؤدّي القلق الناشئ من المتابعة المستمرة لوسائل الإعلام خلال الأزمات والكوارث الجمعية، إلى تداعيات طويلة الأمد على صعيد الصحّة الجسديّة للأفراد، ففي دراسة تناولت ردود أفعال الأميركيين تجاه هجمات 11 سبتمبر/ أيلول الإرهابية، تبيَّن وجود علاقة بين قضاء ساعاتٍ طويلة في متابعة الأخبار التي تبثها وسائل الإعلام حول الكارثة وارتفاع معدلات ما يُسمَّى بـ«إجهاد ما بعد الصدمة» والأمراض الجسديّة التي بدأت في الظهور بعد مرور 2 أو 3 سنوات من الحدث الفعلي، وأهمّها أمراض اضطرابات القلب والأوعية الدمويّة، خاصّةً ضمن هؤلاء الذين كانوا الأكثر قلقاً إزاء تكرار تلك الهجمات في المستقبل.

في العقد الماضي، كشفت دراسات أن كلاً من نوع وسائل الإعلام، وكثافة متابعتها خلال أوقات الكوارث الجمعية، يؤثّران بشكلٍ قوي على الصحّة النفسيّة والجسديّة للأفراد، فعلى سبيل المثال، في أعقاب تفجيرات ماراثون بوسطن عام 2013، توصلت الأبحاث إلى وجود علاقة وثيقة بين كثافة متابعة وسائل الإعلام وازدياد أعراض التوتر الحاد، إذ زادت نسبة الأعراض لدى هؤلاء الذين كانوا الأكثر متابعة لوسائل الإعلام من نسبته لدى هؤلاء الذين تعرَّضوا بشكلٍ مباشر للتفجيرات. دائماً ما يلجأ هؤلاء الأكثر معاناة من أعراض التوتر والقلق إلى متابعة المزيد من الأخبار التي تغطي الحدث مما يخلق حلقةً لا متناهية من الألم النفسي.

وبخلاف الأثر النفس - جسدي، قد تشمل التبعات السلبية للتعرُّض المكثَّف لوسائل الإعلام خلال أوقات الأزمات، إرهاقاً لمرافق الرعاية الصحيّة التي حتماً ستعاني من تدفُّق في أعداد المرضى القلقين. وهو الأمر الذي حدث بالفعل خلال أزمات وبائية سابقة، حيث أدّت المتابعة المكثَّفة لوسائل الإعلام إلى تدفُّق المرضى لأقسام الطوارئ في مجتمعات لم تشهد تفشياً للمرض في الأساس. ونشهد ذلك الآن في إطار تفشي فيروس (Covid-19)، حيث أدّى تخزين الأقنعة من قِبَل المُستهلكين إلى نقصٍ عالميّ في الأقنعة والكمامات المانعة للاستنشاق الضرورية لحماية مقدّمي الرعاية الصحيّة. مثل هذا النقص يضر بالمجتمعات الأكثر عرضةً لمخاطر تفشي الفيروس، ويعرقل جهود القطاع الصحيّ لاحتواء الفيروس، كما يؤدّي تدفُّق المرضى الذين لا يعانون إلّا من أعراض مرضية طفيفة على أقسام الطوارئ، إلى إجهاد مرافق الرعاية الصحيّةً المُثقلة في الأساس.

على الرغم من أهمّية قيام الإعلام بنقل كافة المعلومات التي تمكّن العامّة من حماية أنفسهم، والمؤسَّسات من اتخاذ الإجراءات اللازمة، إلّا أنه من الضروري أن تحرص وسائل الإعلام على فعل ذلك بشكلٍ يخلو من الإثارة أو عرض الصور المؤثّرة. وعلى الجانب الآخر، يجب توجيه العامّة إلى تجنُّب متابعة القصص الافتراضية، وتجنُّب التعرُّض المُتكرر لوسائل الإعلام التي لا تقدِّم الجديد، والتركيز- بدلاً من ذلك- على متابعة التحديثات المُهمّة للأحداث. كما نوصي أن يستقي العامّة معلوماتهم من مصادر رسميّة مثل منظَّمة الصحّة العالميّة ومراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها «Centers for Disease Control and Prevention». نظراً إلى أنه من المُستبعد أن تقوم وسائل الإعلام الاجتماعيّة، كتلك التابعة لـ Apple، تويتر وانستغرام، بعرض صورٍ ذات محتوى مثير، فتعتبر تلك الوسائل من أفضل الطرق للتزوُّد بالمعلومات اللازمة دون تعريض العامّة لمثيرات مقلقة. ولكن مع ذلك، من الضروري الانتباه إلى ضرورة استخدام تلك الوسائل بشكلٍ مسؤول، إذ تعدُّ إحدى الوسائل السهلة والسريعة لنقل المعلومات المغلوطة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لكلٍ من منظَّمة الصحّة العالميّة ومراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها، صفحاتٌ على مواقع التواصل الاجتماعيّ يمكن الاستعانة بها.

وفي النهاية، نحن نؤكِّد إنه من الضروري أن يتمَّ تزويد الجماهير، خلال أوقات الأزمات الصحيّة العامّة، بالمعلومات اللازمة في حينها، مع الأخذ في الاعتبار العمل على تقليل التعرُّض غير المرغوب فيه لوسائل الإعلام والذي من شأنه التسبُّب في أمراض نفسيّة وجسديّة عِدّة. كما يلعب مقدّمو خدمات الرعاية الصحيّة دوراً مهمّاً في نقل المعلومات اللازمة للمرضى وغيرهم من أفراد المجتمع. تلك النصائح العمليّة التي يمكن للعامّة تطبيقها لحمايتهم من الفيروسات المعدية (مثل غسل اليدين، تعقيم الأسطح، التخلص الفوري من المناديل الورقيّة المُلوَّثة، التباعُد الاجتماعيّ) قد تثبت فائدتها في الوقاية من أمراضٍ معدية أخرى مثل الأنفلونزا. إذاً، فقد تساعد مخاوف العامّة من الفيروس الجديد في «ترويج» سلوكيات وقائية تقي من فيروسات ومسببات أخرى للأمراض، كما يمكن أن تشكّل تلك المخاوف منصة انطلاق لنشر سلوكيات صحيّة أخرى لطالما تمَّ تجاهلها، كإعداد عدة طوارئ جاهزة للاستخدام في أي وقتٍ على سبيل المثال. على مقدّمي الرعاية الصحيّة توفير المعلومات الضرورية ووضع الاستراتيجيات وإعطاء النصائح بالتزامن مع السعي إلى تهدئة حالة «الهيستيريا» التي من شأنها عرقلة كافة جهود قطاع الصحّة العامّة في محاربة تفشي فيروس (Covid-19).

■ د. اليسون هولمان، د. دانا روز جارفين، د. روكسانا كوهين سيلفر
□ **ترجمة: دينا البرديني**

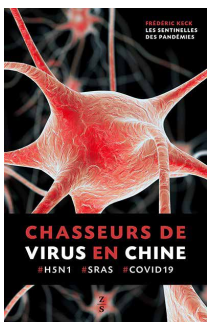
صيّادو الأوبئة..

الباحثون عن الفيروسات

صدر حديثا لـ«فريديريك كيك»، عالم الأنثروبولوجيا، والباحث بالمركز الوطني للبحث العلمي، ورئيس مختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية في كوليج فرنسا، وأحد أبرز طلبة «ليفي ستراوس»، كتاب جديد بعنوان «الباحثون عن الفيروسات، ومراقبو الطيور على حدود الصين»، عن دار «Zones Sensibles Editions».

على الرغم من أن أوّل وباء عرفته البشرية، وذُكر في نصّ مدوَّن، لم يكن إلّا في سنة 430 قبل الميلاد، في أثينا، فقد قيل- في كثير من الأحيان- إن الميكروبات والأوبئة التي تسببها، قديمة قِدَم العالم. لكن، كيف استطاع العالم القضاء عليها، ومواجهتها؟ وما السبل التي مكّنت البشرية من استعادة حياتها الطبيعية، بعد مرحلة الوباء؟ هذه بعض الأسئلة التي توفّر لها دراسة الأوبئة، من وجهة نظر العلوم الاجتماعية، والأنتروبولوجية، بعض عناصر الإجابة. فالأوبئة ليست اختصاصاً حصريّاً لعلماء الأوبئة والمناعة، بل اقتحم المجال جغرافيون كبار، منهم بيتر هاجيت، و أندرو كليف، في رؤية تركّز على عمليات الانتشار «المكاني - spatiale». كما عمل علماء الاجتماع على رسم الخريطة التفاعلية للأوبئة داخل الجماعة الإنسانية، في حين حاول بعض الدارسين الجمع بين هذه الزوايا من خلال معالجة قدرات الدول على مواجهة الوباء، وعلاقة ذلك بالعولمة وقيمها التي بنيت عليها نظرياتها؛ إذ لا تتسبّب الأمراض الحيوانية في حدوث تغييرات في العلاقات بين البشر والحيوانات، فحسب، بل تجبر- أيضاً- أولئك الذين يرغبون في دراستها، اجتماعياً، على ممارسة الإثنوغرافيا بشكلٍ مختلف. فحين يقول «فريديريك كيك» إن «الأنفلونزا هي مرضُ العولمة» (ص 15) فهو يروم التأكيد على أن الأنفلونزا، كباقي الأوبئة، تنتشر بسهولة أكبر في سياق العولمة، لا سيما بسبب زيادة تحركات السكّان و«ثورة الثروة الحيوانية»، وإن نهايتها الطبيعية هي نهاية التبادل التجاري والاقتصادي؛ و - من ثم - توضح الإثنوغرافيا التحديات المنهجية والمعرفية لأنثروبولوجيا العولمة.

ففي الوقت الذي يعيش فيه العالم أجواء الحرب على «(فيروس كورونا- Coronavirus disease) كوفيد- 19»، بعد خروجه من معقل ظهوره في «ووهان» بالصين، وشموله مساحة جغرافية واسعة من الكوكب، أصدر «فريديريك كيك»، عالِم الأنثروبولوجيا، والباحث في المركز الوطني للبحث العلمي، ورئيس مختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية في كوليج فرنسا، وأحد أبرز طلبة «ليفي ستراوس»، كتابه الجديد «حرّاس الأوبئة: الباحثون عن الفيروسات، ومراقبو الطيور على حدود الصين»، عن دار « Zones Sensibles Editions»، قبل أيام قليلة (الطبعة الأولى صدرت في 15 مايو 2020)، فالكتاب، الذي كان خروجه للسوق منتظراً في بداية أبريل/نيسان، زمن اجتياح كورونا لفرنسا، لم يغفل الحديث عن الجائحة الحالية حيث خصَّص لها الكاتب خاتمة المؤلّف تحت عنوان «الدروس الأولى من فيروس كورونا لووهان»، مؤكّداً القول: «تعيدنا جائحة الفيروس كورونا الحالية إلى إشكالية التوطين، حيث يمكن إعادة النظر في طبيعة العلاقات بين البشر والحيوانات». وقسّم الكتاب إلى قسمين: القسم الأوّل عَنْوَنَه بـ«الأمراض الحيوانية»، تناول فيه الإشكاليات المتعلقة بالسلامة الأحيائية وذبح الحيوانات المعدية وتطعيمها ومراقبتها من الصحَّة الشاملة إلى إيكولوجيا الحفظ، وفي القسم الثاني تناول تقنيات الاستعداد لمواجهة الوباء من خلال إشارات الإنذار المبكر وسيناريوهات المحاكاة وطبيعة مخزون المواجهة؛ حيث يحاول المؤلِّف من خلال كلّ هذه العناصر تسليط الضوء على مدى استعدادات الدول والأنظمة لمواجهة الأوبئة المنتشرة من خلال تجربته العلمية الخاصّة في بعض دول جنوب شرق آسيا؛ فبناءً على البحث الإثنوغرافي الذي أجراه الكاتب في هونغ كونغ، وتايوان، وسنغافورة بين عامي 2007 و2013، يبرز، في كتابه الجديد، استعدادات الأقاليم الثلاثة، التي تأثَّرت، سلفاً، بأزمة «السارس» في العام 2003، لوباء الأنفلونزا، في أثناء تحركها ضد فيروس أنفلونزا الطيور القادم من الصين، خاصَّةً مع تزايد أعداد الدواجن المحلّية بشكلٍ كبير، على مدى الأربعين عاماً الماضية. ويتوقَّف، على الخصوص، عند التغييرات التي عرفتها التقنيات المطبَّقة على علاقة الإنسان بالطيور، حيث قُضِي على مليارات الدواجن في جميع أنحاء العالم لمنع مسببات الأمراض الوبائية المحتملة من عبور حدود الأنواع، كما تمّ رصد الطيور المهاجرة





لفهم انتشار فيروسات الأنفلونزا خارج مكان ظهورها. ففيروسات الأنفلونزا، على وجه الخصوص، تتحوَّل وتتغيّر في الطيور، وخاصّة الطيور المائية، والخنازير، التي توصف بأنها «وسيطة»؛ لأن لديها مستقبلات في مجاريها الهوائية يمكن أن تلتصق بفيروسات الطيور والبشر، فعندما يتتبَّع علماء الأحياء، بدقة، مسبّبات الأمراض في مستودعات الحيوانات الخاصّة بهم، لاستباق ظهورها في البشر، فإنهم- بذلك- يدخلون الحيوانات في المجتمع. لذا يدعونا الكاتب إلى التمييز بين طريقتين للتعامل مع التأثيرات الصحّية بين البشر والحيوان: «أسلوب الاستعداد في الحياة البرية» و«أسلوب وقاية القطيع»؛ إذ يعتمد البحث الإثنوغرافي على فهم السبل التي طورها الإنسان في علاقته بالحيوان، خلال الصيد، من خلال السؤال الاشكالي: هل يوافق الفريسة على القتل؟، وفي الرعي: هل سيقبل القطيع أن يتم التضحية بأحد أعضائه من أجل الخلاص الجماعي؟ لذا طوّر الكاتب في مؤلَّفه تقنيات الاستعداد في الحياة البرية التي تبناها علماء الفيروسات خلال ملاحقتهم المُمْرضات التي تنتقل من الحيوان إلى الإنسان، لأنها كانت أقلّ اعتماداً من تقنيات القطيع التي تبنَّاها علماء الأوبئة الذين يبنون نماذج افتراضية للتنبؤ بتأثير هذه المُمْرضات في السكّان، في حين أنها أكثر صلة بالتفكير في الأسئلة البيئية التي تثيرها الأوبئة. فاستناداً إلى تحليلات علماء الأنثروبولوجيا والتاريخ، يذهب المؤلّف إلى أن الاستعداد لمواجهة الأوبئة ليس جديداً، بل هو قديم يعتمد على القدرات البشرية التي تم تطويرها، بشكلٍ خاصّ، من قِبَل الشامان في سيبيريا والأمازون، لإدراك الكيانات غير المرئية الموجودة عند الحدود، بين الأنواع، وفي العصر الحالي بالاعتماد على نظام الوقاية الذي طوَّرته الإمبراطوريات والدول الحديثة، لتحقيق النظام في أوقات الأزمات، من خلال تصنيف الأفراد في فئات تستبعد اكتساح العدوى.

إذ يعتقد الكاتب بوجود خطاب مدعوم من الناحية العلمية في تناول الأمراض المعدية الناشئة، والذي يذهب إلى القول إن الطبيعة تنتقم بإرسال فيروسات جديدة إلينا. وصاحب هذا الخطاب هو الأميركي الفرنسي «رينيه دوبوس»، الذي يستعمل العبارة المشهورة التي يستعملها الكاتب كثيراً: «ضربات الطبيعة -nature strikes back»؛ بعبارة أخرى: نستخدم الأسلحة ضد الطبيعة مثل اللقاحات والأدوية المضادة للفيروسات، ومع ذلك، في كلّ مرّة، نخترع فيها سلاحاً، تخلق الطبيعة سلاحاً جديداً. ظهور فيروس الخفافيش هو سلاح اخترع بطبيعته للرد على إزالة الغابات. وأشار «دوبوس»، المتخصص في بكتيريا التربة، على سبيل المثال، إلى أن المضادات الحيوية التي قتلت 90 % من البكتيريا التي تم توزيعها منذ الخمسينيات من القرن الماضي، ظهرت جرعات جديدة أكثر مقاومة[1].

ولعلّ اهتمام الكاتب بالأنفلونزا نابع- زيادة على انشغاله البحثي- من كون جائحة الأنفلونزا هي أحد الأحداث المحورية للتعبئة العالمية حولها، فقد أدت الطبيعة الدورية للأوبئة («الأنفلونزا الإسبانية»، عام 1918، و«الأنفلونزا الآسيوية»، عام 1957، و«إنفلونزا هونج كونج»، عام 1968) إلى اعتقاد الخبراء بأن وباءً جديداً وشيك الظهور، وأنه سيقتل ملايين الناس. فالسؤال، وفقاً لسلطات الصحّة العالمية، لم يكن هو: متى سيبدأ الوباء، أو أين سيبدأ؟، بل عمَّا إذا كنا مستعدين لعواقبه الكارثية. لذلك فالاستعداد- حسب الكاتب- لمواجهة الأوبئة ليس للحد من عدد الضحايا من البشر، فحسب، بل للحد من آثارها السياسية، والأخلاقية أيضاً؛ لذا يدعونا الكاتب، في مؤلَّفه الجديد، ومن خلال التجربة الشرق آسيوية، إلى عدم الاستسلام للخوف، بل إلى إعادة التفكير في العولمة وعلاقتنا بالطبيعة. فمن خلال قراءة إثنوغرافية اجتماعية يلاحظ الكاتب أن هونج كونج، وتايوان، وسنغافورة هي ثلاث نقاط لعبور العمال الصينيين المغادرين إلى الخارج، والتي يمكن أن تتطابق مع المسار نفسه للطيور المهاجرة المتهمة بنشر الأنفلونزا في جميع أنحاء العالم. ففي تعقبه للفيروس، استطاع عالم الأنثروبولوجيا «فريديريك كيك»، بعد كتابه السابق «عالم مصاب بالأنفلوانزا - Un monde grippé» الصادر في سنة 2010، الكشفَ عن «أمراض العولمة»؛ إذ تخبر أوبئة الأنفلونزا والفيروسات عن ترابطنا المضطرب مع الحيوانات، وترسم عالماً يصعب التنبؤ به، إن لم نتوقَّع أحداثه. ■ **فؤاد بوعلي**

هامش:

1- https://legrandcontinent.eu/fr/2020/04/01/coronavirus-conversation-avec-francois-moutou-et-frederic-keck/

أندريه كومت سبوفيل:

دعونا نمت كما يحلو لنا!

يُغرِّدُ الفيلسوفُ الفرنسيُّ «أندريه كومت سبوفيل Andre-Comtes Ponville»، مؤلِّفُ عشراتِ الكُتب، منها مقالة وجيزة في الفضائل العظيمة (منشورات ساي)، ومقالة في اليأس والنعيم (منشورات النشر الجامعيّ)، خارج السّمفونية التي تُعزَف حاليا حول الفيروس التاجيِّ (كورونا) والحَجْرِ الصحيِّ. ويرمي حَجَراً في البركة، إذْ يستنكر أنْ يُضَحَّي بالشبابِ من أجل المُسنّين، وأنْ تُقدَّم الحرّيّةِ قرباناً على مذبح الصحّة، ويتساءل عن علاقتنا بالموتِ...

لأوّلِ مرّةٍ في التاريخ تكون مُهمّةُ البشريّة إنقاذَ الجميع.. ألا يُعدُّ ذلك خبراً سارّاً؟

- لي شعوران متناقضان. فللوهلة الأولى يبدو الأمرُ ردَّ فعلٍ لطيفٍ. ولكنه أيضاً مشروعٌ عبثيٌّ فعلاً، لأنّه إذا كان أملُ الحياةِ قد ازداد بنسبةٍ عاليةٍ، وهذا جيّد على كلِّ حالٍ، فإنّ معدّلَ الوفياتِ الفرديّة لمْ يتغيَّر منذ 20 ألف سنة. إنه دائماً واحدٌ على واحدٍ، أيْ 100 %! باختصارٍ، عندي لكِ خبران واحدٌ جيّدٌ والآخرُ سيِّئ. السيِّئُ هو أننا كلنا سنموتُ. أمّا الجيّدُ فهو أنّ الغالبية العُظمى منّا ستموت بسببٍ آخر ليس (كوفيد - 19)!

أنت، سيد أندريه، في الثامنة والستين، ألا يجبُ أنْ تكون سعيداً بما اتّخذ من إجراءاتِ التوقّي؟

- أنا قلقٌ، ولكني لا أخشى الموتَ بسبب هذا الفيروس. إنه يخيفني أقلّ بكثيرٍ من مرض الزهايمر. وإذا أُصبت بعدواه فستكون عندي نسبة 95 % للشفاءِ منه. فلمَ عليّ أنْ أخافَ منه؟ إنّ ما يزعجني ليس صحّتي، بلْ مصيرُ الشباب. فبسبب الركودِ الاقتصاديِّ الناجم عن الحَجْرِ سيدفع الشبابُ الثمنَ الأكثر ثقلاً، سواءَ في شكلِ بطالة أو ديونٍ. إنّ التضحية بالشبابِ من أجل صحّة المُسنين خطأ فادحٌ. هذا هو ما يجعلني أرغبُ في البكاءِ.

سوف تتهم بالدعوة إلى قتل الناس لغاية إنقاذ الاقتصاد!

-غيرُ صحيحٍ! الطبُّ مكلفٌ جدّا. ولذلك هو يحتاجُ إلى اقتصادٍ مزدهر. متى سنخرجُ من هذا الحَجْرِ؟ بطبيعة الحالِ يجبُ أنْ تُؤخذ الحقائقُ الصحيّة بعين الاعتبار. ولكنْ يجبُ أنْ نأخذَ بعين الاعتبار أيضاً الحقائقَ الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسّية والإنسانيّة! ألا يجبُ أنْ نزيد من الإنفاقِ على الصحّة؟ جيّد! كيف يتمُّ ذلك إذا انهارَ الاقتصادُ؟ إنّ الاعتقادَ في أنّ المالَ اللازمَ سيتدفّق بحرّيّةٍ هو محضُ وهم. فأبناؤنا هم الذين سيدفعُون ديونَ مرضٍ يجب أنْ نتذكّر أنَّ متوسط الوفاة بسببه هو 81 سنة.
أليس الآباء، تقليديّاً، هم مَنْ يضحّون من أجل أبنائهم؟ إننا الآن نقوم بعكس ذلك. من الناحية الأخلاقيّة لا أجدُ ذلك مُرْضِياً!

أليس الضغط الزائدُ على المستشفياتِ سبباً كافياً للحَجْرِ؟

- هذا في الواقع المُبرِّرُ الرئيسيُّ للحَجْرِ. وهو السببُ الرئيسيُّ لعدم معارضتي. ولكنْ، بمجرّد أنْ تجدَ المستشفياتُ هامشاً للمناورة يجبُ أن نتوقّفَ، أو على الأقلّ أنْ نخفّفَ من حدّةِ الحَجْرِ. أنا أخشى أنّ في فرنسا، حيثُ الاهتمام يتزايد بالصّحّةِ في مقابل تناقصِ الاهتمام بالحرّيّة (لاحظي أنّ فرنسَا ما تزال واحدة من الدول القليلة التي غالباً ما تكون فيها كلمة «ليبرالي» إهانة) سيتمُّ ذلك في وقتٍ متأخّر مقارنةً بمعظم الدّولِ التي تشبهُها. فهل عليَّ أنْ أستقرَّ في سويسرا لأتمكّن مِنْ أنْ أعيشَ بحرّيّة؟

هل تستنكر، سيد أندريه، عودةَ نعمة العلماء؟

- أنا أستنكر التطبيبَ الشّامل، هذه الأيديولوجيا التي تُعطي كلَّ السلطة إلى الطبِّ. ثمَّة حضارةٌ بصددِ التشكُّلِ تبوِّءُ الصحّة قيمةً عليا. لنتأمّل مزحة فولتير. يقول: «قرّرتُ أنْ أكون سعيداً، لأنّ ذلك جيّدٌ للصحّة». في السابق كانت الصحّةُ وسيلةً لتحقيق السّعادة، أمّا اليوم فإننا نجعلُ الصحّة هي الغايةُ القصوى والسعادةَ مجرَّد وسيلةٍ. ونتيجة لذلك نفوِّض للطبِّ ليس إدارة أمراضِنا فحسبُ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ ومعقولٌ، ولكنْ أيضاً



أندريه كومت سبوفيل ▲

حياتَنا ومجتمعَنا. وحالُنا يقولُ فليعش التأمينُ الصحّيُّ!
إنّ السياسيّين الآنَ يتحاشون المواضيعَ التي تزعجهم. إنهم لا يشتغلون بالسّياسة، ولا يهتمون إلّا بصحّةِ مواطنيهم وأمنِهم. ولكنْ، إذا عهدنا بالديموقراطيّة إلى الخبراء فإنها ستموت.

هل يرجع موقفنا من الوباءِ إلى كون الموت يقف عائقاً أمام شعورنا المُعاصرِ بالقوة المُطلقة؟

- إنَّ الموتَ يُعاش اليوم باعتباره فشلاً. يجب أنْ نُعيد قراءة مونتين الذي عَرَفَ وباءَ الطاعون الأكثر خطورة من الكورونا، والذي كتب في المحاولات: «إنّ الهدفَ من حياتنا هو الموتُ. إذا كان الموت يُخِيفنا فكيف لنا أنْ نمضيَ خطوة إلى الأمام دون حمّى؟ إنّ العلاجَ المبتذل هو عدمُ التفكيرِ في ذلك [..]، ولكنْ عندما يصيبُ الناسَ المرضُ هم أو زوجاتهم أو أطفالهم أو أصدقاؤهم، عندما يفاجئهم، نكتشفُ حجم العذابِ والبكاءِ والغضب واليأسِ الذي يطغى عليهم!».
إنّنا ما نزال هنا! فنحن نُعيدُ اكتشافَ أنفسنا عندما نموتُ، بينما إذَا فكّرنا في الأمرِ أكثر فإننا سنعيشُ بشكلٍ أكثر قوةً وعُمْقاً.
دعونا إذنْ نتوقف عن الحلم بالقوةِ المُطلقة والسعادةِ الدائمة. فالمحدودية والفشلُ والعقبَاتُ كلّها جزءٌ من الحالة الإنسانيّةِ حتّى قبلَ أنْ نموت. سنقف مذعورين أمام كلِّ وباءٍ ما لم نقبلْ حقيقةَ الموتِ. لماذا لا نُبدي مثل هذا التعاطفِ المُبالغ فيه في مسألة (كوفيد19-)، في موضوعِ الحربِ في سورية، ومآسي المُهجّرين، وإزاءَ تسعة ملايين من البشر (من بينهم ثلاثة ملايين طفل) يموتون بسببِ سوءِ التغذية؟ إنّ هذا لا يُحْتَمَلُ أخلاقيّاً ونفسيّاً.

هل هو عدمُ اليقينِ الذي يُولِّد هذا الارتعاب الجماعيَّ؟

- إنّ عدمَ اليقين هو قدرنا الدائمُ. فالمعركة بين البشريّةِ والميكروبات ليست جديدةً. وهذا المرضُ لن يكون نهايةَ العالم. في العصور القديمةِ حدثَ ما هو أسوأ من هذَا. وفي الأسابيعِ الماضيةِ، لحسن حظّي، لم أسمعْ أحداً يقول إنّ (كوفيد - 19) هو لعنة أصابتنا هذا تقدُّم! فأقلُّ خرافة يعني أكثر عقلانية!

أحقّاً؟ لقد نسيتَ، سيد أندريه، نظريّات المُؤامرة!

- بالفعلِ! ولكنَّ التفكيرَ الخرافيَّ تراجعَ. ولكنْ، مع الأسفِ، تظلّ نسبة الغباء ثابتةً.

ما هي حسب رأيك القيم التي تعلو على الصحّة؟

- الصحّةُ ليست قيمةً. إنها نعمةٌ. شيءٌ نُحْسَدُ عليه، وليست موضوعَ إعجابٍ! فأعظمُ القيم التي يعرفها الجميعُ هي العدالة والحبُّ والكرم والشجاعة والحرّيّة. أنا لست مستعدّاً لأنْ أقدِّمَ حرّيّتي قرباناً على مذبح الصحّة! لا يمكننا قبولُ الإقامةِ الجبريّة ، ألا وهي الحَجْرُ الصحيّ، إلّا متى كانت لوقتٍ قصيرٍ. أنا أخشى أنْ يحلّ النظامُ الصحيّ محلّ «النظام الأخلاقي»، كما كانوا يصفون زمنَ المكارثيّة. أخشَى أنْ نغرق في الحكمِ بأنَّ هذا «صحيح صحيّاً» مثل الصّحيح سياسيّاً.
أنا أحبُّ كثيراً الأطباءَ، ولكنني لا أقبلُ أنْ أخضعَ للإملاءاتِ الطبيّة. هل سنستمر إلى أجلٍ غيرِ مُسمًّى في الحَجْرِ على كبار السنّ، بدعوى حمايتِهم؟ بأيِّ حقٍّ حبْسي في بيتي؟ أنا أخافُ من العبودية أكثرَ من الموتِ. منذ أسبوعين أشعرُ بندم بسبب أنّني لم أكنْ سويديّاً. كنت سأكون أقلَّ حرماناً من التنقل، على الأقلِّ!

حتّى وإنْ كان ذلك على حسابِ الحياة؟

- ولكنْ، دعونا نمت كما يحلو لنا! فالزهايمر والسرطانُ يقضيان على عددٍ من النّاس أكثرَ من ضحايا الفيروس التاجيِّ. هل اهتممنا للأمر؟ نعم، نحن نحزن للموتَى في المُؤسَّساتِ الصحيّة والاجتماعيّةِ، ولكنْ أليس علينا أنْ نتذكَّر أننا نذهبُ إلى هناك، غالباً، لنموتَ؟
أنا آسف ألّا يكون هذا صحيحاً صحّياً! ولكنّي لمْ أعد أتحمّلُ هذا الغَمْرَ من المشاعرِ الطيّبة، وهذا الدّفق الإعلاميَّ الرحيمَ وأَوْسِمَةَ البطولاتِ التي تُمنح إلى هذا وذاك.
إنّ البشرَ منقسمون بين أنانيٍّ وأَثِر. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ. فلا يجبُ أنْ نعوّلَ كثيراً على المشاعرِ الطيّبة لتحلَّ محلّ السياسةِ.

هل مِنَ الوهْمِ، سيد أندريه، الاعتقادُ في أنّ هذه الأزمة ستغيِّر المجتمعَ؟

- إنّ الذين يعتقدون أنها لنْ تغيِّرَ شيئاً مخطئون. كذلك الذين يعتقدون أنّها ستغيِّرُ كلَّ شيءٍ، هم أيضاً مخطئون. إنّ هذا الوباءَ يطرح علينَا جميعَ أنواعِ المشاكلِ، ولكنّه لا يحلُّ أيّا منها.
سيظلّ الاقتصادُ يطرح تحدّياته ومطالبَه. ربّما سيقع الترفيعُ في أجورِ بعضِ المهن ذاتِ المنفعة الاجتماعيّةِ. وهذا جيّدٌ على كلّ حالٍ! ولكنّ لاعبي كرة القدم سيستمرون في كسبِ الملايين، وهو الأمر الذي من المُرجَّحِ ألّا يحصل بالنسبةِ إلى المُمَرضاتِ.

■ **حوار: لور ليجون □ ترجمة: رضا الأبيض**

المصدر:

Le temps -laissez-nous-mourir- comme nous voulons? 2020/04/17

مارسيل غوشي:

كشفت لنا صدمة الأزمة عن عجزنا

في هذا اللقاء، يُعبِّر الفيلسوف والمُؤرِّخ ورئيس تحرير مجلّة «لوديبا» (le Débat)، مارسيل غوشي عن قلقه تجاه «عَالَم ما بعد» الأزمة الصحيّة، الذي قد يُشبه، وفقاً له، «عَالَم ما قبلها».

غالباً ما نددت بما تسميه «اللا تسييس الليبرالي». بالنظر إلى أحكامك السابقة، كيف تتخيَّل «العَالَم ما بعد»؟

- كلّ ما يمكن أن يُقال حتى الآن، من داخل الحَجْر الصحيّ، على «العَالَم ما بعد»، هو أنه سيكون مسرحاً لمعركة هائلة بين القوى الأغلبيّة، دعونا لا نغلط أنفسنا، ستدفع باتجاه العودة إلى «العَالَم ما قبل»، وقوى الأقليّة، التي ستحاول الاستفادة من دروس الأزمة لإحداث انعطاف في خط سير مجتمعاتنا. تتلخص هذه الدروس في بضع كلمات، لكنها بعيدة كلّ البعد عن الوضوح، حتى في أذهان أولئك الذين قد تكون لهم مصلحة كبيرة في الاعتماد عليها: عودة السياسيّ تحت المظهر المزدوج للأمم كإطار للقرار الجماعيّ وللدول كأدواتٍ للتوقع والكفاءة الاستراتيجيّة، ضد استيهام كوكب بلا حدود، ينظمه التشغيل الآلي للأسواق. باختصار، ضرورة السيادة كأساس للحياة الديموقراطيّة والتعاون المُتحكّم فيه بين الأمم. حتى ماكرون أدرك ذلك! ولا ينقصنا لاستخلاص استنتاجات عمليّة سوى خطوة. لن تتأخر الوصفات القديمة في الظهور مجدّداً. تبقى نتيجة المعركة مفتوحة.

«الاضطلاع بحالتنا التاريخيّة» هو من شعاراتك المُفضلة. ماذا سيعني بالنسبة لك، في ضوء ما يُعلن عنه، الاضطلاع بوضعنا التاريخيّ؟

- العودة إلى فكر سياسيّ حقيقيّ والعودة إلى فكر تاريخيّ تسيران معاً. لقد كشفت لنا صدمة الأزمة أننا أصبحنا عاجزين عن تشخيص وضعنا، وعن معرفة مكاننا السابق. كنا نندفع بشكلٍ عشوائيّ دون قلق بخصوص خط السير. والحال أن ذلك هو السؤال الأساسيّ للحياة الديموقراطيّة. كيف يمكننا أن نقرّر بشكلٍ صحيح ما ينبغي القيام به، دون أن تتوفّر لنا فكرة دقيقة قدر المستطاع، عن مكاننا؟ علينا أن نعيد ترسيخ أنفسنا في مسيرنا، بعيداً عن هذا النوع من الحاضر الدائم حيث نطفو، بدون فكرة عن الماضي الذي قدمنا منه، وبدون صورة للمستقبل حيث نودُّ الذهاب. لا بدّ من المزيد من المال، ومن المزيد من الوسائل التقنية، ومن المزيد من الحقوق: هل هذا يستنفد الموضوع؟

لطالما قلت إن لدينا الأدوات اللازمة لتغيير عالمنا. نحن نعلم ماذا يجب أن نفعل، لكننا لا نفعل ذلك. هل تعتقد أن الوباء يمكن أن يعالج هذا النقص؟

- يهز الوباء ضمائر الناس، هذا أمر مؤكَّد. إلى أي مدى وإلى متى؟ نحن نجهل ذلك، وسيكون من سوء الحكمة التعويل عليه. نعرف جيداً قوة النسيان المميزة لعمل مجتمعاتنا الإعلاميّة التي لا تعرف سوى الأخبار. يستهويني الاعتقاد بالأحرى، بأن الأزمة الاقتصاديّة الرهيبة التي نسير نحوها، هي التي ستفتح باب التساؤل. وستَطرح الإكراهات التي ستفرضها الأزمة علينا، كلّ البداهات الكاذبة التي اعتمدنا عليها لأكثر من ثلاثين عاماً، من جديد.

هل يمكن أن يُكبح انحلال السياسة في السوق العالميّة بسبب الوعي الناتج عن الأزمة الصحيّة؟

- لقد توقَّف انحلال السياسة في السوق العالميّة بالفعل، بسبب ضرورات مكافحة الوباء الملموسة للغاية. إنها تكشف عن الوهم الذي كانت تجسده إلى حدٍّ كبير. لكن قوة هذا الوهم ضخمة. ولها جذور



مارسيل غوشي ▲

قويّة جدّاً. إنها ما يعادل الوهم العكسي لقدرة السياسيّ الكلية التي هيمنت على عصر الأنظمة الكليانية في القرن الماضي. وهذا يعني أن الوعي البسيط بها، لن يكفي للتغلب عليها.

في عَالَم ما بعد، قد نشهد أيضاً طريقة جديدة للنظر إلى الاقتصاد، والإنتاجية، وقياس الناتج المحليّ الإجماليّ، غير طريقة النظر إلى مؤشّرات النمو. هل تصدّق ذلك؟

- لا أصدّق ذلك على الإطلاق. طالما أن هناك فقراء، والله يعلم أنهم كثيرون على هذا الكوكب، فإن الحاجة إلى زيادة إنتاج الثروة ستكون هائلة. إن الفقر هو أقوى عذر في نظامنا الإنتاجي الاستهلاكي. يفترض للخروج من هذا الأخير شيئان. أولاً، تغيير جذري في تطلعات الفقراء، ممّا يجعلهم يرغبون في شيء آخر غير الوصول إلى استهلاك الأغنياء، ثم تحوُّل عام لمجتمعاتنا إلى المثل الأعلى للمساواة. وسيتطلب تحديد إطار ستتم بداخله ممارسة هذه المساواة، والذي لا يمكنه أن يكون سوى إطار وطنيّ، مع جهاز لإعادة التوزيع المُكثف. يكفي أن تذكر هذه الشروطَ لنعلم أننا بعيدون جداً عنه. أنا آسف، لكن هذا ما أعاينه.

قلت في يوم من الأيام، عندما استخدمت صيغة سارتر عن الماركسية، «الديموقراطيّة هي الأفق الذي لا يمكن تجاوزه في عصرنا». وماذا عن الجمهورية؟

- الديموقراطيّة هي الفكرة العامّة التي يمكن لكلّ واحدٍ أن يتعرَّف فيها إلى ذاته. الجمهورية، في الواقع، هي نسخة جذرية من هذه الفكرة العامّة التي دُفع الفرنسيّون إلى تنميتها، بسبب خصوصيات تاريخهم منذ الثورة الفرنسيّة. أعتقد أنها أيضاً أفق لا يمكن تجاوزه، ولكنه أفق بعيد. لذا دعونا نبدأ بتوطيد الديموقراطيّة كما هي، وسننتقل إلى الباقي على أسس جيدة، حتى في بلدنا، حيث لم يتم تحقيق هذا المثل الأعلى.

هل تعتقد أننا سنلج عصراً جديداً من التضامن؟

- بل نحن بداخله! إننا نعيش في المجتمعات الأولى في التاريخ، التي استطاعت التضحية باشتغالها الطبيعيّ، وخاصة إنتاجها للثروات، مع عواقب ستكون هائلة، من أجل عددٍ محدودٍ جدّاً من المرضى بالمُقارنة مع عدد سكّانها الإجماليّ. ويبيّن ذلك، إلى أي مدى صار مبدأ التضامن جزءاً من العقول والعادات. قد يؤدّي هذا إلى بعض التطوُّرات الإضافية، ولكن الأساسي بات مكتسباً بالفعل.

إن عدد أسرّة العناية المركزة في فرنسا أقلّ بكثير من عددها في ألمانيا. كما أن الدولة الفرنسيّة لا تزال ترفض إخضاع المرضى في مستشفيات الأمراض العقلية، والمعتقلين في سجوننا، للفحص الفيروسي. هل يحزنك إهمال الدولة وتردّدها في ما يخص مرحلة ما بعد 11 مايو؟

- إنّ تخفيض التصنيف الفرنسيّ الذي اكتشفناه في هذه المناسبة لا يحزنني فقط: إنه يقودني إلى اليأس. كيف أمكننا أن نسمح بخراب الدولة، وبمثل هذا الانعدام العام للكفاءة؟ والأسوأ من ذلك أنه لا وجود لعلاجات في الأفق المنظور.

■ **حوار: فيليب بوتي □ ترجمة :عبد الرحيم نور الدين**

المصدر: مجلّة «ماريان» عدد 1208، 8 مايو 2020.

أديلا كورتينا:

يجب استثمار المال العام في التعليم والبحث العلميّ

إن الأزمات الكبرى لا تستدعي فقط الإتيقا المدنيّة والمسؤوليّة الفرديّة والجماعيّة. إنها تفيد في تمييز المتعالي عن الطارئ الملحق، والأساسيّ عن السطحيّ. في هذه المُقابلة، تحذّر الفيلسوفة أديلا كورتينا من الدوغمائيّات الأيديولوجيّة والقوميّات التي تبني الجدران الحائلة بين المُواطنين: «حان وقتُ التحالفات. الآن وأكثر من أي وقتٍ مضى، يجب علينا ممارسة الضيافة العالميّة».

من أقوال أرسطو «غاية الإنسان هي السعادة». هل من وصفةٍ لهذه الأيام الصعبة وللأيام القادمة؟

- يذكّرنا أرسطو أيضاً، مثله كمثل جميع الكلاسيكيّين، أن صوغ الشخصيّة هو أهمّ شيء لتحقيق السعادة. من الواضح أن الصدفة والحظ السعيد وما ليس بأيدينا، يتدخّلون أيضاً. ولم يكن الفيروس التاجي بين أيدينا، ولم نتوقّعه على الإطلاق. ولكن من الصحيح أنه عندما يتم تشكيل شخصيّة الأفراد والشعوب بشكلٍ جيّد، فإن التعامل مع هذه الوضعيات يكون بشكلٍ أفضل، والتي هي حقّاً وضعيات دراماتيكية. لذلك سأبدأ بالتذكير بأن بناء الشخصيّة أمرٌ أساسيّ. وفي إطار هذا البناء، لا بدّ من استحضار الفضائل الشهيرة، وخاصّة الأكثر تقليديّة منها: الحصافة والعدالة والقوة والاعتدال. القوة مهمّة جدّاً؛ ولقد نسيناها كثيراً في هذه الأوقات. يجب تربية القوة. ولابدّ من القيام بذلك في التعليم، وفي المدرسة، ومنذ الطفولة. يجب على كلّ واحدٍ أن يحاول أن يكون قوياً في مواجهة هذا النوع من الشدائد، لكي نكون مسؤولين تجاه الآخرين وقادرين على مساعدتهم. يجب أن نحاول معالجة هذا الوضع الذي نحن فيه، بالاعتماد على قوتنا وتضامننا واعتدالنا. في هذا الوقت لا يمكننا الخروج، ولا يمكننا القيام بالعديد من الأشياء التي نرغب في القيام بها، لهذا السبب، فإن الاعتدال ضروري أيضاً. أعتقد أن الرسالة الرئيسيّة في الوقت الحالي هي أنه يتعيَّن علينا تشكيل شخصيّة الأفراد والشعوب من أجل مواجهة المحن. لقد ترك لنا الكلاسيكيّون نصيحة جيّدة جدّاً، وهم يحدّثوننا عن العدالة والقوة والحصافة والاعتدال. ولأن المحادثة ستستمر، سنتحدّث لاحقاً عن الأمل والحب، كجزءٍ لا يتجزأ من كلّ هذا.

أنتج المجتمع ردتي فعل: دافع الإنسانيّة والتضامن، ومن ناحيةٍ أخرى، خطاب الانقسام والكراهية والمواجهة المستمرة.

- ما يجب أن نبحث عنه الآن، في إسبانيا وفي العالم أجمع، هو ما يوحّدنا وليس ما يفصل بيننا. إن الأشخاص الذين يؤجّجون الصراع والاستقطاب يصنعون أضراراً هائلة وجسيمة، ليس فقط لأننا جميعاً في نفس القارب، وأولئك الذين يؤجّجون الصراع ينتهي بهم الأمر إلى إيذاء الجميع، ولكن لأن تعايشنا هشٌّ للغاية، إضافة إلى كوننا بصدد تحويله إلى صراع للجميع ضد الجميع. الدرس الآخر الذي علينا أن



أديلا كورتينا ▲

نتعلّمه، هذا إذا كنا نتعلَّم- لأنه في بعض الأحيان يبدو أننا لا نتعلَّم أي شيء من المصائب- هو كفى من النزاعات، كفى من الاستقطاب، ومن التفوُّق، ومن الصراعات الطائفية والأيديولوجيّة. من فضلكم، فلنبحث عمّا يوحّدنا، وهو كثير جدّاً، لأنني أعتقد أننا جميعاً نقدِّر الحرّيّة والمساواة والتضامن والحوار وبناء المستقبل. من فضلكم، يُرجى البحث عمّا أسماه أرسطو «الصداقة المدنية».

في الوقت نفسه، من المهمّ التأكيد في هذه اللحظات، على أن رؤية مسؤولة وناقدة للسلطة، تبقى أساسيّة لمواجهة هذه الحالة الطارئة وكذا لبناء الديموقراطية والمستقبل.

- أوافق تماماً. بما أننا نبحث عن ما يوحّدنا، فالأمر يعني على وجه التحديد أن نحاول أن نكون نقديين. وهو ما معناه أن نتسم بالتمييز. ممّا يوحدنا، يجب علينا أن نذكر كلّ فئة بتعهداتها وبواجباتها. أعتقد أن السياسيين نسوا ذلك بشكلٍ مفرط. لا يجب على السياسيين أن يكونوا أبطال الحياة الاجتماعيّة على الإطلاق، كما لا يجب عليهم أن يعطونا وصفات للسعادة. ما يجب عليهم فعله هو أن يكونوا مدبرين للحياة اليومية حتى يتمكّن الناس والمواطنون من تنفيذ خطط الحياة. ليس عليهم أن يأخذوا دورنا في الحياة. الديموقراطيّة هي بطولة المواطنين. بهذا المعنى، أعتقد أن على السياسيين أن يتعلموا. وبالفعل، علينا تذكُّر ذلك كلما استطعنا. أنا فعلت ذلك كلما كان بوسعي، ويجب علينا الاستمرار في القيام به. إنهم ليسوا أصحاب الأدوار البطولية، إنهم مجرَّد مدبّرين يتوجَّب عليهم إرساء أسس العدالة حتى يتمكَّن الناس من تنفيذ ما لديهم من خطط السعادة والحياة الجيّدة. النقد هو التمييز.

في هذا المجتمع المرتبط بالخاصية الوضعية، هل لرهاب الفقراء -أبوروفوبيا (aporofobia)- انعكاس أيضاً على رفض المريض والمصاب بالعدوى؟

- حالياً في إسبانيا، يتَّسم هذا الوضع بالكثير من الغموض. يعاني الأشخاص المتضامنون من عدم القدرة على الخروج، لمساعدة أولئك الذين تُركوا بمفردهم، والذين يموتون بمفردهم في الإقامات السكنية وفي المستشفيات. لكن الموجودين في الوضع الأسوأ، هم أولئك الذين يعانون من الأسوأ، كما هو الحال دائماً، لأننا نظمنا المجتمع ليس للضعفاء، ولكن للذين يعيشون وضعاً جيّداً. يستمر رهاب الفقراء في هذه اللا مساواة، التي نرى فيها أن البعض يعاني أكثر بكثير من البعض الآخر، لأنه موجود في الموضع الأكثر سوءاً. لكني قلقة للغاية في هذه الحالة الطارئة، من حقيقة كوننا نشعر بالعجز عن مساعدة أولئك الذين يعانون، تحديداً لأن أفضل مساعدة يمكننا تقديمها، هي تلك التي تقرِّبنا من بعضنا البعض. نحن على صلة وفي علاقة. إننا نتطلَّع إلى ربط علاقات بالآخرين.

تسبَّبت الأزمة المالية في موجةٍ كبيرة من السخط: شعر المواطنون بأن النخب تخلّت عنهم، وتسبَّب ذلك في صعود الحركات الشعبويّة. هل تخشين أن يعود هذا التخلي- في سياقٍ عالميّ لتوطيد الشعبويّة- ليحدث مرّة أخرى؟ كيف يمكننا تجنُّب ذلك؟

- هذه نقطة مهمّة للغاية. سوف يتأثَّر عالم الأعمال بشدّة. من ناحية، بسبب إغلاق عددٍ كبيرٍ من الشركات الصغيرة والمتوسطة، ليس بسبب سوء النية، ولكن ببساطة لعدم وجود زبناء، ولأنها لا تستطيع البقاء على قيد الحياة. سيكون ذلك مقلقاً. وبعد ذلك، سيكون هناك أولئك الذين يستفيدون من الموقف لتحويل إجراء التنظيم المؤقَّت للشغل إلى إجراء تنظيم دائم ويجعلونه ضرورياً بشكلٍ متواصل. سيكون الوضع دراماتيكياً وعلينا أن نطالب تلك الشركات التي لديها قوة، ألّا تقوم بفصل المستخدمين إذا لم يكن ذلك ضرورياً، ولا تستغل الموقف. تكمن مسؤوليّة هذه الشركات الآن في محاولة الحفاظ على جميع الوظائف. حان الوقت لتذكُّر أخلاقيات الشركة والمسؤوليّة الاجتماعيّة للشركات بشكلٍ جيّد. في الأزمة السابقة، بقي الناس محبطين للغاية بسبب الشركات والبنوك، ولكن لم نستخلص أي درس من ذلك على الإطلاق، سوى الاستمرار في العمل بنفس الطريقة تماماً. في هذا الوقت، يجب تحمّل مسؤولية وأخلاقيات الشركة وليس إغلاق الشركات أكثر ممّا هو ضروري. لهذا، من اللازم الدفاع عن أهداف التنمية المُستدامة: لقد حان وقت التحالفات. إذا لم تضع السلط السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة اليد في اليد، فلن ننجح.

لقد تسبَّبت حالة الطوارئ (كوفيد - 19) في إطلاق جميع الإنذارات، وقد كنّا بالفعل نشهد حالة طوارئ مناخية يمكن أن تكون عواقبها مدمرة أيضاً. هل نحن بصدد وضع النظام تحت ضغط لا يمكن تحمله؟

- ذلك أمرٌ واضح. لقد كشفت حالة الطوارئ الأخيرة عن شيء بدا أننا نسيناه: يتم استثمار القليل جدّاً من المال في البحث العلميّ. يحتاج البحث العلميّ إلى تعزيز ودعم كبيرين. من فضلكم، دعونا لا نستثمر الكثير من المال العام في المعارك الأيديولوجيّة. دعونا نضع الموارد في خدمة البحث العلميّ والتعليم. هو ما يمكن أن يساعدنا في حالات الطوارئ هذه وما يمكن أن يجعلنا أقوياء. لا بدّ من الدعوة للاستثمار في البحث والتعليم.

إن التفكير في الهشاشة التي أصابت وضع الأطباء والعاملين الصحيّين في العقود الماضية، يدمي القلب.

- كان موقف الأطباء والممرضات وجميع العاملين في مجال الصحّة مثيراً



للإعجاب ومثالياً تماماً. نأمل أن تعمل جميع الهيئات المهنية بنفس الاجتهاد. الحقيقة هي أنهم كانوا مثيرين بالنسبة لي- وهم كذلك- إذ بفضلهم أنقذ عدد كبير من الأرواح وتعافى أناس، ويشعر آخرون بالارتياح لأنهم يتلقَّون العلاج. لقد كان استثنائياً على وجه التحديد، وقد أسيئت معاملة هذه الهيئة، من وجهة نظر اقتصاديّة بموارد غير ضعيفة. ومن وجهة نظر المواطنين، العدوانية ضد العاملين الصحيّين، ورد فعلهم على المرض، كما لو كان هذا الأخير خطأ الأطباء والممرضات وأولئك الذين يعالجون الناس. يبدو لي أنه يجب تعويض هذا الوضع العدواني وهذه المعاملة السيئة بالكامل، ويجب أن يكون مفهوماً أنهم جسم مهني رائع. أتمنى أن يكون لدى جميع المهنيين هذا الشعور القوي بالمهنة. ودعونا أيضاً لا ننسى المزارعين ومربي الماشية الذين تركوا بيد الله، ومع ذلك وبفضلهم، ما زلنا على قيد الحياة.

جادل عالم الاجتماع الألمانيّ «أولريش بيك Ulrich Beck» قائلاً بأن نظام إنتاج الثروة يقودنا إلى مجتمع المخاطر. ماذا يجب أن نغيِّر؟

- بالنظر إلى مجتمع المخاطر الذي كان أولريش بيك يتحدَّث عنه، أنا جدّ متفقة بخصوص ضرورة توفرنا على نظرة عالميّة. فالخطر لا يوجد في مجتمع واحد فقط، وعندما يتعلَّق الأمر بالتعامل مع المشكلات، لا يمكننا القيام بذلك فقط من وجهة نظر مجتمعنا المستقل أو أمتنا أو بلدنا، ولكن يجب علينا مقاربتها من وجهة نظر عالميّة. نحن كون، كلنا متشابكون ومتحدون. نحن- وهذا في ما يبدو لي تعلّم أساسيّ- مترابطون. نحن نعتمد على بعضنا البعض، وعندما سندرك ذلك في هذه الحالات الطارئة سيكون علينا اتخاذ تلك النظرة العالميّة التي أسميتها تبعاً لكانط، والتي ذهبت إليها قبل قليل، الضيافة العالميّة، وهي الآن أكثر ضرورة من أي وقتٍ مضى. ماذا حدث مع عدد المهاجرين الذين لقوا حتفهم في البحر الأبيض المتوسط؟ إن ما يظهره لنا مجتمع المخاطر بشكلٍ فعّال، هو إمّا أن نتحمَّل مسؤوليّة المخاطر في جميع أنحاء العالم، وإمّا أننا سنتركها دون مساس. إن النزعات الاستقلاليّة والقوميّة التي قطعت العلاقات مع بعضها البعض هي حقّاً حركات بائسة.

■ **بابلو بلازكيز □ ترجمة: عبد الرحيم نور الدين**

المصدر:

ethic.es/2020/03/coronavirus-adela-cortina/

صدر في

كتاب الدوحة













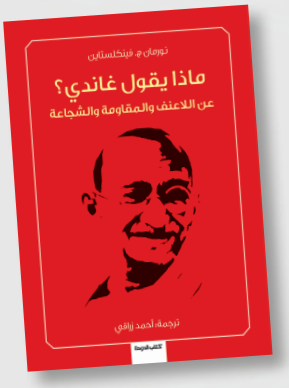










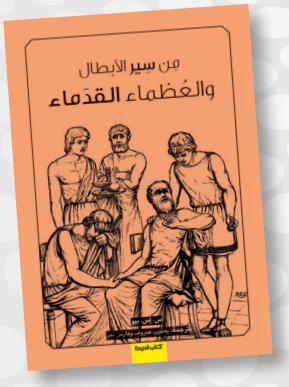




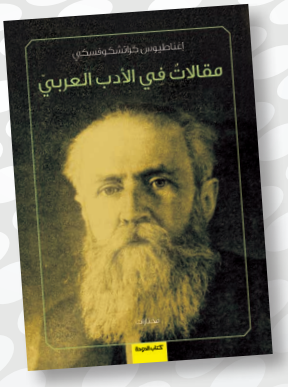














نيل فرغيسون:

الحرب الباردة الجديدة ستشجع المنافسة الصحيّة

عادةً ما تُولِّدُ الحروب الأوبئة، كما في سنة 1918 مع الأنفلونزا الإسبانيّة. لكن جائِحة (كوفيد - 19) قد تكشف عن نوعٍ آخر من الصراع، بل وتسرعه: «الحرب الباردة الجديدة» بين أميركا والصين، حسب تعبير المُؤرِّخ ذي الأصل الأسكتلنديّ «نيل فرغيسون Niall Ferguson».

ماذا سيكون دور العِلم في هذه الحرب الباردة الجديدة؟

- أحد الأسباب التي تجعلني أؤيد هذه الحرب الباردة الجديدة، طالما أننا نتجنَّب الأزمات النوويّة والحروب بالوكالة، هو أنها ستشجع على المنافسة الصحيّة. مثلاً، كما كان السوفيات جيدين بما يكفي في الفيزياء، فإن الصينيّين جيّدون جدّاً في الذكاء الاصطناعيّ. تحتاج أميركا لهذا التنافس العِلميّ والتكنولوجيّ. لقد كنا راضين جدّاً عن قدرتنا على قيادة الرقص في العلوم الدقيقة، لمجرَّد أننا عرفنا كيفية إنشاء برمجيات. لقد أدركنا، جزئيّاً بسبب الجَائِحة، أننا لم نعد القادة، على الأقلّ في عدد المقالاتِ العلميّة المنشورة في عِدّة مجالات بحث، وهي ليست علامة جيّدة. ستكون هذه المنافسة مفيدة للجميع، لأنها ستسمح، من بين أمورٍ أخرى، بإيجاد لقاح ضد (كوفيد - 19). وبعكس الصين، يمكن لأميركا استيراد العلماء من جميع أنحاء العالم، بينما يعتمد الصينيّون على السكّان المحلّيين. وطالما بقي الأميركيّون مغناطيس المواهب الذي كانوا عليه دائماً، فسيحافظون على ميزتهم.

ما رأيك في الحجة التي طوَّرها «كاي-فو لي - Kai-Fu Lee» بأن الصين ستمضي بعيداً في تطوير الذكاء الاصطناعيّ، لأنها تتمتع بإمكانية الوصول إلى البيانات من مئات الملايين من الناس على عكس أميركا، التي تحمي بيانات الأفراد بسبب تقاليدهم الليبراليّة؟

- يتعلّق الأمر بحجة زائفة. أعتقد أنه توجد حلول تكنولوجيّة جيّدة توازن بين الحاجة إلى تجميع البيانات مع حماية الأفراد. تايوان تفعل ذلك بشكلٍ جيّد! هنالك، هاتفكم الذكي يخزن بياناتكم الشخصيّة في «بلوكتشين blockchain»، حيث لا يمكن الوصول إليها لا من قِبَل أحد.. لقد سمحنا لمنصات مثل غوغل أو فيسبوك بالحصول على بياناتنا الشخصيّة، وهو ما تفعله الحكومة الصينيّة مع علي بابا وتنسنت. هذا يجعل ادعاءاتنا بأننا حماة البيانات أقلّ إقناعاً! يجب على أميركا أن تحلَّ مشكلة فرط سلطة المنصات، وأن تعيد البيانات لأصحابها. هذا تحدٍ مركزي، تحدَّثت عنه في كتاب الساحة والبرج، وقد مرَّت سنوات ونحن لم نحلّه بعد. هذا أحد الأسباب التي تفسّر سوء استجابة الأميركيّين لهذه الجَائِحة: لدينا البيانات، لكنها بين أيدي غافا Gafa (غوغل، آبل، فيسبوك وأمازون). لم يكن هناك أي استخدامٍ ذي صلة للبيانات من أجل تتبع الأشخاص المُعرَّضين للخطر، والذي يعدُّ جزءاً أساسيّاً من حلِّ الأزمة. فقول «احذروا من هواوي Huawei، ولكن ليس من فيسبوك» ليست فيه مصداقيّة، لأنه غير متسقٍ بعمق.

ماذا عن الاتحاد الأوروبيّ في كلّ هذا؟ هل هو محكوم عليه باتباع مصير الولايات المتحدة؟

- يلعب الاتحاد الأوروبيّ فعلاً دوراً خاصّاً كمنظم في النظام الغربيّ. مع عدم قدرة الكونغرس الأميركيّ على ضبط وادي السيليكون، فقد أخذ هو هذا الدور، على الرغم من أنه لا يمتلك مؤسَّسات تكنولوجيّة كبرى، إلّا أنه لديه مصلحة في خلق قواعد للشركات الأميركيّة. تتمتع أوروبا بميزة أيضاً بالنسبة للجيل الخامس 5G، لأن الشركات المنافسة لـ«هواوي»، وهي «إريكسون ونوكيا»، هي شركات أوروبيّة. العديد من المُعلِّقين الذين أعلنوا عن نهاية الاتحاد الأوروبيّ في عام 2012، في ذروة الأزمة اليونانيّة كانوا سلبيين حيال ذلك. لطالما كنت متشكّكاً بخصوص الاتحاد النقديّ، الذي أراه خطأً كبيراً، ولكن من وجهة نظر جيوسياسيّة، لا تزال أوروبا قادرة على الحياة، والمُفارقة أن تلك القدرة تعزَّزت بخروج بريطانيا منها، التي كانت العقبة أمام إمكانية تحقيق الفيدراليّة. لو بقيت جزءاً منه، لما استطاع الاتحاد الأوروبيّ الاستجابة للجَائِحة كما يفعل اليوم، لأن الحكومة البريطانيّة كانت ستمنعه. لقد اعترفت ميركل بالفعل، تحت ضغط من إيمانويل ماكرون، بالحاجة إلى حدٍّ أدنى من المساعدة المالية الأوروبيّة لإصلاح الأضرار الناجمة عن الأزمة.

ألا تعتقد أنه على العكس، كشف الوباء عن أنانية وطنيّة قويّة، على الأقلّ في البداية؟

- في الواقع، في البداية، كان الأمر إنقاذ مَنْ يستطيع! وذلك سيترك آثاراً، خاصّةً في إيطاليا. وتجدر ملاحظة أيضاً أن ألمانيا لم تبدأ في الحديث عن «Schicksals gemeinschaft» أي «مجتمع المصير» قبل أن يستقر الوضع في البلاد. لم تستخدم ميركل قط تعبير «ألمانيا أولاً»، لكن تصرُّفاتها تشير إلى أن أولويتها هي المصلحة الوطنيّة لألمانيا. لحسن الحظ لا توجد عبارة «ألمانيا أولاً» في السياسة الألمانيّة، لأنها تترجم إلى Deutschland uber alles التي تذكّر ببعض الذكريات المُقلقة! (ضحك)، لكن معك حق،

جاء التضامن بين الدول الأوروبيّة متأخراً جدّاً، بعد جدل محرج حول إرسال التجهيزات الطبيّة وإدارة الحدود. وهذا يذكّرنا بأنه في أوروبا لا تزال الحدود الوطنيّة موجودة. نجد نفس الظاهرة المتجلية التي تحدَّثت عنها سابقاً: الجَائِحة بيَّنت أن الاتحاد الأوروبيّ ليس دولة فيدراليّة، وأنه يمكن إلغاء جميع عمليات الاندماج المشروطة من حيث حرّيّة التنقل. مثلما حدث في 2015 - 2016 عندما تصرَّف الألمان من جانبٍ واحد تجاه أزمة اللاجئين. في أميركا على العكس من ذلك، من المستحيل إدارة الحدود بين الولايات بينما تتبع ولايات مختلفة إستراتيجيّات مختلفة، وبالتالي ستكون النتيجة بالضرورة فوضويّة، حيث لا يمكنها منع التنقل بين أولئك الذين يطبقون تباعداً اجتماعيّاً والآخرين.

ألا تعتقد أن هذه الجَائِحة تكشف عن أزمة الخبرة؟

- في هذه الأزمة، يلعب علماءُ الأوبئة دوراً مُهمّاً، في حين أن نماذجهم ليست معفية من الأخطاء، في المقابل لاحظت أنهم لم يستدعوا المُؤرِّخين الذين يعرفون جيّداً كيفية عمل الوباء. في الساحة والبرج أوضح أنه لفهم العدوى، يجب أولاً دراسة خصائص الفيروس، ثم خصوصيّات الشبكات الاجتماعيّة، وخصائص النظام السياسيّ المعني. لذلك يجب على صُنَّاع القرار السياسيّ ألّا يتناقشوا فقط مع علماءِ الأوبئة، بل مع المُؤرِّخين أيضاً. لم يحدث شيء من هذا القبيل، إنها ليست المرّة الأولى التي قرّرنا فيها تجاهل التاريخ واتخاذ قرارات على أساس نماذج نظريّة، والتي ستكون حسب تعريفها، تبسيطاً للواقع. وبالتالي ليست المشكلة في الخبراء، ولكن في واقع الاستناد إلى نوعٍ واحدٍ فقط من الخبرة.

أليس من الصعب على المُؤرِّخ أن يجد مقارنةً مناسبةً مع الوضع الحالي؟

- بعد حدوث الأنفلونزا الإسبانيّة في نهاية الحرب العالميّة الأولى، كان من الصعب التمييز بين نتائج نهاية الحرب ونتائج الأنفلونزا. مثال 1918 يشكّل إشكالية لسببٍ آخر: ذلك الوباء كان أكثر فتكاً من (كوفيد - 19)،



وتكنولوجيّاتنا الطبيّة كانت أقلّ فاعليّة في علاج الالتهاب الرئويّ. أنا أفضل المقارنة مع «الأنفلونزا الآسيويّة» لـ (1957 - 1958)، الجَائِحة التي تمَّ إهمالها تماماً. وهي أيضاً أنفلونزا بدأت في آسيا الشرقيّة، وفرضت نفس نوع التهديد لسكّان العالم، مع معدل ضراوة وفتك مكافئ لـ (كوفيد - 19) بدون شكّ. في (1957 - 1958)، استجابت الحكومات بشكلٍ مختلف تماماً عن اليوم، لأنها لم تفعل شيئاً كلية! بعض إجراءات التباعُد الاجتماعيّ على المستوى الوطنيّ ولا وجود للحَجْر. الجَائِحة تسبَّبت إذن في قتل عددٍ غير قليلٍ من الناس، لكنها أحدثت اضطرابات اقتصاديّة قليلة فقط. الدرس الذي يمكن استخلاصه هو أنه في سنوات 1950، كان للناس موقفٌ أكثر جديّة تجاه الأمراض المُعدية. كان الجيل الذي عرف الحرب العالميّة الثانية والحرب الكوريّة على دراية بأوبئة الأنفلونزا وشلل الأطفال والجدري. إذا ذهبنا للبحث عن «أيزنهاور Eisenhower» باستخدام آلة زمن وإعادته إلى سنة 2020، فسوف يستنتج أننا أصبحنا مجانين جماعيّاً، ولا شك أنه سيقول إنه لضمان الصحّة العامّة، قد ألحقنا ضرراً أكبر من اللازم بالاقتصاد.

كوننا مختلفين تماماً عن رجال سنوات 1950، هل هو علامة عن الانحطاط؟

- في إدارتنا للأزمة، تشير بعض العناصر إلى الانحطاط. موقفنا من الموت أكثر غرابةً مما كان عليه عندما كتبت «إيفلين وو Evelyn Waugh» «المفقود العزيز - Le Cher disparu». وهو هجاء حول صناعة الجنازة الأميركيّة. أعتقد أننا في الغرب، نواجه صعوباتٍ كثيرة في فهم أننا نموت في كلّ سنة وبأعدادٍ كبيرة، بسبب وباء أم لا، وأن مشكلة الوباء هي زيادة معدَّل الوفيات وليس الوفيات. عندما يقتل مرضٌ ما بشكلٍ غير متناسب أشخاصاً تزيد أعمارهم على 60، 70 أو 80 سنة، يكون أقلّ فظاعة بكثير من جائِحة تقليديّة، حيث يكون أبناؤنا معرَّضين للخطر مثل والدينا. هذا كان مصيرنا خلال الجزء الأكبر من تاريخ البشريّة. يبدو الأمر كما لو أننا نحاول أن نحصل على «صفر من الموتى»، إنه أمر سخيف. في المملكة المتحدة، من الواضح أنه كان أسوأ شهر أبريل/نيسان مقارنةً بالسنوات الخمس الماضية، لكن مقارنةً بكلّ شهر أبريل منذ سنة 1970، لم يكن هذا الشهر مميتاً بشكلٍ خاص، لم يكن حتى في قائمة العشرين الأعلى. لدينا الآن توقُّعات غير واقعية تجاه الموت، ما ساهم في إرباك الاستجابة السياسيّة، كما لو كنا قادرين على الوصول إلى هذا الهدف «صفر ميت». لكن في رأيي الانحطاط الحقيقيّ- وهو ما يقلقني فعلاً- هو في مكانٍ آخر، إنه موجود في قلب العَالَم الجامعيّ. هذا الأخير شوهته الأولوياتُ الأيديولوجيّة والسياسيّة بشكلٍ متزايد. «التنوُّع» الآن أكثر أهمِّية من التميُّز الفكريّ. بالنسبة لي هذا يفسّر لماذا الخبرة، عند اختبارها بأزمة لا تكون على قدرها، لأنه لإجراء بحث جيّد، يجب أن تكون قادراً على طرح أسئلة سيئة دون أن يشعر أي شخص بالإهانة. الآن، أولئك الذين يطرحون هذه الأسئلة يتعرَّضون للتمييز، ويطرَدون من العَالَم الأكاديميّ من قِبَل اللجان المسؤولة عن تعزيز ما هو صائب سياسيّاً.

هل جرَّبت ذلك بنفسك؟

- لنقلْ إنه من الصعب عدم ملاحظة كيف تمَّ فرض هذا التحيُّز بمرور الوقت، فقد تغيَّرت القيم. عندما بدأت مسيرتي، بحثت عن الصرامة والشجاعة الفكريّة، واليوم تتحلل هذه الأفكار في نوعٍ من الأيديولوجيّة الغامضة، الفاترة والسياسيّة. ومن هنا يأتي تدهور البحث والتعليم.

■ **حوار: لاتيتيا ستراوخ بونارد وغبراييل بوشار □ ترجمة: عثمان عثمانية**

المصدر:

Niall Ferguson, «La nouvelle guerre froide encouragera une saine compétition.» Le Point N° 2489, 7 Mai 2020, pp.32-35.

باتريك بوشرون:

الإنسانيّة قادرة على نشر الفيروس وعلى احتوائه

في هذا الحوار يتناول المُؤرِّخ الفرنسيّ باتريك بوشرون المُتخصِّص في العصر الوسيط وعضو «كوليج دو فرانس» علاقة الجَائِحات بالتحوُّلات الفكريّة والسياسيّة والمجتمعيّة، حيث يتوقَّف عند الدروس الممكن استخلاصها من تاريخ الجَائِحات اليوم، ومدى تأثيرها على الحضارات البشريّة وقيمها كما حصل عند انهيار الإمبراطورية الرومانيّة وغيرها. وهو يرى أن «التاريخ كنز من التجارُب، لكنه لا يعطي دروساً للحاضر». ويتوقَّف أيضاً عند الدور المنوط بالمُثقَّفين وتجاربهم مع الظواهر الوبائيّة.

يكشف لنا الوباء إلى أي حدٍّ نحن بشر فانون وضعفاء ومترابطون فيما بيننا. فهل يغيِّر ذلك مجتمعاتنا؟

- لم يسبق لنا أن واجهنا وعشنا التاريخ إلى هذه الدرجة من الحميميّة، أي أن نجرب واقع تسلل العالم إلى أجسادنا. يقول لنا العلماء إنه في سوق ووهان في الصين، حيث يُباع لحم حيوان البنغول المُستورد من إفريقيا، والذي يعشقه الصينيّون، وقع انتقال لفيروس جديدٍ من الحيوان إلى البشر، وهذا الانتقال بين الأجناس يتسبَّب دائماً في ظهور الأوبئة. وهكذا أدركنا بشكلٍ مفاجئ أن حدثاً بعيداً كانت له عواقب ملموسة على حيواتنا وعلى المكان الذي نعيش فيه. فهذا العبء الثقيل الذي نشعر بأنه يجثم على صدورنا أتى من مكانٍ بعيد. في الوقت نفسه، نكتشف أن بإمكاننا أن نبطئ من انتشاره واحتوائه عبر قيامنا بحركاتٍ جسديّة بسيطة جدّاً. وكما يوضح ذلك فيليب سانسونيتي الأخصائيّ الكبير في علم الفيروسات، فإن مستقبل العالم يوجد بين أيدينا. فنحن لسنا فقط ضحايا للعولمة، ولكننا أيضاً الفاعلون الرئيسيّون فيها، لأن الإنسانيّة أصبحت قوة طبيعيّة قادرة على نشر الفيروس وعلى احتوائه. هذا هو ما يجعل وباء (كوفيد - 19) مرضاً يرتبط بعصر الأنثروبوسين أو العصر الجيولوجيّ البشريّ. إنها المرّة الأولى التي تتاح أمامنا الفرصة لنعي ذلك بشكلٍ ملموسٍ جدّاً.

باعتباركم مؤرِّخاً للعصور الوسطى، هل ترون في هذا الوباء أوجه شبه مع الأوبئة التي سبق أن ظهرت في الماضي؟

- التاريخ كنز من التجارُب لكنه لا يعطي الدروس للحاضر، والمُؤرِّخون هم أقلّ مَنْ يعطي دروساً في هذا الباب. فأنا أبقى حذراً من تلك المُمارسة الانتهازية، في كثير من الأحيان، والتي تتمثَّل في الإحالة على وجود تطابق وتوافق بين الأزمنة التاريخيّة. فتعقُّد عالمنا الذي صار مترابطاً اليوم يجعل هذه المُقارنة صعبة. ومع ذلك، دعونا نتذكّر أن إيطاليا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، عقب انتشار الطاعون الأسود، عرفت ظهور مفهوم الصحَّة العموميّة لأوّل مرّة، أي فكرة أن صحّة الجميع هي ملكية مشتركة يمكنها أن تتأثَّر بقرارات أي واحدٍ منا. وهو ما يسمح للسلطات العموميّة بأن تقوم بمراقبة الناس، وخاصّة عبر تقييد حرّيّتهم في التنقل. هذه الفكرة تختبر وتمتحن اليوم تلك الحدود الصارمة التي تفصل بين السلوكيات الفرديّة والمسؤوليّة الجماعيّة، والتي ما زال من الصعب تفهمها: فالكثيرون مازالوا لا يعترفون بأنه إذا ما طلبنا منهم حماية أنفسهم، فإن الهدف هو أيضاً عدم تعريض الآخرين للخطر. في 2009، وأمام معارضة السكّان للخضوع للتلقيح الإجباريّ ضد أنفلونزا الخنازير (H1N1)، تذكَّر بعض الباحثين أن عصر الأنوار كان قد عرف نفس المشكل في القرن 18، حيث إن العَالِم المساح «شارل ماري لاكوندامين» الذي كان يطالب الآباء بتلقيح أبنائهم ضد الجدري كان ينـدِّد في 1750 بـ«الأشخاص الطائشين» الذين يرون أن «كلّ شيء يمكن علاجه فقط بالكلام».

أليس هذا تقريباً ما يحدث لنا اليوم، حيث إن الكلام صار يجري بيننا عبر الإنترنت؟

- إن أكثر شيء مُعدٍ هو جهل أشباه العلماء! يجب علينا أن نعلم أنه من غير المجدي دائماً تقديم الكثير من الحُجج ذات المرجعية عندما يكون الرأي العام أصم ولا يسمع لكلام الخبراء. شخصيّاً، ما يسائلني أكثر حالياً هو الامتحان الذي تمرّ منه ظرفيتنا التاريخيّة. لقد وُلدت في 1965، بعد وقوع كوارث كبرى، وكان يُقال لي إنني وُلدت بعد وقوع أحداث تاريخيّة كبرى. لكنني، عاصرت انهيار جدار برلين، وهجمات 11 سبتمبر/أيلول في 2001، وموجة الإرهاب في 2015... أمّا الأجيال السابقة فقد عاصروا الحرب والحَجْرَ الصحيّ والهجرة القروية. فآباؤنا خائفون اليوم،

ولكنهم ربّما هم مندهشون بصورةٍ أقلّ ممّا نحن عليه. وما ألاحظه هو أن المُثقَّفين يكونون دائماً قليلي الحيلة، حيث إنهم يكونون بصدد الاستعداد لأحداثٍ كبيرة يأملونها أو يخشونها- مثل حدوث ثورة عالميّة، أو كارثة مناخيّة- ولكن يحدث شيء آخر لم يكونوا يفكّرون فيه.

هذا يعني إذن أننا لم نتعلَّم أي شيء من الأوبئة الماضية؟

- المفروض أن علينا أن نتعلَّم منها. لقد سبق لي أن قلت إن التاريخ هو كنزٌ من التجارب التي يجب أن تلهمنا كيفية الاحتياط. والاحتياط يعني أن تُعدَّ نفسك لمواجهة الكوارث الكبرى، أو على الأقلّ أن تكون أكثر مراعاة لأولئك الذين تهددهم الكوارث. لنأخذ كمثال الوباء الذي عرفناه في زمنٍ قريب منا، وهو مرض الإيدز في الثمانينيات. على المستوى الطبيّ، لا علاقة له بكورونا، لأننا احتجنا إلى عِدّة سنوات لعزل فيروس الإيدز، في حين أن التقدُّم الهائل اليوم في مجال علم الأحياء الجزيئيّ سمح لنا بتشخيص فيروس كورونا خلال بضعة أيام. ورغم ذلك، فإن العاملين اليوم في مجال الصحّة العموميّة تمَّ تكوينهم بشكلٍ كبير نتيجة هذا الامتحان، وهم يعرفون أن المرضى يمكن أن يكونوا أفضل الخبراء في ما يتعلَّق بمرضهم. كما يعرفون استمرار وجود بعض أشكال الإنكار عند ظهور المرض: ومن أمثلة ذلك أن يُقال مع مرض الإيدز، إنه يصيب فقط المثليين جنسياً، أو أن يُقال إن فيروس كورونا لا يصيب إلّا كبار السنّ. وهذا غير صحيح في كلتا الحالتين، كما أنها مسألة مشينة. لقد قام العديد من الفرنسيّين بتخزين الدقيق والمعكرونة وورق المرحاض في منازلهم كما لو أن ذكرياتنا مسكونة بماضٍ لم نعشه... من الصعب فعلاً ألّا نتعرّف في هذا الصدد على وجود نزعةٍ إلى تقليد ما هو قديم وماض. بمعنى أنه خوف قديم جدّاً، ولكنه لا يزال نشطاً، ومخبأً في ذاكراتنا، ولا زال يحكمنا. فالمخاوف القديمة تسكننا. وأنا كمُؤرِّخ متخصِّص في القرون الوسطى لا يمكنني أن أغضب من مثل هذه السلوكيات، ولكنني ببساطة أتعرَّف عليها بوصفها كذلك. ويمكن أن نجد مواقف أخرى سابقة كما يشهد على ذلك كتاب «الديكاميرون»، وهي مجموعة قصص كُتبت في 1350 بنفس الإحساس بالمناعة والحصانة الذي يحرّكها. فهو يظن أن الخوف لن يمسه، ويعتقد أنه لا ينتمي إلى نفس فصيلة البشر التي عُولجت في المستشفى. ولكنه بعد بضعة أيام، سيموت بما كان يُسمَّى «الخوف الأزرق». وأنا اليوم ألاحظ كم لزمنا من الوقت لنستخلص دروساً حميميّة أمام آفة (كوفيد - 19). إن قدرتنا على الإنكار تبقى هائلة، فنحن نفهم على مراحل، بحيث إننا علمنا بظهور هذا الفيروس في الصين، وفي المراحل الأولى كنا قلقين فقط من انعكاساته على تباطؤ الاقتصاد العالميّ. هل يمكنك أن تتخيّل إلى أي حدٍّ كانت إيطاليا تتعرَّض لكارثة، لكننا لم نفعل شيئاً يذكر، أو بالكاد تحرَّكنا في إيطاليا؟! فالعدد اليومي للوفيات في مدينة برغامو كان يشبه حصيلة بلدٍ في حالة حرب.



هل يبشر تجاوز الأوبئة، عند تجاوز هذا الوباء، بتقدُّم ثقافيّ وبانطلاقات فنيّة وتطوُّرات على مستوى الوعي السياسيّ؟ هل يمكننا أن نأمل في حدوث تغييرات إيجابيّة؟

- يجب علينا أن نؤمن بهذا، لكنني أشكّ في ذلك. لقد عرفنا منذ 2017 أن نفس الجرثومة التي اكتشفها العَالِم ألكسندر يرسين في هونغ كونغ في 1894، هي المسؤولة عن كلّ موجات الطاعون التي شهدتها أوروبا منذ القرن السادس إلى غاية الطاعون الذي ضرب مارسيليا في 1720. ففي كلّ مرّة، تتكرَّر نفس القصّة: يحدث ترابُط وتشابُك على مستوى العالم، ويقوم الإنسان بالتعدّي على المساكن الطبيعيّة فتخرج العوامل المُسبّبة للمرض من مساكنها البيئيّة. لكن كلّ عودة للطاعون تكون لها عواقب اجتماعيّة وسياسيّة مختلفة. يعتقد بعض المُؤرِّخين اليوم أن وباء جاستينيان في القرن السادس أدّى إلى السقوط النهائيّ للإمبراطوريّة الرومانيّة، لكن الطاعون الأسود الذي تسبَّب من 1347 إلى 1352 في أكبر كارثة ديموغرافيّة في التاريخ- أي وفاة ما بين نصف وثلثي السكّان في عِدّة مدن أوروبيّة- لم يؤدِ إلى حدوث أي تغيير تقريباً، فلم تتغيَّر منظومة الطاعة ولا منظومة الفكر، ولم يتغيَّر أي ملك ولا أي سياسة. لماذا؟ هذه القدرة على المرونة لدى المجتمعات مسألة تفاجئني. إن أكثر وباء يشبه الوباء الذي نعيشه حالياً هو الأنفلونزا الإسبانيّة التي قتلت ما بين 50 و 100 مليون شخص عبر العالم، والتي انمحت ذاكرتها بسبب الحرب العالميّة الأولى، حيث إنها انتشرت مباشرةً بعد الحرب في 1919. إن وباء (كوفيد - 19) هو وريث الأنفلونزا الإسبانيّة رغم أننا نعيش حالياً في الزمن الأنثروبوسيني، وهو ما يشكّل اختباراً كبيراً وبالحجم الحقيقيّ لعالمنا متعدِّد الأقطاب الذي ندرك أننا لا يمكن معالجته بأنانياتنا المُتميِّزة. علينا أن نمرَّ بعِدّة مراحل بدءاً من غسل اليدين إلى غاية تغيير العالم، لكن هل نريد فعلاً أن نمرَّ بهذه المراحل؟ إن السياسة تبدأ من أجسادنا، ثمَّ تمتد إلى جيراننا وأحيائنا وقُرانا وبلداننا. ليست هناك أي حركة أقوم بها تعنيني أنا وحدي فقط، وإذا ما كنا نعيش منعزلين في أزمنة الأوبئة، فلأن ما هو عموميّ يعودُ ويرتدُّ إلى ما هو خصوصيّ. من الآن فصاعداً، صار كلّ ما نقوم به يومياً له طابعٌ سياسيٌّ. فإلى أين سنذهب جميعاً؟

■ **حوار: إيميلي لانيز □ ترجمة: محمد مستعد**

المصدر: مجلة «باريس ماتش» 31 مارس 2020

كورونا جزء من عصر الأنثروبوسين!

ما قبل تاريخ الحَجْر

«يُشكّل الحَجْرُ المنزلي امتداداً منطقيّاً في تاريخ البشريّة». هذه هي الأطروحة التي يسعى إلى إثباتها عَالِم الآثار والمُؤرِّخ جان-بول دومول في كتابه المعنون بـ«ما قبل تاريخ الحَجْر»، وهو الكتاب الذي أصدره مؤخَّراً عن دار نشر غاليمار، أبريل/نيسان 2020. بالنسبة لهذا الباحث المُتخصِّص في التاريخ القديم، والأستاذ بجامعة باريس 1 بالسوربون - فرنسا، فإن ما يشهده العالم من حجْرٍ في البيوت بسبب وباء (كوفيد - 19) ليس هو «الحدث الأهم» كما يُراد لنا ربّما أن نعتقد، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كُتب هذا الحدث منذ آلاف السنين. وعلى وجه التحديد عندما قام الإنسان العاقل الأول بالتخلّي عن القوس والساطور ليشرع في زراعة الحقول وبناء المدن. وعلى مرِّ القرون استُبدلت حضارة القنّاصين-قاطفي الثمار بحضارة العاملين عن بُعد، والمُكدَّسين في المنازل التي نقيم بها حالياً بشكلٍ مستمر. وتبعاً لما سبق يوضح جان-بول دومول أن هذا الحَجْر لا يمثل ربَّما إلّا آخر أشكال العيش المُستقر على كُوكبنا الفاني، وذلك على الرغم من الحركية الظاهرة للعولمة.



بالنسبة إليكم، فإن تاريخ البشريّة هو تاريخ حجْرها التدريجي، أليس كذلك؟

- كانت البشريّة في عهد القناصين-قاطفي الثمار تتكوَّن بالضرورة من البَدْوِ الرُّحَّلِ. وكان الإنسان العاقل الأول يعتمد على الموارد الموسمية. وبحسب الحيوانات التي يقتنصها، والأسماك التي يصطادها، والنباتات التي يلتقطها، فمن النادر أن يظل إنسانُ تلك الفترة مُقِيمًا في المكان نفسه طوال السنة. وفي الوقت نفسه الذي تتشكّل فيه مجموعات صغيرة من الرجال، وتستمر في التنقل داخل مساحة شاسعة نسبياً، فإن الإنسان العاقل الأول قد أنجز حركةَ غَزْوٍ شاملة للكوكب بأكمله، امتدتْ لعشرات الآلاف من السنين. وما أن استوطن البشرُ مجموع الكرة الأرضية حتى بدأوا في التوقف عن التنقل تدريجيّاً. أمّا في أيامنا هذه، فإن الأغلبية الساحقة من سكّان العالم مستقرة. إلى أن جاءت فترة الحَجْر الحالي، الذي بيَّن أن كثيراً من المهن والوظائف يمكن ممارستها عن بُعد. فنحن في الظروف العادية لا نعمل بالضرورة عن بُعد، ولكننا مع ذلك نَتَنَقَّلُ محبوسين في صندوق، أو سيارة، أو داخل عربة من عربات المترو، لنلتحق بأحد المكاتب، حيث لا يمكننا التحرُّك أبداً، جالسين أمام شاشة ثابتة. وهكذا، فإننا لم نعد نعيش في منازل متباعدة، ولكن الغالبية منا تعيش الآن وبأعدادٍ متزايدة داخل شقق يتكدَّس بعضها فوق بعض.

ما الذي يحدِّد حجْر النوع البشريّ؟

- عرف حجْر الإنسان تسارُعاً بفضل اختراع الزراعة المستقرة والمعروفة بالعصرِ الحَجَري الحديث، وهو الاختراع الذي أتاح للطعام أن يكون في متناول اليد. وتعدُّ هذه الممارسة حديثة نسبيّاً في تاريخ البشريّة. ففيما يرجع تاريخ الأشكال البشريّة القديمة إلى حوالي 7 ملايين سنة، وتاريخ ظهور الإنسان العاقل الأول إلى 300000 سنة، فإن الزراعة وتربية المواشي لا يتجاوز تاريخهما بالكاد 10000 سنة، وهو ما يربو قليلاً على 3 % من وجود الإنسان العاقل الأول. وكلما ازدادت الحاجة إلى الزراعة إلّا وتضاءلت حياة الترحال لتقتصر على مناطق نادرةٍ من العالم، تتصل بالرعي أو بظروف معيشية قاسية، كما هو الحال في الصحارى. وفي العصرِ الحَجَري الحديث سيظهر لنا المنزل ذو «الجدران الصلبة»، سواء أكان من الخشب أو من التراب أو من الحجارة، وهو المكان الذي يُكرِّس حجْر الأشخاص داخل صندوق ثابت، حوله يتم تنظيم فضاءات أليفة متمركزة: المنازل الأخرى، ثم الحقول والمراعي المحيطة بالقرية، وأخيراً: المساحات البرية التي ستتضاءل رويداً رويداً إلى أن تصبح محدودة جدّاً. ومما لا شكَّ فيه أن التاريخ لم يشهد في أية فترة من فتراته غياباً تاماً لحركات الهجرة، ولكن هذه الحركات لم تكن تهدف إلّا الى الاستقرار من جديد في مناطق تتوفَّر فيها ظروف معيشية أفضل، منذ تلك التي كانت في العصور الوسطى مروراً بالاستعمار الأوروبيّ للأميركيّتين، ووصولاً إلى الحركات المُعاصِرة.



جان-بول دومول ▲

هل يشكّل اقتراب الإنسان من الحيوان اقتراباً من المرض؟

- إنها المرّة الأولى التي يؤثّر فيها البشر تأثيراً حقيقيّاً ومتزايداً في النظام الإيكولوجيّ الأرضيّ. فالقرية والمدينة تثيران العديد من المشاكل المُتعلّقة بالنظافة الصحيّة. إذ إن المنازل والمباني الملحقة بهما تعيش إلى جانب مجموعة متنوّعة من الحيوانات الأليفة، وذلك تبعاً لمناطق المعمورة (خنزير، لاما، دجاج، إلخ...). كما تعيش أيضاً إلى جانب الحيوانات المُسمّاة رفيقة السكن مثل: الصراصير والجرذان، وما يعيش فوقها من براغيث، وفي الآونة الأخيرة: الحَمَام. فهذه الحيوانات ناقلة للأمراض. فالطاعون مثلاً نُقل بواسطة برغوث جرذ أسود. وللحيوانات البريّة أيضاً أمراضها، فحينما يقلص الإنسان من المساحة الطبيعيّة لهذه الحيوانات، فإنه يقترب منها بالقوة. وفي الفترة الأخيرة، عزّزت الأنشطة البشريّة على التنوُّع البيولوجيّ انتقال الفيروس، الذي ربما انتقل إلينا عبر أحد الخفافيش، أو سنور الزباد أو البنغول. ومن وجهة النظر هاته، يمكننا القول إن وباء كورونا الحالي هو إذن جزء من التاريخ الطويل لعصر الأنثروبوسين.

هل صارت التجمعات البشريّة أيضاً تمثل بيئةً ملائمةً لتفشي الأمراض؟

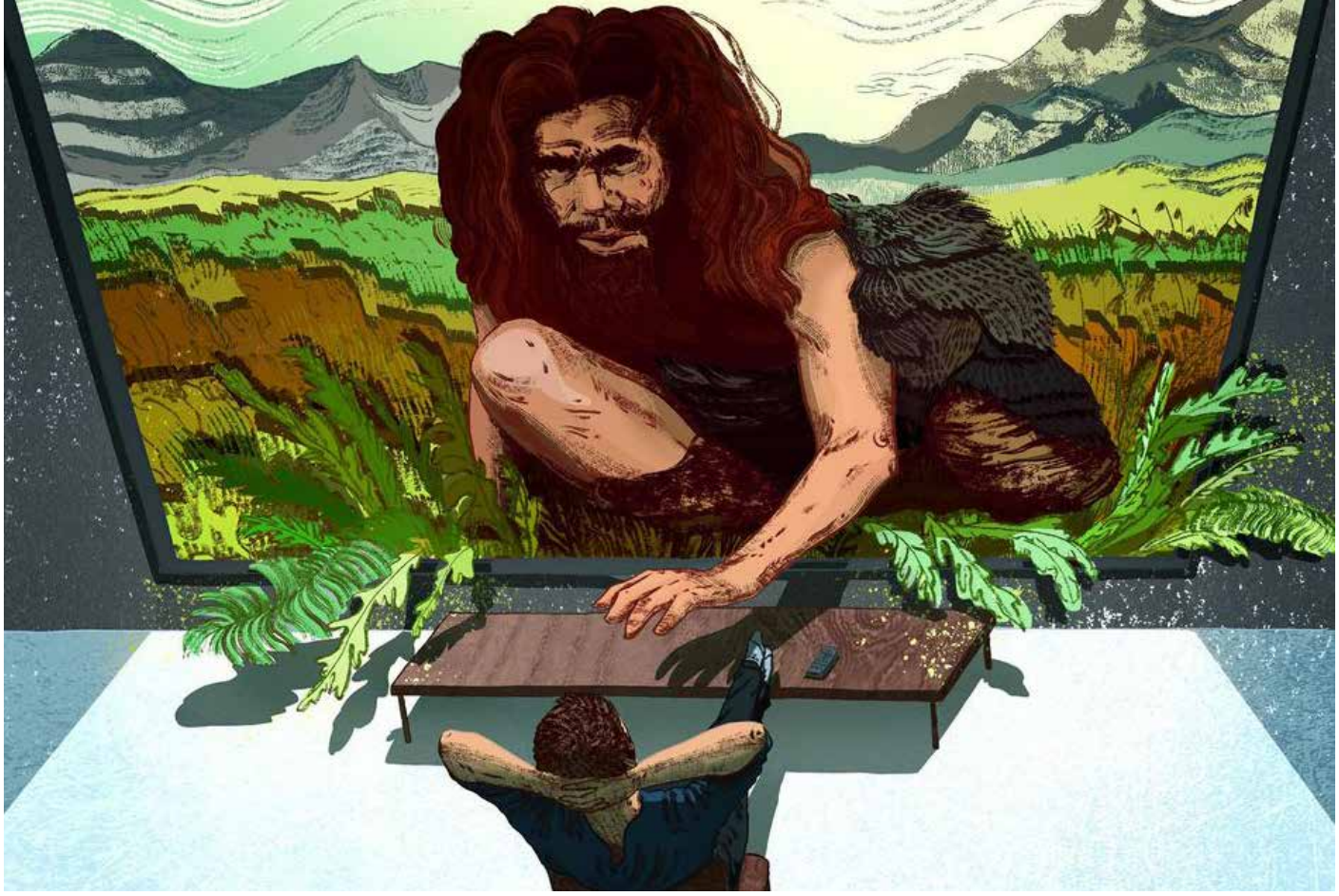
- تشير كلٌ من الأنثروبولوجيا البيولوجيّة والأركيولوجيا وعلم الوراثة إلى أن عدداً من الأمراض كانت موجودة بالفعل عند القناصين-قاطفي الثمار، ولكنها كانت منتشرة في مجموعات محدودة جدّاً، بحيث لم تتطوَّر على نطاقٍ واسع. وفي تلك الحقبة لم تكن البشريّة تتجاوز مليون أو مليونَيْ شخص ينتشرون في جميع أنحاء الأرض ضمن مجموعات من عشرات الأفراد. وعلى سبيل المثال، تشير التقديرات إلى أن داء الحصبة لا يمكن أن يستمر بشكلٍ دائم إلّا في مجتمع يضم 300000 شخص. والحال أننا لم نبلغ هذا الرقم إلّا مع ظهور المدن والدول.

متى حدثت الطفرة الديموغرافيّة؟

- مع تطوُّر الزراعة، تحقَّق استقرار الموارد الغذائية، كما استقرَّ معدل إنجاب الأطفال عند المزارعات المُستقرات بمعدل طفلٍ كل سنة. ويعدُّ ذلك أكثر خصوبة بثلاث إلى أربع مرّات بالمُقارنة مع ما كانت عليه القناصات-قاطفات الثمار المُتنقّلات. وهكذا فقد انتقلت المجتمعات البشريّة من عشرات إلى مئات الأفراد، ثم إلى الآلاف ثم إلى الملايين. وخلال 10000 سنة فقط، انتقلت البشريّة من مليون أو مليونَيْ كائن بشري إلى 7 ملايير الآن. وهذه التجمعات البشريّة المُتزايدة سمحت بانتشار الأوبئة. وإذا كان التقدُّم الطبيّ قد ساعد في السيطرة على عددٍ من الأمراض، فإن التلوث والمبيدات الحشرية والاكتظاظ في المناطق الحضرية قد أدت إلى ظهور أمراض جديدة، ناهيك عن آثار المضادات الحيويّة، بل وربّما حتى الإفراط في النظافة.

في ظلِّ العولمة، ألم تدخل الحضارة الحديثة في عصر التنقل الدائم؟

- على النقيض من ذلك فإن منطق التاريخ البشريّ يميل إلى الحدِّ من كلّ تنقل على كوكب فانٍ. إذ بإمكاننا أن ننجز المزيد من الأشياء دون الحاجة إلى التنقل. يكفي أن يملك الواحد منا شاشة حاسوب أمامه. ففي القرن التاسع عشر، كان 80 % من سكّان فرنسا ما يزالون يعيشون في الأرياف. وخلال الخمسينيات من القرن الماضي، لم يعد المزارعون



يمثلون أكثر من 30 % مقابل 1 % اليوم. والأمر نفسه ينطبق على قطاع الصناعة الذي تقلَّص أيضاً إلى حدٍّ كبير. بقي أن نتحدَّث عن القطاع الثالث، وهو قطاع الخدمات، والذي يجري نشاطه الرئيس على شاشاتنا - التي تقف وراء تطوُّر العديد من الاضطرابات العضلية-الهيكلية المتصلة بوضعية الجلوس وعدم الحركة. ومن المتوقَّع أن تتناقص حاجة الإنسان إلى التنقل للمتاجر لاقتناء مشترياته، والتي سيتوصل بها منذ الآن وهو في منزله. وقريباً عبر الطائرات المُسيَّرة (Drones)، وليس حتى عبر الكائنات البشريّة.

إذن فحركة السلع الاستهلاكيّة هاته تعدُّ مسألةً حقيقيّة!

- تتميَّز عولمة تبادل السلع بشكلٍ خاص، بالبحث عن عمالة منخفضة التكلفة، وهي الخاصية التي يتميَّز بها النظام الرأسماليّ، بما في ذلك رأسماليّة الدولة، كما هو الحال في الصين. نحن نضع في الاعتبار المشكلات الخطيرة التي تطرحها الرأسماليّة اليوم في ظلِّ نقص الأقنعة الواقية التي فوضت الدولُ الغربيّة إنتاجَها لدولٍ أخرى، هناك، حيث يمكن العثور على يدٍ عامله بأقلّ تكلفة. وهكذا، فإننا نتّهم الهند والصين بأنهما من البلدان المُلوِّثة، في حين أن البلدان الأوروبيّة أيضاً تلوِّث عن طريق وسطائها عندما تدفعهم إلى تصنيع منتجاتها وأشيائها الأرخص سعراً قدر الإمكان.

وماذا عن حركة الأفراد من قبيل السياحة الجماعيّة؟

- يطرح تنقل الأشخاص كذلك مشكلة لأسباب واضحة تتعلّق أساساً بالحفاظ على البيئة. ومن الصعب أن نتصوَّر كيف سيتمكن الملايين من الأشخاص- دون رسوم أو حصص- من الاستمرار في زيارة المواقع السياحيّة في العالم، كلّ سنة، بل وحتى ما يمكن أن يبدو شبيهاً بهجراتٍ كبيرة مثل الرحلات المنظمة، سواء أكانت برية أم بحرية، وذات حركيةٍ محدودة نوعاً ما: ففي رحلة سياحيّة بحرية مثلاً، نحن في وضعية حجْر داخل سفينة، حيث نغادرها لفتراتٍ منتظمة، لنعاود الدخول في الحَجْر داخل إحدى الحافلات، والتي لا ننزل منها إلّا لكي نخطو بضع خطوات في مكانٍ يفترض أن يكون جديراً بالاهتمام، لكي نشتري بعض الهدايا التذكاريةً المتصلة بهذا المكان.

ألم يكن من الممكن إذن تجنُّب كلّ ما سبق؟

- إن الاتجاه نحو زيادة التدفُّقات سواء بالنسبة للأشخاص أو السلع لا يمكن أن يكون مجرَّد نتيجة للنمو غير المحدود للبشر على كوكب الأرض. ولا يمثِّل هذا الاتجاه أمراً طبيعيّاً لا نستطيع أن نفعل ضده أي شيء. فالمجتمعات لا تحصد غير ما تزرع. كما ينبغي ألّا ننظر إلى عصر الأنثروبوسين على أنه مصيرٌ محتومٌ، وإنما بوصفه نتيجةً لخياراتٍ سياسيّة واجتماعيّة متواصلة تفضي إلى التسارع الحالي في ظلّ هيمنة الوقود الأحفوريّ، والانقراض الجماعيّ السادس للأنواع، والاحتباس الحراريّ، والتزايد المستمر للتفاوتات الطبقيّة، فضلاً عن أنّ رفض عدد من الدول واللوبيات مقاومة هذه الآلية الجهنمية يمثل خياراً سياسيّاً واضحاً هو خيار المجموعات المُهيمنة التي تفضِّل عدم إعادة النظر في نمط حياتها-طالما أن متوسط أعمار صانعي القرار في هذه المجموعات قد يجعلهم يعتقدون بأنهم لن يتأثَّروا بالكوارث المُستقبليّة. وفي الواقع، توجد خيارات وتنظيمات اجتماعيّة واقتصاديّة بديلة، كما يبيِّن لنا التاريخ، حيث استطاع عددٌ من المجتمعات التي تقلّ فيها كثيراً التفاوتات الطبقية ودرجات القمع، من إثبات وجودها في الماضي بشكلٍ منتظم. كما يُظهر التاريخ أيضاً أن عدداً من الأنظمة التي عرفت ارتفاعاً في تفاوتاتها الطبقية، لم تتمكن أبداً من الاستمرار في البقاء لفترة طويلة جدّاً. ولهذا وذاك، يمكن للجَائِحة الحالية أن تكون مفيدة، لأنها تجدِّد النقاشات حول نموذج المجتمع المرغوب فيه من حيث إنها تسمح، على سبيل المثال، بأن تدفعنا إلى التساؤل عن مفاهيم النمو والسوق الحرّة.

■ **حوار: سيمون بلان □ ترجمة: د. فيصل أبو الطُّفَيْل**

المصدر:

Libération, samedi 2 et dimanche 3 Mai 2020, pp. 18-19.

نعوم تشومسكي:

نحن نوقّع على الانقراض السادس!

يرى الباحث نعوم تشومسكي أن الأثر الأعظم في السياسة يأتي من «النشاط اليوميّ الدؤوب، وطبيعة الأشياء التي تغيِّر الظروف الاجتماعيّة، والفهم، والخلفيّة التي يمكن أن تحدث فيها التغييرات».. في هذه المقابلة يناقش تحديّات الاستجابة لفيروس كورونا، ومستقبل علاقتنا بالتكنولوجيا، ودروس التاريخ للنهوض مُجدَّداً.

احتفلنا مؤخراً بالذكرى الخمسين ليوم الأرض، بينما نشهد أزمةً بيئيّة كبيرة اليوم. يشير الدكتور ستيفن بيزروشكا إلى أن فقدان الموائل وإزالة الغابات قد جعل المملكة الحيوانيّة على اتصال أوثق مع الجنس البشريّ، مما تسبَّب في نمو الفيروسات التاجيّة.

- هذا بالضبط ما حدث في الصين. لكنه وضع عام. مع تدمير الموائل، فإن الحيوانات التي لم يكن للبشر أي اتصال معها قد تخطّت نطاق الغابات، واقتربت من البشر. هناك اتصال أكبر. واحدة من أخطر الحالات، كما ذكرت، الخفافيش، التي تحمل مجموعاتٍ هائلة من الفيروسات التاجيّة. لهذا السبب كان العلماءُ الصينيّون الشجعان يغامرون في أماكن خطيرة للغاية، في أعماق الكهوف وما إلى ذلك، لسنوات- ومات الكثير- في مسعى لجمع معلومات حول الفيروسات التاجيّة. وجدوا الكثير من المعلومات. كان العلماءُ الأميركيّون يعملون معهم لبعض الوقت، لكنهم توقَّفوا بعد ذلك. وبشكلٍ عام، هذا صحيح. بينما نقوم بتوسيع الزراعة عالية التقنية، في حدِّ ذاتها غير مستدَامة، فإنها تدمِّر التربة السطحيّة- لن تكون للأجيال القادمة التربة السطحيّة- إذا استمرت الأنشطة الزراعيّة الصناعيّة غير المُستدَامة، وتدمير الموائل.

ماذا سيحدث؟ المزيد من الأمراض التي لا نعرفها. ربّما الفيروس التاجيّ، ربّما شيء آخر. لذلك نحن نعمل من عِدّة جوانب، ليس لتدمير أنفسنا فقط، إنّما الحياة على الأرض. دعونا لا ننسى أن الأنثروبوسين، كما نسمِّيه الآن، الفترة منذ الحرب العالميّة الثانية، الحقبة الجيولوجيّة عندما يكون للإنسان تأثيرٌ هائل ومدمِّر على البيئة العالميّة، ليست فقط فترة من الاحتباس الحراريّ، المُتزايد والسيئ بما فيه الكفاية، ولكن أيضاً تدمير البيئة - الموائل، والبلاستيك المُدمِّر لحياة المحيطات، والقمامة والصرف الصحيّ العشوائيّ، والزراعة غير المُستدَامة، وإنتاج اللحوم الصناعيّة، بشكلٍ وحشي وقاسٍ، وهو ما يفتح الباب أيضاً للأوبئة. كما أنّ الاستخدام المُتهوِّر للمُضادات الحيويّة يعني أن البكتيريا تتحوَّل بسرعة أكبر، لذلك توجد الآن بكتيريا نجهل علاجاتها.

كلّ هذه الأعمال والتصرُّفات، مدفوعة بالحاجة إلى المزيد من الربح والسيطرة، تسبِّب دماراً كبيراً للأنواع. نحن بحق في منتصف ما يُسمَّى «الانقراض السادس». حدث الانقراض الخامس قبل 65 مليون سنة، عندما ضرب كُويكب ضخم الأرض، وقتل معظم الأرواح على الأرض. نحن نفعل نفس الشيء اليوم. نحن نوقِّع على الانقراض السادس. ليس البشر فقط، فمجموعات الحشرات تختفي بسرعة. في الأماكن التي من المُمكن حصرها- من الصعب جداً حصرها- نرى بأن معظم أنواع الحشرات تختفي اليوم. نحن نعيش على أساس الحشرات. وكذلك تفعل العديد من الأنواع الأخرى. إنه دمار هائل.

لحُسن الحظ، هناك طرق للخروج. كلّ مشكلة من المشاكل التي تحدَّثنا عنها، والعديد من المشاكل التي لم نتحدَّث عنها، لها حلول ممكنة. ولكن علينا أن نفعل أي شيء حيال ذلك. في سياق جائِحة فيروس كورونا، يمكننا معرفة كيفية التعامل معها، ولكن هذا ليس جيّداً إذا لم نفعل أي شيء بالمعرفة. هذا الأمر يتكرَّر مع كلّ أزمة من هذه الأزمات. لدينا المعرفة والفهم، لكن ينقصنا العمل.

كتب روب لارسون كتاباً باسم «Bit Tyrants»، وقد راجعته بشكلٍ إيجابيّ. إنه قلق للغاية بشأن مقدار القوة التي جمعها العمالقة غوغل، وفيسبوك، وأمازون، ومايكروسوفت، وآبل، (الشركات الخمس الكبرى)، وبخاصّة الآثار المُترتبة على مخاوف الخصوصيّة والمُراقبة.

- لقد استمرّ هذا لبعض الوقت. هذا ما تسمِّيه شوشانا زوبوف، عالِمة الاجتماع في جامعة هارفارد، «رأسماليّة المُراقَبة». كتبت كتاباً بهذا العنوان حوله قبل عام أو عامين. حتى قبل الوباء، الذي يقدِّم كميات هائلة من المعلومات لشركات التكنولوجيا الكبرى، وبالطبع للحكومة، كانت هناك مجموعات ضخمة من المعلومات التي يتمُّ جمعها عن الجميع.

إذا كنت تقود سيارة، فإنّ كلّ القمامة الإلكترونيّة الموجودة حولك تلتقط معلومات حول ما تفعله، وإلى أين تذهب، كلّ شيء آخر مرتبط بقيادتك. هذا جيّد لشركات التأمين. نحن نصل إلى النقطة التي قد تحصل فيها على تحذير يقول لك: «لقد مررت بضوءٍ أحمر. إذا فعلت ذلك مرّةً أخرى ستزيد حصّتك من التأمين». وإذا اكتشفوا أنك تحب المطاعم الصينيّة، ستتلقى إشعاراً يفيد بوجود مطعم صينيّ على بُعد نصف ميل. هذا لا يبدو سيئاً للغاية. إنه سيئ.



نعوم تشومسكي ▲

لكنه يؤدّي إلى السيطرة والتحكّم؛ انتهى الأمر، لقد وصل بالفعل إلى مرحلة التجارب- بدأ هذا بالفعل في السويد، عن طريق زرع رقائق في العاملين. الحافز هو، إذا كانت لديك رقاقة، يمكنك الحصول على مشروب الكوكا مجاناً من آلة البيع. لكن الشريحة تراقب أيضاً تحركاتك. هذا يحدث بالفعل بطرقٍ أقلّ تدخلاً. لذلك تراقب الشركات الكبرى سائقي الشاحنات. يمكن أن تفعل ذلك من خلال جميع القمامة الإلكترونية من حولهم. إذا توقفوا لفترةٍ طويلة في مكان للذهاب إلى الحمام أو شيء من هذا القبيل، فإنهم سيحصلون على نقاطٍ سلبيّة؛ وإذا توقفوا، حيث لا يجب، فستخصم من رصيدهم مجموعة من النقاط. وهناك الكثير من الأمثلة، عملك دائماً في خطر. يزعمون أنهم قاموا بتحسين الكفاءة بشكل كبير بهذه الطريقة- المزيد من التسليمات بعددٍ أقلّ من الأفراد. يعمل أمازون بهذه الطريقة. في مكان العمل في أمازون، تتمُّ مراقبة الأشخاص بإحكامٍ شديد. إنك تسلك المسار الخاطئ بين هذا المكان وذلك المكان، وستتلقى إشعاراً إلكترونيّاً بشأن ذلك.

المثال الذي نتّجه إليه يشبه الصين، حيث مدن بالكامل تعمل على ما يُسمَّى بنظام الائتمان الاجتماعيّ. تحصل، لنقل على، 1000 نقطة، وأنت تحت مراقبة مشدَّدة: نظام الكاميرات، تحديد الوجه، الإلكترونيّات. إذا كسرت إشارة المرور، ستخسر رصيدك من النقاط؛ إذا قمت بمساعدة سيدة عجوز تعبر الشارع، فستحصل على أرصدة. قريباً جدّاً كلّ شيء يصبح داخليّاً. لدرجة أنك لا تلاحظ شيئاً. إنه مثل التوقُّف عند الأضواء الحمراء. إنها مجرَّد طريقة لتسيير العَالَم. أنت تعيش تحت مراقَبة مشدَّدة ومستمرة. إذا فكّرت في الأمر، حتى الحصول على وظيفة ستكون بهذا الشكل.

سيزداد الأمرُ سوءاً عندما تنتقل إلى ما يُسمَّى بإنترنت الأشياء. تحتوي ثلاجتك على بعض الأجهزة الإلكترونيّة، لذا إذا كنت تقود سيارتك إلى المنزل، فيمكنك الاعتماد عليها لنَقْلِ شيءٍ من الفريزر أو شيءٍ من هذا القبيل. كلّ هذه الأشياء ستلتقط معلومات عنك. سيتم مراقبة كلّ ما تفعله وتنقله لشركات التكنولوجيا الكبرى والأخ الأكبر الذي يجمعها في مكانٍ ضخم للاستخدام، إذا لزم الأمر.

لا شيء من هذا يجب أن يحدث. بادئ ذي بدء، يمكن تفكيك شركات التكنولوجيا الكبرى. قد يُطلب منها تلبية نفس شروط الخصوصيّة، على غرار الصحف. إذا تعرَّضت للتشهير في إحدى الصحف، فيمكنك تقديم قضية في التشهير. وإذا تعرَّضت للتشهير على فيسبوك، فلا يمكنك فعل شيء. لماذا يجب أن يكون لديها هذا الامتياز الإضافي؟ شخصيّاً لا أؤمن بدعاوى التشهير، ولكن إذا كانت موجودة، فيجب أن تكون هي نفسها للجميع.

هناك الأنانية، وهناك أيضاً تضحياتٌ هائلة قدَّمها أشخاصٌ أثناء الوباء. أذكر الأطباء والمُمرضين وفرق الطوارئ الطبيّة ومقدِّمي الرعاية الذين قاموا بعملٍ غير عادي.

- إنه أمرٌ لا يصدَّق. إنها إشارة حقيقيّة لما يمكن أن تحقّقه الروح البشريّة. في جميع أنحاء العالم- البرازيل، هنا، وفي بلدان أخرى، غالباً في المُجتمعات الأكثر فقراً- يجتمع الناس للتو في مجموعات دعم متبادل. دعنا نجتمع ونساعد ذلك الرجل المُسن الذي علق في منزله في مكانٍ ما وليس لديه أي طعام. أو دعنا نلتقِ وننظّم وننشئ بنك طعام، وما إلى ذلك. الناس قادرون على كل أنواع الأشياء.

بالمُناسبة، هناك أيضاً على الصعيد الدوليّ، أحد الأمثلة على دولة تُظهر الأممية الحقيقيّة. هناك كيان يُسمَّى الاتحاد الأوروبيّ. هناك بلدٌ غني، ألمانيا، تعامل مع الجَائِحة بنجاح. على بُعد ميلين إلى الجنوب هناك دولة تُسمَّى إيطاليا، وهي في وضعٍ صعب. يوجد في شمال إيطاليا جائِحة خطيرة. هل ساعدتهم ألمانيا؟ كلاً، بل دولة أخرى. إنها كوبا، البلد الذي حاصرته الولايات المُتحدة لمدة 60 عاماً، وحاولت سحقها. إنهم يرسلون الآن الأطباء في جميع أنحاء العَالَم إلى الخطوط الأماميّة لتعويض ما لا يفعله الأغنياء والأقوياء. هذا ليس بجديد. لقد كان يحدث لفترةٍ طويلة. لكن لا يُسمح لنا بملاحظة ذلك.

■ **حوار: ديفيد بارساميان □ ترجمة: مروى بن مسعود**

المصدر:
https://lithub.com/noam-chomsky-what-history-shows-us-about-responding-to-coronavirus/
مايو 2020

«اِرتدِ قناعَك»

الحياة بنصف وجه

بغَضِّ النظر عن دواعي ارتداء القناع الصحّيّة الضّروريّة، وبغَضّ النظر عن كونه أحَد الإمكانات المُتاحة اليوم للتصدّي جُزئيًّا للجَائحة، فإنّه يبدو إفقارًا للوَجه بتجريده من نسقيّته، وإفقارًا، في العُمق، لتعدُّد الحياة الخصيب، وحَجْبًا لجُزء خُصَّ في جَسد الإنسان باحتضان الجَمال والكرَم والضيافة والصّفاء، فالعملُ على تصفيّة القلب وتخليص النفس مِن المظلم فيها لا يتجلّى إلّا في الوَجه.

لا ينفصلُ الإنسانُ عن وَجْهه، إذ به يتميّزُ وبه تتحدّدُ هُويّتُه، وقد تهيّأ الوَجهُ، انطلاقًا من تركيبته، لأن يكون مُضاعَفًا، على نحو جعلَ الإنسانَ منذورًا مُنذ البدء لأن يَعيشَ بوَجهيْن، لا بالمعنى القدحيّ الذي اقترَن فيه الوَجهُ بالنفاق، وبإظهار المَرء غيرَ ما يُبطن، وبالتلوُّن والتحايُل. فالمعنى القدحيّ منحىً آخَرُ لتأوُّل الوَجه وَفق الامتدادات المُتشعِّبة التي يَشقّها هذا المنحى للتأويل، ووَفق فِعل الانتحال بتعدُّد صيَغه التي تنتظرُ دراسات عديدةً لاستجلاء تعقّد هذا الفِعل في مظاهره الأولى، ولاستجلاء حتّى غناه الأدبيّ قديمًا، قبْل أن يَغدوَ جُزءًا من الحيَاة ومظهرًا من مظاهر تقلّباتها وزيفها. المقصود، في هذا السياق، بالعَيش بوَجهيْن، غيرُ ما يُستفادُ من المَنحى القدحيّ السابق، إذ المُراد به أنّ الإنسانَ خُلقَ على صورةٍ ضدّيّة شكّلتْ أسَّ كينونته، وأنّ الوَجه، في تَركيبة الإنسان، كان أكثرَ أجزائها تجسيدًا لهذه الضدّيّة. فقدِ انطوَت ملامحُ الوَجه دومًا على هذا البُعد الضدّيّ، إذ عليها يَرتسمُ الشيءُ وضدُّه؛ يرتسمُ الحُزنُ والفرَح، الغضبُ والرضا، السكينةُ والقلق، وغيرها من الأضداد، لأنّ هذه الملامح قابلة لاحتضان كلِّ التقابُلات.

إنّ قابليّة الوَجه للتلوُّن تُوازيها أيضًا طاقتهُ على الإظهار والإخفاء، بل على إظهار الوجهِ غيرَ ما يُبطن، أي إظهار الشيء مقلوبًا إلى ضدّه، لأنّ تَركيبة الوجه قائمة، في الآن ذاته، على ما يُرى فيه وعلى ما لا يُرى، وهو، من ثمّ، ظاهرٌ وباطن. إنّ للوجه، في حقيقته، ظاهرًا يرتبط بما يَبدو منه، وباطنًا مَطويًّا في ما يُرى منه وفي ما لا يُرى، حتى إنّ لفظ الوجه في اللسان العربيّ يدلُّ، ممّا يدلُّ عليه، على القلب. لقد كان لظاهر الوَجه معنى لا حدَّ لتفرُّعاته وأبعاده، قبْل أن يَختلَّ هذا الأمرُ راهنًا بسبَب القناع الذي صارَ مُلازمًا للوَجه، بل غدا عُنصرًا دخيلًا عليه، ممّا حرَمَ الوجهَ مِنْ ظاهره الذي به وفيه يشتغلُ باطنُه أيضًا؛ فضاع الباطنُ بضَياع الظاهر. بهذا المعنى الضدّيّ الذي تستوعبُه دلالةُ الوجه، هيّأتْ ملامحُهُ دَومًا إمكانَ قراءته مِن ثلاث زوايا؛ زاوية الظاهر وزاوية الباطن، وهُما أساسًا زاويتان تُجسّدان كلَّ التقابُلات التي يَقوى الوَجهُ على احتضانها، ثمّ زاوية ثالثة لا تقوم على التقابُل، بل على عُنصر ثالث يتأتّى من لقاءِ الضدّيْن في الوَجه، إذ ليس عبثًا أن يكونَ الوَجهُ بعَينيْن وأذنيْن وبلسانيْن، حتى وإنْ لم يُضاعَف اللسانُ عضويًّا في الوجه، إذ يبقى مُضمرًا للمُضاعَفة انطلاقًا من طاقته اللانهائيّة على قول الشيء وضدِّه.

ما تَشكّلَ الوَجهُ على هذه الصورة المُضاعَفة إلّا ليتسنّى له أنْ يَرى باحتماليْن ويُرَى بهما أيضًا، ويُسْمَعَ بصيغتَيْن ويُسْمِعَ وَفقهُما كذلك. فالوجه، أيُّ وجه، مُضاعَفٌ بمَعنيَيْن؛ هو مُضاعَفٌ بما ينطوي عليه ويَجعلهُ قابلًا لأنْ يُتلقّى في ضَوئه، من جهة، وبما به يَتلقّى هو نفسُه الآخَرَ، أي ما به يَتلقّى خارجَه، من جهة أخرى، لأنّه يَرى بعَينيْن ويَسمَعُ بأذنَيْن. المُضاعَفة، في الحالتيْن، ذاتُ صبغة ضدّيّة. وحتّى اللسان، بما هو عضوٌ من أعضاء الوَجه، يَنطوي كما سبَقت الإشارة على هذه الضدّيّة، إذ يبقى، وإن لم يُضاعَف عضويًّا في الوَجه، الأقدرَ على تقديم الشيء الواحد في صورة ضدّيّة، لأنّه ائتُمِنَ، في الوَجه، على أخطر النِّعم بتعبير هيدغر، أي ائتُمِنَ على اللغة التي تحمّلَ لا عبئَها وحسب، بل اسمَها أيضًا. لذلك، ليس ثمّة ما هو أقدر على إنتاج الضدّية، وعلى جعْل الشيء يَظهرُ في صُورته وفي ضدِّها، مِنَ اللسان، أي اللغة. على هذا الأساس، يُستساغُ تصوُّر الوَجه بلسانيْن، حتى وإنْ كان تخيُّلُ هذه الصورة في الواقع أمرًا سرياليًّا. على كلٍّ، فنواةُ هذه الصورة مُضمَرةٌ في اللسان المشقوق، الذي تضمّنَ، مُنذ قصّة آدم، احتمالَ



قابليّته للمُضاعَفة، أي احتمالَ أن يكونَ لسانيْن، وقد ظلّ تحقّقُ هذه الصورة مُمكنًا دومًا، انطلاقًا من اشتغال اللغة بوَجهيْن، على نحو حَدا بالقدماء إلى الحديث عن الكلام المُوَجّه، الذي لمْ يكُن، في دلالته، سوى كلام بوَجهيْن.

لعلّ ما يتولّدُ ضدّيًّا فَي الوَجه مُرتبطٌ أساسًا بالصّورة التي عليها ظهرَ، وَفق ما ترسّخَ، من جهة، في التأويل الصوفي، ومُرتبطٌ، من جهة أخرى، بنسقيّته، أي بتلك الوشيجة الغامضة التي تجمَعُ أعضاءَ الوجه، وبها يتشكّلُ دون أن يتكرّرَ في الصّوَر التي بها يَظهر، وفيها تتفاعلُ ملامحهُ ضمن نسقيّة لا تُولِّدُ غيْر الاختلاف.

لا يتشكّلُ الوَجهُ من عُنصر واحد بل من عناصرَ مُتفاعلة، ولكنّ هذه العناصر، التي هي نفسُها ما به يتشكّلُ كلُّ وَجه، لا تكفُّ، على قلّةِ عدَدها، عن تجديد صُورتها النسقيّة، بما يَمنعُ الوجهَ مِن أن يتكرَّرَ في أيِّ صورة من صُوَر ظهوره، إذ تكونُ صورةُ كلِّ وَجه مُنتجةً لتميُّزه ولِما يَفْصلهُ عن غيره من الوُجوه، وإن انبنَت أساسًا على العناصر ذاتها، أي على المُشترَك في الوُجوه. فالوجه لا محدود، وهي خصيصة يُحقّقُها اعتمادًا على المحدود، لأنّ عددَ ما به يتشكّلُ قليلٌ للغاية، لكّن ما يتولّدُ من هذا القليل يَمتلكُ صفةَ اللانهائيّ. لذلك كان الوَجهُ شاهدًا على تعدُّد الواحد؛ إذ تأوَّلهُ الصوفية اعتمادًا على مرآة مُكثِّرة؛ مرآة لا تعكسُ صورةَ وَجه واحد، بل تُعدِّدُ الصّوَرَ بتعدُّد الأسماء التي يُمْكنُ أنْ تتجلّى بها الوُجوه. إنّ نسقيّة الوَجه والحكمة المُضمَرة فيه قائمتان على تولُّد اللانهائي من المحدود، فالوجهُ يَكشفُ، بحُكم العناصر القليلة التي منها يتشكّلُ، عن نسَبه إلى اللانهائيّ، لأنّ صورتَه مُتمنّعة على التكرار حتى في أقصى تجلّياتِ المُشابَهة. الوجهُ، بهذا المعنى، سرٌّ، لأنّه يتكثّرُ بالعناصر المحدودة التي بها يتشكّل، ليغدوَ في حقيقته وُجوهًا قائمة دومًا على الاختلاف. يتولّدُ الاختلاف من النّسق الذي تأخذهُ عناصرُ الوجه وتجعلُهُ تجلّيًا للانهائيّ، على نحو يستحيلُ معه حصْرُ الوَجه، ويتمنّعُ معه استنفادُ سِحْر الوشيجة التي تظهرُ فيه دومًا من داخل العناصر نفسها، دون أن تتكرّرَ الصورة، ودون أن تفقدَ طاقتَها على أنْ تعودَ في كلِّ مرّة مُغايرةً لنَفْسِها. لعلّ هذا اللانهائيّ، الذي يَسِمُ صُوَرَ الوَجه، هو ما هيّأهُ لأنْ يُسْنَدُ إلى المُطلق، مُقترنًا، في هذا الإسناد، بالكرَم والجَلال، وهو أيضًا ما هيّأ الوَجهَ لأن يتحوّلَ إلى مفهوم خَصيب لدى الصوفية قديمًا، ولدى ليفيناس حديثًا، الذي تشعّبَ المفهومُ في فلسفته بَعد أنْ عوّلَ عليه في إعادة تأويل الذات، وتأويل علاقتها بالآخَر انطلاقًا من مُنطلق إيتيقيّ يَربطُ الوجهَ بالضيافة والمسؤولية.

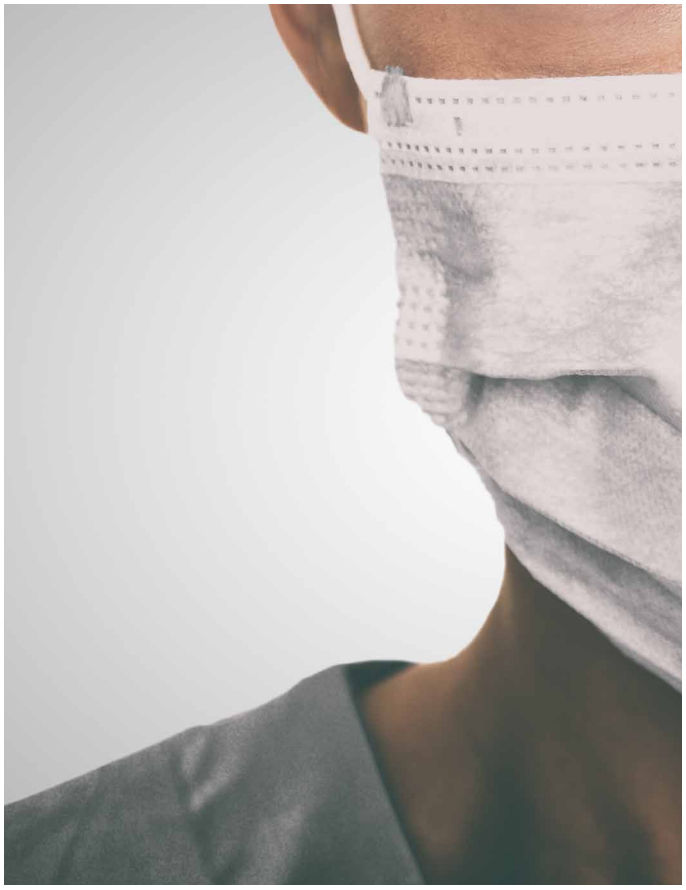
اِستحضارُ دلالات الوَجه اليوم مُرتبطٌ بالانكماش الذي طاله، أي مُرتبطٌ بتغيُّر مَسّهُ فغدا جُزءًا ممّا مسَّ اليَوميَّ بصورة عامّة في زَمن الجَائحة، التي فرضَت إيقاعَها على تفاصيل العيش والتعايُش حتى امتدَّ أثرُها لا فقط إلى وَجه الحياة، على نحو صارَ فيه هذا الامتدادُ اكتساحًا لافتًا في كلّ القطاعات، بل امتدّ هذا الأثرُ، أبعدَ من ذلك، إلى وَجه الإنسان الذي صارَ مُلزَمًا بأن يَسيرَ في الأرض مُقنّعًا فعليًّا بَعد أن عرفَ كيف يُخفي أقنعَتَه على امتداد التاريخ ويجعلها خلفَ وَجهه لا فَوقه. فهل «كشَفَت» الجَائحة عن حقيقة الإنسان؛ حقيقةِ قناعه، بأنْ ألزَمتْهُ ألّا يُخفيَ قناعَه، وأرغمتْهُ على أن يَضعَه فعليًّا على وجهه حتى لا يظلَّ مُتستّرًا على جوهر حقيقته؟ أيتعلّق الأمرُ، في تأويل بعيد، بقناعٍ كاشف، لأنّه يُظهرُ ما كان مستورًا؟ هل استنفدَ الإنسانُ كلَّ مظاهر إخفاء قناعه فانتهى إلى كشْف حقيقته بأنْ أُلزِمَ بوَضع القناع فعليًّا على وَجهه؟ ألا يكشفُ هذا القناع، إن تمَّ تأمُّله في ازدحام اليَوميّ بوجوه مُقنّعة،، عن الحُجُب التي تَبني سَيرَ الحياة وتجعلُ حقيقتها في التقلّب والتلوُّن؟ هل أجهزَ «التقدُّم» البَشريّ على لانهائيّة الوَجه؟ هل اكتسحَ هذا «التقدُّم» وجهَ الإنسان وأتى على حيِّز كبير منه؟ ما معنى أن يتحوّلَ مأوى اللانهائيّ إلى قناع؟ وما معنى أن تنكفئَ المُضاعَفة، التي بها

تشكّلَ الوَجه، إلى الرّبع، أي إلى نِصف وَجه بَعد أن كان الوجهُ مُضاعفًا؟ هل تنحو المُضاعفة لأنْ تكون خَصيصة القناع لا خَصيصة الوَجه؟ ما الذي ضاعَ مِنْ وَجه اليوميّ، ومِنْ وجه الحياة بصورة عامّة، بَعد أن اختفَت الوُجوهُ ولم يَعُد يُرى منها غيْر أنصافها؟ لقد غدَت هذه الأسئلةَ وغيرُها بديلًا عن قراءة الملامح التي اختفَت فجأةً، إذ صارَت الأقنعة تُغطّي حيِّزًا من الوُجوه في الشارع وفي مُختلف مَرافق الحياة، وتسلّلت إلى الشاشات والقنوات التلفزيّة، واستأثرَت بالاهتمام وبالنقاش العموميّ، كما لو أنّ القناعَ زاحمَ الصُّورة المرئيّة في اكتساحها، ونافسَها الذيوعَ السّريع، وتمكّنَ، في وقت وَجيز، من مُجاوَرتها في كلّ ظهور لها، لأنّها أصْلًا من صُلبه، ذلك أنّ صلةَ الصّورة المَرئيّة بالقناع مَكينةٌ وَفق ما تنطوي عليه آلياتُ اشتغالها.

لعلّ ما ضاع مِن الوَجه، بَعد أن فقدَ ظاهرَهُ وتقلّصَ ما يَبدو منه، هو جمَالُ الاختلاف، وأسرارُ تركيبته، وسِحرُ اللانهائيّ الذي يجعلُ الوَجهَ تجلّيًا لا يُكفُّ عن التجدّد عبْر تكثُّر لا سَبيلَ إلى استنفادِ معناه، لأنّ لانهائيّة الوجه كانت دليلًا على لانهائيّة معناه. فالتأمّلَ في الوُجوه من زاوية اللانهائيّ، الذي تُضمرهُ، شكّلَ دَومًا غنىً للمعنى وعلامةً على مجهول مُتجدّد. فالوجهُ فضاءُ أسرار لا حدَّ لها؛ أسرارٌ لا تنكشفُ أبدًا، ولكنّ ظاهرَ الوُجوه يُفصحُ دومًا أنّها مَطويّةٌ فيه، فهي، وإن لم تكُن تُرى، تَحتفظ بظلالها في الوجه. ظلالٌ تشهدُ، من داخل سِحْر المَلامح، أنّ الأسرار هناك في زاوية ما، وفي طيّة من طيّات ظاهر الوجه، قبل أن يختلّ هذا الظاهرُ ويكتسحَ القناعُ نصفَهُ. ما الذي يُمكنُ أن يَراه المرءُ، اليوم، في وَجهٍ لم يَعُد وَجهًا؟

بغَضّ النظر عن دواعي ارتداء القناع الصحّيّة الضّروريّة، وبغَضّ النظر عن كونه أحَد الإمكانات المُتاحة اليوم للتصدّي جُزئيًّا للجَائحة، فإنّه يبدو إفقارًا للوَجه بتجريده من نسقيّته، وإفقارًا، في العُمق، لتعدُّد الحياة الخصيب، وحَجْبًا لجُزء خُصَّ في جَسد الإنسان باحتضان الجَمال والكرَم والضيافة والصّفاء، فالعملُ على تصفيّة القلب وتخليص النفس مِن المُظلم فيها لا يتجلّى إلّا في الوَجه، الذي كان كلُّ ظفَر بانبثاق النّور فيه تجسيدًا لمُكابدة داخليّة في تجفيف ظلمة القلب وتمكينه مِن صفائه. إنّ ما حلّ بالوَجه اليوم أصابهُ بانكماش مُفقر، كما لو أنّ إجهازَ الإنسان على الطبيعة وعلى غنى الحياة قد انقلبَ عليه وتجسّدَ في انكماش أجهزَ على نِصف وَجهه، فصارَ الإنسانُ بنصف وَجه، والحال أنّ الوَجه لا يكون وجهًا إلّا بالتفاعُل الغامض بين أعضائه، وبالأسرار التي تُضمرُها تركيبةُ هذه الأعضاء ونسقيّتُها، وبالمجهول الذي يُقرأ في الوجه. وكلّها أمورٌ اختفَت بالقناع الذي حوّلَ الوجهَ إلى مجرّد عَينيْن مُتوَجِّستيْن، مفصولتيْن عن سياقهما الذي كان يَبني جَمالهُما ويَصونُ أسرارَهُما.

«ارتدِ قناعَك». أمرٌ لا ينفكُّ يَسمَعهُ المرءُ، اليوم، في الشارع، وعند عتبات المَتاجر، ومداخل المصانع، ومحلّات العمل، وفي مُختلف فضاءات الحياة اليوميّة. وهو أمرٌ شديدُ الالتباس متى سمِعنا معناه من خارج الإلزام الصحّيّ ومن خارج مُقتضيات السلوك الذي تُطالبُ ظروفُ الجَائحة بالتزامه. ما يُسْمَعُ في هذا الأمر يَمتدُّ إلى حقيقة الإنسان ويَنفذُ إلى جَوهره، كأنّ الحياةَ لم تَعُد تحتملُ أن يتستّرَ المرءُ على قناعه، لأنّ هذا التستّرَ غدا مفضوحًا ولم تَعُد حيَلهُ تنطلي على أحد. وهكذا، فالأمرُ بارتداء القناع مُرادفٌ للأمر بأن



يُفصحَ المرءُ عن حقيقته. هكذا صارت مُعظم الوُجوه مُقنّعة، وحَرصَت السلطات على إلزام الفرد بارتداء قناعه. لا سبيل للمَرء، اليوم، إلى إخفاء قناعه، فقد صار مُلزمًا أنْ يَضعهُ على وجهه قبْل أن يَخرجَ ليؤدّي دورهُ في مسرحيّة انفلَتَ التحكّمُ في أطوارها حتّى مِنْ مُخرجيها. مِنَ القناع الخفيّ إلى القناع الماديّ الملموس مَنحى عجّلَتْ الجَائحة بتبيُّن مساره. ولكن ألا يَعني ارتداءُ قناع مادّيٍّ فوق آخَرَ خفيٍّ أنّنا في الطريق نحو قناع مُضاعَفٍ بَعد أن كانت المُضاعفةُ خصيصةً تُميِّزُ الوَجه لا خصيصةَ قناع؟

«ارتدِ قناعك». أمرٌ موجَّهٌ أيضًا إلى اللسان مادام الحيّزُ الأكبر الذي يُغطّيه القناع هو الفَم. فتغطية الفَم، وضِمْنه اللسان المُضطلع بمُهمَّة الكلام، ليْست دون دلالة، فقد بدا الناس وهُم يَضَعون أقنعة تغطّي أفواهَهُم كما لو أنّ قوّةً خفيّةً تدعوهم إلى الصّمت قليلًا بَعد أن امتلأ الكونُ بالكلام حتى «أُخْمِدَ الصّمَمُ» على حدّ تعبير المتنبّي. فالصمتُ من أجلّ الأشياء التي افتقدَها الإنسانُ في الزمن الحديث أمام أمواج الكلام المُتدفّقة من كلّ مكان. فلو كان الكلامُ مادّةً صُلبة لَمَا وَجدَ الإنسانُ مكانًا على الأرض يعيشُ فيه. فلْيَضَعِ الإنسان غطاءً على لسانه ولْيَصْمُت وجهُ العالَم قليلًا حتى تستعيدَ الوُجوهُ حكمتها وأسرارَها واللانهائيَّ الذي ائتُمِنَتْ عليه.

حَيَويٌّ أن نقرأ انكماشَ الوَجه اليوم، الذي فرضته الإجراءاتُ الصحيّة المُصاحِبة للجَائحة، انطلاقًا ممّا يحتملهُ من دلالات وممّا يفتحهُ من تآويل. فسيرورةُ الحياة تبدو، من غير تهويل أو اطمئنان إلى المَنحى الفجائعيّ، كما لو أنّها تسلكُ طريقًا يقودُ لا إلى أنْ يعيش الإنسانُ بنِصف وجه، بل إلى أنْ يَعيش بلا وَجه. ■ **خالد بلقاسم**

ما الذي تكشفه أطروحات المؤامرة خلال وباء «كوفيد - 19»؟

هل تُصنع للخاسرين؟

يحلّل «أوليفييه كلاين»، أستاذ علم النفس الاجتماعي في جامعة بروكسل الحرّة، أسباب انفجار نظريّات المؤامرة منذ بداية الوباء، ونتائجها.

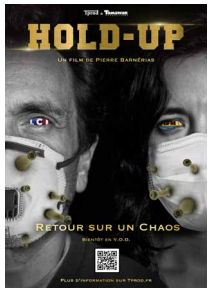
يعتبر نجاح الفيلم (الوثائقي) التآمري، Hold-up، الذي يدّعي كشفه مؤامرة وراء أزمة فيروس كورونا، أحدث أعراض هذا الفكر. منذ بدايته، اقترن وباء «كوفيد 19» بـ «وباء المعلومات»: وباء المعلومات الكاذبة، وخاصّة نظريّات المؤامرة.

وفقاً لهذه الأطروحات التآمرية، تمَّ صنع الفيروس في المختبر، وحظي حتى ببراءة اختراع، وسيحتوي اللقاح على تقنيات النانو، وستعمل الحكومات على تعميمه بهدف التحكّم في السكان...

لفهم أسباب وعواقب هذا الانتشار الواسع في نظريّات المؤامرة، أجرى موقع franceinfo مقابلة مع «أوليفييه كلاين»، أستاذ علم النفس الاجتماعي في جامعة بروكسل الحرّة، والمتخصّص في المؤامرة.

هل يفاجئك هذا «الوباء المعلوماتي» الذي ندّد به المدير العامّ لمنظَّمة الصحّة العالمية في مارس المنصرم؟

- لا، ليس مفاجئاً. في أوقات الأزمات، تنتشر المعتقدات ذات الطبيعة التآمرية؛ فتستجيب نظريّات المؤامرة إلى ثلاث حاجات نفسية رئيسية؛ أوّلها معرفي، حين يسعى الناس لفهم ما يجري. وتعمل نظرية المؤامرة كشبكة بسيطة لتحليل واقع معقّد. إنها تقدِّم تفسيراً في خضمّ حالة من عدم اليقين. أما الثاني فهو الشعور بالرضا، أيّ أن تكتسب نظرة إيجابية لذاتك. فالأزمة تسبّب حالة من الوهن النفسي. تسمح لنا نظرية المؤامرة باستعادة التحكّم؛ عندها يمكننا التحرّك، كما يمكننا المقاومة. قد نقرّر عدم ارتداء القناع. لم نعد قطيعاً يكتفي باتِّباع تعليمات سلطة، لم نعد نثق بها كثيراً. أمّا الدافع الثالث فهو التواصل مع الآخرين، إذ يجب أن تكون قريباً من أشخاص آخرين. إنها فطرة إنسانية أساسية. مع الحجر المنزلي، يكون الناس أكثر عزلة، وتصبح شبكاتهم الاجتماعية محدودة أو مهدّدة. تسمح لنا المؤامرة بأن نصبح أعضاء في المجتمع. إن مشاركة نظريّات المؤامرة، التي تشكّك في الخطاب السائد، تمكّن من تكوين هويّة قيّمة. ففي كلّ مرّة تشارك فيها غيرك مقطع فيديو جديداً، يستجيب أصدقاؤك وأعضاء المجموعات، وهذا يزيد من شأنك.



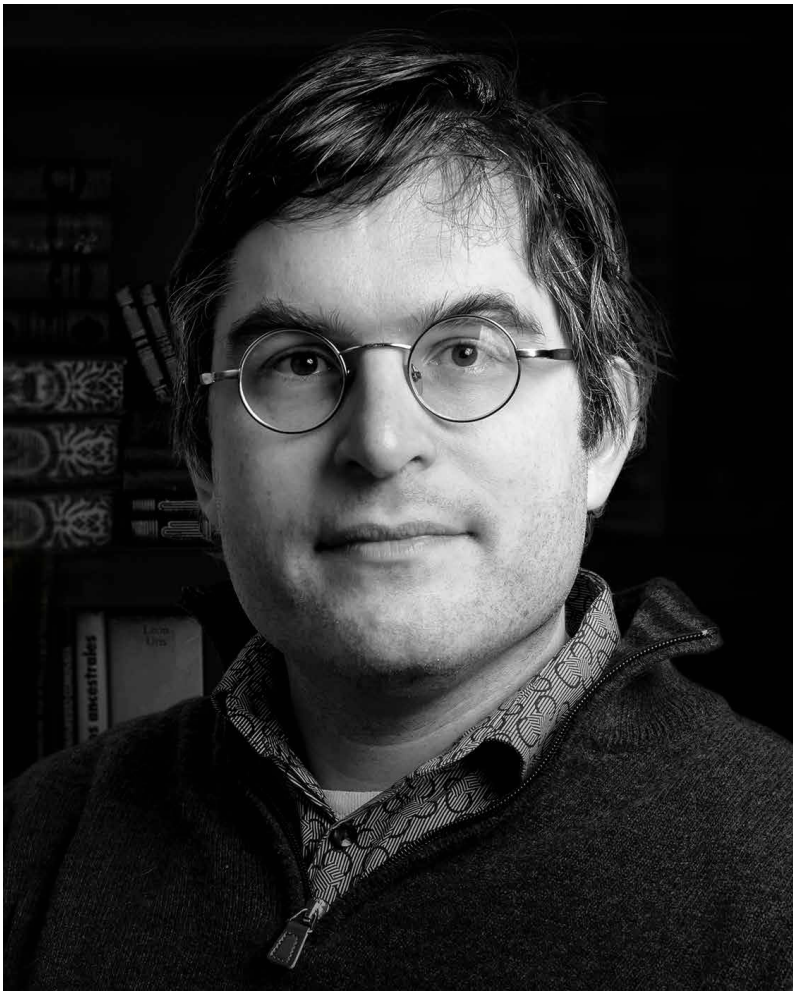
فيروسات، لقاحات، 5G، عملة مشفَّرة.. ألا نشهد، مع هذا الوباء، «تشابك نضالات» تآمرية؟

- غالباً ما يؤمن الأشخاص الذين يؤمنون بنظرية المؤامرة، بالآخرين، لكن ما أذهلني، مع هذا الوباء، هو تقارب المجموعات رغم تباين أصولها كلّيّاً، وإعلانها، بشكل جماعي، عن نظرية المؤامرة نفسها.

فمن ناحية، نجد مجموعات من اليمين الأميركي، وأقصى اليمين، شعبوية، ترامبية؛ ومن ناحية أخرى، نجد كلّ هذا الفضاء، الذي لا علاقة له بالطبّ البديل والذي يغذّي، بشكل خاصّ، الحركة المضادّة للّقاحات، وهذا ما تطرّق له، بشكل خاصّ، فيلم Hold-up.

طريقة تعامل السياسيين مع الأزمة الصحّيّة واجهت انتقادات على نطاق واسع. إلى أيٍّ مدى يغذّي مناخ عدم الثقة في الحكّام الفكرَ التآمري؟

- فقدان الثقّة في الحكومات تفاقم بسبب هذه الأخطاء الإدارية. لكن هذه المؤامرة قسّمت المجتمع إلى فئتَيْن رئيستين؛ الأولى أناس عاديّون، وأناس بسطاء،



أوليفييه كلاين ▲

وآخرون فضلاء، من ناحية، والنخب الجشعة التي تحاول التحكّم والاستغلال، من ناحية ثانية.
في Hold-up، هناك معارضة شديدة الوضوح. هذه النخب تضمّ السياسيين، كما تضمّ الصحافيين والعلماء والمؤسَّسات أيضاً، وكلّهم من أتباع السلطة.
يشعر المتآمرون أن صحافيِّي وسائل الإعلام التقليدية يوالون الحكومات؛ لذلك هناك فقدان كامل لشرعية الخطاب الصحافي، وهذا -بدوره- يسمح بإضفاء الشرعية على خطاب المؤامرة، لأنه محلّ شكوك الصحافيين.
هناك، أيضاً، في فرنسا، فقدان مقلق للثقّة في العلم والخبراء. والحقيقة أن شخصيات مثل البروفيسور «ديدييه راولت»، و«كريستيان بيرون» (من مؤيِّدي استخدام هيدروكسي كلوروكين كعلاج لفيروس كوفيد - 19) أو صاحب جائزة نوبل للطبّ، «لوك مونتانييه»، (الذي دافع عن أطروحة الفيروس المصنّع في المختبر، انطلاقاً من فيروس الإيدز)، يقدِّمون أنفسهم، أو يتمّ تقديمهم كضحايا للنظام، الذي شجّع على انتقال الخيال التآمري إلى المجال العلمي.

هل هناك صورة اجتماعية أو سياسية نموذجية للمتآمر؟

- من وجهة نظر علم الاجتماع، غالباً ما تنتشر نظريّات المؤامرة لدى الأشخاص الذين لديهم إحساس بالضعف. إنهم ليسوا، بالضرورة، أفقر الناس، بل هم أولئك الذين يشعرون بالهشاشة، الذين لديهم انطباع بأن شيئاً ما قد سُلب منهم أو أُعطِي للآخرين؛ لذلك ليس مستبعَداً أن يتبنّى أصحاب «السترات الصفراء» نظريّات مؤامرة تتوافق مع هذا النوع من البروفايلات. كتب «جوزيف أوسينسكي»، أحد أعظم المتخصّصين في المؤامرة الأميركية، في كتابه: «نظريّات المؤامرة تُصنع للخاسرين»، وهذه العبارة مناسبة للغاية.
من وجهة نظر سياسية، تكون معتقدات المؤامرة أكثر وضوحاً على اليمين منها على اليسار، وأكثر لدى أقصى اليمين منها لدى أقصى اليسار. تتحدّى نظريّات المؤامرة الخطاب السائد؛ لذلك من المنطقي أن يميلوا إلى الأقصى. يحمل اليمين المتطرِّف، أيضاً، أيديولوجية تحرُّرية للغاية، تتوافق مع نظريّات المؤامرة التي ترى أن الدولة ترغب في التحكّم في الأفراد.

متى ننتقل من التساؤل إلى الشكّ، ثم إلى المؤامرة؟

- هناك العديد من المسارات الفردية، لكن يمكننا وصف مسار نموذجي إلى حَدّ ما: نجد أنفسنا في لحظة شكّ، وعدم يقين، فيما يتعلّق بتجربة شخصية أو وضع اجتماعي، ونسعى للحصول على إجابات. وضع يؤدّي إلى وضع آخر، ولا نتعلّق بالخطابات، فحسب، بل بأصحاب الخطابات، أيضاً.
سوف ننخرط في هذه المجتمعات حين نعمل على مشاركة تلك الخطابات، ويمكن أن يكون مجتمعاً افتراضياً. نرتبط عاطفياً بشبكة من الأشخاص الذين نتفاعل معهم، ونثق بهم، وستسمح لنا هذه الهويّة الجماعية بالشعور بالانتماء. هذا الاعتقاد ينظّم حياتنا الاجتماعية، ويصبح جزءًا من هويَّتنا الاجتماعية.
التنشئة الاجتماعية، في تلك المجتمعات، تعني أننا سننتقل من وضعية الشّك وعدم اليقين إلى التماهي مع تلك الخطابات. ما إن تدخل إلى المجتمعات المذكورة، حتى تجد نفسك في نظام إعلامي معارض كلّيّاً، من شأنه أن يروّج لسلسلة كاملة من المعتقدات، وسيحدّد طبيعة المعلومات التي سنتقبّلها.

هل يمكن إقناع المتآمر بخطاب معقول؟

- إن الدعوة «للإقناع بخطاب معقول» تفترض أننا على صواب، وأنهم مخطئون. الأمل يكمن في تحريك المؤشِّر. ما يمكنك أن تأمل فيه هو أنه، بعد مناقشتهم، يتراجع اعتقادهم بنسختهم بعض الشيء، وتصبح النسخة المقبولة، عموماً، منطقية، في نظرهم، أكثر من ذي قبل. إنه هدف يجب أن نكون قادرين على تحقيقه.
بقولنا: «أنتم متآمرون»، أنت تقول في الوقت نفسه: «أنا لست متآمراً»، وأنت تبني العلاقة كما تَمَّ التعبير عنها في هاتَيْن الهويَّتَيْن المتعارضتَيْن. ابتداءً من اللحظة التي تبدأ فيها نقاشاً قائماً على ما يميّزكما، لن يعتبر ذلك نقاشاً.
للتحدّث مع الأشخاص الذين يتبنّون نظريات المؤامرة يجب، أوّلاً، إيجاد أرضية مشتركة، ومشاركة ما يوحّدنا عوض ما يفرقنا، في هذه الحالة، يمكننا اعتباره نقاشاً، و- من ثَمَّ- يبدو لي أنه من المهمّ، بشكل خاصّ، تحديد مصدر للانسجام والاتِّفاق، أو، على سبيل المثال تساؤل، أو حتى شعور بعدم الرضا فيما يتعلَّق بطريقة إدارة الوباء. في بعض الأحيان، هذا لا يعمل. هناك أشخاص يتمسَّكون بهويَّاتهم حتى أنهم لا يريدون تعريفاً مختلفاً للعلاقة مع الآخر.

في هذه الحالة، من الصعب، للغاية، تغيير آراء هؤلاء، لأننا لا نشكّك في المعتقدات فحسب، بل في ما يشكّل وجودهم، وينظّمه. يصبح ذلك تشكيكاً في وجودهم كلّه، بدلاً من التشكيك في مثل هذه القناعات. الخطاب العقلاني يجد أمامه سدّاً منيعاً. وهذا يشبه -إلى حَدٍّ ما- محاولات التخلّص من الأفكار المتطرّفة، التي لا تنجح دائماً.
الآن، إذا ناقشنا الحقائق بحدّ ذاتها، فإني أنصح بذلك؛ لا على أساس نظرية المؤامرة برمَّتها، بل انطلاقاً من عنصر أو حقيقة تبدو مقنعة بشكل خاصّ، للشخص، وتفكيكها بعمق وبأكبر قدر ممكن من الانفتاح، وهذا يريحنا من عناء الجدال الذي لا ينتهي. إذا حاولنا التحقّق من صحّة كلّ الحجج، فلن نخرج من المتاهة.

هل يعني ذلك أن تدقيق الحقائق، والتحقّق من الوقائع من قِبَل الصحافيين غير مجدٍ؟

- هذا ما كنّا نؤمن به لوقت طويل، لكنه ليس صحيحاً. قبل بضع سنوات، كشفت أبحاث في علم النفس عن وجود تأثير ارتدادي لعملية التحقّق من الحقائق، حيث يتمسّك الناس بأفكارهم أكثر، كلّما كشفنا تناقضاتها. لكنّ هناك اعتراضاً على هذه الفكرة.
تدقيق الحقائق جهد ضروري. إنه ضروري وعمل جيّد، لكنها واحدة من بين عدّة أدوات أخرى، يجب استخدامها بحذر. مثلاً، عندما ينقل شخص ما خطاباً تآمرياً، قد نقابله بمقال «ندقّق فيه الحقائق» يعمل على تفكيك معتقداته، مصحوباً بتعليق مقتضب، فهذا هو أسوأ طريق للقيام بذلك. من الأفضل إرسال المقال دون اعتباره شكلاً من أشكال الحقيقة المطلقة، بل كمعلومات للنقاش، يمكن، من خلالها، بدء النقاش.
التحقّق من صحّة الحقائق مفيد حقّاً، خاصّةً مع الأشخاص المهمَّشين قليلاً، وغير المقتنعين تماماً. لكن مع المتآمرين الأقوياء، هذا لا يكفي، لأنهم سيعمدون إلى تشويه المصدر نفسه.

ألا تخشون من تعزيز المؤامرة بالرغبة في محاربتها؟

- منذ اللحظة التي تسعى فيها جميع وسائل الإعلام التقليدية إلى الذهاب بعيداً، بقولها إن «هذا الفيلم الذي تحبّونه كثيراً مجرَّد هراء»، يتعزّز شعورنا بأن هذه الوسائط لا تتحدّث عنا.
عندما نسمع جوقة تقوم بتشويه خطاب حقيقي في نظرنا، حتى لو كان مشكوكاً فيه من الناحية الواقعية، فإن ذلك يمكن أن يعزّز شعورنا بالانتماء إلى مجتمعنا.
ولمّا كان الصحافيون يفكّكون الخطاب الذي ينقله المتآمرون، فمن السهل عليهم التشكيك في أيّة محاولة للتحقّق من خطابهم، بالقول إن الصحافيين ووسائل الإعلام في خدمة السلطة والمصالح الخاصّة.

ما الذي يجعل نظريّات المؤامرة جذّابة للبعض؟

- هناك العديد من العناصر التي تجعلها جذّابة؛ فهي تتضمَّن جانباً من القصص الخيالية. نحن نَصِفُ عالماً ثنائيّاً، في الغالب، من السهل فهمه أيضاً. من الجيّد أن نشعر بالضياع قليلاً. تستند نظريات المؤامرة، كالتي تضمَّنَها فيلم Hold-up، إلى عناصر غريبة، ومصادفات، بهذه «البيانات المنحرفة»، نبني قصّة تبدو لنا مقنعة جدّاً.
في هذا الصدد، تختلف نظريّات المؤامرة عن كشف المؤامرات الحقيقية، على غرار فضيحة «ووترغيت». هذه الأخيرة تستند، بشكل عامّ إلى تحقيق شامل - صحفي أو قضائي - يفضي إلى اعترافات. البيت الورقي ينهار كليّاً ما إن نسحب ورقة واحدة.

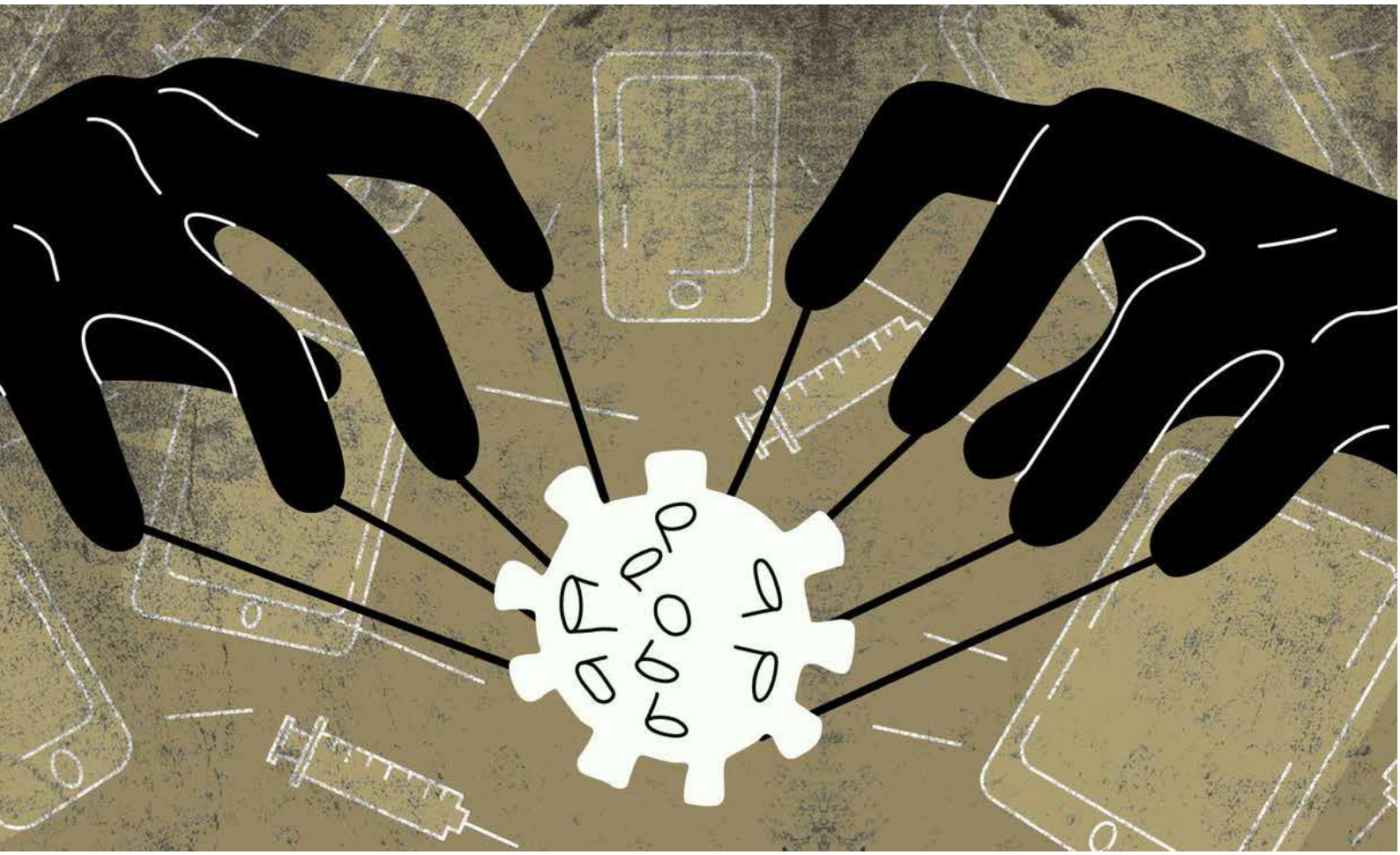
كيف تفسّر نجاح بعض الشخصيات التي تنقل هذه الخطابات التآمرية؟

- «جان جاك كريفكور» (متحدّث بلجيكي، يعارض التطعيم ومؤيّد للأدوية البديلة، له مقاطع فيديو بلهجات تآمرية على (كوفيد - 19)، وحقّق نجاحاً كبيراً على «يوتيوب») من أكثر الشخصيات التي درستها. إنه يشبه المسيح إلى حَدّ ما. أسلوبه في نشر «خير الكلام» يجعل خطابه مقنعاً بشكل خاصّ. مثل هذه الشخصية تعمل على تعزيز مصداقيّتها بدايةً، وتؤسّس لجسور من الثقة مع المشاهد ثم تقدّم تأكيدات غير مدعومة، فيتأثر المتلقّي بالخطاب. إنهم أصحاب بلاغة عالية. يضعون أنفسهم في الموقف الديكارتي. يقولون لك: أنت، رأيك أنت، أنا لا أفرض عليك أيّ شيء. لكن هذا مضلِّل تماماً، لأنهم، في الواقع، لا يملكون الحجج لتوجيه الاتّهام. إنه التلاعب بعينه. سيقولون لك، أيضاً: «أنا أتحدَّث وفق مستوى فهمك، وبلغتك أنت». غالباً ما تكون مقاطع الفيديو، أيضاً، سيِّئة جدّاً في طريقة إخراجها؛ ما يعزّز الانطباع بأننا أمام أشخاص يشبهوننا.
يستخدم فيلم «Hold-up» تقنية تلاعب معروفة: اقتحم وصعّد الاشتباك.. نقدِّم لك حقيقة، ثم أخرى، وأخرى، الحجّة الجدلية الشهيرة. هذه الحجج ضعيفة، لكنك ما إن تنضمّ إلى الفيلم الوثائقي، وتنخرط فيه لأكثر من ساعتين، حتى تصبح على استعداد لسماع بعض النظريّات الرائعة، تماماً، التي لو قُدِّمت إلينا، منذ البداية، لوضعت حدّاً لرغبتنا في المشاهدة.

جمع فيلم«Hold-up» أكثر من (280) ألف يورو، على منصَّات التمويل الجماعي. ألا يسلّط ذلك الضوء، أيضاً، على المخاطر الاقتصادية للتآمر؟

- الأشخاص الذين أنتجوا Hold-up يشبهون، إلى حَدّ ما، المبلّغين عن المخالفات، ويعملون للمنفعة العامّة، لكن من الواضح أن مشاريعهم مادّيّة. في البداية، يجب أن تدفع مقابل مشاهدة الفيلم. إذا كان الهدف هو منح الجميع حقّ الوصول إلى نتيجة عملهم، فمن الأجدر وضعه في متناول الجميع، بشكل مباشر، منذ البداية.
هناك جانب مادّي، غالباً ما يتمّ تجاهله عندما نتحدَّث عن المؤامرة. «جان جاك كريفكور» هو مثال جيِّد آخر. بالتوازي مع نشر أفكاره، هو يروّج، أيضاً، لتدريبات مكلفة جدّاً، ضمن مقاطع الفيديو التي يبثّها. يكفي أن يشترك 1%، فقط، من الأشخاص الذين يشاهدون أحد أكثر مقاطع الفيديو شعبيّةً، في برامج التدريبات التي يشرف عليها، حتى يكسب مليون يورو على مدار العام.
بشكل عامّ، يقول خطاب المؤامرة إن المنافع المادّيّة تؤدّي إلى تمويه الحقيقة. نحن نكذب عليك لأننا نريد أن نبيع لك الأدوية. لماذا لا يكون الأمر نفسه بالنسبة إلى مروِّجي نظريّات المؤامرة؟ إن وضع الناس، وجهاً لوجه، مع تناقضاتهم، أسلوب آخر للحدّ من سيطرة هذا الخطاب.

مجهودات الشبكات الاجتماعية للتصدّي «للأخبار الكاذبة»، من



خلال الإبلاغ عن المنشورات المضلّلة، أو حتى من خلال إغلاق الحسابات أو مجموعات الحوار، ألا تنتج، أيضاً، تأثيراً معاكساً؟

- يعتبر حظر البثّ رقابة على المحتوى، بوضوح. التبليغ عن أن المحتوى الذي يشاركونه لأنه يتضمَّن معلومات خاطئة أو مضلّلة، يمكن أن يمنحهم شعوراً بعدم الانتماء إلى هذه الشبكة الاجتماعية، ويدفعهم للبحث عن مكان آخر.

لكن الهدف ليس الوصول إلى المتآمرين أنفسهم بقدر ما هو وصول إلى الأشخاص الذين يشاركون هذا النوع من المحتوى، دون أن يكونوا -بالضرورة- متآمرين. يساعد هذا النهج، بشكل خاصّ، الأشخاص الذين لم يتمّ تحديد انتماءاتهم، بشكل كامل، مع مجموعات تآمرية، على توخّي مزيد من اليقظة، وقد يحدّ ذلك من رغبة الأشخاص المتشكّكين والمتردّدين في نشر هذا النوع من المعلومات.

لكن من الواضح أن الأشخاص المقتنعين، للغاية، بحقيقة هذه المعتقدات التآمرية، سيجدون سبباً للتنديد برقابة «فيسبوك» أو «تويتر» عليهم. التحوّل إلى ضحيّة جزء من الترسانة البلاغية للمتآمرين.

ما الخطر الذي تمثّله نظريّات المؤامرة في مجتمعنا؟

- لدينا شكل جديد ومقلق من المؤامرة، لم يعد قائماً على الحقائق، ونرى ذلك مع «كيو أنون - Q Anon». لا نحتاج حتى لإثبات التآمر، بالطبع، إذ يصبح منيعاً ضدّ عملية «التدقيق في الحقائق». هذا هو النهج الذي يستخدمه «دونالد ترامب» عندما يقول إن الانتخابات مزوَّرة في يوم الانتخابات، في غياب أيّ دليل. داخل شبكته، سيشارك الجميع هذه الرسالة التي ستصبح حقيقة لسلسلة كاملة من الأفراد. هذا يسمّى الفاعلية والشرعية الاجتماعية. الأشخاص الذين أحبُّهم، والمنتمون إلى مجموعتي، يردّدون ذلك، فيصبح، من ثَمَّ، خبراً صحيحاً، لم نعد بحاجة إلى حقائق لتدعيمه.

للمؤامرة عواقب سياسية، والعمل في ديموقراطية مثل ديموقراطيتنا، يفترض أن نؤسّس لواقع مشترك، يجب أن نتفَّق على مجموعة من المبادئ والمعتقدات الأساسية. عندما ينددّ «دونالد ترامب» بالانتخابات المزوّرة، فهذا أمر خطير للغاية، لأنه يدعو إلى التشكيك في إمكان وجود أساس من القيم المشتركة، التي تمكّننا من إرساء نقاش ديموقراطي. ومع تقسيم الفضاء الإعلامي، الذي زادته الشبكات الاجتماعية حدّةً، برز خطر حقيقي في غياب أيّ مرجع مشترك، وفي هذه الحالة، لن يكون هناك أيّ مجال للنقاش.

■ **حوار: لويس سان، وبينوا زغدون □ ترجمة: عبدالله بن محمد**

المصدر:

https://bit.ly/37zssCK

في زمن «كوفيد - 19»:

كيف تغيَّرت الطريقة التي نتحدَّث بها؟

فيما تُواجه عدداً كبيراً من دول العَالَم موجاتٌ متكرِّرة من الإغلاق لتسطيح منحنى العدوى بفيروس كورونا، يعكف خبراء اللُّغويّات حول العَالَم على دراسة «لغة» الجَائِحة. في مارس/آذار 2020، دخلت حياتنا اليوميّة مصطلحات مثل «تباعُد اجتماعيّ» «حَجْر صحيّ» و«عزل». وعلى الرغم من أن تلك المُصطلحات ليست بجديدة، إلّا أنها اكتسبت معاني جديدة تؤثِّر على إدراكنا للعَالَم من حولنا.

منذ منتصف شهر أبريل/نيسان الماضي تقوم «بيتسي سنيلر - Betsy Sneller» -الأستاذ المُساعد في علم اللُّغويّات الاجتماعيّة بجامعة «ميشيجان» الأميركية (MSU)، بمُساعدة «سوزان واجنر - Suzanne Wagner» المدير المُساعد للمشروع ومعهما فريقٌ من الباحثين- بجمع رسائل صوتيّة من سكّان ولاية «ميشيجان» الأميركيّة لتتبُّع ما طرأ على اللُّغة من تغيُّرات خلال الجَائِحة. ويهدف المشروع الذي أُطلق عليه «يوميات MI» إلى تتبُّع تأثير أجواء التباعُد الاجتماعيّ والتعليم الافتراضيّ على اللُّغة، وذلك سواء على المدى القصير أو البعيد. تقول «سنيلر - Sneller»: «ولكن هناك أيضاً ذلك البُعد الإنسانيّ للأشياء (...) أنت تراقب مشاعر الأشخاص من أسبوعٍ لأسبوع، وكيف تتغيَّر بشكلٍ كبير الموضوعات التي يرغبون في الحديث بها».

في بحثٍ لجامعة «ميشيجان» الأميركيّة، تقوم «واجنر - Wagner» -الأستاذ المُساعد في علم اللُّغويّات- بوصف الحرب العالميّة الثانية بأنها تمثِّل منعطفاً حقيقيّاً في اللُّغة الإنجليزيّة لإحداثها تقارباً بين أناس لم يكن لتوجد بينهم أي علاقة. تقول «واجنر - Wagner»: «كان يتمُّ إرسال الجنود الى القواعد العسكريّة فيما دخلت النساء ساحة العمل لأول مرّة». وعلى العكس من ذلك، أجبرنا «كوفيد - 19» على التباعُد جسديّاً، جاعلاً من التعاملات الافتراضيّة شيئاً طبيعياً.

بدأت «سنيلر - Sneller» عملها في جامعة «ميشيجان» في منتصف شهر مارس/آذار 2020، وهو تقريباً نفس التوقيت الذي أعلنت فيه منظَّمة الصحَّة العالميّة حالة الطوارئ العالميّة بسبب الجَائِحة. مدفوعة بتصميمها على توثيق لحظة تاريخيّة، نجحت كلٌّ من «سنيلر» و«واجنر» في الحصول على موافقة مجلس المُراجعة المؤسَّسية في «ميشيجان» لإجراء الدراسة. وتقوم «واجنر» حالياً بلقاء فريق العمل مرّة أسبوعياً لوضع الأسئلة التي يتمُّ طرحها على المُشاركين. أمثلة لبعض الأسئلة التي يتمُّ طرحها: «ماذا كان شعورك في أول مرّة ارتديت فيها القناع خارج المنزل؟» أو «هل اضطررت أنت أو أحد المُقرَّبين إليك إلى إلغاء خطط مهمَّة؟». على الرغم من تعلُّق معظم الأسئلة المطروحة بالوضع الحالي الذي نعيشه الآن، إلّا أن بعض الأسئلة يتمُّ طرحها للتعرُّف بشكلٍ أكبر على المُشاركين، مثل «ماهي الأشياء التي تُشعرك بالأمتنان؟». يقوم المُشاركون بتسجيل مدخلاتهم على هواتفهم الشخصيّة، ومن ثَمَّ تحميلها على تطبيق مشروع يوميات (MI).

تحقِّق تلك المُدخلات هدفاً أبعد من التوثيق اللُّغويّ، فهي تقوم بتتبُّع التغيُّرات الاجتماعيّة التاريخيّة التي طرأت تزامناً مع الجَائِحة. لاحظت «سنيلر» تحوُّلاً في نبرات أصوات المُشاركين خلال فترة الثلاثة أشهر التالية، تلقّى فيها التطبيق عدداً أكبر من المُدخلات من أناسٍ يشعرون بالإحباط وفقدان الأمل. على الرغم من أن البحثَ مازال في بداياته، إلّا أن «سنيلر» لديها بعض التنبؤات حول الكيفية التي سيؤثِّر بها التباعُد الاجتماعيّ على طريقة الحديث، وبالأحرى فيما يخصُّ مصطلح «الجَائِحة». في بداية شهر أبريل/نيسان 2020، كان المُشاركون والعَالَم بشكلٍ عام غير متأكِّدين ماذا يطلقون على الفيروس، تقول «سنيلر» «كان لدينا أناسٌ يشيرون إلى الفيروس في جمل تتخلَّلها عبارات مثل «الأوقات السابقة» أو «الأوقات الحالية» أو كلمات مثل «إغلاق» و«حجْر صحيّ»، وأضافت أن الأغلبية متفقة الآن على استخدام مصطلح «الجَائِحة».

كلمات لعام غير مسبوق

في نوفمبر/تشرين الثاني الماضي، أصدر قاموس أكسفورد للغة الإنجليزيّة (OED) تقريراً تحت اسم «كلمات لعام غير مسبوق». بعكس الأعوام السابقة، التي كان يتمُّ فيها اختيار كلمة واحدة لتكون كلمة العام (على سبيل المثال كلمة



«طـوارئ مناخيـة» لعـام 2019) شـعر المُحـرِّرون باسـتحالة تلخيص عـام 2020 في كلمـة واحـدة. تضمَّن التقرير عشرات الكلمات مثل «عنصرية ممنهجة/systemic racism» و«انتقاد متعلِّـق بالقنـاع/mask-shaming» وبالطبـع كلمـة «فيـروس كورونـا/Corona virus». وجـاء فـي تحليل التقريـر أنه في فترة مـا قبـل يناير/كانـون الثاني 2020 ظهرت كلمـة «فيروس كورونا» بمعـدل 0.03 مـرّة كلّ مليـون رمـز (وهـو مصطلـح لُغـويّ يشـير إلـى أصغـر وحدات اللُّغة). فيما شـهد شـهر أبريل/نيسـان 2020 قفـزةً هائلـة في اسـتخدام الكلمة المذكورة -متضمِّنة مشـتقاتها مثـل كلمـة كوفيـد- ليصل إلى 1.750 مـرّة كلّ مليون رمـز لُغويّ، ليصبـح بذلـك أكثـر الأسـماء اسـتخداماً فـي اللُّغـة الإنجليزيّـة. تجـدر الإشـارة أيضـاً إلـى أن التقريـر تضمَّـن أكثـر عشـرين كلمـة اسـتخداماً فـي يناير/كانـون الثاني 2020، مثـل «حرائـق غابـات - bushfires» و«عـزل الرئيـس - Impeachment» و«ضربـة جويـة - airstrike»، أمّـا فـي مـارس/آذار 2020 فكانـت جميـع الكلمـات الأكثـر اسـتخداماً ذات صلة بكوفيـد. ومازال المُحرِّرون فـي (OED) عاكفيـن علـى تتبُّـع التغيُّـرات اللُّغويّـة ذات الصلـة بالجَائِحـة، حتـى أنهـم قامـوا بإصـدار تحديثيـن إضافيين بخلاف تقريرهـم ربـع السـنويّ المُعتـاد. تجـدر الإشـارة أيضاً إلـى وجود مزاعـم بـأن الكلمـة الوحيـدة التـي تـمَّ إفرازهـا نتيجـة الجَائِحـة هـي الكلمـة المُركَّبـة «كوفيـد - 19».

غير الناطقين باللغة السائدة هم الأكثر عرضة لاتخاذ قرارات أقلّ وعياً

تعـزي «الفريـدا كايثلـر - Elfrieda Lepp-Kaethler»، أسـتاذة علـم النفـس اللُّغـويّ، هـذا التغييـر غيـر المسـبوق فـي اللُّغـة إلـى السـرعة التـي انتشـر بهـا الفيـروس، والتـي دفعتنـا دفعـاً إلـى الفضـاء الافتراضـيّ. فـي فتـرة الإغـلاق، بـدأت «كايثلـر» في إجـراء أبحـاث عـن «الميمـات»، فهـي مـن وجهـة نظرهـا أرضٌ خصبـة لتغيُّـر اللُّغـة. تقـول «كايثلـر»: «تزدهـر (الميمـات) بنـاء علـى وجـود أرضيـة مـن الفهـم المُشـترك» وتضيـف أن «كوفيـد» يمنحنـا خلفيـة مشـتركة تمكِّن الجميـع من أن يكونوا مشـمولين داخـل الوضـع ذاتـه، كمـا تشـير إلـى أن الجَائِحـة أظهـرت كيـف يسـتخدم النـاس الدعابـة للتأقلـم مـع الأوضـاع الصعبـة.

فـي 2019، أنهـت «كايثلـر» دراسـتها فـي العلاج بالفَـنّ التعبيريّ، وهـو نـوعٌ مـن العـلاج يسـتخدم مختلـف أشـكال الفَـنّ -كالرسـم أو الكتابـة- للمُسـاعدة فـي التشـافي والنمـو. في رأيهـا، الميمات شـكل مـن أشـكال الفَـنّ التعبيـريّ، لذلـك فهـي تحـاول إدمـاج أبحاثها في الفصول التي تقوم بتدريسـها. في مارس/آذار 2020، اضطـرت «كايثلـر» -شـأنها فـي ذلـك شـأن العديـد من الأسـاتذة- إلـى اسـتخدام نمـوذج التعليـم عبـر تطبيـق «زووم - zoom». بشـكلٍ عـام، تسـبَّب ذلـك النمـوذج التعليمـيّ في عـدد هائل من معوقات الاتصال، والتي أثَّرت سلباً على المُجتمعات المُهمَّشـة، خاصّـة إذا مـا اقتـرن ذلـك بسـيل مـن المعلومـات حـول الجَائِحة والتـي قـد يكـون معظمهـا غيـر دقيـق. وقـد أوضحـت دراسـة أميركيّـة نشـرتها دوريـة «تدريس اللُّغـة الإنجليزيّة لغيـر ناطقيها /TOESL» فـي أغسـطس/آب الماضـي، أن التعليـم الافتراضـيّ أثَّـر سـلباً علـى الطـلاب الناطقيـن بأكثـر مـن لغـة. وفـي الوقـت الـذي تدفَّقـت فيـه المعلومـات باللُّغـة الإنجليزيّـة، كانـت هنـاك إمكانيـات أقـلّ لدارسـي اللُّغـة الإنجليزيّـة فـي أنظمـة التعليـم الأميركيّـة، وذلـك بسـبب افتقارهـا للبنيـة التحتيـة التكنولوجيّـة التـي تمكِّنهـا مـن إدارة التحـوُّل إلـى التعليـم عبـر الإنترنـت.

فـي الوقـت نفسـه، أقـرَّت منظَّمـة «مترجمين بلا حـدود» (TWB) -والتـي تعمـل علـى ترجمـة كل مـا يختـص بالصحَّـة العامّة- في موجـز سياسـتها العامّة، بـأن المُجتمعات التـي لا تتحدَّث اللُّغة السـائدة قـد لا تتمكـن مـن اتخـاذ قـرارات واعيـة حـول ماهيـة التصـرُّف الأمثـل خـلال الجَائِحة. وأوضحت «إيلـي كيمب - Ellie



Kemp»، رئيس إدارة الاستجابة للأزمات في منظَّمة «مترجمين بلا حدود»، في حديث لمنصّة «ديفيكس - Devex» الإعلاميّة المعنية بمتابعة مؤشّرات التطوُّر العالميّة، أن الكلمات الاصطلاحيّة مثل كلمة «تباعُد اجتماعيّ» يمكنها أن تكون غير مفيدة على الإطلاق، لأن المُصطلح نفسه غير مألوف. وتقترح «كيمب» استخدام عبارات مثل «الحفاظ على مسافة من الآخرين» كبديل للمُساعدة على نقل التعليمات بشكلٍ أوضح. بالإضافة إلى ذلك، قامت منظَّمة «محامي كندا» بحَثِّ سلطات الصحَّة العامّة على إتاحة كافة المعلومات المُتعلِّقة بلقاح «كوفيد - 19» لغير الناطقين باللُّغة الإنجليزيّة، وذلك نظراً لتزايد انتشار المعلومات المغلوطة حول أمان اللقاح. في الولايات المُتحدة الأميركيّة نجد أن البرنامج الخاصّ بمُراقبة اللقاح -التابع لمراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها- والمُصمَّم خصيصاً لتتبُّع الأعراض الجانبية للقاح «كوفيد - 19»، متاح فقط باللُّغة الإنجليزيّة.

للغة أهمّيتها الحتمية

تقول «سنيلر» «نحن نجد أن اللُّغة مرتبطة بشكلٍ عميق بالهويّة الشخصيّة للأفراد، كما أنها غالباً ما تُظهر التاريخ الفرديّ والجمعيّ»، وتضيف مؤكِّدة «للغة أهمّيتها!». نجد مثالاً واضحاً عندما قام الرئيس الأميركيّ السابق دونالد ترامب بتكرار كلمة «الفيروس الصينيّ». إن اللُّغة التي اختارها للإشارة إلى كوفيد أدت الى ظهور مشاعر معادية للآسيويّين عبر البلاد، وبالتبعية تزايدت حالات الاعتداء اللفظيّ والجسديّ بسبب مخاوف تتعلَّق بفيروس كورونا. واستجابة منها لذلك السيناريو، قامت منظَّمة الصحَّة العالميّة بالتغريد «إن الكلمات قادرة على تخليد أفكار وفرضيات نمطية سلبية، ممّا يعزِّز من إيجاد روابط غير حقيقيّة بين «كوفيد» وبعض العوامل الأخرى، كما تخلق حالة من الخوف واسعة الانتشار وتؤدِّي إلى تجريد المُصابين بالمرض من صفة الإنسانيّة». كان استخدام ترامب للمُصطلح متعمَّداً، وهو ما أكَّده مصوِّر صحافي تابع لجريدة «واشنطن بوست» حين التقط صورة لمُلاحظات خاصّة بترامب خلال إحدى خطبه في مارس/ آذار 2020، وكان قد شطب كلمة «كورونا» بخطٍ أسود عريض ليكتب مكانها كلمة «صينيّ».

استخدام الاستعارات/ التشبيهات ذات الصلة بفكرة «الحرب» خلال الجَائِحة ظاهرة لفتت أنظار خبراء اللُّغويّات، إذ حث أغلبهم على استخدام استعارات غير ذات صلة بفكرة الحرب لتشجيع الأفراد على اتباع احتياطات الأمان. فتشبيهات مثل «الحرب ضد فيروس كورونا» قد تؤدِّي إلى إحداث حالة من القلق لا داعي لها، الأمر الذي دعا اللُّغويّين حول العَالَم إلى التشاور بشأن إيجاد عبارات بديلة، وذلك من خلال تفعيل هاشتاج «#Reframe covid» (أعيدوا صياغة كوفيد). أعطت «كايثلر» مثالاً في استخدام لفظ «أبطال» للإشارة إلى العاملين بالصفوف الأمامية خلال الجَائِحة، مؤكِّدةً أن استخدام ذلك اللفظ يُبعد التركيز عن التحدّيات الإنسانيّة التي يواجهها هؤلاء العاملون. وأخيراً، تشير «سنيلر» إلى أن حجم الدراسة النهائي مازال مجهولاً، وذلك لأنه مازال يتعيَّن عليهم الاستمرار في توثيق المزيد من المُشاركات حتى بعد إتاحة اللقاح وانتهاء فترة التباعُد الاجتماعيّ، وهو أمرٌ غير معلوم ميعاده حتى الآن.

■ **بيا آرانيتا** □ **ترجمة: دينا البرديني**

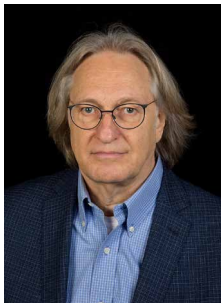
المصدر:
https://lithub.com/tracking-the-changing-ways-we-talk-in-the-covid-19-era/

في التعايش مع الوباء:

علينا التخلُّص من مقاومة المُستحدَثات

ثمَّة صوتٌ دفين يرفض قبول الحقيقة.. شيء أقوى من المنطق والعقل يتحكَّم في ردود أفعالنا ويأبى قبول الواقع الجديد.. ظننا أنّ الجَائِحة ستُغيِّر كلّ شيء، ولكن هذا لم يحدث، وسرعان ما عاودنا الركض خلف ذلك الإدراك المُكتسَب الذي يدفعنا دفعاً نحو محاكاة أغلب سلوكياتنا الحياتيّة السابقة فيما قبل كورونا وكأنّ شيئاً لم يكن.. يبدو حقّاً أنه يتعذَّر علينا تصديق ما نحن فيه!!

يفنِّد المُحلِّل النفسيّ والاجتماعيّ الألماني «هانز يورجن فيرث Hans-Jürgen Wirth» الأسباب النفسيّة والاجتماعيّة التي تدفع كثيرين إلى إنكار الواقع الجديد في حياتنا في ظلّ التعايش مع أزمة كورونا. كما يوصي أيضاً بضرورة وأهمِّية تبنِّي منهجيّات مجتمعيّة تساعد المواطنين على التخلّص ممّا أسماه ظاهرة «مقاومة المستحدَثات» في ظلّ ما استجدَّ على واقعنا المعيش وضرب روتين الحياة اليوميّة في مقتل. لكن البعض لا يكترث لدرجة أصابت المتصالحين مع هذه الحقيقة بالصدمة، لتبدو كارثية الوباء كـ«فيلمٍ سينمائيّ» سرعان ما يُداهِم الجميع بأجزائه الأكثر رُعباً.



هانز يورجن فيرث ▲

نتذكَّر أجواء العطلات الصيفيّة، حيث كانت تكتظ الشواطئ المُطِلة على بحر البلطيق بـ«المُصطافين» في مشهد يثير الرعب لا المُتعة.. الجميع كانوا يحاولون اقتناص لمحة ممّا مضى، طمعاً في أنه سيعود.. والواقع أن ذلك السلوك كان هو الخطر الذي ينضج في الخفاء!!

جائِحة كورونا..!! هل كانت أكذوبة، أم هُراء، أم مُؤامَرة؟ تساؤلات شكَّلتها ممارسات العامّة الذين ظلّوا يتخبَّطون بين تخفيف إجراءات الحَجْر الصحّي واستئناف الحياة الطبيعيّة الصيف الماضي وبين تحذيرات من ظهور سلالات شرسة من الوباء خلال الأعوام القادمة.. ولكن مع الأسف، كلّ شيء في النهاية تتمُّ ممارسته بالطريقة المُعتادة نفسها.. فقط يتوجَّب علينا، ارتداء أقنعة الوقاية.. رغم أن الوباء سيُكشِّر عن أنيابه بالتأكيد بطرق لن يمكننا التنبؤ بها، ولكن الغالبية استسلمت لغواية التمنِّي بأن الكابوس سوف ينتهي.. وهو ما لم يحدث.. والتساؤل الأهمّ؛ ماذا عن الأصوات التي دعت للتغيير والحثّ على إعادة التفكير في نمط الحياة، وتقييم إيجابيّات الأزمة، التي قد تساعدنا كي نصبح عالَماً أكثر رقميّة وأكثر استدامة وأكثر دفاعية؟ أمّا السؤال الذي بدا تعجيزيّاً بصورةٍ لافتة؛ رغم الخطر الذي لا يزال يتربَّص بنا، لِمَ يتعذَّر علينا تغيير نمط حياتنا بصفةٍ دائمة ودون قلاقل؟ لماذا ننظر دائماً إلى الوراء ونَعجز عن ترك عاداتنا القديمة وننكر الواقع الجديد، بل ونمنحه تفسيرات تخلو من المنطق والحُجج المُقنعة، كي نبرِّر أفعالنا؟

نحن رهائن لمشاعر الاعتياد

التخلي عن الأيديولوجيّات المُعتادة دائماً ما ينطوي على الكثير من الشكوك والمخاوف. الخوف من كلّ ما هو جديد، نظراً لما ينطوي عليه من مجهول يتعذَّر التعاطي معه وفق

اعتبارات المُخاطرة العقلانيّة وحدها، خاصّةً وأنّ المخاوف الواقعيّة غالباً ما تكون متراكِبة وتقترن بمخاوف أخرى غير منطقيّة يمتزج بها قدرٌ كبير من الإيهام. دعونا نتفق أن أحد أنماط ردود الفعل تتمثّل في «إنكار الحاجة إلى التغيير»، وذلك انطلاقاً من البحث عن الأمان الذي يُعتقَد بأنه مقترن بالتقليديّة، وذلك طبقاً لما توصل إليه الباحثان الاجتماعيّان «أوليفر ديكر» و«إلمار براهلر» في دراساتهما التي تميل إلى تغليب الهيمنة السلوكيّة والاستبداديّة الشعوريّة، إذ يرجّحان فرضية «مأمونيّة الحفاظ على كلّ ما هو معتاد وقيد التجريب المُوسَع»، وذلك اعتقاداً بأنه من الأفضل دائماً القيام بالأشياء بالطريقة المُعتادة».

والواقع أنّ التقليديّة المُفرطة إنما هي تعبير دفين عن الرغبة في انتزاع مشاعر الطمأنينة والثقة بالنفس عنوةً من خلال التماهي مع العادات والأعراف وكلّ ما يُنظَر إليه على أنه طبيعيّ ومألوف، وذلك لإخماد مشاعر الخوف من كلّ ما هو جديد أو مجهول وإبقائها بمعزل عن المنطقة الآمنة في حياتنا. أي شخص يمثّل له العَالَم بؤرة تهديد، إنما هو أسير لـ«وشائج» آمنة تربطه بما حوله، حيث يتحوَّل بفعلها إلى طفلٍ يستشعر عدم الأمان حال غيابها، ومن ثَمَّ، لا يتمكّن لاحقاً من إقامة علاقات موثوقة مع فئات أو مؤسّسات اجتماعيّة. مثل هذه الدائرة المُغلقة ستجعل كلّ ما هو مألوف وتقليديّ مثاليّاً للغاية، لأنّ التعريف غير المشروط بالتقاليد والأعراف يقدّم وعوداً مُجرَّبة بالأمان. وبالتالي، يقاوم الأشخاص أصحاب الفكر النمطيّ التقليديّ الابتكارات الاجتماعيّة بدافع الاقتناع والوثوق فيما هو كائن بالفعل.

العَالم يمرّ بمرحلة مخاض

ولكن، ماذا عن الأشخاص الذين أدركوا وجود ضرورة ملحة لإحداث تغييرات جذريّة في نمط الحياة نتيجة مستجدّات كونيّة، ورغم ذلك يعارضون باستمرار مبدأ التغيير ذاته؟ في الواقع أن أوجه التشابه هنا مذهلة بين هؤلاء الأشخاص وبين الذين يخضعون للعلاج النفسيّ إثر تعرُّضهم لأزماتٍ شخصيّة. بالمعنى الحرفيّ للكلمة، لا يزال العَالَم بأسره عالقاً داخل نفق كورونا ولم يمرّ بسلام من عنق الزجاجة، بينما التوصيف الدقيق لما نعيشه كوننا في مرحلة مخاض وإعادة توجيه لدفة سلوكياتنا المُستقبليّة. فمنذ أن بدأت أزمة كورونا، تفاقمت معها حدة الأزمات الشخصيّة التي تستلزم تلقي رعاية طبيّة وتطبيق برامج تأهيل نفسيّ. لقد أصبح الوضع يتعلّق بحالة معايشة واقعيّة لمُعاناة المرض النفسيّ وتأثيراته جسديّاً وعقليّاً على الأفراد، ومن ثَمَّ العجز عن تقبُّل الواقع، والانفصال عنه في صورة ردود فعل أوليّة.

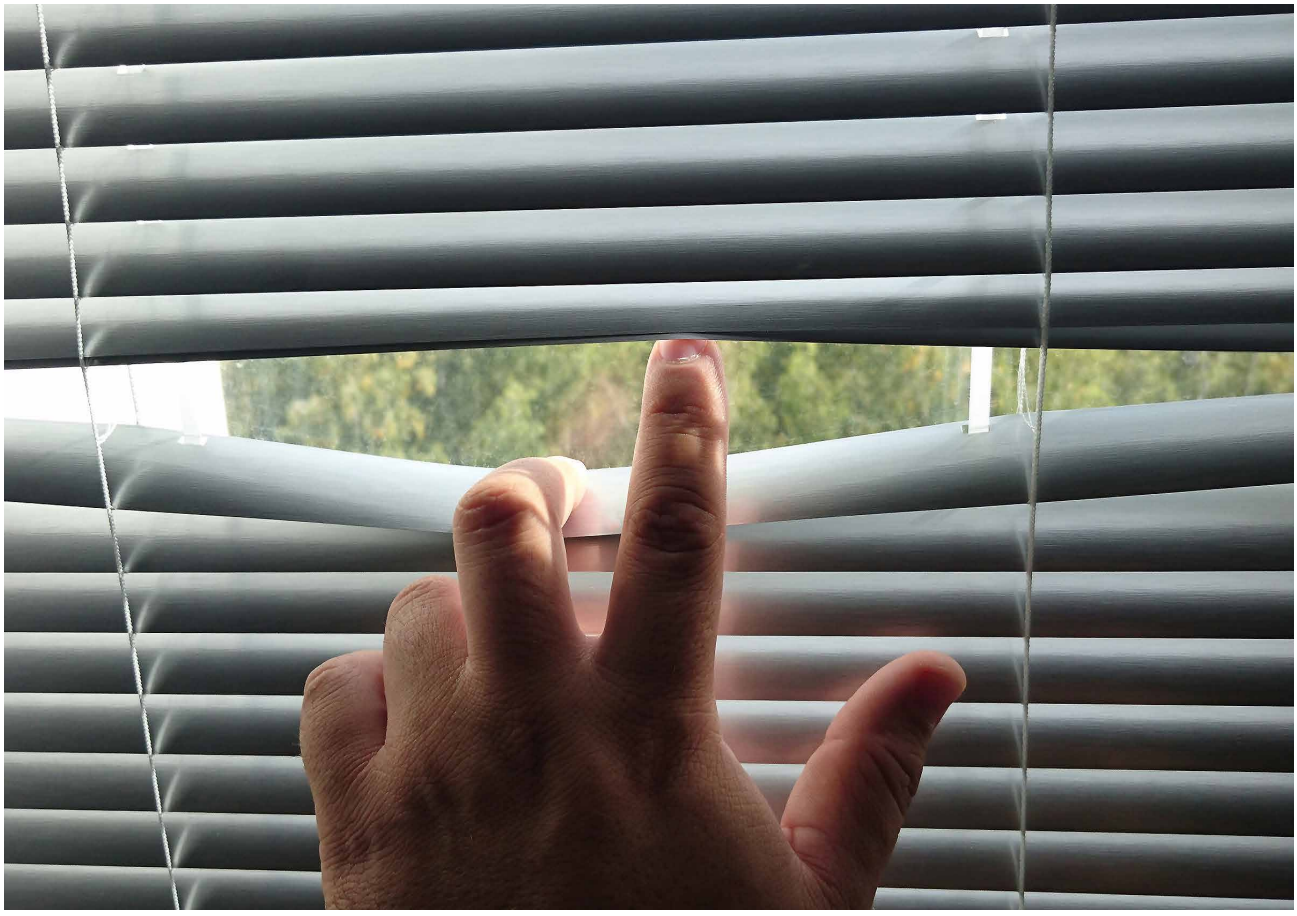
في كلتا الحالتين تهيمن مشاعر الخوف والعجز بصورةٍ مبدئيّة على هؤلاء، مع محاولات دائمة لإنكار ردود أفعالهم الدفاعية التي تتجسَّد، على سبيل المثال، في «الاستهزاء بهذه المخاوف».. وعند الوصول إلى تلك المنطقة التي يعجزون فيها عن مساعدة أنفسهم، تبدأ المشكلة في التطوُّر، حيث يتمادون في إنكار الخطر وكلّ المشاعر السلبيّة المُرتبطة بالواقع غير المقبول.. لابدّ هنا من وقفة للتقييم وقوفاً على مدى تطوُّر هذه الأنماط السلوكيّة المُضطربة وتحديد أسباب ظهورها والآثار المُترتبة على ذلك، حتى يمكن رسم خريطة جديدة تساعدهم على مواجهة الحياة بمنظورٍ جديد.

المشكلات لا تُحَلُّ من تلقاء نفسها

مرحلة الخضوع للمُعالَجة الطبيّة أو الذاتيّة بهدف تغيير سلوكيات الأفراد، والمعروفة بـ«البرمجة العصبيّة» أو «العلاج السلوكيّ»، لا تمرّ بسلام لمجرَّد الخضوع لجلسة العلاج الأولى، وإنما تظلّ المرحلة بأكملها مهدَّدة طيلة الوقت بعدم المُواصَلة بسبب محاولات إنكار المُشكلة واعتبارها ليست ذات صلة مؤثِّرة. ومن بين صيغ وأشكال التوهم المرضيّ، الاعتقاد بأن المُشكلات ربّما تآكلت أو حلّت نفسها بنفسها بصورةٍ تلقائيّة.

وعلى عكس ما هو معتاد في برامج العلاج النفسيّ، لا يتوافر مُقدّمو رعاية نفسيّة كافين في ظلّ الأزمة الطاحنة، والذين من شأنهم تعضيد استكمال مراحل التغيير المطلوبة. مثل هذا الدور بالغ الأهمّية والفعالية الذي يؤدّيه المُعالج النفسيّ لا ينحصر في معرفة المزيد عن المرضى أو تحديد الأفضل لكيفية إدارة حياتهم، فحسب، وإنما يمتدُّ إلى تعزيز آلية تغيير التفكير الذاتيّ وإدارتها بفاعلية، عن بُعد.

إنّ عمليّة التغيير الاجتماعيّ الحالية التي نمرّ بها، لا تحظى بوجود مُراقِب أو مُحكِّم، يمكنه اتخاذ مثل هذا الوقوف البانورامي الخارجيّ، ليكون بمعزل عن المُشكلة، ويعكف على التقييم والدراسة. لا علماء الفيروسات ولا السياسيّون قادرون على القيام بذلك الدور، لأنهم أطرافٌ كالجميع في الأزمة. ومن ثَمَّ، علينا جميعاً أن نؤدّي ذلك الدور بواسطة التأمُّل والاستغراق الذاتيّين. في هذا الصدد، من الضروري أيضاً إجراء نقاش موسَّع يشمل أكبر عدد ممكن من الأفراد والمُؤسَّسات الاجتماعيّة، لتحديد كيفية إدارة تغيير المُجتمع ككلّ، وليس فقط على صعيدٍ شخصيّ منفرد، فضلاً عن تحديد المسارات الجمعيّة المُتفق عليها كي يتّبعها الجميع.. لدينا بالفعل فرصة استثنائيّة للتغيير.. غروب بعض التفاصيل بلا رجعة، وسقوطها من جعبة حياتنا لعدم قدرتنا على ممارستها بالشكل الذي كانت عليه من ذي قبل، إنما يتيح لنا فرصة حقيقيّة لتطبيق التغييرات الحياتيّة المرجوة على أرض الواقع. ومع الوقت ستتحوَّل بدورها إلى عادات وتقاليد، وذلك بموجب



التبعيّة النفسيّة ذاتها التي تحدّثت عنها... أمّا الإصرار على معاندة الواقع، فهو هروبٌ بلا غطاء.

كيف نكتسب الجرأة للدفاع عمّا هو صحيح؟

وفق أبحاث المُعالجة النفسيّة والتنميّة البشريّة، لا يمكننا إدخال تغييرات على أنماط الحياة بأنفسنا، فهذا لا يحدث سوى وفق عمليّة تبادليّة وثيقة تتمُّ بمُشاركة الآخرين. يجب التحدُّث أولاً بكثافة حول ما ينبغي تغييره في حياتنا وتحديد الأهداف والمخاوف والشكوك والمُقاومة الداخليّة التي تتصارع داخلنا جراء هذه الرغبة في التغيير؟

من أجل الوصول إلى تغيير دائم في الوعي والسلوك الإنسانيّ المُتعلّق بالمُمارسات الحياتيّة، من الضروري أيضاً بدء عمليّة شعوريّة على صعيد الانفعالات والأحاسيس، ليتم من خلالها تجاوز وإزاحة الأفكار المعرفيّة، التي تطال جميع المُحيطين بنا بصورةٍ كاملة. وهذا يعني، على المُستوى المُجتمعيّ، أن المشاكل الجماعيّة، مثل تغيُّر المناخ أو العنصريّة وغيرهما من المشكلات العامّة، يجب أن يواجهها الفرد أيضاً باعتبارها مشكلة خاصّة، وكأنها تواجهه بمفرده وتطعنه دون غيره. فقد أظهرت حركة «الجمعة من أجل المُستقبل»، وكذلك الاحتجاجات العالميّة الحالية ضد العنصريّة، أن حركة الاحتجاج الجماعيّ يمكنها أن تطوِّر ديناميكيّة هائلة على المُستوى الشعوريّ للنشطاء المَعنيين، وكذلك على المستوى السياسيّ.

هناك أيضاً عامل آخر مهمّ يتمثَّل في قوة الرغبة في التغيير، وهي مسألة تتعلَّق بمستوى الكفاءة الذاتيّة لدى الأفراد واختبارها. فعندما يمكننا بشكلٍ مباشر اختبار أن جهودنا نحو التغيير ذات مردود وتأثير، فهذا من شأنه تعزيز الثقة بالنفس، وتوليد الجرأة والمُثابرة للوقوف في وجه ما كان سائداً ومُعترَفاً به.. لابدّ من تهشيم قضبان الاعتياد، التي تحول دون قدرتنا على التخلّي عن عاداتنا السابقة حتى في ظلّ ما يترتَّب عليها من انتكاسات وخسائر. تلك الثقة الوليدة ستُعزِّز تدريجيّاً كفاءة عمليّة التغيير الخاصّة بكلّ فردٍ على حدة، ومن ثَمَّ الجموع.

ومن منظورٍ عالميّ بحت، يمكن القول بأن تأثيرات الجَائِحة متفاوتة في جميع البلدان، فالعَالَم لا يقف على قدم المُساواة مع كورونا، حيث تتفاوت معدَّلات الانتشار والتأثُّر بالفيروس بشدّة. ومن ثَمَّ، يُوفر ذلك فرصةً فريدة للعَالَم بأسره للتحدُّث عن ثقافة التغيير في سياق موحَّد ومشترك، لاحتواء الأزمة ومناقشة طرق التعامل معها بشكلٍ فرديّ وجماعيّ. ربّما كان ذلك التوقيت هو الأنسب على الإطلاق لاتخاذ خطوات حثيثة نحو عالَم أكثر نضجاً وتآزراً.

□ **ترجمة: شيرين ماهر**

المصدر:

Spiegel Online
https://bit.ly/38DQ9dL



أرشيف الدوحة
https://www.dohamagazine.qa



▲ نصب الإبهام البرونزي في سوق واقف في للفنان الفرنسي سيزار بالداتشيني

shutterstock